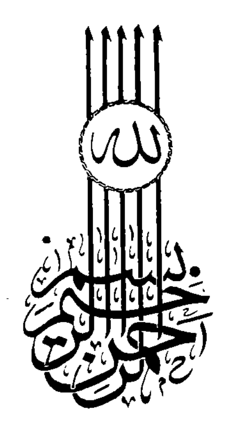
موسوعة الأعمال الكاملة
للإمام ابن قيم الجوزية


جامع الآداب

جمعه ووثّق نصوصه وخرّج أحاديثه

يسري السيد محمد

الجزء الرابع

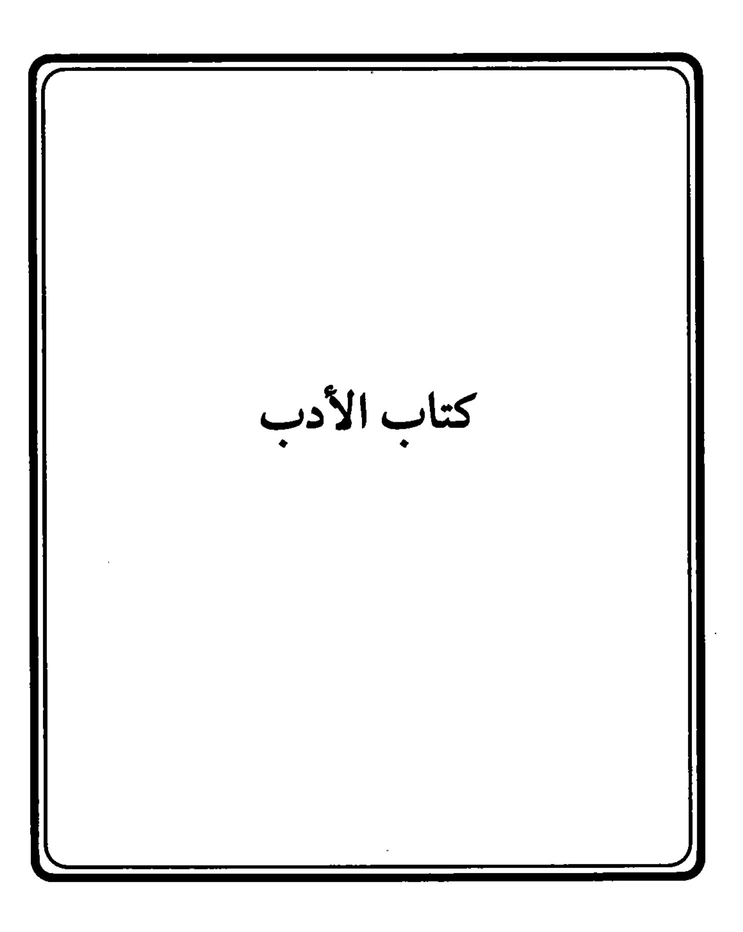

بسم الله الرحمن الرحيم


جامع الآداب

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة
الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب:٢٣٠
ت:٢٢٥٦٢٢٠/ ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤/ ٠٥٠
المكتبة : أمام كلية الطب ت٢٢٤٩٥١٣/ ٠٥٠
E-Mail : DAR ELWAFA @ HOTMAIL. COM



كتاب الأدب

فصل
فى الرحمة

المشهد العاشر [١]: **مشهد الرحمة** : فإن العبد إذا وقع فى الذنب خرج من قلبه تلك الغلظة والقسوة والكيفية الغضبية التى كانت عنده لمن صدر منه ذنب ، حتى لو قدر عليه لأهلكه ، وربما دعا الله عليه أن يهلكه ويأخذه ، غضباً منه لله ، وحرصًا على ألا يعصى، فلا يجد فى قلبه رحمة للمذنبين الخاطئين ، ولا يراهم إلا بعين الاحتقار والازدراء ، ولا يذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم ، والعيب لهم والذم . فإذا جرت عليه المقادير وخُلى ونفسه استغاث الله والتجأ إليه ، وتململ بين يديه تململ السليم ، ودعاه دعاء المضطر ، فتبدلت تلك الغلظة على المذنبين رقة ، وتلك القساوة على الخاطئين رحمة وليناً ، مع قيامه بحدود الله ، وتَبَدَّلَ دعاؤه عليهم دعاء لهم ، وجعل لهم وظيفة من عمره ، يسأل الله أن يغفر لهم .

فما أنفعه له من مشهد ! وما أعظم جدواه عليه . والله أعلم .

فصل
فى افتقار الخلق لله عز وجل

المشهد الحادى عشر [٢] : **مشهد العجز والضعف** : وأنه [٣] أعجز شىء عن حفظ نفسه وأضْعَفُه ، وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه ، فيشهد قلبَه كريشة مُلْقاة بأرضِ فلاةٍ تُقَلّبها الرياح يميناً وشمالاً ، ويشهد نفسه كراكب سفينة فى البحر تَهيج بها الرياح وتتلاعب بها الأمواج ، ترفعها تارة ، وتخفضها تارة أخرى . تجرى عليه أحكام القدر ، وهو كالآلة طريحاً بين يدى وَليه ، مُلقى ببابه ، واضعا خَدَّه على ثَرَى أعتابه ، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ليس له من نفسه إلا الجهلُ والظلم وآثارهما ومقتضياتهما ، فالهلاك أدنى إليه من شِراك نعله كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع ، لا يردها عنها إلا الراعى ، فلو تخلَّى عنها طَرْفة عين لتقاسموها أعضاءً .

وهكذا حال العبد ملقى بين الله وبين أعدائه ، من شياطين الإنس والجن ، فإن حماه منهم وكَفَّهم عنه لم يجدوا إليه سبيلا ، وإن تخلى عنه ووكَلَه إلى نفسه طرفة عين لم

(١ ، ٢) من مشاهد الخلق فى المعصية .

(٣) أى : المخلوق .

ينقسم عليهم ، بل هو نصيب من ظَفَر به منهم .

وفى هذا المشهد يعرف نفسه حقاً ، ويعرف ربه ، وهذا أحد التأويلات للكلام المشهور: « من عرف نفسه عرف ربه » ، وليس هذا حديثاً عن رسول الله ﷺ ، إنما هو أثر إسرائيلى بغير هذا اللفظ أيضاً : « يا إنسان ، اعرف نفسك تعرف ربك » وفيه ثلاث تأويلات :

أحدها : أن من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة ، ومن عرفها بالعجز عرف ربه بالقدرة ، ومن عرفها بالذل عرف ربه بالعز ، ومن عرفها بالجهل عرف ربه بالعلم . فإن الله ـ سبحانه ـ استأثر بالكمال المطلق ، والحمد والثناء ، والمجد والغنى ، والعبد فقير ناقص محتاج ، وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه : ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله .

التأويل الثانى : أن من نظر إلى نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة ، عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولى به ، فمعطى الكمال أحق بالكمال ، فكيف يكون العبد حياً متكلماً سميعاً بصيرًا مريداً عالما ، يفعل باختياره، ومَنْ خَلَقَه وأوجده لا يكون أولى بذلك منه ، فهذا من أعظم المحال ، بل مَنْ جعل العبد متكلما أولى أن يكون هو متكلما ، ومن جعله حياً عليما سميعاً بصيراً فاعلاً قادراً ، أولى أن يكون كذلك .

فالتأويل الأول من باب الضد ، وهذا من باب الأولوية .

والتأويل الثالث : أن هذا من باب النفى ، أى كما أنك لا تعرف نفسك التى هى أقرب الأشياء إليك ، فلا تعرف حقيقتها ، ولا ماهيتها ولا كيفيتها ، فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته ؟ .

والمقصود : أن هذا المشهد يُعَرِّفُ العبد أنه عاجز ضعيف ، فتزول عنه رعونات الدعاوى ، والإضافات إلى نفسه ، ويعلم أنه ليس له من الأمر شىء ، إن هو إلا محض القهر والعجز والضعف .

المشهد الثانى عشر [(١)] : مشهد الذل ، والانكسار ، والخضوع ، والافتقار للرب جل جلاله : فيشهد فى كل ذَرَّةٍ من ذَرَّاته الباطنة والظاهرة : ضرورة تامة ، وافتقاراً تامًا إلى ربه ووليه ، ومن بيده صلاحه وفلاحه ، وهداه وسعادته . وهذه الحال التى تحصل لقلبه لا

(١) من مشاهد الخلق فى المعصية .

تنال العبارة حقيقتها، إنما تدرك بالحصول . فيحصل لقلبه كَسْرةَ خاصة لا يشبهها شيء ، بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل الذى لا شيء فيه ، ولا به ولا منه ، ولا فيه منفعة ، ولا يرغَب فى مثله . وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقيّمه، فحينئذ يستكثر فى هذا المشهد ما من ربه إليه من الخير ، ويرى أنه لا يستحق قليلاً منه ولا كثيراً . فأىّ خير ناله من الله استكثره على نفسه ، وعلم أن قَدْره دونه ، وأن رحمة ربه هى التى اقتضت ذكره به ، وسياقته إليه . واستقلَّ ما من نفسه من الطاعات لربه ، ورآها ـ ولو ساروت طاعات الثقلين ـ من أقل ما ينبغى لربه عليه،واستكثر قليل معاصيه وذنوبه ؛ فإن الكَسْرة التى حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله .

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور ؛ وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه ! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه ! وذرة من هذا ونَفَس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدِلّين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم . وأحب القلوب إلى الله ـ سبحانه ـ قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة ، وملكته هذه الذلة . فهو ناكس الرأس بين يدى ربه ، لا يرفع رأسه إليه حياء وخجلا من الله .

قيل لبعض العارفين : أيسجد القلب ؟ قال : نعم ، يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء ، فهذا سجود القلب .

فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه ، وإذا سجد القلب لله ـ هذه السجدة العظمى ـ سجدت معه جميع الجوارح ، وعنا الوجه حينئذ للحى القيوم ، وخشع الصوت والجوارح كلها ، وذل العبد وخضع واستكان، ووضع خده على عتبة العبودية ، ناظراً بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم . فلا يُرَى إلا متملقا لربه ، خاضعا له ، ذليلا مستعطفاً له ، يسأله عطفه ورحمته ، فهو يترضى ربه كما يترضى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له ، الذى لا غنى له عنه ، ولا بد له منه ،فليس له هَمٌّ غير استرضائه واستعطافه ؛ لأنه لا حياة له ولا فلاح إلا فى قربه ورضاه عنه ، ومحبته له، يقول : كيف أُغضِب مَنْ حياتى فى رضاه ؟ وكيف أعدل عمن سعادتى وفلاحى وفوزى فى قربه وحبه وذكره ؟

وصاحب هذا المشهد : يشهد نفسه كرجل كان فى كَنَف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس ، ويربيه أحسن التربية ، ويرقيه على درجات الكمال أتم ترقية ، وهو القَيِّم بمصالحه كلها ، فبعثه أبوه فى حاجة له ، فخرج عليه فى طريقه عدو ، فأسره وكَتَّفه وشَدَّه وَثاقا ، ثم ذهب به إلى بلاد الأعداء فسامه سوء العذاب ، وعامله بضد ما كان أبوه

يعامله به . فهو يتذكر تربية والده وإحسانه إليه الفَيْنَة بعد الفينة ،فتهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأى حاله ، ويتذكر ما كان عليه وكل ما كان فيه . فبينا هو فى أسر عدوه يَسومه سوء العذاب ، ويريد نَحْره فى آخر الأمر ، إذ حانت منه التفاتة إلى نحو ديار أبيه، فرأى أباه منه قريب ، فسعى إليه ، وألقى نفسه عليه ، وانطرح بين يديه ، يستغيث : يا أبتاه ، يا أبتاه ، يا أبتاه ! انظر إلى ولدك وما هو فيه . ودموعه تستبق على خديه ، قد اعتنقه والتزمه ، وعدوه فى طلبه ، حتى وقف على رأسه ، وهو ملتزم لوالده ممسك به ، فهل تقول : إن والده يسلمه مع هذه الحال إلى عدوه ، ويخلى بينه وبينه ؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده ، ومن الوالدة بولدها ؟ إذا فَرَّ عبد إليه ، وهرب من عدوه إليه ، وألقى بنفسه طريحاً ببابه ، يُمَرِّغ خَدَّه فى ثَرى أعتابه باكيا بين يديه ، يقول : يارب، يارب ، ارحم من لا راحم له سواك ، ولا ناصر له سواك ، ولا مؤوى له سواك ، ولا مغيث له سواك . مسكينك وفقيرك ، وسائلك ومؤملك ومرجيك ، لا ملجأ له ولا منجا له منك إلا إليك ، أنت معاذه وبك ملاذه .

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يَجبُر الناس عظما أنت كاسره ولا يهيضون عظما أنت جابره (١)

فصل
فى منزلة الإنابة

إن من نزل فى منزل « التوبة » وقام فى مقامها نزل فى جميع منازل الإسلام ، فإن «التوبة » الكاملة متضمنة لها ، وهى مندرجة فيها ، ولكن لابد من إفرادها بالذكر والتفصيل، تبيناص لحقائقها وخواصها وشروطها .

فإذا استقرت قدمه فى منزل « التوبة » نزل بعده منزل « الإنابة » ، وقد أمر الله تعالى بها فى كتابه ، وأثنى على خليله بها ، فقال : ﴿ **وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ** ﴾ [الزمر : ٥٤] ، وقال ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ** ﴿٧٥﴾﴾ [هود] وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة ، فقال : ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا** ﴾ إلى أن قال ﴿**تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ** ﴿٨﴾ ﴾ [ق] ، وقال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ** ﴿١٣﴾ ﴾ [غافر] وقال تعالى : ﴿ **مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ** ﴾

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٢٦ ـ ٤٣٠) .

الآية [الروم : ٣١] فـ ﴿منيبين﴾ منصوب على الحال من الضمير المستكن فى قوله ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [الروم : ٣٠] ؛ لأن هذا الخطاب له ولأمته ، أى أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه ، نظيره قوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق : ١] ويجوز أن يكون حالاً من المفعول فى قوله : ﴿ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم : ٣٠] أى فطرهم منيبين إليه . فلو خُلُّوا وفطرهم لما عَدَلَت عن الإنابة إليه ، ولكنها تَحوَّل وتتغير عما فُطرت عليه . كما قال ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة (١) ـ وفى رواية : على الملة ـ حتى يعرب عنه لسانه » (٢) ، وقال عن نبيه داود : ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص : ٢٤]، وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة ، فقال : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ﴾ [ق : ٣١ ـ ٣٤] ، وأخبر ـ سبحانه ـ أن البشرى منه إنما هى لأهل الإنابة ، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ [الزمر : ١٧] .

و « الإنابة » إنابتان : إنابة لربوبيته ؛وهى إنابة المخلوقات كلها ، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر ، قال الله تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [الروم: ٣٣] فهذا عامّ فى حق كل داع أصابه ضر ، كما هو الواقع . وهذه « الإنابة » لا تستلزم الإسلام،بل تجامع الشرك والكفر ، كما قال تعالى فى حق هؤلاء : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ [الروم] فهذا حالهم بعد إنابتهم .

و« الإنابة » الثانية إنابة أوليائه ؛ وهى إنابة لإلهيته ، إنابة عبودية ومحبة . وهى تتضمن أربعة أمور : محبته ، والخضوع له ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه . فلا يستحق اسم « المنيب » إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع . وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك .

وفى اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم ، و« المنيب » إلى الله : المسرع إلى مرضاته ، الراجع إليه كل وقت ، المتقدم إلى محابه .

قال صاحب المنازل : « الإنابة فى اللغة : الرجوع . وهى ههنا الرجوع إلى الحق .

وهى ثلاثة أشياء : الرجوع إلى الحق إصلاحا ، كما رجع إليه اعتذارا . والرجوع

---

(١) البخارى (١٣٥٩) فى الجنائز ، باب : إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه ، ومسلم (٢٦٥٨ / ٢٢) فى القدر ، باب : معنى كل مولود يولد على الفطرة ، وأحمد (٢ / ٣١٥) .

(٢) مسلم (٢٦٥٨ / ٢٣ مكرر) ، والترمذى (٢١٣٨) فى القدر ، باب : ما جاء كل مولود يولد على الفطرة ، وأحمد (٢ / ٢٥٣) .

إليه وفاء ، كما رجع إليه عهدا ، والرجوع إليه حالا ، كما رجعت إليه إجابة » .

لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته ، كان من تتمة ذلك : رجوعه إليه بالاجتهاد ، والنصح فى طاعته ، كما قال : ﴿ **إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا** ﴾ [الفرقان : ٧٠] ، وقال : ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا** ﴾ [البقرة : ١٦٠] ، فلا تنفع توبة وبطالة ، فلابُدَّ من توبة وعمل صالحٍ : تركٍ لما يكره ، وفعل لما يحب ، تَخلٍ عن معصيته ، وتحلٍ بطاعته .

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك، فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولا . فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانياً ، والدين كله : عهد ووفاء ؛ فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته ، فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته ، أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كلم موسى ، وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل ، وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء ، فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم ، وعلى هؤلاء بالتعلم . ومدح الموفين بعهده ، وأخبر بما لهم عنده من الأجر ، فقال : ﴿**وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [الفتح : ١٠] وقال : ﴿ **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً** (٣٤) ﴾ [الإسراء] ، وقال : ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّم**﴾ [النحل : ٩١] وقال : ﴿**وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا**﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة ، وعهودهم مع الخلق .

وأخبر النبى ﷺ : أن من علامات النفاق « الغدر بعد العهد » (١) .

فما أناب إلى الله من خان عهده وغدر به ، كما أنه لم يُنِبْ إليه من لم يدخل تحت عهده . فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به .

وقوله : « والرجوع إليه حالا ، كما رجعت إليه إجابة » .

أى هو ـ سبحانه ـ قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولا ، فلا بد من الإجابة حالا تُصَدّق به المقال ، فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها . وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله ، فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال ، فارجع إليه إجابة بالحال . قال

(١) البخارى (٣٤) فى الإيمان ، باب : علامة المنافق ، ومسلم (٥٨ / ١٠٦) فى الإيمان ، باب : بيان خصال المنافق ، وأبو داود (٤٦٨٨) فى السنة ، باب : الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، والترمذى (٢٦٣٢) فى الإيمان ، باب : ما جاء فى علامة المنافق ، والنسائى (٥٠٢٠) فى الإيمان ، باب : علامة المنافق ، وأحمد (٢ / ١٨٩) .

الحسن: ابن آدم ،لك قول وعمل . وعملك أولى بك من قولك . ولك سريرة وعلانية . وسريرتك أملك بك من علانيتك .

فصل

قال : « وإنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحاً بثلاثة أشياء : بالخروج من التبعات ، والتوجُّع للعثرات ، واستدراك الفائتات » .

والخروج من التبعات : هو بالتوبة من الذنوب التى بين العبد وبين الله ، وأداء الحقوق التى عليه للخلق ، والتوجع للعثرات يحتمل شيئين :

أحدهما : أن يتوجع لعثرته إذا عثر ، فيتوجع قلبه وينصدع ، وهذا دليل على إنابته إلى الله . بخلاف من لا يتألم قلبه ، ولا ينصدع من عثرته ، فإنه دليل على فساد قلبه وموته .

الثانى : أن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر ، حتى كأنه هو الذى عثر بها ولا يشمت به ، فهو دليل على رِقَّة قلبه وإنابته .

واستدراك الفائتات : هــو استدراك ما فاته من طاعة وقربة بأمثالها ، أو خير منها ولاسيما فى بقية عمره ، عند قرب رحيله إلى الله ، فبقية عمر المؤمن لا قيمة لها ، يستدرك بها ما فات ، ويُحيى بها ما أمات .

فصل

قال : « وإنما يستقيم الرجوع إليه عهداً : بثلاثة أشياء : بالخلاص من لذة الذنب ، وبترك الاستهانة بأهل الغفلة ؛ تخوفاً عليهم ، مع الرجاء لنفسك ، وبالاستقصاء فى رؤية علة الخدمة » .

. إذا صَفَتْ له الإنابة إلى ربه تخلص من الفكرة فى لذة الذنب. وعاد مكانها ألماً وتوجعاً لذكره ، والفكرة فيه ، فما دامت لذة الفكرة فيه موجودة فى قلبه ، فإنابته غير صافية .

فإن قيل : أى الحالين أعلى ؟ حال من يجد لذة الذنب فى قلبه ، فهو يجاهدها لله ، ويتركها من خوفه ومحبته وإجلاله أو حال من ماتت لذة الذنب فى قلبه وصار مكانها ألماً وتوجعاً وطمأنينة إلى ربه ، وسكوناً إليه، والتذاذاً بحبه ، وتنعماً بذكره ؟ .

قيل : حال هذا أكمل وأرفع ، وغاية صاحب المجاهدة : أن يجاهد نفسه حتى يصل إلى مقام هذا ومنزلته ، ولكنه يتلوه فى المنزلة والقرب ومنوط به .

فإن قيل : فأين أجر مجاهدة صاحب اللذة ، وتركه محابَّه لله ، وإيثاره رضى الله على هواه ؟ وبهذا كان النوع الإنسانى أفضل من النوع الملكى عند أهل السنة وكانوا خير البرية ، والمطمئن قد استراح من ألم هذه المجاهدة وعوفى منها ، فبينهما من التفاوت ما بين درجة المعافَى والمبتلى . قيل : النفس لها ثلاثة أحوال : الأمر بالذنب ، ثم اللوم والندم منه ، ثم الطمأنينة إلى ربها والإقبال بكليتها عليه ، وهذه الحال أعلى أحوالها ، وأرفعها ، وهى التى يشمر إليها المجاهد ، وما يحصل له من ثواب مجاهدته وصبره فهو لتشميره إلى درجة الطمأنينة إلى الله ، فهو بمنزلة راكب القفار والمهامه والأهوال ،ليصل إلى البيت فيطمئن قلبه برؤيته والطواف به ،والآخر بمنزلة من هو مشغول به طائفاً وقائماً ، وراكعاً وساجداً ، ليس له التفات إلى غيره ، فهذا مشغول بالغاية ، وذاك بالوسيلة ، وكل له أجر ، ولكن بين أجر الغايات وأجر الوسائل بَوْن .

وما يحصل للمطمئن من الأحوال والعبودية والإيمان فوق ما يحصل لهذا المجاهد نفسه فى ذات الله ، وإن كان أكثر عملا ، فقدر عمل المطمئن المنيب بجملته وكيفيته أعظم، وإن كان هذا المجاهد أكثر عملا ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فما سبق الصديق الصحابة بكثرة عمل ، وقد كان فيهم من هو أكثر صياماً وحجاً وقراءة وصلاة منه ، ولكن بأمر آخر قام بقلبه ، حتى إن أفضل الصحابة كان يسابقه ولا يراه إلا أمامه .

ولكن عبودية مجاهد نفسه على لذة الذنب والشهوة قد تكون أشق ، ولا يلزم من مشقتها تفضيلها فى الدرجة ، فأفضل الأعمال الإيمان بالله ، والجهاد أشق منه وهو تاليه فى الدرجة ،ودرجة الصديقين أعلى من درجة المجاهدين والشهداء ، وفى مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبى ﷺ ذكر الشهداء فقال : « إن أكثر شهداء أمتى لأصحاب الفُرُش ، ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته »(١) .

فصل

ومن علامات الإنابة: ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم،مع فتحك باب الرجاء

(١) أحمد (١ / ٣٩٧) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٥ / ٣٠٥) فى الجهاد ، باب : رب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته : « رواه أحمد هكذا ولم أره ذكر ابن مسعود وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف ، والظاهر أنه مرسل ورجاله ثقات » .

لنفسك ، فترجو لنفسك الرحمة ، وتخشى على أهل الغفلة النقمة ، ولكن ارجُ لهم الرحمة . واخش على نفسك النقمة ، فإن كنت لابد مستهيناً بهم ماقتاً لهم ؛ لانكشاف أحوالهم لك ، ورؤية ما هم عليه ، فكن لنفسك أشد مقتاً منك لهم ، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك .

قال بعض السلف : لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس فى ذات الله ، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً .

وهذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه فى دين الله ، فإن من شهد حقيقة الخلق ، وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم ،بل تفريطهم ، وإضاعتهم لحق الله ، وإقبالهم على غيره ، وبيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفانى ـ لم يجد بدأ من مقتهم ، ولا يمكنه غير ذلك البتة . ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره ، وكان على بصيرة من ذلك : كان لنفسه أشد مقتاً واستهانة ، فهذا هو الفقيه .

وأما الاستقصاء فى رؤية علل الخدمة : فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس ، وتمييز حق الرب منها من حظ النفس . ولعل أكثرها ـ أو كلها ـ أن تكون حظاً لنفسك وأنت لا تشعر .

فلا إله إلا الله ، كم فى النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال : أن تكون لله خالصة ، وأن تصل إليه ؟ وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر البتة ، وهو غير خالص لله ، ويعمل العمل والعيون قد استدرارت عليه نطاقا ، وهو خالص لوجه الله ، ولا يميز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدوائها وعللها .

فبين العمل وبين القلب مسافة . وفى تلك المسافة قُطَّاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء ، ولا زهد فى الدنيا ولا رغبة فى الآخرة ، ولا نور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه ، وبين الحق والباطل ، ولا قوة فى أمره . فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرف ، ورأى الحق والباطل ، وميز بين أولياء الله وأعدائه ، وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال .

ثم بين القلب وبين الرب مسافة ، وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه ، من كبر وإعجاب وإدلال ، ورؤية العمل ، ونسيان المنة ، وعلل خفية لو استقصى فى طلبها لرأى العجب . ومن رحمة الله تعالى : سترها على أكثر العمال ، إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها ، من اليأس والقنوط والاستحسار ، وترك العمل ، وخمود العزم ،

وفتور الهمة ؛ ولهذا لما ظهرت « رعاية » أبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى واشتغل بها العباد ، عطلت منهم مساجد كانوا يعمرونها بالعبادة والطبيب الحاذق يعلم كيف يطب النفوس ، فلا يعمر قصراً ويهدم مصراً .

فصل

قال (١) : «وإنما يستقيم الرجوع إليه حالا بثلاثة أشياء : بالإياس من عملك ، وبمعاينة اضطرارك ، وشَيْم برق لطفه بك » .

الإياس من العمل يفسر بشيئين :

أحدهما : أنه إذا نظر بعين الحقيقة إلى الفاعل الحق ، والمحرك الأول ، وأنه لولا مشيئته لما كان منك فعل ، فمشيئته أوجبت فعلك لا مشيئتك ـ بقى بلا فعل ، فههنا تنفع مشاهدة القدر ، والفناء عن رؤية الأعمال .

والثانى : أن تيأس من النجاة بعملك ، وترى النجاة إنما هى برحمته تعالى وعمله وفضله،كما فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « لن ينجى أحداً منكم عمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » (٢) فالمعنى يتعلق ببداية الفعل ، والثانى بغايته ومآله .

وأما معاينة الاضطرار : فإنه إذا أيس من عمله بداية ، وأيس من النجاة به نهاية ، شهد به فى كل ذرة منه ضرورة تامة إليه . وليست ضرورته من هذا الجهة وحدها .

بل من جميع الجهات . وجهات ضرورته لا تنحصر بعدد ، ولا لها سبب ، بل هو مضطر إليه بالذات ، كما أن الله عز وجل غنى بالذات ، فإن الغنى وصف ذاتى للرب ، والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتى للعبد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه :

والفقر لى وصف ذات لازم أبداً كما للغنى أبداً وصف له ذاتى وأما شَيم برق لطفه بك : فإنه إذا تحقق له قوة ضرورية ، وأيس من عمله والنجاة به ، نظر إلى ألطاف الله وشام برقها ، وعلم أن كل ما هو فيه وما يرجوه وما تقدم له : لطف من الله به ، ومنة

---

(١) أى صاحب المنازل .

(٢) مسلم (٢٨١٦ / ٧٦) فى صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى .

مَنَّ بها عليه ، وصدقة تصدق بها عليه بلا سبب منه ، إذ هو المحسن بالسبب والمسبب ، والأمر له من قبل ومن بعد ، وهو الأول والآخر ، لا إله غيره . ولا رب سواه (١) .

فصل
فى منزلة الرياضة

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » : « منزلة الرياضة » .

هى تمرين النفس على الصدق والإخلاص .

قال صاحب المنازل : « هى تمرين النفس على قبول الصدق » .

وهذا يراد به أمران : تمرينها على قبول الصدق إذا عرضه عليها فى أقواله وأفعاله وإرادته ، فإذا عرض عليها الصدق قبلته وانقادت له وأذعنت له .

والثانى : قبول الحق ممن عرضه عليه ، قال الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** (٣٣) ﴾ [الزمر] ، فلا يكفى صدقك ، بل لابد من صدقك وتصديقك للصادقين . فكثير من الناس يصدق ، ولكن يمنعه من التصديق كِبْر أو حسد ، أو غير ذلك .

قال : « وهى على ثلاث درجات : رياضه العامة ، وهى تهذيب الأخلاق بالعلم ، وتصفية الأعمال بالإخلاص ، وتوفير الحقوق فى المعاملة » .

أما تهذيب الأخلاق بالعلم : فالمراد به إصلاحها وتصفيتها بموجب العلم ، فلا يتحرك بحركة ظاهرة أو باطنة إلا بمقتضى العلم ، فتكون حركات ظاهره وباطنه موزونة بميزان الشرع .

وأما تصفية الأعمال بالإخلاص : فهو تجريدها عن أن يشوبها باعث لغير الله ، وهى عبارة عن توحيد المراد ، وتجريد الباعث إليه .

وأما توفير الحقوق فى المعاملة : فهو أن تعطى ما أمرت به من حق الله وحقوق العباد كاملا موفراً ، قد نَصَحْتَ فيه صاحب الحق غاية النصح ، وأرضيته كل الرضى ، ففزت بحمده لك وشكره .

ولما كانت هذه الثلاثة شاقة على النفس جداً : كان تكلفها رياضة ، فإذا اعتادها

---

(١) مدراج السالكين (١ / ٤٣٣ ـ ٤٤٠) .

صارت خُلُقا .

قال : « ورياضة الخاصة : حسم التفرق ، وقطع الالتفات إلى المقام الذى جاوزه ، وإبقاء العلم يجرى مجراه » .

يريد بحسم التفرق : قطع ما يفرق قلبك عن الله بالجمعية عليه ، والإقبال بكليتك إليه ، حاضراً معه بقلبك كله ، لا تلتفت إلى غيره .

وأما قطع الالتفات إلى المقام الذى جاوزه : فهو ألا يشتغل باستحسان علوم ذلك المقام ولذته واستحسانه ، بل يلهَى عنه معرضاً مقبلا على الله ، طالباً للزيادة ، خائفاً أن يكون ذلك المقام له حجابا يقف عنده عن السير . فهمته حفظه . ليس له قوة ولا همة أن ينهض إلى ما فوقه . ومن لم تكن همته التقدم فهو فى تأخر ولا يشعر ، فإنه لا وقوف فى الطبيعة ، ولا فى السير ، بل إما إلى قدام ، وإما إلى وراء . فالسالك الصادق لا ينظر إلى ورائه . ولا يسمع النداء إلا من أمامه لا من ورائه .

وأما إبقاء العلم يجرى مجراه : فالذهاب مع داعى العلم أين ذهب به ، والجرى معه فى تياره أين جرى .

وحقيقة ذلك : الاستسلام للعلم ، وألا تعارضه بجمعية ، ولا ذوق ، ولا حال ، بل امض معه حيث ذهب ، فالواجب تسليط العلم على الحال ، وتحكيمه عليه ، وألا يعارض به .

وهذا صعب جداً إلا على الصادقين من أرباب العزائم ، فلذلك كان من أنواع الرياضة.

ومتى تمرنت النفس عليه وتعودته صار خلقاً . وكثير من السالكين إذا لاحت له بارقة، أو غلبه حال أو ذوق : خلى العلم وراء ظهره ، ونبذه وراءه ظهريا ، وحكَّم عليه الحال . هذا حال أكثر السالكين ، وهى حال أهل الانحراف الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ؛ ولهذا عظمت وصية أهل الاستقامة من الشيوخ بالعلم والتمسك به .

فصل

قال : « ورياضة خاصة الخاصة : تجريد الشهود ، والصعود إلى الجمع ، ورفض المعارضات ، وقطع المعاوضات » .

أما تجريد الشهود ، فنوعان ؛ أحدهما : تجريده عن الالتفات إلى غيره . والثانى :

تجريده عن رؤيته وشهوده .

وأما الصعود إلى الجمع : فيعنى به الصعود عن معانى التفرقة إلى الجمع الذاتى ، وهذا يحتمل أمرين :

أحدهما : أن يصعد عن تفرقة الأفعال إلى وحدة مصدرها .

والثانى : أن يصعد عن علائق الأسماء والصفات إلى الذات . فإن شهود الذات بدون علائق الأسماء والصفات عندهم هو حضرة الجمع ، وهذا موضع مزلة أقدام، ومضلة أفهام ، لابد من تحقيقه . فتقول :

التفرقة تفرقتان : تفرقة فى المفعولات ، وتفرقة فى معانى الأسماء والصفات . والجمع جمعان : جمع فى الحكم الكونى ، وجمع ذاتى .

فالجمع فى الحكم الكونى : اجتماع المفعولات كلها فى القضاء والقدر والحكم . والجمع الذاتى : اجتماع الأسماء والصفات فى الذات .

فالذات واحدة جامعة للأسماء والصفات .

والقدر :جامع لجميع المقضيات والمقدورات ، والشهود مترتب على هذا وهذا .

فشهود اجتماع الكائنات فى قضائه وقدره ـ وإن كان حقا ـ فهو لا يعطى إيمانا ، فضلا عن أن يكون أعلى مقامات الإحسان . والفناء فى هذا الشهود : غايته فناء فى توحيد الربوبية الذى لا ينفع وحده ، ولا بد منه .

وشهود اجتماع الأسماء والصفات ، فى وحدة الذات : شهود صحيح . وهو شهود مطابق للحق فى نفسه .

وأما الصعود عن شهود تفرقة الأسماء والصفات وعلائقها إلى وحدة الذات المجردة : فغايته أن يكون صاحبه معذورًا لضيق قلبه . وأما أن يكون محموداً فى شهوده ذاتاً مجردة عن كل اسم وصفة وعن علائقها فكلا ولما .

وأى إيمان يعطى ذلك ؟ وأى معرفة ؟ وإنما هو سلب ونفى فى الشهود ، كالسلب والنفى فى العلم والاعتقاد ، فنسبته إلى الشهود كنسبة نفى الجهمية وسلبهم إلى الأخبار ، لكن الفرق بينهما : أن ذلك السلب فى العلم والاعتقاد ، مخالف للحق الثابت فى نفس الأمر ، وكذب على الله ، ونفى لما يستحقه من صفات كماله ونعوت جلاله ، ومعانى أسمائه الحسنى .

وأما هذا السلب : ففى الشعور به للصعود منه إلى الجمع الذاتى ، مع الإيمان به ، والاعتراف بثبوته ، فهذا لون وذاك لون .

والكمال شهود الأمر على ما هو عليه ، ويشهد الذات موصوفة بصفات الجلال ، منعوتة بنعوت الكمال . وكلما كثر شهوده لمعانى الأسماء والصفات كان أكمل.

نعم ، قد يعذر فى الفناء فى الذات المجردة ؛ لقوة الوارد ، وضعف المحل عن شهود معانى الأسماء والصفات .

فتأمل هذا الموضع ، وأعطه حقه ، ولا يَصُدَّنَّك عن تحقيق ذلك ما يحيل عليه أرباب الفناء من الكشف والذوق . فإنا لا ننكره ، بل نقرّ به ، ولكن الشأن فى مرتبته ، وبالله التوفيق .

وأما رفض المعارضات : فيحتمل أمرين :

أحدهما :ما يعارض شهوده الجمعي من التفرقات ، وهو مراده .

والثانى : ما يعارض إرادته من الإرادات ، وما يعارض الله من المرادات ، وهذا أكمل من الأول ، وأعلى منه .

وأما قطع المعاوضات : فهو تجريد المعاملة عن إرادة المعارضة ، بل يجردها لذاته ، وأنه أهل أن يعبد ولو لم يحصل لعابده عوض منه . فإنه يستحق أن يعبد لذاته لا لعلة ، ولا لعوض ولا لمطلوب . وهذا أيضاً موضع لابد من تجريده .

فيقال : ملاحظة المعارضة ضرورية للعامل ، وإنما الشأن فى ملاحظة الأعواض وتباينها، فالمحب الصادق الذى قد تجرد عن ملاحظة عوض قد لاحظ أعظم الأعواض ، وشمر إليها ، وهى قربه من الله ووصوله إليه ، واشتغاله به عما سواه ، والتنعم بحبه ولذة الشوق إلى لقائه . فهذه أعواض لابد للخاصة منها ، وهى من أجل مقاصدهم وأغراضهم ، ولا تقدح فى مقاماتهم ، وتجريد عبودياتهم ، بل أكملهم عبودية أشدهم التفاتا إلى هذه الأعواض .

نعم طلب الأعواض المنفصلة المخلوقة ـ من الجاه ، والمال ، والرياسة ، والملك ـ أو طلب الحور العين والقصور والولدان ، ونحو ذلك بالنسبة إلى تلك الأعواض التى تطلبها الخاصة معلولة ، وهذا لا شك فيه إذا تجرد طلبهم لها .

أما إذا كان مطلوبهم الأعظم الذاتى : هو قربه والوصول إليه ، والتنعم بحبه ، والشوق إلى لقائه ، وانضاف إلى هذا طلبهم لثوابه المخلوق المنفصل : فلا علة فى هذه

العبودية بوجه ما ، ولا نقص ، وقد قال النبى ﷺ : « حولها ندندن » (١) يعنى الجنة ، وقال : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » (٢) .

ومعلوم أن هذا مسكن خاصة الخاصة ، وسادات العارفين . فسؤالهم إياه ليس علة فى عبوديتهم ، ولا قدحا فيها .

وقد استوفينا ذكر هذا الموضع فى (كتاب سفر الهجرتين) عند الكلام على المقامات .

ويحتمل أن يريد الشيخ بقطع المعاوضات : أن تشهد أن الله ما أعطاك شيئاً معاوضة، بل إنما أعطاك تفضلا وإحسانا ، لا لعوض يرجوه منك ، كما يكون عطاء العبد للعبد ، وإنما نتكلم فيما من العبد ، مما يؤمر بالتجرد عنه ، كتجرده عن التفرقة والمعاوضة ، فهذا أليق المعنيين بكلامه ، والله أعلم (٣) .

فصل
فى منزلة السماع

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » : منزلة « السماع » .

وهو اسم مصدر كالنبات ، وقد أمر الله به فى كتابه ، وأثنى على أهله ، وأخبر أن البشرى لهم ، فقال تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا** ﴾ [المائدة : ١٠٨] وقال ﴿ **وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا** ﴾ [التغابن : ١٦] ، وقال : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ** ﴾ [النساء : ٤٦] ، وقال ﴿ **فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨)** ﴾ [الزمر] ، وقال : ﴿ **وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا** ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] ، وقال : ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ** ﴾ [المائدة : ٨٣] .

---

(١) أبو داود (٧٩٢) فى الصلاة ، باب : فى تخفيف الصلاة ، وابن ماجه (٩١٠) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : ما يقال فى التشهد والصلاة على النبى ﷺ ، وقال فى الزوائد : « إسناده صحيح ، ورجاله ثقات » ، وأحمد (٣/ ٤٧٤) .

(٢) البخارى (٢٧٩٠) فى الجهاد ، باب : درجات المجاهدين فى سبيل الله ، والترمذى (٢٥٣٠) فى صفة الجنة ، باب : ما جاء فى صفة درجات الجنة ، وأحمد (٢ / ٣٣٥) .

(٣) مدارج السالكين (١ / ٤٧٥ ـ ٤٨١) .

وجعل الإسماع منه والسماع منهم دليلاً على علم الخير فيهم ، وعدم ذلك دليلاً على عدم الخير فيهم ، فقال : ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴿٢٣﴾** ﴾ [الأنفال] .

وأخبر عن أعدائه : أنهم هجروا السماع ونهوا عنه ، فقال : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ** ﴾ [فصلت : ٢٦] .

فالسماع رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه . وكم فى القرآن من قوله : ﴿ **أفلا يسمعون** ﴾، وقال : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا** ﴾ الآية [الحج : ٤٦] .

فالسماع أصل العقل ، وأساس الإيمان الذى انبنى عليه . وهو رائده وجليسه ووزيره، ولكن الشأن كل الشأن فى المسموع .وفيه وقع خبط الناس واختلافهم ، وغلط منهم من غلط .

وحقيقة « السماع » تنبيه القلب على معانى المسموع . وتحريكه عنها : طلباً وهرباً وحباً وبغضاً ، فهو حادٍ يحدو بكل أحد إلى وطنه ومألفه .

وأصحاب السماع ، منهم : من يسمع بطبعه ونفسه وهواه ، فهذا حظه من مسموعه: ما وافق طبعه .

ومنهم : من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله ، فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته .

ومنهم : من يسمع بالله ، لا يسمع بغيره ، كما فى الحديث الإلهى الصحيح : « فبى يسمع ، وبى يبصر »(1) ، وهذا أعلى سماعا ، وأصح من كل أحد .

والكلام فى « السماع » ـ مدحاً وذماً ـ يحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع ، وحقيقته وسببه ، والباعث عليه ، وثمرته وغايته . فبهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر « السماع » ويتميز النافع منه والضار ، والحق والباطل ، والممدوح والمذموم .

فأما « المسموع » فعلى ثلاثة أضرب :

أحدها : مسموع يحبه الله ويرضاه ،وأمر به عباده،وأثنى على أهله،ورضى عنهم به .

---

(1) البخارى (٦٥٠٢) فى الرقاق ، باب : التواضع ، بلفظ : « كنت سمعه الذى يسمع به . . . » أما لفظ : « فبى يسمع ، وبى يبصر ، ذكرها ابن حجر فى الفتح (١١ / ٣٤٤) .

الثانى : مسموع يبغضه ويكرهه ، ونهى عنه ، ومدح المعرضين عنه .

الثالث : مسموع مباح مأذون فيه ، لا يحبه ولا يبغضه ، ولا مدح صاحبه ولا ذمه ، فحكمه حكم سائر المباحات : من المناظر ، والمشام ، والمطعومات ، والملبوسات المباحة . فمن حرم هذا النوع الثالث فقد قال على الله ما لا يعلم ، وحرم ما أحل الله . ومن جعله دينا وقُربةً يتقرب به إلى الله ، فقد كذب على الله ، وشرع دينا لم يأذن به الله ، وضاهأ بذلك المشركين .

فصل

فأما النوع الأول : فهو السماع الذى مدحه الله فى كتابه ، وأمر به وأثنى أصحابه ، وذم المعرضين عنه ولعنهم . وجعلهم أضل من الأنعام سبيلا ، وهم القائلون فى النار : ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** (١٠) ﴾ [الملك] وهو سماع آياته المتلوّة التى أنزلها على رسوله . فهذا السماع أساس الإيمان الذى يقوم عليه بناؤه ، وهو على ثلاثة أنواع : سماع إدراك : بحاسة الأذن ، وسماع فهم وعقل ، وسماع فهم وإجابة وقبول . والثلاثة فى القرآن .

فأما سماع الإدراك : ففى قوله تعالى حكاية عن مؤمنى الجن قولهم : ﴿ **إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا** (١) **يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ** ﴾ [الجن] ، وقوله : ﴿ **يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى** ﴾ [الأحقاف : ٣٠]، فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة وأما سماع الفهم : فهو المنفى عن أهل الإعراض والغفلة بقوله تعالى : ﴿ **فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ**﴾ [الروم : ٥٢] ، وقوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ** ﴾ [فاطر : ٢٢] .

فالتخصيص ههنا لإسماع الفهم والعقل ، وإلا فالسمع العام الذى قامت به الحجة : لا تخصيص فيه ، ومنه قوله تعالى ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ** (٢٣)﴾ [الانفال] أى لو علم الله فى هؤلاء الكفار قبولاً وانقيادا لأفهمهم ، وإلا فهم قد سمعوا سَمْع الإدراك ﴿ **وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ أى ولو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا ؛ لأن فى قلوبهم من داعى التولى والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه .

وأما سماع القبول والإجابة : ففى قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين : أنهم قالوا ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور : ٥١] فإن هذا سمع قبول وإجابة مثمر للطاعة .

والتحقيق : أنه متضمن للأنواع الثلاثة ، وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه، واستجابوا له .

ومن سمع القبول : قوله تعالى ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُم ﴾ [التوبة :٤٧] أى قابلون منهم مستجيبون لهم ، هذا أصح القولين فى الآية .

وأما قول من قال : عيون لهم وجواسيس ، فضعيف ، فإنه ـ سبحانه ـ أخبر عن حكمته فى تثبيطهم عن الخروج : بأن خروجهم يوجب الخبال والفساد ، والسعى بين العسكر بالفتنة ، وفى العسكر من يقبل منهم ، ويستجيب لهم ، فكان فى إقعادهم عنهم لطفا بهم ورحمة ، حتى لا يقعوا فى عَنَت القبول منهم .

أما اشتمال العسكر على جواسيس وعيون لهم : فلا تعلق له بحكمة التثبيط والإقعاد. ومعلوم أن جواسيسهم وعيونهم منهم ، وهو ـ سبحانه ـ قد أخبر أنه أقعدهم لئلا يسمعوا بالفساد فى العسكر ، ولئلا يبغوهم الفتنة ، وهذه الفتنة إنما تندفع بإقعادهم ، وإقعاد جواسيسهم وعيونهم .

وأيضا، فإن الجواسيس إنما تسمى«عيونا»هذا المعروف فى الاستعمال لا تسمى سماعين.

وأيضاً ، فإن نظير قوله تعالى فى إخوانهم اليهود : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة : ٤٢] أى قابلون له .

والمقصود : أن سماع خاصة الخاصة المقربين : هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة إدراكاً وفهماً ، وتدبراً ، وإجابة . وكل سماع فى القرآن مدحَ الله أصحابه وأثنى عليهم ، وأمر به أولياءه : فهو هذا السماع .

وهو سماع الآيات لا سماع الأبيات ، وسماع القرآن لا سماع مزامير الشيطان ، وسماع كلام رب الأرض والسماء لا سماع قصائد الشعراء ، وسماع المراشد لا سماع القصائد ، وسماع الأنبياء والمرسلين لا سماع المغنين والمطربين .

فهذا السماع حاد يحدو القلوب ، إلى جوار علام الغيوب ، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح ، ومحرك يثير ساكن العزمات إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات ، ومناد ينادى للإيمان، ودليل يسير بالركب فى طريق الجنان ، وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح ، من قِبل فالق الإصباح « حَيّ على الفلاح ، حَيّ على الفلاح » .

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشاداً لحجة ، وتبصرة لعبرة ، وتذكرة لمعرفة ، وفكرة فى آية ، ودلالة على رشد ، ورداً على ضلالة ، وإرشاداً من غَى ، وبصيرة من عمى ، وأمراً بمصلحة ، ونهياً عن مضرة ومفسدة ، وهداية إلى نور ، وإخراجاً من ظلمة، وزجراً عن هوى ، وحثاً على تقى ، وجلاء لبصيرة ، وحياة لقلب ، وغذاء ودواء وشفاء، وعصمة ونجاة ، وكشف شبهة ، وإيضاح برهان ، وتحقيق حق ، وإبطال باطل .

ونحن نرضى بحكم أهل الذوق فى سماع الأبيات والقصائد ، ونناشدهم بالذى أنزل القرآن هدى وشفاء ونورا وحياة : هل وجدوا ذلك - أو شيئاً منه - فى الدف والمزمار ؟ ونغمة الشادن ومطربات الألحان ؟ والغناء المشتمل على تهيج الحب المطلق الذى يشترك فيه محب الرحمن ، ومحب الأوطان ، ومحب الإخوان ، ومحب العلم والعرفان ، ومحب الأموال والأثمان ، ومحب النسوان والمردان ، ومحب الصلبان . فهو يثير من قلب كل مشتاق ومحب لشىء ساكنه ، ويزعج قاطنه ، فيثور وجده ، ويبدو شوقه ، فيتحرك على حسب ما فى قلبه من الحب والشوق والوجد بذلك المحبوب كائناً ما كان ؛ ولهذا تجد لهؤلاء كلهم ذوقاً فى السماع ، وحالا ووجدا وبكاء .

وياالله العجب ! أى إيمان ونور وبصيرة وهدى ومعرفة تحصل باستماع أبيات بألحان وتوقيعات . لعل أكثرها قيلت فيما هو محرم يبغضه الله ورسوله ، ويعاقب عليه : من غزل وتشبيب بمن لا يحل له من ذكر أو أنثى ؟ فإن غالب التغزل والتشبيب : إنما هو فى الصور المحرمة . ومن أندر النادر تغزل الشاعر وتشبيبه فى امرأته ، وأمته وأم ولده ، مع أن هذا واقع لكنه كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود ، فكيف يقع لمن له أدنى بصيرة وحياة قلب : أن يتقرب إلى الله ، ويزداد إيماناً وقرباً منه وكرامة عليه ، بالتذاذه بما هو بغيض إليه ، مقيت عنده ، يمقت قائله والراضى به ؟ وتترقى به الحال حتى يزعم أن ذلك أنفع لقلبه من سماع القرآن والعلم النافع ، وسنة نبيه ﷺ ؟ ! .

يالله ! إن هذا القلب مخسوف به ، ممكور به منكوس . لم يصلح لحقائق القرآن وأذواق معانيه ، ومطالعة أسراره، فبلاه بقران الشيطان ، كما فى معجم الطبرانى وغيره - مرفوعاً وموقوفاً : « إن الشيطان قال : يارب ، اجعل لى قرآناً . قال : قرآنك الشعر . قال: اجعل لى كتاباً . قال كتابك الوشم . قال : اجعل لى مؤذناً . قال : مؤذنك المزمار ، قال : اجعل لى بيتاً . قال بيتك الحمام ، قال : اجعل لى مصائد . قال : مصائدك

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٨ / ٢٤٥ (٧٨٣٧) ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨ / ١٢٢) فى الأدب ، باب : ما جاء فى الشعر والشعراء وقال : « رواه الطبرانى وفيه على بن يزيد الألهانى وهو ضعيف » .

النساء. قال اجعل لى طعاماً . قال طعامك ما لم يذكر عليه اسمى » (١) والله سبحانه وتعالى أعلم .

فصل

القسم الثانى من السماع :

ما يبغضه الله ويكرهه . ويمدح المعرض عنه . وهو سماع كل ما يضر العبد فى قلبه ودينه ، كسماع الباطل كله ، إلا إذا تضمن رده وإبطاله والاعتبار به وقَصَدَ أن يعلم به حسن ضده ، فإن الضد يظهر حسنة الضد ، كما قيل :

وإذا سمعتُ إلى حديثك زادنى ... حباً له : سمعى حديث سواكا

وكسماع اللغو الذى مدح التاركين لسماعه ، والمعرضين عنه بقوله : ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ** ﴾ [القصص: ٥٥] ، وقوله : ﴿**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا**﴾ [الفرقان : ٧٢].

قال محمد بن الحنفية :هو الغناء ، وقال الحسن أو غيره : أكرموا نفوسهم عن سماعه.

قال ابن مسعود « الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » ، وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته ، فإنه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لا يشعر .

ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره فى قلبه ، فإنه ما اجتمع فى قلب عبد قط محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى ، وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن على أهل الغناء وسماعه ، وتَبَرُّمهم به ، وصياحهم بالقارئ إذا طول عليهم ، وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرأه ، فلا تتحرك ولا تطرب ، ولا تهيج منها بواعث الطلب . فإذا جاء قرآن الشيطان فلا إله إلا الله ، كيف تخشع منهم الأصوات ، وتهدأ الحركات ، وتسكن القلوب وتطمئن ، ويقع البكاء والوجد ، والحركة الظاهرة والباطنة ، والسماحة بالأثمان والثياب ، وطيب السهر ، وتمنى طول الليل ، فإن لم يكن هذا نفاقاً فهو أخيَّة النفاق وأساسه .

تُلِىَ الكتاب فأطرقوا ،لا خيفة ... لكنه إطراق ساه لاهى
وأتى الغناء فكالذباب ترقصوا ... والله مارقصوا من أُجل الله
دُفٌّ ، ومزمار ، ونغمة ... فمتى شهدتَ عبادة بملاهى

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٨ / ٢٤٥ (٧٨٣٧) ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨ / ١٢٢) فى الأدب ، باب ما جاء فى الشعر والشعراء ، وقال: رواه الطبرانى ، وفيه على بن يزيد الألهانى وهو ضعيف .

ثقل الكتاب عليهمُ لمـا رأوا ... تقييـــده بأوامــر ونـــواهــى
وعليهمُ خَفَّ الغنا لمـا رأوا ... إطلاقه فى اللهو دون مناهــى
يا فِرْقَةً ماضَرَّ دينَ محـمد ... وَجَنَى عليه ومَلَّه إلا هـــى
سمعوا له رَعْدًا وَبَرْقًا إذ حـوى ... زجراً وتخويفاً بفــعل مناهــى
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن ... شهواتهـا . ياويحــها المتـناهى
وأتى السماع موافقاً أغراضها ... فلأجــل ذاك غدا عظيم الجاه
أين المساعد للهوى مــن قاطع ... أسبابه عند الجهول الساهـــى
إن لم يكن خمر الجسوم . فإنه ... خمر العقول مماثل ومضاهـــى
فانظر إلى النشوان عند شرابه ... وانظر إلى النشوان عند تلاهـــى
وانظر إلى تمزيق ذا أثوابــه ... من بعد تمزيق الفؤاد اللاهـــى
فاحكم بأى الخمرتين أحـق الـ ... تحـــريم والتأثيـم عـند الله

وكيف يكون السماع الذى يسمعه العبد بطبعه وهواه ، أنفع له من الذى يسمعه بالله ولله وعن الله ؟ فإن زعموا أنهم يسمعون هذا السماع الغنائى الشعرى كذلك . فهذا غاية اللبس على القوم ، فإنه إنما يسمع بالله وعن الله ما يحبه الله ويرضاه ؛ ولهذا قلنا : إنه لا يتحرر الكلام فى هذه المسألة إلا بعد معرفة صورة المسموع وحقيقته ومرتبته ، فقد جعل الله لكل شىء قدرا ، ولن يجعل الله مَنْ شربه ونصيبه وذوقه ووجده من سماع الآيات البينات ، كمن نصيبه وشربه وذوقه ووجده من سماع الغناء والأبيات .

ومن أعجب العجائب : استدلال من استدل على أن هذا السماع من طريق القوم ، وأنه مباح : بكونه مستلذاً طبعاً ، تلذه النفوس ، وتستروح إليه ، وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب ، والجمل يقاسى تعب السير ومشقة الحمولة ، فيهون عليه بالحداء ، وبأن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه ، وزيادة فى خلقه ، وبأن الله ذم الصوت الفظيع ، فقال ﴿ **إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ⑲ ﴾ [لقمان] وبأن الله وصف نعيم أهل الجنة ،فقال فيه : ﴿ **فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ** ⑮ ﴾ [الروم] . وأن ذلك هو السماع الطيب ، فكيف يكون حراماً وهو فى الجنة ؟ وبأن الله تعالى ما أذن لشىء كأذَنه ـ أى كاستماعه ـ لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن . وبأن أبا موسى الأشعرى استمع النبى ﷺ إلى صوته ،

وأثنى عليه بحسن الصوت ، وقال : « لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود »(١) فقال له أبو موسى : « لو علمت أنك استمعت لحبرته لك تحبيرا » أى زينته لك وحسنته ، وبقوله ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم »(٢) وبقوله ﷺ : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »(٣) والصحيح : أنه من التغنى بمعنى تحسين الصوت . وبذلك فسره الإمام أحمد ـ رحمة الله ـ فقال : يحسنه بصوته ما استطاع .

وبأن النبى ﷺ أقر عائشة على غناء القَينتين يوم العيد . وقال لأبى بكر : « دعهما ، فإن لكل قوم عيدا ، وهذا عيدنا أهلَ الإسلام »(٤) .

وبأنه ﷺ أذن فى العرس فى الغناء وسماه لهواً ، وقد سمع رسول الله ﷺ الحداء . وأذن فيه . وكان يسمع أنساً والصحابة ، وهم يرتجزون بين يديه فى حفر الخندق :

نحن الذين بايعوا محمد على الجهاد ما بقينا أبدا

ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة ، وحدا به الحادى فى منصرفه من خيبر ، فجعل يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الذين قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا
ونحن إن صِيح بنا . أتينا وبالصياح عوّلوا علينا

ونحن عن فضلك ما استغنينا

---

(١) البخارى (٥٠٤٨) فى فضائل القرآن ، باب : حُسْن الصوت بالقراءة للقرآن ، ومسلم (٧٩٣ / ٢٣٦) فى صلاة المسافرين ، باب : استحباب تحسين الصوت بالقرآن ، والترمذى (٣٨٥٥) فى المناقب ، باب : فى مناقب أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه .

(٢) البخارى معلقا (الفتح ١٣ / ٥١٨) وأبو داود (١٤٦٨) فى الصلاة ، باب : استحباب الترتيل فى القراءة ، والنسائى (١٠١٥) فى الافتتاح ، باب : تزيين القرآن بالصوت ، وابن ماجه (١٣٤٢) فى إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : فى حسن الصوت بالقرآن ، وأحمد (٤ / ٢٨٣) .

(٣) البخارى (٧٥٢٧) فى التوحيد ، باب : قول الله تعالى : ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ وأبو داود (١٤٧٣) فى الصلاة ، باب : استحباب الترتيل فى القراءة ، بمعناه .

(٤) البخارى (٩٥٢) فى العيدين ، باب : سنة العيدين لأهل الإسلام ، وابن ماجه (١٨٩٨) فى النكاح ، باب : الغناء والدف ، وأحمد (٦ / ١٨٦ ، ١٨٧) كلهم دون لفظة : « وأهل الإسلام » .

فدعا لقائله .

وسمع قصيدة كعب بن زهير ، وأجازه ببردة .

واستنشد الأسود بن سريع قصائد حَمِدَ بها ربه .

واستنشد من شعر أمية بن أبى الصلت مائة قافية .

وأنشده الأعشَى شيئاً من شعره فسمعه .

وصَدَّق لبيداً فى قوله .

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

ودعا لحسان أن يؤيده الله بروح القدس ما دام ينافح عنه ، وكان يعجبه شعره . وقال له : « اهْجُهم ، وروح القدُس معك » (١) .

وأنشدته عائشة قول أبى كبير الهذلى :

ومبـرأ مـن كـل غُبَّـر حيضة ... وفسـاد مرضـعة وداء مُغـيل

وإذا نظـرت إلـى أسِرّة وجهه ... برقـت كبـرق العـارض المتهلل

وقالت : « أنت أحق بهذا البيت » فسُرَّ بقولها .

وبأن ابن عمر رضي الله عنهما رخص فيه ، وعبد الله بن جعفر ، وأهل المدينة ، وبأن كذا وكذا ولياً لله حضروه وسمعوه ، فمن حرمه فقد قدح فى هؤلاء السادة القدوة الأعلام .

وبأن الإجماع منعقد على إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية ، فلذة سماع صوت الآدمى أولى بالإباحة ، أو مساوية .

وبأن السماع يحدو روح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه ، فإن كان محبوبه حرامًا كان السماع معيناً له على الحرام ، وإن كان مباحاً كان السماع فى حقه مباحا ، وإن كانت محبته رحمانية كان السماع فى حقه قربة وطاعة ؛ لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقويها ويهيجها .

وبأن التذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن ، والشم بالروائح الطيبة، والفم بالطعوم الطيبة ، فإن كان هذا حراماً كانت جميع هذه اللذات والإدراكات محرمة .

---

(١) البخارى (٤١٢٣ ، ٤١٢٤) فى المغازى ، باب : مرجع النبى ﷺ من الأحزاب ، ومسلم (٢٤٨٦ / ١٥٣) فى فضائل الصحابة ، باب : فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه ، وأحمد (٤ / ٢٨٦) .

فالجواب : أن هذه حَيْدة عن المقصود ، وروغان عن محل النزاع ، وتعلق بما لا متعلق به ، فإن جهة كون الشيء مستلذاً للحاسة ملائما لها ، لا يدل على إباحته ولا تحريمه ، ولا كراهته ولا استحبابه ؛ فإن هذه اللذة تكون فيما فيه الأحكام الخمسة : تكون فى الحرام ، والواجب ، والمكروه ، والمستحب ، والمباح . فكيف يستدل بها على الإباحة من يعرف شروط الدليل ، ومواقع الاستدلال ؟ .

وهل هذا إلا بمنزلة من استدل على إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة ، وأن لذته لا ينكرها من له طبع سليم ، وهل يستدل بوجود اللذة والملاءمة على حل اللذيذ الملائم أحد؟ وهل خلت غالب المحرمات من اللذات ؟ وهل أصوات المعازف التى صح عن النبى ﷺ تحريمها ، وأن فى أمته من سيستحلها بأصح إسناد [1] ، وأجمع أهل العلم على تحريم بعضها . وقال جمهورهم : بتحريم جملتها ـ إلا لذيذة تلذ السمع ؟ وهل فى التذاذ الجمل والطفل بالصوت الطيب دليل على حكمه : من إباحة ، أو تحريم ؟

وأعجب من هذا : الاستدلال على الإباحة بأن الله خلق الصوت الطيب ، وهو زيادة نعمة منه لصاحبه .

فيقال : والصورة الحسنة الجميلة ، أليست زيادة فى النعمة ، والله خالقها ، ومعطى حسنها ؟ أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها ، والالتذاذ على الإطلاق بها ؟ وهل هذا إلا مذهب أهل الإباحة الجارين مع رسوم الطبيعة ؟

وهل فى ذم الله لصوت الحمار ما يدل على إباحة الأصوات المطربات بالنغمات الموزونات ، والألحان اللذيذات ، من الصور المستحسنات ، بأنواع القصائد المنغمات ، بالدفوف والشبابات ؟ ! .

وأعجب من هذا : الاستدلالُ على الإباحة بسماع أهل الجنة ، وما أجدر صاحبه أن يستدل على إباحة الخمر بأن فى الجنة خمراً ، وعلى حل لباس الحرير بأن لباس أهلها حرير ، وعلى حِلّ أوانى الذهب والفضة والتحلى بهما للرجال : بكون ذلك ثابتاً وجود النعيم به فى الجنة .

فإن قال : قد قام الدليل على تحريم هذا ، ولم يقم على تحريم السماع .

قيل : هذا استدلال آخر غير استدلال بإباحته لأهل الجنة ، فعلم أن استدلالكم بإباحته لأهل الجنة استدلال باطل ، لا يرضى به محصل .

---

(١) البخارى (٥٥٩٠) فى الأشربة ، باب : ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه .

وأما قولكم : « لم يقم دليل على تحريم السماع » .

فيقال لك : أى السماعات تعنى ؟ وأى المسموعات تريد؟ فالسماعات والمسموعات منها : المحرم ، والمكروه ، والمباح ، والواجب ، والمستحب ، فعيّن نوعاً يقع الكلام فيه نفياً وإثباتا .

فإن قلت : سماع القصائد ، قيل لك : أى القصائد تعنى ؟ ما مُدح به الله ورسوله ودينه وكتابه ، وهجى به أعداؤه ؟ .

فهذه لم يزل المسلمون يروونها ويسمعونها ويتدارسونها ، وهى التى سمعها رسول الله ﷺ وأصحابه وأثاب عليها ، وحرض حساناً عليها ، وهى التى غَرَّت أصحاب السماع الشيطانى ، فقالوا : تلك قصائد ، وسماعنا قصائد ، فنعم إذن . والسنة كلام ، والبدعة كلام ، والتسبيح كلام ، والغيبة كلام ، والدعاء كلام ، والقذف كلام ، ولكن هل سمع رسول الله ﷺ وأصحابه سماعكم هذا الشيطانى المشتمل على أكثر من مفسدة مذكورة فى غير هذا الموضع ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعضها ؟ .

ونظير هذا : ماغرهم من استحسانه ﷺ الصوت الحسن بالقرآن ، وأَذَنه له وإذنه فيه، ومحبة الله له .

فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان والمردان وغيرهم ، بالغناء المقرون بالمعازف والشاهد ، وذكر القَدّ والنهد والخصر ، ووصف العيون وفعلها ، والشعر الأسود ، ومحاسن الشباب ، وتوريد الخدود ، وذكر الوصْل والصد ، والتجنى والهجران ، والعتاب والاستعطاف ، والاشتياق ، والقلق والفراق ، وما جرى هذا المجرى . مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر ، بما لا نسبة بينهما ، وأى نسبة لمفسدة سكر يوم ونحوه إلى سكرة العشق التى لا يستفيق الدهر صاحبها إلا فى عسكر الهالكين ، سليباً حريباً ، أسيراً قتيلا؟ .

وهل تقاس سكرة الشراب بسكرة الأرواح بالسماع ؟ وهل يظن بحكيم أن يحرم سكراً لمفسدة فيه معلومة ، ويبيح سكراً مفسدته أضعاف أضعاف مفسدة الشراب ؟ حاشا أحكم الحاكمين .

فإن نازعوا فى سكر السماع ، وتأثيره فى العقول والأرواح ، خرجوا عن الذوق والحس ،وظهرت مكابرة القوم ، فكيف يحمى الطبيب المريض عما يشوش عليه صحته ، ويبيح له ما فيه أعظم السقم ؟ والمنصف يعلم أنه لا نسبة بين سقم الأرواح بسكر الشراب، وسقمها بسكر السماع ، وكلامنا مع واجد لافاقد . فهو المقصود بالخطاب .

وأعجب من هذا : استدلالكم على إباحة السماع ـ المركب مما ذكرنا من الهيئة الاجتماعية ـ بغناء بنيتين صغيرتين دون البلوغ ، عند امرأة صبية فى يوم عيد وفرح ، بأبيات من أبيات العرب ، فى وصف الشجاعة والحروب ، ومكارم الأخلاق والشيم . فأين هذا من هذا ؟ .

والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم ، فإن الصديق الأكبر رضي الله عنه سمى ذلك « مزموراً من مزامير الشيطان » ، وأقره رسول الله ﷺ على هذه التسمية ، ورخص فيه لجويريتين غير مكلفتين ، ولا مفسدة فى إنشادهما ، ولا استماعهما . أفيدل هذا على إباحة ما تعملونه وتعلمونه من السماع المشتمل على مالا يخفى ؟ فياسبحان الله ، كيف ضلت العقول والأفهام ؟ .

وأعجب من هذا كله : الاستدلال على إباحته بما سمعه رسول الله ﷺ من الحداء المشتمل على الحق والتوحيد ، وهل حرم أحد مطلق الشعر ، وقوله واستماعه ؟ فكم فى هذا التعلق ببيوت العنكبوت ؟ .

وأعجب من هذا : الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة . وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ [البقرة : ٢٧٥] وأين أصوات الطيور إلى نغمات الغيد الحسان ، والأوتار والعيدان ، وأصوات أشباه النساء من المردان ، والغناء بما يحدو الأرواح والقلوب ، إلى مواصلة كل محبوبة ومحبوب ؟ وأين الفتنة بهذا إلى الفتنة بصوت القِمْرى والبلبل والهزاز ونحوها ؟ .

بل نقول : لو كانا سواء لكان اتخاذ هذا السماع قربة وطاعة تستنزل به المعارف والأذواق والمواجيد ، وتحرك به الأحوال بمنزلة التقرب إلى الله بأصوات الطيور ، ومعاذ الله أن يكونا سواء .

والذى يفصل النزاع فى حكم هذه المسألة ثلاث قواعد ، من أهم قواعد الإيمان والسلوك ، فمن لم ين عليها فبناؤه على شفا جُرُف هار :

القاعدة الأولى :

أن الذوق والحال والوجد : هل هو حاكم أو محكوم عليه ، فيحكم عليه بحاكم آخر ، ويتحاكم إليه ؟ .

فهذا منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة ، حيث جعلوه حاكما، فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع ، وفيما هو صحيح وفاسد ، وجعلوه محكًا للحق

والباطل، فنبذوا لذلك موجب العلم والنصوص ، وحكموا فيها الأذواق والأحوال والمواجيد ، فعظم الأمر ، وتفاقم الفساد والشر ، وطمست معالم الإيمان والسلوك المستقيم ، وانعكس السير ، وكان إلى الله ، فصيروه إلى النفوس ، فالناس المحجوبون عن أذواقهم يعبدون الله ، وهؤلاء يعبدون نفوسهم .

ومن العجب : أنهم دخلوا فى أنواع الرياضات والمجاهدات والزهد ، ليتجردوا عن شهوات النفوس وحظوظها ، فانتقلوا من شهوات إلى شهوات أكبر منها ، ومن حظوظ إلى حظوظ أحط منها . وكان حالهم فى شهوات نفوسهم التى انتقلوا عنها أكمل ، وحال أربابها خير من حال هؤلاء ؛ لأنهم لم يعارضوا بها العلم ، ولا قدموها على النصوص ، ولا جعلوها ديناً وقربة ، ولا ازدروا من أجلها العلم وأهله . والشهوات التى انتقلوا إليها جعلوها أعلى ما يشمرون إليها ، فهى قبلة قلوبهم ، فهم حولها عاكفون ، واقفون مع حظوظهم من الله ، فانون بها عن مراد الله منهم ، الناس يعبدون الله ، وهم يعبدون أنفسهم ، عائبون على أهل الحظوظ والشهوات ومزدرون لهم . وهم أعظم الناس حظوظاً. وإنما زهدوا فى حظ إلى حظ أعلى منه ، وإنما تركوا شهوة لشهوة أحط .

فليتدبر اللبيب هذا الموضع فى نفسه وفى غيره ، فكل ما خالف مراد الله الدينى من العبد فهو حظه وشهوته ، مالاً كان ، أو رياسة ، أو صورة ، أو حالا ، أو ذوقاً ، أو وجداً .

ثم من قدمه على مراد الله فهو أسوأ حالا ممن عرف أنه نقص ومحنة ، وأن مراد الله أولى بالتقديم منه ، فهو يتوب منه كل وقت إلى الله .

ثم إنه وقع من تحكيم الذوق من الفساد مالا يعلمه إلا الله ، فإن الأذواق مختلفة فى أنفسها ، كثيرة الألوان ، متباينة أعظم التباين ، فكل طائفة لهم أذواق وأحوال ومواجيد ، بحسب معتقداتهم وسلوكهم .

فالقائلون بوحدة الوجود لهم ذوق وحال ووجد فى معتقدهم بحسبه ، والنصارى لهم ذوق فى النصرانية بحسب رياضتهم وعقائدهم ، وكل من اعتقد شيئاً أو سلك سلوكا ـ حقاً كان أو باطلا ـ فإنه إذا ارتاض وتجرد ، لزمه . وتمكن من قلبه ، وبقى له فيه حال وذوق ووجد . فيذوق من توزن الحقائق إذن ويعرف الحق من الباطل .

وهذا سيد أهل الأذواق والمواجيد ، والكشوف والأحوال ، من هذه الأمة المحدَّث المكاشف ـ عمر رضي الله عنه ـ لا يلتفت إلى ذوقه ووجده ومخاطباته فى شىء من أمور الدين ،

حتى ينشد عنه الرجال والنساء والأعراب . فإذا أخبروه عن رسول الله ﷺ بشيء لم يلتفت إلى ذوقه ، ولا إلى وجده وخطابه ، بل يقول : « لو لم نسمع بهذا لقضينا بغيره » ، ويقول : « أيها الناس ، رجل أخطأ وامرأة وأصابت » ، فهذا فعل الناصح لنفسه وللأمة رضي الله عنه ، ليس كفعل من غش نفسه والدين والأمة .

القاعدة الثانية :

أنه إذا وقع النزاع فى حكم فعل من الأفعال ، أو حال من الأحوال ، أو ذوق من الأذواق . هل هو صحيح أو فاسد ؟ وحق أو باطل ؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين ، وهى وحيه الذى تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه . وتعرض عليه وتوزن به ، فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول ، وما أبطله ورده فهو الباطل المردود ، ومن لم يَبْنِ على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله ، فليس على شىء من الدين ، وإن وإن . وإنما معه خدع وغرور : ﴿ **كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (٣٩) ﴾ [النور] .

القاعدة الثالثة :

إذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شىء هل هو الإباحة أو التحريم ؟ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته ، فإن كان مشتملا على مفسدة راجحة ظاهرة ، فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته ، بل العلم بتحريمه من شرعه قطعى ، ولا سيما إذا كان طريقاً مفضيا إلى ما يغضب الله ورسوله موصلا إليه عن قرب ، وهو رُقْية لهورائد وبَريد . فهذا لا يشك فى تحريمه أولو البصائر ، فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر ؛ لأنه يسوق النفس إلى السكر الذى يسوقها إلى المحرمات ثم يبيح ما هو أعظم منه سَوْقاً للنفوس إلى الحرام بكثير ؟ فإن الغناء ـ كما قال ابن مسعود رضي الله عنه ـ هو « رقية الزنا » ، وقد شاهد الناس أنه ما عاناه صبى إلا وفسد ، ولا امرأة إلا وبغت ، ولا شاب إلا وإلا ، ولا شيخ إلا وإلا . والعيان من ذلك يغنى عن البرهان ، ولا سيما إذا جمع هيئة تحدوا النفوس أعظم حَدْوٍ إلى المعصية والفجور ، بأن يكون على الوجه الذى ينبغى لأهله ، من المكان والإمكان، والعُشراء والإخوان ،وآلات المعازف: من اليَراع ، والدُّف ، والأوتار والعيدان . وكان القوَّال شادنا شَجِيَّ الصوت ، لطيف الشمائل من المردان أو النسوان ،وكان القول فى العشق والوصال ، والصد والهجران .

ودارت كـؤوس الـهوى بينهم   فلسـت تـرى فيـهم صـاحيا
فـكـلٌّ عـلى قـدر مشـروبه   وكـل أجاب الـهوى الداعـيا
فـمالوا سكارى ،وسكـارَ من   تـناول أمَّ الـهـوى خـالـيا
وجـار عـلـى القوم ساقيـهم   ولـم يؤثـروا غـيره ساقـيا
فـمـزَّق مـنهم قلوبًا غـدت   لـباسا عـلـيه يُرى ضـافيـا
فـلـم يستفيقوا إلـى أن أتـى   إلـيهـم مـنادى الـلقا داعـيا
أجيبـوا . فـكـل امـرئ مـنكم   عـلـى حـالـه ربَّه لاقـيا
هنـالـك تـعلـم مـنْ حـمأة   شَرِبْتَ مـع القوم ، أم صافيا ؟
وبـالـله لابـد قبـل اللـقا   سـتعلم ذا إن تـكُ واعـيا
لابـد تـصحـو فإما هـنا   وإمـا هنـاك فـكن راضـيا

فصل

وإذا لم يكن بُدٌّ من المحاكمة إلى الذوق ، فهلم نحاكمك إلى ذوق لاننكره نحن ولا أنت ، غير هذه الأذواق التى ذكرناها.

فالقلب يعرض له حالتان: حالة حزن وأسف على مفقود ،وحالة فرح ورضا بموجود ، وله بمقتضى هاتين الحالتين عبوديتان .

وله بمقتضى الحالة الأولى : عبودية الرضاء ، وهى للسابقين . والصبر ، وهى لأصحاب اليمين .

وله بمقتضى الحالة الثانية : عبودية الشكر . والشاكرون فيها أيضاً نوعان :

سابقون ، وأصحاب يمين . فاقتطعته النفس والشيطان عن هاتين العبوديتين ، بصوتين أحمقين فاجرين ، هما للشيطان لا للرحمن : صوت الندب والنياحة عند الحزن وفوات المحبوب ، وصوت اللهو والمزمار والغناء عند الفرح وحصول المطلوب ، فعوضَّه الشيطان بهذين الصوتين عن تينك العبوديتين .

وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المعنى بعينه فى حديث أنس رضي الله عنه : « إنما نهيتُ عن

صوتين أحمقين ، فاجرين : صوت ويْلٍ عند مصيبة ، وصوت مزمار عند نعمة »[١] .

ووافق ذلك راحة من النفس وشهوة ولذة ، وسَرَتْ فيها تلك الرقائق حتى تَعبَّد بها من قَلَّ نصيبه من النور النبوى ، وقَلَّ مشربه من العين المحمدية ، وانضاف ذلك إلى صدق وطلب وإرادة مضادة لشهوات أهل الغى وأهل البطالة ، ورأوا قساوة قلوب المنكرين لطريقتهم ، وكثافة حجبهم ، وغلظة طباعهم ، وثقل أرواحهم ، وصادف ذلك تحريكا لسواكنهم ، وانقيادا للواعج الحب ، وإزعاجاً للنفوس إلى أوطانها الأولى ، ومعاهدها التى سبيت منها ، والنفوس الطالبة المرتاضة السائرة لابد لها من محرك يحركها ، وحادٍ يحدوها ، وليس لها من حادى القرآن عوض عن حادى السماع .

فتركب من هذه الأمور : إيثار منهم للسماع ، ومحبة صادقة له ، تزول الجبال عن أماكنها ولا تفارق قلوبهم ، إذ هو مثير عزماتهم ومحرك سواكنهم ، ومزعج بواطنهم .

فدواء صاحب مثل هذا الحال : أن ينقل بالتدريج إلى سماع القرآن بالأصوات الطيبة ، مع الإمعان فى تفهم معانيه ، وتدبر خطابه قليلا قليلا ، إلى أن ينخلع من قلبه سماع الأبيات ، ويلبس محبة سماع الآيات ، ويصير ذوقه وشربه وحاله ووجده فيه . فحينئذ يعلم هو من نفسه : أنه لم يكن على شىء ، ويتمثل حينئذ بقول القائل :

وكنت أرى أنْ قد تناهى بى الهوى ... إلى غاية ما فوقها لى مطلب
فلما تلاقينا وعاينت حسنها ... تيقنت أنى إنما كنت ألعب

ومنافاة النوح للصبر والغناء للشكر أمر معلوم بالضرورة من الدين ، لا يمترى فيه إلا أبعد الناس من العلم والإيمان ، فإن الشكر هو الاشتغال بطاعة الله لا بالصوت الأحمق الفاجر ، الذى هو للشيطان . وكذلك النوح ضد الصبر ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فى النائحة ـ وقد ضربها حتى بدا شعرها ـ وقال : « لا حرمة لها ، إنها تأمر بالجزع ، وقد نهى الله عنه . وتنهى عن الصبر ، وقد أمر الله به ، وتفتن الحى وتؤذى الميت ، وتبيع عبرتها ، وتبكى شَجْو غيرها » .

ومعلوم عند الخاصة والعامة أن فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير ، والذى شاهدناه ـ نحن وغيرنا ـ وعرفناه بالتجارب أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو فى قوم ، وفشت فيهم ، واشتغلوا لها ، إلا سلط الله عليهم العدو وبلوا بالقَحْط والجَدْب

---

(١) الترمذى (١٠٠٥) فى الجنائز ، باب : ما جاء فى الرخصة فى البكاء على الميت ، وقال : « حديث حسن » .

وولاة السوء ، والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر ، والله المستعان .

ولا تستطل كلامنا فى هذه المنزلة ، فإن لها عند القوم شأناً عظيما .

وأما قولهم : « من أنكر على أهله فقد أنكر على كذا وكذا ولى لله » فحجة عامية ، نعم إذا أنكر أولياء الله على أولياء الله كان ماذا ؟ فقد أنكر عليهم من أولياء الله من هو أكثر منهم عدداً ،وأعظم عند الله وعند المؤمنين منهم قدرا،وأقرب بالقرون المفضلة عهدا . وليس من شرط ولى الله العصمة ، وقد تقاتل أولياء الله فى صِفين بالسيوف ، ولما سار بعضهم إلى بعض كان يقال : سار أهل الجنة إلى أهل الجنة ، وكونُ ولى الله يرتكب المحظور والمكروه متأوّلا أو عاصيا لا يمنع ذلك من الإنكار عليه ، ولا يخرجه عن أصل ولاية الله . وهيهات هيهات أن يكون أحد من أولياء الله المتقدمين حضر هذا السماع المحدث المبتدع ، المشتمل على هذه الهيئة التى تفتن القلوب ، أعظم من فتنة المشروب ، وحاشا أولياء من ذلك ، وإنما السماع الذى اختلف فيه مشايخ القوم : اجتماعهم فى مكان خال من الأغيار يذكرون الله ، ويتلون شيئاً من القرآن ، ثم يقوم بينهم قوال ينشدهم شيئاً من الأشعار المزهدة فى الدنيا ، المرغبة فى لقاء الله ومحبته ، وخوفه ورجائه ، والدار الآخرة ، وينبههم على بعض أحوالهم من يقظة أو غفلة ، أو بُعد أو انقطاع ، أو تأسف على فائت ، أو تدارك لفارط ، أو وفاء بعهد ، أو تصديق بوعد ، أو ذكر قلق وشوق ، أو خوف فرقة أو صد ، وما جرى هذا المجرى .

فهذا السماع الذى اختلف فيه القوم ، لا سماع المكاء والتصدية ، والمعازف والخمريات، وعشق الصور من المردان والنسوان ،وذكر محاسنها ووصالها وهجرانها ، فهذا لو سئل عنه من سئل من أولى العقول لقضى بتحريمه ، وعلم أن الشرع لا يأتى بإباحته ، وأنه ليس على الناس أضر منه ، ولا أفسد لعقولهم وقلوبهم وأديانهم وأموالهم وأولادهم وحريمهم منه ، والله أعلم .

فصل

قال صاحب المنازل :« السماع على ثلاث درجات : سماع العامة ؛ وهو ثلاثة أشياء : إجابة زجر الوعيد رغبة ، وإجابة دعوة الوعد جهداً ، وبلوغ مشاهدة المنة استبصاراً » .

الوعيد:يكون على ترك المأمور وفعل المحظور،وإجابة داعيه:هو العمل بالطاعة .

وقوله : « رغبة » يعنى امتثالاً لكون الله تعالى أمر ونهى وأوعد .

وحقيقة الرجاء : الخوف والرجاء ، فيفعل ما أمر به على نور الإيمان ، راجياً للثواب، ويترك ما نهى عنه على نور الإيمان خائفاً من العقاب .

وفى الرغبة فائدة أخرى ؛ وهى أن فعله يكون فعل راغب مختار ، لا فعل كاره ، كأنما يساق إلى الموت وهو ينظر .

وأما إجابة الوعد جهداً : فهو امتثال الأمر طلباً للوصول إلى الموعود به ، باذلاً جهده فى ذلك ، مستفرغاً فيه قواه .

وأما بلوغ مشاهدة المنة استبصاراً : فهو تنبيه السامع فى سماعه إلى أن جميع ما وصله من خير فمن منة الله عليه ، وبفضله عليه من غير استحقاق منه ، ولا بذل عوض استوجب به ذلك . كما قال تعالى : ﴿ **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** (١٧) ﴾ [الحجرات] وكذلك يشهد أن ما زوى عنه من الدنيا ، أو ما لحقه منها من ضرر وأذى فهو مِنَّةٌ ـ أيضاً ـ من الله عليه من وجوه كثيرة، ويستخرجها الفكر الصحيح ، كما قال بعض السلف : « يا بن آدم ، لا تدرى أى النعمتين عليك أفضل : نعمته فيما أعطاك ، أو نعمته فيما زَوَى عنك ؟ » ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لا أبالى على أى حال أصبحت أو أمسيت ، إن كان الغنى ، إن فيه لَلشُّكْر ، وإن كان الفقر ، إن فيه لَلصبَّر » وقال بعض السلف : « نعمته فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لى منها ، إنى رأيته أعطاها قوما فاغتروا » .

إذا عـمَّ بالسـراء أعـقب شكرهـا   وإن مَسَّ بالـضراء أعـقبها الأجـر
ومـا منـهـما إلا لـه فـيه نعـمة   تضيق بهـا الأوهـام والبـرُّ والبحر

فإن قلت : فهل يشهد مِنَّته فيما لحقه من المعصية والذنب ؟

قلت : نعم . إذا اقترن بها التوبة النصوح ، والحسنات الماحية ، كانت من أعظم المنن عليه .

فصل

قال : « وسماع الخاصة : ثلاثة أشياء ؛ شهود المقصود فى كل رمز ، والوقوف على الغاية فى كل حين ، والخلاص من التلذذ بالتفرق » .

والمقصود فى كل رمز : هو الرب تبارك وتعالى ، فإن المسموع كله يُعَرِّف به وبصفاته

وأسمائه ، وأفعاله وأحكامه ، ووعده وعيده ، وأمره ونهيه ، وعدله وفضله ، وهذا الشهود ينال بالسماع بالله ولله وفى الله ومن الله .

أما السماع به : فألا يسمع وفيه بقية من نفسه ، فإن كانت فيه بقية قطعها كمال تعلقه بالمسموع ، فيكون سماعه بقيوميته مجرداً من التفاته إلى نفسه .

وأما السماع له : فأن يجرد النفس فى السماع من كل إرادة تزاحم مراد الله منه ، وتجمع قوى سمعه على تحصيل مراد الله من المسموع .

وأما السماع فيه : فشأن آخر ؛ وهو تجريد ما لا يليق نسبته إلى الحق من وصف ، أو سمة أو نعت ، أو فعل ، مما هو لائق بكماله ، فيثبت له ما يليق بكماله من المسموع ، وينزهه عما لا يليق به .

وهذا الموضع لم يتخلص فيه إلا الراسخون فى العلم والمعرفة بالله ، وأضل الله عنه أهل التحريف والتعطيل ، والتشبيه والتمثيل : ﴿ **فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)** ﴾ [البقرة] .

وأما السماع منه : فإنما يتصور بواسطة . فهو سماع مقيد . وأما المطلق : فلا مطمع فيه فى عالم الفناء ، إلا لمن اختصه الله برسالاته وبكلامه ، ولكن السماع لكلامه كالسماع منه ، فإنه كلامه الذى تكلم به حقًا ، فمن سمعه فليقدر نفسه كأنه يسمعه من الله .

هذا هو السماع من الله ، لا سماع أرباب الخيال ، ودعوى المحال ، القائل أحدهم : نادانى فى سرى ، وخاطبنى ، وقال لى : يا ليت شعرى من المنادى لك ؟ ومن المخاطِب، يا مخدوع يا مغرور ؟ فما يدريك ، أنداء شيطانى ، أم رحمانى ؟ وما البرهان على أن المخاطِب لك هو الرحمن ؟

نعم ، نحن لا ننكر النداء والخطاب والحديث ، وإنما الشأن فى المنادى المخاطب المحدث ، فهاهنا تسكب العبرات .

وبالجملة ، فمن قرئ عليه القرآن فليقدر نفسه كأنما يسمعه من الله يخاطبه به ، فإذا حصل له ـ مع ذلك ـ السماع به وله وفيه ، ازدحمت معانى المسموع ولطائفه وعجائبه على قلبه ، وازدلفت إليه بأيهما يبدأ ، فما شئت من علم وحكمة ، وتعرف وبصيرة ، وهداية وغيرة .

وأما الوقوف على الغاية فى كل حين : فهو التطلب والسفر إلى الغاية المقصودة

بالمسموع الذى جعل وسيلة إليها ، وهو الحق ـ سبحانه ـ فإنه غاية كل مطلب : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) ﴾ [النجم] ، وليس وراء الله مرمى ، ولا دونه مستقر ، ولا تَقَرُّ العين بغيره البتة ، وكل مطلوب سواه فظل زائل ، وخيال مفارق مائل ، وإن تمتع به صاحبه فمتاع الغرور .

وأما الخلاص من التلذذ بالتفرق : فالتفرق فى معانى المسموع ، وتنقل القلب فى منازلها يوجب له لذة ، كما هو المألوف فى الانتقال ،فليتخلص من لذة تفرقه التى هى حظه ، إلى الجمعية على المسموع به وله ومنه .

ولم يقل الشيخ : « من التفرق » فإن المسموع إنما يدرك معناه ويفهم بالتفرق لتنوعه ، ولكن ليتخلص من لذته لا منه ؛ لئلا يكون مع حظه ، وهذا من لطف أحوال السامعين المخلصين .

فصل

قال : « وسماع خاصة الخاصة : سماع ينفى العلل عن الكشف ، ويصل الأبد إلى الأزل ، ويرد النهايات إلى الأول » .

فالكشف : هو مكافحة القلب لحقيقة المسموع . وعلله أمران :

أحدهما : الشبه التى تنتفى بهذه المكافحة ، فلا تبقى معها شبهة ، فهذا هو عين اليقين .

والثانى : نفى الوسائط بين السامع والمسموع ، فيغيب بمسموعه عنها ، ويفنى عن شهودها ، ويفنى عن شهود فنائه عنها ، بحيث يشهده هو المسمع لا الواسطة وهو الهادى، فمنه الإسماع ، ومنه الهداية ، ومنه الابتداء ، وإليه الانتهاء .

وأما وصله الأبد إلى الأزل : فهذا إن ـ أخذ على ظاهره ـ فهو محال ؛ لأن الأبد والأزل متقابلان تقابل التناقض ، فإيصال أحدهما إلى الآخر عين المحال ، وإنما مراده : أن ما يكون فى الأبد موجوداً مشهوداً فقد كان فى الأزل معلوماً مقدراً ، فعاد حكم الأبد إلى الأزل علماً وحقيقة ، وصار الأزلى أبدياً ، كما كان الأبدى أزليًا فى العلم والحكم .

وإيضاح ذلك : أن الأبد ظهر فيه ما كان كامناً فى الأزل خافياً ، فانتهى الأمر كله إلى علمه وحكمه وحكمته ، وذلك أزلى . وهذا رد النهايات إلى الأول ، فتصير الخاتمة هى

عين السابقة ، والله تعالى هو الأول والآخر ، وكل ما كان ويكون آخراً فمردود إلى سابق علمه وحكمه ، فرجع الأبد إلى الأزل ، والنهايات إلى الأول ، والله أعلم (١) .

فصل
فى الغناء والآلات

ومن مكايد عدو الله ومصايده ، التى كاد بها من قَلَّ نصيبه من العلم والعقل والدِّين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين : سماع المُكاءِ ، والتَّصْدِيَة ، والغناء بالآلات المحرَّمة ، الذى يَصُدُّ القلوب عن القرآن ، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان . فهو قرآن الشيطان ، والحجاب الكثيف عن الرحمن ، وهو رقْية اللواط والزّنا ، وبه يَنالُ العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى . كاد به الشيطان النفوس المبطلة، وحَسَّنه لها مكراً منه وغرورا ، وأوحى إليها الشُّبَه الباطلة على حُسْنه فقبلتْ وَحْيه واتخذت لأجله القرآن مَهْجورا ، فلو رأيتهم عند ذيَّاك السماع وقد خَشَعَتْ منهم الأصوات ، وهدأت منهم الحركات ، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه ، وانصبَّت انصبابةً واحدة إليه ، فتمايلوا له ولا كتمايل النَّشْوان ، وتكسَّرواُ فى حركاتهم ورَقْصِهم ، أرأيت تكسُّر المخانيث والنسوان ؟ ويحقُّ لهم ذلك ، وقد خالط خُمارُه النفوسَ ، ففعل فيها أعظم ما يفعله حُمَيَّا الكؤوس . فلغير الله ، بل للشيطان ، قلوبٌ هناكَ تمزَّق ، وأثواب تُشَقَّق ، وأموال فى غير طاعة الله تُنْفَق ، حتى إذا عمل السكر فيهم عمله ، وبلغ الشيطان منهم أُمنيته وأَمَله ، واستفزَّهم بصوته وحيِلِه ، وأجْلَب عليهم برجْلِه وخيْلِه ، وخزَ فى صدورهم وَخزًا ، وأزَّهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزا ، فطَوْرًا يجعلهم كالحمير حول المدَارِ ، وتارة كالدّباب ترقص وسَيْطَ الديار .

فيارحمتا للسقوف والأرض من دَكِّ تلك الأقدام ، ويا سَوأتا من أشباه الحمير والأنعام، وياشماتة أعداء الإسلام بالذين يزعمون أنهم خواصُّ الإسلام . قضوا حياتهم لذة وطربًا ، واتخذوا دينهم لهوًا ولعباً ، مَزامير الشيطان أحبُّ إليهم من استماع سُور القرآن ، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حَرَّك له ساكناً ، ولا أزعج له قاطنًا، ولا أثار فيه وَجْدًا، ولا قدح فيه من لواعجِ الشوق إلى الله زَنْدَا ، حتى إذا تُلَى عليه قرآنُ الشيطان ،

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٨١ ـ ٥٠٥) .

وولَجَ مَزْمورُه سَمْعَه ، تفجَّرت يَنابيعُ الوَجْد من قلبه على عينيه فجرَتْ ، وعلى أقدامه فَرقَصتْ ، وعلى يديه فصفَّقت ، وعلى سائر أعضائه فاهتزَّت وطَرِبت ، وعلى أنفاسه فتصاعدت ، وعلى زَفَراته فتزايدت ، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت . فيا أيها الفاتن المفتون، والبائع حَظَّه من الله بنصيبه من الشيطان صَفْقة خاسرٍ مَغْبون ، هلاَّ كانت هذه الأشجانُ ، عند سماع القرآن ؟ وهذه الأذواق والمواجيد ، عند قراءة القرآن المجيد ؟ وهذه الأحوال السَّنِيَّات ، عند تلاوة السورَ والآيات ؟ ولكن كل امرئ يَصْبو إلى ما يناسبه، ويميل إلى ما يشاكله ، والجِنْسِيَّةُ علة الضم قدَراً وشرعا ، والمشاكلة سبب الميل عقلا وطبعاً، فمن أين هذا الإخاء والنسب ؟ لولا التعلقُ من الشيطان بأقوى سبب . ومن أين هذه المصالحة التي أوقعت في عَقْدِ الإيمان وعهد الرحمن خللا؟ ﴿ **أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا** (٥٠) ﴾ [الكهف] ولقد أحسن القائل :

تلى الكتاب فأطرقوا لا خيفة ... لكنه إطراق ساه لاهي
وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا ... والله ما رقصوا لأجل الله
دف ومزمار ونغمة شادنٍ ... فمتى رأيت عبادة بملاهي؟
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا ... تقييده بأوامر ونواهي
سمعوا له رعداً وبرقا إذ حوى ... زجرا وتخويفا بفعل مناهي
ورأوه أعظمَ قاطعٍ للنفس عن ... شهواتها يا ذبحها المتناهي
وأتى السماع موافقاً أغراضها ... فلأجل ذاك غدا عظيمَ الجاه
أين المساعد للهوى من قاطع ... أسبابه عند الجهول الساهي ؟
إن لم يكن خمر الجسوم فإنه ... خمر العقول مماثل ومضاهي
فانظر إلى النشوان عند شرابه ... وانظر إلى النسوان عند ملاهي
وانظر إلى تمزيق ذا أثوابه ... من بعد تمزيق الفؤاد اللاَّهي

واحكم فأى الخمرتين أحق بالتحريم ، والتأثيم عند الله ؟

وقال آخر :

برئنا إلى الله من معشر ... بهم مرض من سماع الغنا
وكم قلت يا قوم أنتم على ... شَفاجرف ما به من بنا

شفا جرف تحته هوة | إلى درك كم به من عنا ؟
وتكرار ذا النصح منا لهم | لنعذر فيهم إلى ربنا
فلما استهانوا بتنبيهنا | رجعنا إلى الله في أمرنا
فعشنا على سنة المصطفى | وماتوا على تنتنا تنتنا

ولم يزل أنصار الإسلام وأئمه الهدى ، تصيح بهؤلاء من أقطار الأرض ، وتُحذّر من سلوك سبيلهم ، واقتفاء آثارهم ، من جميع طوائف الملة .

قال الإمام أبو بكر الطرطوسى فى خطبة كتابه ، فى تحريم السماع :

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، ونسأله أن يُرينا الحق حقا فنتبعه ، والباطل باطلا فنَجتَنبه ، وقد كان الناس فيما مضى يستسر أحدهم بالمعصية إذا واقعها ، ثم يستغفر الله ويتوب إليه منها ، ثم كثر الجهل ، وقل العلم ، وتناقص الأمر ، حتى صار أحدهم يأتى المعصية جهاراً ، ثم ازداد الأمر إدباراً ، حتى بلغنا أن طائفة من إخواننا المسلمين ـ وفقنا الله وإياهم ـ استزلهم الشيطان ، واستغوى عقولهم فى حب الأغانى واللهو ، وسماع الطقطقة والنقير ، واعتقدته من الدين الذى يقربهم إلى الله وجاهرت به جماعة المسلمين وشاقت سبيل المؤمنين ، وخالفت الفقهاء والعلماء وحملة الدين ، ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً** (١١٥) ﴾ [النساء] ، فرأيت أن أوضح الحق ، وأكشف عن شبه أهل الباطل ، بالحجج التى تضمنها كتاب الله ، وسنة رسوله ، وأبدأ بذكر أقاويل العلماء الذين تدور الفتيا عليهم فى أقاصى الأرض ودانيها ، حتى تعلم هذه الطائفة أنها قد خالفت علماء المسلمين فى بدعتها ، والله ولى التوفيق .

ثم قال : أما مالك فإنه نهى عن الغناء ، وعن استماعه ، وقال : « إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له أن يردها بالعيب » .

وسئل مالك ـ رحمه الله : عما يُرخّص فيه أهلُ المدينة من الغِناء ؟ فقال : « إنما يفعله عندنا الفُسَّاق » .

قال : وأما أبو حنيفة : فإنه يكره الغناء ، ويجعله من الذنوب .

وكذلك مذهب أهل الكوفة : سُفيان ، وحَمَّاد ، وإبراهيم ، والشَّعْبى ، وغيرهم ،

لا اختلاف بينهم فى ذلك ، ولا نعلم خلافا أيضًا بين أهل البَصْرة فى المنع منه .

قلت : مذهب أبى حنيفة فى ذلك من أشدّ المذاهب ، وقوله فيه أغلظُ الأقوال . وقد صرح أصحابه بتحريم سماع الملاهى كلها ، كالمِزْمار ، والدُّفّ ، حتى الضرب بالقضيب ، وصرحوا بأنه معصية ، يوجب الفسق ، وترد به الشهادة ، وأبلغ من ذلك أنهم قالوا : إن السماع فسقٌ ، والتلذذ به كفرٌ، هذا لفظهم ، ورووا فى ذلك حديثًا لا يصح رفعه .

قالوا : ويجب عليه أن يجتهد فى ألا يسمعه إذا مر به ، أو كان فى جواره .

وقال أبو يوسف فى دار يسمع منها صوت المعازف والملاهى : « ادخل عليهم بغير إذنهم ؛ لأن النهى عن المنكر فرض ، فلو لم يجز الدخول بغير إذن لامتنع الناس من إقامة الفرض » .

قالوا : ويتقدم إليه الإمام إذا سمع ذلك من داره ، فإن أصر حبسه أو ضربه سياطا ، وإن شاء أزعجه عن داره .

وأما الشافعى : فقال فى كتاب أدب القضاء : « إن الغناء لهو مكروه ، يشبه الباطل والمحال ومن استكثر منه فهو سَفيه ترد شهادته » .

وصرح أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه ، وأنكروا على من نسب إليه حله ، كالقاضى أبى الطيب الطبرى ، والشيخ إبى إسحاق ، وابن الصباغ .

قال الشيخ أبو إسحاق فى التنبيه : ولا تصح ـ يعنى الإجارة ـ على منفعة محرمة ، كالغناء والزمر ، وحمل الخمر ، ولم يذكر فيه خلافًا .

وقال فى المهذب : ولا يجوز على المنافع المحرمة ؛ لأنه محرم ، فلا يجوز أخذ العوض عنه كالميتة والدم .

فقد تضمن كلام الشيخ أموراً .

أحدها : أن منفعة الغناء بمجرده منفعة محرمة .

الثانى : أن الاستئجار عليها باطل .

الثالث : أن أكل المال به أكل مال بالباطل ، بمنزلة أكله عوضًا عن الميتة والدم .

الرابع : أنه لا يجوز للرجل بَذْل ماله للمغنّى ، ويحرم عليه ذلك ، فإنه بذل ماله فى مقابلة محرم ، وأن بذله فى ذلك كبذله فى مقابلة الدم والميتة .

الخامس : أن الزمر حرام

وإذا كان الزمر ، الذى هو أخف آلات اللهو ، حراما ، فكيف بما هو أشد منه ؟ كالعود ، والطنبور ، واليراع . ولا ينبغى لمن شم رائحة العلم أن يتوقف فى تحريم ذلك ، فأقل ما فيه أنه من شعار الفساق وشاربى الخمور .

وكذلك قال أبو زكريا النووى فى روضته :

القسم الثانى : أن يغنى ببعض آلات الغناء ، بما هو من شعار شاربى الخمر ، وهو مطرب كالطنبور والعود والصنج ، وسائر المعازف ، والأوتار . يحرم استعماله ، واستماعه. قال : وفى اليراع وجهان ، صحح البغوى التحريم .

ثم ذكر عن الغزالى الجواز . قال : والصحيح تحريم اليراع ، وهو الشبابة .

وقد صنف أبو القاسم الدولعى كتابا فى تحريم اليراع .

وقد حكى أبو عمرو بن الصلاح الإجماع على تحريم السماع ، الذى جمع الدف والشبابة والغناء ، فقال فى فتاويه :

وأما إباحة هذا السماع وتحليله ، فليعلم أن الدف والشبابة والغناء إذا اجتمعت ، فاستماع ذلك حرام ، عند أئمة المذاهب وغيرهم من علماء المسلمين . ولم يثبت عن أحد - ممن يعتد بقوله فى الإجماع والاختلاف - أنه أباح هذا السماع والخلاف المنقول عن بعض أصحاب الشافعى إنما نقل فى الشبابة منفردة ، والدف منفردا ، فمن لا يحصل ، أولا يتأمل ، ربما اعتقد خلافا بين الشافعيين فى هذا السماع الجامع هذا الملاهى ، وذلك وَهم بيِّن من الصائر إليه ، تنادى عليه أدلة الشرع والعقل ، مع أنه ليس كل خلاف يستروح إليه، ويعتمد عليه ، ومن تتبع ما اختلف فيه العلماء ، وأخذ بالرخص من أقاويلهم ، تزندق أو كاد . قال : وقولهم فى السماع المذكور : إنه من القربان والطاعات ، قول مخالف لإجماع المسلمين ، ومن خالف إجماعهم فعليه ما فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** (١١٥) ﴾ [النساء] .

وأطال الكلام فى الرد على هاتين الطائفتين اللتين بلاء الإسلام منهم : المحللون لما حرم الله ، والمتقربون إلى الله بما يباعدهم عنه .

والشافعى وقدماء أصحابه ، والعارفون بمذهبه من أغلظ الناس قولا فى ذلك .

وقد تواتر عن الشافعى أنه قال : « خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة ، يسمونه التغبير ، يصدون به الناس عن القرآن » .

فإن كان هذا قوله فى التغبير ، وتعليله : أنه يصد عن القرآن ، وهو شعر يزهد فى الدنيا ، يغنى به مغن ، فيضرب بعض الحاضرين بقضيب على نطع أو مخدة على توقيع غناءه ، فليت شعرى ما يقول فى سماع التغبير عنده كتفلة فى بحر ، قد اشتمل على كل مفسدة ، وجمع كل محرم ، فالله بين دينه كل متعلم مفتون ، وعابد جاهل .

قال سفيان بن عيينة : « كان يقال : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون » .

ومن تأمل الفساد الداخل على الأمة وجده من هذين المفتونين .

وأما مذهب الإمام أحمد : فقال عبد الله ابنه : « سألت أبى عن الغناء ؟ فقال : الغناء ينبت النفاق فى القلب ، لا يعجبنى » ثم ذكر قول مالك : « إنما يفعله عندنا الفساق» .

قال عبد الله : « وسمعت أبى يقول : سمعت يحيى القطان يقول : لو أن رجلا عمل بكل رخصة ، بقول أهل الكوفة فى النبيذ ، وأهل المدينة فى السماع ، وأهل مكة فى المتعة ، لكان فاسقًا » .

قال أحمد : وقال سليمان التيمى :« لو أخذت برخصة كل عالم ، أو زلة كل عالم ، اجتمع فيك الشر كله » .

ونص على كسر آلات اللهو كالطنبور وغيره ، إذا رآها مكشوفة ، وأمكنه كسرها وعنه فى كسرها إذا كانت مغطاة تحت ثيابه وعلم بها روايتان منصوصتان .

ونص فى أيتام ورثوا جارية مغنية ، وأرادوا بيعها ، فقال : « لا تباع إلا على أنها ساذجة ؛ فقالوا : إذا بيعت مغنية ساوت عشرين ألفًا أو نحوها ، وإذا بيعت ساذجة لا تساوى ألفين ؛ فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة » .

ولو كانت منفعة الغناء مباحة لما فوت هذا المال على الأيتام .

وأما سماعه من المرأة الأجنبية ، أو الأمرد فمن أعظم المحرمات ، وأشدها فساداً للدين .

قال الشافعى رحمه الله : « وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها ، فهو سفيه ترد شهادته » وأغلظ القول فيه . وقال : « هو دياثة ، فمن فعل ذلك كان ديوثا » .

قال القاضى أبو الطيب : وإنما جعل صاحبها سفيهاً ؛ لأنه دعا الناس إلى الباطل ، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيها فاسقًا .

قال : وكان الشافعى يكره التغبير ، وهو الطقطقة بالقضيب ، ويقول : « وضعته الزنادقة ليشغلوا به عن القرآن » .

قال : « وأما العود والطنبور وسائر الملاهى فحرام ، ومستمعه فاسق ، واتباع الجماعة أولى من اتباع رجلين مطعون عليهما » .

قلت : يريد بهما إبراهيم بن سعد ، وعبيد الله بن الحسن . فإنه قال : « وما خالف فى الغناء إلا رجلان: إبراهيم بن سعد ، فإن الساجى حكى عنه : أنه كان لا يرى به بأسا ، والثانى : عبيد الله بن الحسن العَنبرى ، قاضى البصرة ، وهو مطعون فيه » .

قال أبو بكر الطرطوسى : وهذه الطائفة مخالفة لجماعة المسلمين ؛ لأنهم جعلوا الغناء ديناً وطاعة ، ورأت إعلانه فى المساجد والجوامع ، وسائر البقاع الشريفة ، والمشاهد الكريمة ، وليس فى الأمة من رأى هذا الرأى .

قلت : ومن أعظم المنكرات : تمكينهم من إقامة هذا الشعار الملعون هو وأهله فى المسجد الأقصى ، عشية عرفة ، ويقيمونه أيضا فى مسجد الخيف أيام منى ، وقد أخرجناهم منه بالضرب والنفى مراراً ، ورأيتهم يقيمونه بالمسجد الحرام نفسه ، والناس فى الطواف ، فاستدعيت حزب الله وفرقنا شملهم ، ورأيتهم يقيمونه بعرفات ، والناس فى الدعاء ، والتضرع ، والابتهال والضجيج إلى الله ، وهم فى هذا السماع الملعون باليراع والدف والغناء .

فإقرار هذه الطائفة على ذلك فسق يقدح فى عدالة من أقرهم ومنصبه الدينى .

وما أحسن ما قال بعض العلماء وقد شاهد هذا وأفعالهم :

ألا قل لهم قول عبد نصوح ... وحق النصيحة أن تستمع
متى علم الناس فى ديننا ... بأن الغناء سنة تتبع ؟
وأن يأكل المرء أكل الحما ... ر ويرقص فى الجمع حتى يقع ؟
وقالوا سكرنا بحب الإله ... وما أسكر القوم إلا القضع
كذاك البهائم إن أُشبعت ... يرقصها ريها والشبع
ويسكره النااى ثم الغنا ... وَيس لو تليت ما انصدع
فيا للعقول ويا للنهى ... ألا منكر منكم للبدع ؟
تهان مساجدنا بالسما ... ع وتكرم عن مثل ذاك البيع ؟

وقال آخر ، وأحسن ما شاء :

ذهب الرجال وحال دون مجالهم زمر من الأوباش والأنذال
زعموا بأنهم على آثارهم ساروا ، ولكن سيرة البطال
لبسوا الدلوق مرقعا وتقشفوا كتقشف الأقطاب والأبدال
قطعوا طريق السالكين وغوروا سبل الهدى بجهالة وضلال
عمروا ظواهرهم بأثواب التقى وحشوا بواطنهم من الأدغال
إن قلت قال الله قال رسوله همزوك همز المنكر المتغالى
أو قلت قد قال الصحابة، والأولى تبعوهم فى القول والأعمال
أو قلت قال الآل آل المصطفى صلى عليه الله أفضل آل
أو قلت قال الشافعى وأحمد وأبو حنيفة والإمام العالى
أو قلت قال صحابهم من بعدهم فالكل عندهم كشبه خيال
ويقول قلبى قال لى عن سره عن سر سرِّى عن صفا أحوالى
عن حضرتى عن فكرتى عن خلوتى عن شاهدى عن واردى عن حالى
عن صفو وقتى عن حقيقة مشهدى عن سر ذاتى عن صفات فعالى
دعوى إذا حققتها ألفيتها ألقاب زور لفقت بمحال
تركوا الحقائق والشرائع واقتدوا بظواهر الجهال والضلال
جعلوا المرا فتحاً وألفاظ الخنا شطحا وصالوا صولة الإدلال
نبذوا كتاب الله خلف ظهورهم نبذ المسافر فضلة الأكال
جعلوا السماع مطية لهواهم وغلوا فقالوا فيه كل محال
هو طاعة هو قربة هو سنة صدقوا لذاك الشيخ ذى الإضلال
شيخ قديم صادهم بتحيل حتى أجابوا دعوة المحتال
هجروا له القرآن والأخبار والآثار إذ شهدت لهم بضلال
ورأوا سماع الشعر أنفع للفتى من أوجه سبع لهم بتوال
تالله ما ظفر العدو بمثلها من مثلهم واخيبة الآمال

نصب الحبال لهم فلم يقعوا بها ... فأتى بذا الشرك المحيط الغالى
فإذا بهم وسط العرين ممزقى ... الأثواب والأديان والأحوال
لا يسمعون سوى الذى يهوونه ... شغلا به عن سائر الأشغال
ودعوا إلى ذات اليمين فأعرضوا ... عنها وسار القوم ذات شمال
خروا على القرآن عند سماعه ... صما وعميانا ذوى إهمال
وإذا تلا القارى عليهم سورة ... فأطالها عدوه فى الأثقال
ويقول قائلهم أطلت وليس ذا ... عشر ، فخفف أنت ذو إملال
هذا وكم لغو وكم صخب وكم ... ضحك بلا أدب ولا إجمال
حتى إذا قام السماع لديهم ... خشعت له الأصوات بالإجلال
وامتدت الأعناق تسمع وحى ذا ... ك الشيخ من مترنم قوال
وتحركت تلك الرؤوس وهزها ... طرب وأشواق لنيل وصال
فهنالك الأشواق والأشجان ... والأحوال لا أهلا بذى الأحوال
تالله لو كانوا صحاة أبصروا ... ماذا دهاهم من قبيح فعال
لكنما سكر السماع أشد من ... سكر المدام وذا بلا إشكال
فإذا هما اجتمعا لنفس مرة ... نالت من الخسران كل منال
يا أمة لعبت بدين نبيها ... كتلاعب الصبيان فى الأوحال
أشمتمو أهل الكتاب بدينكم ... والله لن يرضوا بذى الأفعال
كم ذا نُعيَّرُ منهم بفريقكم ... سرا وجهرا عند كل جدال ؟
قالوا لنا دين عبادة أهله ... هذا السماع فذاك دين محال
بل لا تجىء شريعة بجوازه ... فسلوا الشرائع تكتفوا بسؤال
لو قلتمو فسق ،ومعصية ،وتز ... يين من الشيطان للأنذال
ليصد عن وحى الإله ودينه ... وينال فيه حيلة المحتال
كنا شهدنا أن ذا دين أتى ... بالحق ، دين الرسل لا بضلال
والله منهم قد سمعنا ذا إلى ... الآذان من أفواههم بمقال

وتمام ذاك القول بالحيل التى فسخت عقود الدين فسخ فصال
جعلته كالثوب المهلهل نسجه فيه تفصله من الأوصال
ما شئت من مكر ومن خدع ومن حيل وتلبيس بلا إقلال
فاحتل على إسقاط كل فريضة وعلى حرام الله بالإحلال
واحتل على المظلوم يقلب ظالما وعلى الظلوم بضد تلك الحال
واقلب وحَوّل فالتحيل كله فى القلب والتَحويل ذو إعمال
إن كنت تفهم ذا ظفرت بكل ما تبغى من الأفعال والأقوال
واحتل على شرب المدام وسمها غير اسمها واللفظ ذو إجمال
واحتل على أكل الربا واهجر شنا عة لفظه واحتل على الأبدال
واحتل على الوطء الحرام ولا تقل هذا زناً وانكح رخى البال
واحتل على حل العقود وفسخها بعد اللزوم وذاك ذو إشكال
إلا على المحتال فهو طبيبها يا محنة الأديان بالمحتال
واحتل على نقض الوقوف، وعودها طلقا ولا تستحى من إبطال
فكر وقدر ثم فصل بعد ذا فإذا غلبت فلج فى الإشكال
واحتل على الميراث ، فانزعه م الوراث ثم ابلع جميع المال
قد أثبتوا نسبًا وحصراً فيكم حتى تحوز الإرث للأموال
واعمد إلى تلك الشهادة واجعل الـ إبطال همك تحظ بالإبطال
فالحصر إثبات ونفى غير معلوم وهذا موضع الإشكال
واحتل على مال اليتيم فإنه رزق هنى من ضعيف الحال
لاسوطه تخشى ولا من سيفه والقول قولك فى نفاذ المال
واحتل على أكل الوقوف فإنها مثل السوائب ربة الإهمال
فأبو حنيفة عنده هى باطل فى الأصل لم تحتج إلى إبطال
فالمال مال ضائع أربابه هلكوا فخذ منه بلا مكيال
وإذا تصح بحكم قاض عادل فشروطها صارت إلى اضمحلال

قد عطل الناس الشروط وأهملوا مقصودها فالكل في إهمال
وتمام ذاك قضاتنا وشهودنا فاسأل بهم ذا خبرة بالحال
أما الشهود فهم عدول عن طريق العدل في الأقوال والأفعال
زوراً وتنميقًا وكتمانًا وتلبيساً ، وإسرافاً بأخذ نوال
ينسى شهادته ويحلف إنه ناس لها ، والقلب ذو إغفال
فإذا رأى المنقوش ، قال : ذكرتها يا للمذكر جئت بالآمال
ويقول قائلهم : أخوض النار في نزر يسير ؟ ذاك عين خبال
ثقل لي الميزان ، إني خائض للمنكبين أجر بالأغلال
أما القضاة فقد تواتر عنهم ما قد سمعت فلا تفه بمقال
ماذا تقول لمن يقول حكمت أنك فاسق أو كافر في الحال؟
فإذا استغثت أغثت بالجلد الذي قد طرقوه كمثل طرق نعال
فيقول طق فتقول قط فتعارضا ويكون قول الجلد ذا إعمال
فأجارك الرحمن من ضرب ومن عرض ومن كذب وسوء مقال
هذا ونسبة ذاك أجمعه إلى دين الرسول وذا من الأموال
حاشا رسول الله يحكم بالهوى والجهل تلك حكومة الضلال
والله لو عرضت عليه كلها لاجتثها بالنقض والإبطال
إلا التي منها يوافق حكمه فهو الذي يلقاه بالإقبال
أحكامه عدل وحق كلها في رحمة ومصالح وحلال
شهدت عقول الخلق قاطبة مما في حكمه من صحة وكمال
فإذا أتت أحكامه ألفينها وفق العقول تزيل كل عقال
حتى يقول السامعون لحكمه ما بعد هذا الحق غير ضلال
لله أحكام الرسول وعدلها بين العباد ونورها المتلالي
كانت بها في الأرض أعظم رحمة والناس في سعد وفي إقبال
أحكامهم تجري على وجه السدا د وحالهم في ذاك أحسن حال

أمـنًا وعـــــزا فى هـدى وتراحـم وتواصل ومـــحـبـــة وجـلال
فـتـغيـرت أوضـاعـها حـتى غـدت منـكورة بـتلـوث الأعــــمـــال
فـتــغـيـرت أعـــمـالهم وتـبـدلت أحـوالـهم بالنقص بـعـد كـمـال
لو كـــان دين الله فـيـــهم قـائـمـاً لرأيتــهـم فى أحـسن الأحــوال
وإذا همـــو حكمـــوا بحكم جـائر حـكمــــــوا لمنكره بـكل وبـال
قالوا : أتنكر حكم شرع محمد ؟ حـاشا لذا الشـرع الشريف العـالى
عجت فـروج الناس ، ثم حقـوقهم لـله بـالـبكـرات والآصـــــال
كم تســـتـــحـل بكل حكـم باطل لا يرتـضـــيــه ربنا المتـعـــالى
والكل فى قعر الجحيم سوى الذى يقــــضـى بديـن اللـه لا لنـوال
أو مـا سـمـعت بأن ثـلثـيـهم غـدا فى النار فى ذاك الـزمـان الخـالى؟
وزمــــاننا هذا ، فـــربك عـــالم هل فـيه ذاك الثلث أم هو خـالى ؟
يا بـاغى الإحـســـان يطلـب ربه ليـــفـــوز منه بغـــاية الآمـــال
انظر إلـى هدى الصـحــابة والذى كـــانوا عليـه فـى الزمـان الخـــالى
واسلك طريق القـوم أين تيـمـمـوا خـذ يمنة مـا الدرب ذات شـمـال
تالله مـا اخـتـاروا لأنفسـهم سـوى سـبل الهـدى فى القـول والأفعـال
درجـوا عـلى نهج الرســول وهديه وبه اقـــتـدوا فى سـائـر الأحـوال
نعم الرفـــيق لطالب يبـغـى الهـدى فـمـآلـه فى الحـشـر خـيـر مـآل
القـــانـتـين المخـبـتـين لـربهم النـاطقــيـن بأصــدق الأقـــوال
التـــاركـــيـن لكل فـــعـل سيء والعـــاملين بـأحـســن الأعــمـــال
أهواؤهـم تبع لـدين نبـــيـــــهم وسـواهـم بالضـد فـى ذى الحـال
مـــاشــانهـم فى دينهـم نقص ولا فى قـولهم شطح الجـهـول الغـالى
عـــملوا بما علـمـوا ولـم يتكلفـــوا فلذاك مـا شـابـوا الهـدى بضـلال
وسـواهم بالضــد فى الأمـرين قـد تركـوا الهدى ودعوا إلـى الإضلال
فـــهم الأدلة للحــيـارى من يسـر بهـــداهم لم يخش مـن إضــلال

وهم النجوم هداية وإضاءة ... وعلو منزلة وبعد منال
يمشون بين الناس هونًا نطقهم ... بالحق ، لا بجهالة الجهال
حلما وعلمًا مع تقى وتواضع ... ونصيحة مع رتبة الإفضال
يحيون ليلهم بطاعة ربهم ... بتلاوة وتضرع وسؤال
وعيونهم تجرى بفيض دموعهم ... مثل انهمال الوابل الهطال
فى الليل رهبان وعند جهادهم ... لعدوهم من أشجع الأبطال
وإذا بدا علم الرهان رأيتهم ... يتسابقون بصالح الأعمال
بوجوههم أثر السجود لربهم ... وبها أشعة نوره المتلالى
ولقد أبان لك الكتاب صفاتهم ... فى سورة الفتح المبين العالى
وبرابع السبع الطوال صفاتهم ... قوم يحبهم ذوو إدلال
وبراءة والحشر فيها وصفهم ... وبهل أتى وبسورة الأنفال

هذا السماع الشيطانى المضاد للسماع الرحمانى ، له فى الشرع بضعة عشر اسمًا :

اللهو ، واللغو ، والباطل ، والزور ، والمكاء ، والتصدية ، ورقية الزنا ، وقرآن الشيطان ، ومنبت النفاق فى القلب ، والصوت الأحمق ، والصوت الفاجر ، وصوت الشيطان ، ومزمور الشيطان ، والسمود :

أسماؤه دلت على أوصافه ... تبا لذى الأسماء والأوصاف

فنذكر مخازى هذه الأسماء ، ووقوعها عليه فى كلام الله وكلام رسوله ، والصحابة ، ليعلم أصحابه وأهله بما به ظفروا ، وأى تجارة رابحة خسروا :

فدع صاحب المزمار والدف والغنا ... وما اختاره عن طاعة الله مذهبا
ودعه يعش فى غيه وضلاله ... على تاتنا يحيا ويبعث أشيبا
وفى تنتنا يوم المعاد نجاته ... إلى الجنة الحمراء يدعى مقربا
سيعلم يوم العرض أى بضاعة ... أضاع وعند الوزن ماخف أو ربا
ويعلم ما قد كان فيه حياته ... إذا حصلت أعماله كلها هبا

دعــاه الهــدى والغى من ذا يجيبه؟ فـقال لداعـى الغـى أهـلاً ومـرحـبـا
وأعرض عن داعى الهدى ، قائلا له هـواي إلـى صـوت المـعازف قد صبا
يــراع ودف بالـصنــوج وشـــاهـد وصـوت مـغن صـوته يقـنص الـطبا
إذا مـــا تــغنــى فالــظبـاء تجـيبه إلـى أن تـراهـا حـوله تـشبـه الـدبـا
فـــما شئت مـن صيد بغير تـطارد ووصـل حبيب كـان بالـهـجر عـذبـا
فــيا آمـرى بالرشـد لو كنت حاضرا لـكـان تـوالـى الـلهـو عـندك أقـربا

فالاسم الأول : اللهو ، ولهو الحديث .

قال تعلى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧)** ﴾ [لقمان] .

قال الواحدى وغيره : أكثر المفسرين : على أن المراد بلهو الحديث : الغناء ، قاله ابن عباس فى رواية سـعيد بن جبير ومـقسم عنه ، وقاله عبد الله بن مـسعود ، فى رواية أبى الصهباء عنه ، وهو قول مجاهد وعكرمة .

وروى ثور بن أبى فاختـة عن أبيه عن ابن عباس فى قـوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ** ﴾ قال : «هو الرجل يشترى الجارية تغنيه ليلا ونهاراً » .

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد : « هو اشتراء المغنى والمغنية بالمال الكثير ، والاستماع إليه ، وإلى مثله من الباطل » وهذا قول مكحول .

وهذا اختيار أبى إسحاق أيضاً .

وقال : أكثر ما جاء فى التفـسير : أن لهو الحديث ههنا هو الغناء ؛ لأنه يلهى عن ذكر الله تعالى .

قـال الواحدى : قـال أهل المعـانى : ويدخل فى هذا كل من اخـتار اللهـو ، والغناء والمزاميـر والمعازف على القرآن ، وإن كـان اللفظ قد ورد بالشراء ، فلفظ الشـراء يذكر فى الاستبدال ، والاخـتيار ، وهو كثير فى القرآن . قال : ويدل على هذا : مـا قاله قتادة فى هذه الآية « لعله ألا يكون أنـفق مالاً » ، قـال : « وبحـسب المرء من الضـلالة أن يختـار حديث الباطل على حديث الحق » .

قال الواحدى : وهذه الآية على هذا التفسير تدل على تحريم الغناء ، ثم ذكر كلام الشافعى فى رد الشهادة بإعلان الغناء .

قال : وأما غناء القينات : فذلك أشد ما فى الباب ، وذلك لكثرة الوعيد الوارد فيه ، وهو ما روى أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « من سمع إلى قينة صب فى أذنيه الآنك يوم القيامة » (١) الآنك : الرصاص المذاب .

وقد جاء تفسير لهو الحديث بالغناء مرفوعاً إلى النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ففى مسند الإمام أحمد ، ومسند عبد الله بن الزبير الحميدى ، وجامع الترمذى من حديث أبى أمامة ، والسياق للترمذى : أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : «لا تبيعوا القينات ، ولا تشتروهن ، ولا تعلموهن ، ولا خير فى تجارة فيهن ، وثمنهن حرام. فى مثل هذا دلت هذه الآية ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ (٢) وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد الإلهانى عن القاسم، فعبيد الله بن زحر ثقة ، والقاسم ثقة ، وعلى ضعيف ، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات، فنذكرها إن شاء تعالى ، ويكفى تفسير الصحابة والتابعين للهو الحديث : بأنه الغناء ، فقد صح ذلك عن ابن عباس ، وابن مسعود .

قال أبو الصهباء : « سألت ابن مسعود عن قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ** ﴾ فقال : والله الذى لا إله غيره هو الغناء ـ يرددها ثلاث مرات » .

وصح عن ابن عمر رضي الله عنهما: « أنه الغناء » .

قال الحاكم أبو عبد الله فى التفسير ، من كتاب المستدرك : « ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل عند الشيخين : حديث مسند » .

وقال فى موضع آخر من كتابه : « هو عندنا فى حكم المرفوع » .

وهذا ، وإن كان فيه نظر ، فلا ريب أنه أولى بالقبول من تفسير من بعدهم . فهم أعلم الأمة بمراد الله عز وجل من كتابه ، فعليهم نزل ، وهم أول من خوطب به من الأمة، وقد شاهدوا تفسيره من الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم علمًا وعملا ، وهم العرب الفصحاء على الحقيقة ، فلا يعدل عن تفسيرهم ما وجد إليه سبيل .

---

(١) كنز العمال (٤٠٦٦٩) وعزاه لابن صصرى فى أماليه ، وابن عساكر .

(٢) الترمذى (٣١٩٥) فى تفسير القرآن ، باب : ومن سورة لقمان وقال : « غريب » ، وأحمد (٥ / ٢٦٤) ، ومسند الحميدى (٩١٠) .

ولا تعارض بين تفسير « لهو الحديث » بالغناء ، وتفسيره : بأخبار الأعاجم وملوكها ، وملوك الروم ، ونحو ذلك مما كان النضر بن الحارث يحدث به أهل مكة ، يشغلهم به عن القرآن، فكلاهما لهو الحديث ؛ ولهذا قال ابن عباس : « لهو الحديث : الباطل والغناء ».

فمن الصحابة من ذكر هذا ، ومنهم من ذكر الآخر ، ومنهم من جمعهما .

والغناء أشد لهواً ، وأعظم ضرراً من أحاديث الملوك وأخبارهم ، فإنه رقية الزنا ، ومنبت النفاق ، وشرك الشيطان ، وخمرة العقل . وصده عن القرآن أعظم من صد غيره من الكلام الباطل ، لشدة ميل النفوس إليه ، ورغبتها فيه .

إذا عرف هذا ، فأهل الغناء ، ومستمعوه لهم نصيب من هذا الذم ، بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن ، وإن لم ينالوا جميعه ، فإن الآيات تضمنت ذم من استبدل لهو الحديث بالقرآن ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً ، وإذا يتلى عليه القرآن ولى مستكبراً كأن لم يسمعه ، كأن فى أذنيه وقرا ، وهو الثقل والصمم ، وإذا علم منه شيئًا استهزأ به، فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفراً ، وإن وقع بعضه للمغنِّين ومستمعيهم ، فلهم حصة ونصيب من هذا الذم .

يوضحه : أنك لا تجد أحداً عنى بالغناء وسماع آلاته ، إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى ، علمًا وعملاً ، وفيه رغبة من استماع القرآن إلى استماع الغناء ، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن عدل عن هذا إلى ذاك ، وثقل عليه سماع القرآن ، وربما حمله الحال على أن يسكت القارئ ويستطيل قراءته ، ويستزيد المغنى ويستقصر نوبته ، وأقل ما فى هذا : أن يناله نصيب وافر من هذا الذم ، إن لم يحظ به جميعه .

والكلام فى هذا مع من فى قلبه بعض حياة يحس بها ، فأما من مات قلبه ، وعظمت فتنته ، فقد سد على نفسه طريق النصيحة : **﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** [المائدة : ٤١]

فصل

الاسم الثانى والثالث : الزور ، واللغو .

قال تعالى : **﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) ﴾** [الفرقان] .

قال محمد بن الحنفية : « الزور ههنا الغناء » وقاله ليث عن مجاهد . وقال الكلبى : لا يحضرون مجالس الباطل .

واللغو فى اللغة : كل ما يلغى ويطرح ، والمعنى : لا يحضرون مجالس الباطل . وإذا مروا بكل ما يلغى من قول وعمل . أكرموا أنفسهم أن يقفوا عليه ، أو يميلوا إليه . ويدخل فى هذا : أعياد المشركين ، كما فسرها به السلف ، والغناء ، وأنواع الباطل كلها .

قال الزجاج : « لا يجالسون أهل المعاصى ، ولا يمالئونهم عليها ، ومروا مر الكرام الذين لا يرضون باللغو ؛ لأنهم يكرمون أنفسهم عن الدخول فيه ، والاختلاط بأهله » .

وقد روى أن عبد الله بن مسعود ﷺ : مر بلهو فأعرض عنه ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « إن أصبح ابن مسعود لكريمًا » (١) .

وقد أثنى الله ـ سبحانه ـ على من أعرض عن اللغو إذا سمعه بقوله : ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ** ﴾ [القصص : ٥٥] .

وهذه الآية ، وإن كان سبب نزولها خاصًا ، فمعناها عام ، متناول لكل من سمع لغواً فأعرض عنه ، وقال بلسانه أو بقلبه لأصحابه : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » .

وتأمل كيف قال سبحانه : ﴿ **لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ** ﴾ [الفرقان : ٧٢] ولم يقل : بالزور ؛ لأن « يشهدون » بمعنى : يحضرون ، فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور ، فكيف بالتكلم به ، وفعله ؟ والغناء من أعظم الزور .

والزور : يقال على الكلام الباطل ، وعلى العمل الباطل ، وعلى العين نفسها ، كما فى حديث معاوية لما أخذ قصة من شعر يوصل به ، فقال « هذا الزور » ، فالزور : القول: والفعل ، والمحل .

وأصل اللفظة من الميل . ومنه الزور ، بالفتح . ومنه : زرت فلانًا ، إذا ملت إليه، وعدلت إليه ، فالزور : ميل عن الحق الثابت إلى الباطل الذى لا حقيقة له قولا وفعلا .

فصل

الاسم الرابع : الباطل .

والباطل : ضد الحق ، يراد به المعدوم الذى لا وجود له ، والموجود الذى مضرة

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ١٣١) ، والدر المنثور (٥ / ٨٠ ، ٨١) .

وجوده أكثر من منفعته .

فمن الأول : قول الموحد : كل إله سوى الله باطل . ومن الثانى قوله : السحر باطل .والكفر باطل ، قال تعالى : ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾ [الإسراء : ٨١]

فالباطل إما معدوم لا وجود له ، وإما موجود لا نفع له . فالكفر ، والفسوق ، والعصيان والسحر ، والغناء ، واستماع الملاهى : كله من النوع الثانى .

قال ابن وهب : أخبرنى سليمان بن بلال عن كثير بن زيد : أنه سمع عبيد الله يقول للقاسم بن محمد : « كيف ترى فى الغناء ؟ فقال له القاسم : هو باطل . فقال : قد عرفت أنه باطل ، فكيف ترى فيه ؟ فقال القاسم : أرأيت الباطل ، أين هو ؟ قال فى النار، قال : فهو ذاك » .

وقال رجل لابن عباس رضي الله عنهما : « ما تقول فى الغناء ، أحلال هو ، أم حرام ؟ فقال : لا أقول حراما إلا ما فى كتاب الله . فقال : أفحلال هو ؟ فقال : ولا أقول ذلك . ثم قال له : أرأيت الحق والباطل ، إذا جاءا يوم القيامة ، فأين يكون الغناء ؟ فقال الرجل : يكون مع الباطل ، فقال له ابن عباس : اذهب فقد أفتيت نفسك » .

فهذا جواب ابن عباس رضي الله عنهما عن غناء الأعراب ، الذى ليس فيه مدح الخمر والزنا واللواط ، والتشبيب بالأجنبيات ، وأصوات المعازف والآلات المطربات ، فإن غناء القوم لم يكن فيه شىء من ذلك ، ولو شاهدوا هذا الغناء لقالوا فيه أعظم قول ، فإن مضرته وفتنته فوق مضرة شرب الخمر بكثير ، وأعظم من فتنته .

فمن أبطل الباطل أن تأتى شريعة بإباحته ، فمن قاس هذا على غناء القوم فقياسه من جنس قياس الربا على البيع ، والميتة على المذكاة ، والتحليل الملعون فاعله على النكاح الذى هو سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وهو أفضل من التخلى لنوافل العبادة ، فلو كان نكاح التحليل جائزاً فى الشرع لكان أفضل من قيام الليل ، وصيام التطوع ، فضلا أن يلعن فاعله .

فصل

وأما اسم المكاء والتصدية ، فقال تعالى عن الكفار : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال : ٣٥] .

قال ابن عباس ، وابن عمر . وعطية ، ومجاهد ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة «المكاء : الصفير ، والتصدية : التصفيق » .

وكذلك قال أهل اللغة : المكاء : الصفير . يقال : مكا ، يمكو ، مكاء . إذا جمع يديه ثم صفر فيهما . ومنه : مكت است الدابة ، إذا خرجت منها الريح بصوت . ولهذا جاء على بناء الأصوات ، الكرغاء ، والعوا ، والثغاء . قال ابن السكيت : الأصوات كلها مضمومة ، إلا حرفين : النداء ، والغناء .

وأما التصدية : فهى فى اللغة : التصفيق . يقال : صدى يصدى تصدية ، إذا صفق بيديه . قال حسان بن ثابت ، يعيب المشركين بصفيرهم وتصفيقهم :

إذا قـــام المــلائـــكـــة انـبــعـثـتم صلاتـكم التـصـدى والـمـكـاء

وهكذا الأشباه . يكون المسلمون فى الصلوات الفرض والتطوع ، وهم فى الصفير والتصفيق .

قال ابن عباس « كانت قريش يطوفون بالبيت عراة ، ويصفرون ويصفقون » .

وقال مجاهد « كانوا يعارضون النبى ﷺ فى الطواف ويصفرون ويصفقون ، يخلطون عليه طوافه وصلاته » ونحوه عن مقاتل .

ولا ريب أنهم كانوا يفعلون هذا وهذا .

فالمتقربون إلى الله بالصفير والتصفيق أشباه النوع الأول ، وإخوانهم المخلطون به على أهل الصلاة والذكر والقراءة أشباه النوع الثانى .

قال ابن عرفة ، وابن الأنبارى : المكاء والتصدية ليسا بصلاة ، ولكن الله تعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التى أمروا بها :المكاء والتصدية . فألزمهم ذلك عظيم الأوزار ، وهذا كقولك :زرته ، فجعل جفائى صلتى ، أى أقام الجفاء ، مقام الصلة .

والمقصود :أن المصفقين والصفارين فى يراع أو مزمار ونحوه فيهم شبه من هؤلاء ، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر ، فلهم قسط من الذم ، بحسب تشبههم بهم ؛ وإن لم يتشبهوا بهم فى جميع مكائهم وتصديتهم ، والله ـ سبحانه ـ لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه فى الصلاة إذا نابهم أمر ، بل أمروا بالعدول عنه إلى التسبيح ؛ لئلا يتشبهوا بالنساء ، فكيف إذا فعلوه لا لحاجة ، وقرنوا به أنواعا من المعاصى قولاً وفعلا ؟

فصل

وأما تسميته رقية الزنى، فهو اسم موافق لمسماه ، ولفظ مطابق لمعناه ، فليس فى رقى الزنى أنجع منه ، وهذه التسمية معروفة عن الفضيل بن عياض .

قال ابن أبى الدنيا : أخبرنا الحسين بن عبد الرحمن قال : قال فضيل بن عياض : «الغناء رقية الزنى » .

قال: وأخبرنا إبراهيم بن محمد المروزى عن أبى عثمان الليثى قال قال يزيد بن الوليد: « يا بنى أمية ، إياكم والغناء ، فإنه ينقص الحياء ، ويزيد فى الشهوة ،ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الخمر ، ويفعل ما يفعل السكر ، فإنه كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء ، فإن الغناء داعية الزنى » .

قال :وأخبرنى محمد بن الفضل الأزدى قال : نزل الحطيئة برجل من العرب ، ومعه ابنته مليكة ، فلما جنه الليل سمع غناء . فقال لصاحب المنزل :كف هذا عنى ، فقال وما تكره من ذلك ؟ فقال : إن الغناء رائد من رادة الفجور ، ولا أحب أن تسمعه هذه ، يعنى ابنته ، فان كففته وإلا خرجت عنك .

ثم ذكر عن خالد بن عبد الرحمن قال : « كنا فى عسكر سليمان بن عبد الملك ، فسمع غناء من الليل ، فأرسل إليهم بكرة ، فجيء بهم . فقال :إن الفرس ليصهل فتستودق له الرمكة وإن الفحل ليهدر فتضبع له الناقة ، وإن التيس لينب فتستحرم له العنز ، وإن الرجل ليتغنى فتشتاق إليه المرأة . ثم قال :اخصوهم ، فقال عمر بن عبد العزيز : هذه المثلة ، ولا تحل ، فخل سبيلهم قال . فخلى سبيلهم » .

قال : وأخبرنا الحسين بن عبد الرحمن قال:قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : « جاور الحطيئة قومًا من بنى كلب ، فمشى ذو الدِّين منهم بعضهم إلى بعض ، وقالوا : يا قوم ، إنكم قد رميتم بداهية هذا الرجل شاعر ، والشاعر يظن فيحقق ، ولا يستأنى فيتثبت ، ولا يأخذ الفضل فيعفو ،فأتوه وهو فى فناء خبائه ، فقالوا :يا أبا مليكة ، إنه قد عظم حق علينا بتخطيك القبائل إلينا،وقد أتيناك لنسأل عما تحب ، فنأتيه ، وعما تكره ، فنزدجر عنه، فقال :جنبونى ندى مجلسكم ، ولا تسمعونى أغانى شبيبتكم ، فإن الغناء رقية الزنى » .

فإذا كان هذا الشاعر المفتون اللسان ، الذى هابت العرب هجاءه خاف عاقبة الغناء ، وأن تصل رقيته إلى حرمته ، فما الظن بغيره ؟

ولا ريب أن كل غيور يجنب أهله سماع الغناء ، كما يجنبهن أسباب الريب ، ومن طرق أهله إلى سماع رقية الزنى فهو أعلم بالإثم الذى يستحقه .

ومن الأمر عند القوم : أن المرأة إذا استصعبت على الرجل اجتهد أن يسمعها صوت الغناء ، فحينئذ تعطى الليان .

وهذا لأن المرأة سريعة الانفعال للأصوات جداً ، فإن كان الصوت بالغناء ، صار انفعالها من وجهين :من جهة الصوت ، ومن جهة معناه . ولهذا قال النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لأنجشة حاديه : « يا أنجشة ، رويدك ، رفقًا بالقوارير »[1] يعنى النساء .

فأما إذا اجتمع إلى هذه الرقية الدف . والشبابة ، والرقص بالتخنث والتكسر . فلو حبلت المرأة من غناء لحبلت من هذا الغناء .

فلعمر الله ، كم من حرة صارت بالغناء من البغايا ، وكم من حر أصبح به عبداً للصبيان أو الصبايا ، وكم من غيور تبدل به اسمًا قبيحًا بين البرايا ، وكم من ذى غنى وثروة أصبح بسببه على الأرض بعد المطارف والحشايا ، وكم من معافى تعرض له فأمسى ، وقد حلت به أنواع البلايا ، وكم أهدى للمشغوف به من أشجان وأحزان ، فلم يجد بدا من قبول تلك الهدايا ، وكم جرع من غصة وأزال من نعمة ، وجلب من نقمة ، وذلك منه من إحدى العطايا ، وكم خبأ لأهله من آلام منتظرة ، وغموم متوقعة ،وهموم مستقبلة .

فسل ذا خبرة ينبيك عنه ... لتعلم كم خبايا فى الزوايا
وحاذر إن شغفت به سهامًا ... مريشة بأهداب المنايا
إذا ما خالطت قلبًا كئيبًا ... تمزق بين أطباق الرزايا
ويصبح بعد أن قد كان حرا ... عفيف الفرج عبداً للصبايا
ويعطى من به يغنى غناء ... وذلك منه من شر العطايا

---

(١) البخارى (٦١٦١) فى الأدب ، باب : ما جاء فى قول الرجل : « ويلك ، ومسلم (٢٣٢٣/ ٧٠) فى الفضائل ، باب : رحمة النبى ﷺ للنساء ، وأحمد (٣ / ١٠٧) .

فصل

وأما تسميته : منبت النفاق ، فقال على بن الجعد : حدثنا محمد بن طلحة عن سعيد ابن كعب المروزى عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : « الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء الزرع » .

وقال شعبة : حدثنا الحكم عن حماد عن إبراهيم قال : قال عبد الله بن مسعود : «الغناء ينبت النفاق فى القلب » (١) .

وهو صحيح عن ابن مسعود من قوله . وقد روى عن ابن مسعود مرفوعاً . رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الملاهى .

قال : أخبرنا عصمة بن الفضل حدثنا حرمى بن عمارة حدثنا سلام بن مسكين حدثنا شيخ عن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » (٢) .

وقد تابع حرمى بن عمارة عليه بهذا الإسناد والمتن مسلم بن إبراهيم .

قال أبو الحسين بن المنادى فى كتاب أحكام الملاهى : حدثنا محمد بن على بن عبد الله بن حمدان المعروف بحمدان الوراق ، حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا سلام بن مسكين ـ فذكر الحديث . فمداره على هذا الشيخ المجهول . وفى رفعه نظر . والموقوف أصح .

فإن قيل : فما وجه إنباته للنفاق فى القلب من بين سائر المعاصى ؟

قيل : هذا من أدل شىء على فقه الصحابة فى أحوال القلوب وأعمالها ، ومعرفتهم بأدويتها وأدوائها ، وأنهم هم أطباء القلوب ، دون المنحرفين عن طريقتهم ، الذين داووا أمراض القلوب بأعظم أدوائها . فكانوا المداوى من السقم بالسم القاتل ، وهكذا والله فعلوا بكثير من الأدوية التى ركبوها ، أو بأكثرها ، فاتفق قلة الأطباء ، وكثرة المرضى ، وحدوث أمراض مزمنة لم تكن فى السلف ، والعدول عن الدواء النافع ، الذى ركبه الشارع ، وميل المريض إلى ما يقوى مادة المرض ، فاشتد البلاء وتفاقم الأمر ، وامتلأت الدور والطرقات والأسواق من المرضى ، وقام كل جهول يطبب الناس .

فاعلم أن للغناء خواص لها تأثير فى صبغ القلب بالنفاق ، ونباته فيه نبات الزرع بالماء.

(١ ، ٢) البيهقى فى الكبرى (١٠ / ٢٢٣) فى الشهادات ، باب : الرجل يغنى فيتخذ الغناء صناعة .

فمن خواصه : أنه يلهى القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره ، والعمل بما فيه ، فإن القرآن والغناء لا يجتمعان فى القلب أبداً . لما بينهما من التضاد ، فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى ، ويأمر بالعفة ، ومجانبة شهوات النفوس ، وأسباب الغى ، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان ، والغناء يأمر بضد ذلك كله ، ويحسنه ، ويهيج النفوس إلى شهوات الغى ، فيثير كامنها ، ويزعج قاطنها ، ويحركها إلى كل قبيح ، ويسوقها إلى وصل كل مليحة ومليح . فهو والخمر رضيعا لبان،وفى تهييجهما على القبائح فرسا رهان ، فإنه صنو الخمر رضيعه ونائبه وحليفه ، وخدينه وصديقه ، عقد الشيطان بينهما عقد الإخاء الذى لا يفسخ ، وأحكم بينهما شريعة الوفاء التى لا تنسخ ، وهو جاسوس القلب ، وسارق المروءة، وسوس العقل ، يتغلغل فى مكامن القلوب ، ويطلع على سرائر الأفئدة ، ويدب إلى محل التخيل ، فيثير ما فيه من الهوى والشهوة ، والسخافة ، والرقاعة ، والرعونة ، والحماقة فبينا ترى الرجل وعليه سمة الوقار وبهاء العقل ،وبهجة الإيمان،ووقار الإسلام ، وحلاوة القرآن ، فإذا استمع الغناء ومال إليه نقص عقله ، وقل حياؤه ، وفارقه بهاؤه ، وتخلى عنه وقاره ، وفرح به شيطانه ، وشكا إلى الله تعالى إيمانه ، وثقل عليه قرآنه . وقال : يا رب ، لا تجمع بينى وبين قرآن عدوك فى صدر واحد ، فاستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه ، وأبدى من سره ما كان يكتمه ، وانتقل من الوقار والسكينة إلى كثرة الكلام والكذب ، والزهزهة والفرقعة بالأصابع ، فيميل برأسه ، ويهز منكبيه ، ويضرب الأرض برجليه ، ويدق على أم رأسه بيديه ، ويثب وثبات الدباب ، ويدور دوران الحمار حول الدولاب ، ويصفق بيديه تصفيق النسوان ، ويخور من الوجد ولا كخوار الثيران ، وتارة يتأوه تأوه الحزين ، وتارة يزعق زعقات المجانين ، ولقد صدق الخبير به من أهله حيث يقول :

أتذكر ليلة وقد اجتمعنا ... على طيب السماع إلى الصباح ؟
ودارت بيننا كأس الأغانى ... فأسكرت النفوس بغير راح
فلم تر فيهم إلا نشاوى ... سروراً والسرور هنا صاحى
إذا نادى أخو اللذات فيه ... أجاب اللهو حى على السماح
ولم نملك سوى المهجات شيئًا ... أرقناها لألحاظ الملاح

وقال بعض العارفين : السماع يورث النفاق فى قوم ، والعناد فى قوم ، والكذب فى قوم ، والفجور فى قوم ، والرعونة فى قوم .

وأكثر ما يورث عشق الصور ، واستحسان الفواحش ، وإدمانه يثقل القرآن على

القلب، ويكرهه إلى سماعه بالخاصية ، وإن لم يكن هذا نفاقا فما للنفاق حقيقة .

وسر المسألة : أنه قرآن الشيطان فلا يجتمع هو وقرآن الرحمن فى قلب أبدا ، وأيضا فإن أساس النفاق : أن يخالف الظاهر الباطن وصاحب الغناء بين أمرين ، إما أن يتهتك فيكون فاجرا ، أو يظهر النسك فيكون منافقا ، فإنه يظهر الرغبة فى الله والدار الآخرة وقلبه يغلى بالشهوات ، ومحبة ما يكرهه الله ورسوله : من أصوات المعازف ، وآلات اللهو، وما يدعو إليه الغناء ويهيجه ، فقلبه بذلك معمور ، وهو من محبة ما يحبه الله ورسوله وكراهة ما يكرهه قفز ، وهذا محض النفاق .

وأيضا ، فإن الإيمان قول وعمل : قول بالحق ، وعمل بالطاعة ، وهذا ينبت على الذكر، وتلاوة القرآن ، والنفاق قول الباطل ، وعمل البغى ، وهذا ينبت على الغناء .

وأيضا ، فمن علامات النفاق ، قلة ذكر الله ، والكسل عند القيام إلى الصلاة ، ونقر الصلاة ، وقل أن تجد مفتونا بالغناء إلا وهذا وصفه .

وأيضا ، فإن النفاق مؤسس على الكذب ، والغناء من أكذب الشعر ، فإنه يحسن القبيح ويزينه ، ويأمر به ، ويقبح الحسن ويزهد فيه ، وذلك عين النفاق .

وأيضا ، فإن النفاق غش ومكر وخداع ، والغناء مؤسس على ذلك .

وأيضا ، فإن المنافق يفسد من حيث يظن أنه يصلح ، كما أخبر الله ـ سبحانه ـ بذلك عن المنافقين وصاحب السماع يفسد قلبه وحاله من حيث يظن أنه يصلحه ، والمغنى يدعو القلوب إلى فتنة الشهوات ، والمنافق يدعوها إلى فتنة الشبهات . قال الضحاك « الغناء مفسدة للقلب مسخطة للرب » .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى مؤدب ولده « ليكن أول ما يعتقدون من أدل بغض الملاهى ، التى بدؤها من الشيطان ، وعاقبتها سخط الرحمن ، فإنه بلغنى عن الثقات من أهل العلم : أن صوت المعازف ، واستماع الأغانى ، واللهج بها ينبت النفاق فى القلب،كما ينبت العشب على الماء » .

فالغناء يفسد القلب ، وإذا فسد القلب هاج فيه النفاق .

وبالجملة ، فإذا تأمل البصير حال أهل الغناء ، وحال أهل الذكر والقرآن ، تبين له حذق الصحابة ومعرفتهم بأدواء القلوب ، وأدويتها، وبالله التوفيق .

فصل

وأما تسميته قرآن الشيطان ، فمأثور عن التابعين ، وقد روى فى حديث مرفوع .

قال قتادة « لما أهبط إبليس قال : يا رب ، لعنتنى ، فما عملى ؟ قال :السحر. قال : فما قرآنى ، قال : الشعر . قال : فما كتابى ؟ قال : الوشم ، قال فما طعامى ؟ قال : كل ميتة ، وما لم يذكر اسم الله عليه ، قال : فما شرابى ؟ قال : كل مسكر . قال : فأين مسكنى ؟ قال : الأسواق . قال : فما صوتى ؟ قال : المزامير ،قال : فما مصايدى ؟ قال : النساء » .

هذا . والمعروف فى هذا وقفه . وقد رواه الطبرانى فى معجمه من حديث أبى أمامة مرفوعا إلى النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

وقال ابن أبى الدنيا ، فى كتاب مكايد الشيطان وحيله : حدثنا أبو بكر التميمى حدثنا ابن أبى مريم ، حدثنا يحيى بن أيوب قال : حدثنا ابن زحر عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة ، عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « إن إبليس لما أنزل إلى الأرض قال يارب ، أنزلتنى إلى الأرض ، وجعلتنى رجيما ، فاجعل لى بيتًا ، قال : الحمام ، قال:فاجعل لى مجلسًا ، قال : الأسواق ومجامع الطرقات قال : فاجعل لى طعاما . قال:كل ما لم يذكر اسم الله عليه . قال : فاجعل لى شرابا ،قال : كل مسكر ، قال : فاجعل لى مؤذنًا ، قال : المزمار ، قال : فاجعل لى قرآنا ، قال الشعر ، قال : فاجعل لى كتابا . قال:الوشم. قال : فاجعل لى حديثًا. قال : الكذب . قال : فاجعل لى رسلا ، قال : الكهنة ، قال : فاجعل لى مصايد . قال النساء » (١) .

وشواهد هذا الأثر كثيرة . فكل جملة منه لها شواهد من السنة ، أو من القرآن فكون السحر من عمل الشيطان شاهده قوله تعالى ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ** ﴾ [البقرة ١٠٢] .

وأما كون الشعر قرآنه، فشاهده :ما رواه أبو داود فى سننه من حديث جبير بن مطعم: أنه رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يصلى ، فقال :الله أكبر كبيراً، الله أكبر كبيراً ، الله أكبر كبيرًا ، الحمد لله كثيراً ، الحمد لله كثيرًا ، الحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ـ ثلاثا ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : من نفخه ،

(١) الطبرانى فى الكبير ٨ / ٢٤٥ (٧٨٣٧) ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨ / ١٢٢) فى الأدب ، باب : ما جاء فى الشعر والشعراء وقال : « رواه الطبرانى وفيه على بن يزيد الألهانى وهو ضعيف » .

ونفثه ، وهمزه ، قال : نفثه : الشعر ، ونفخه : الكبر ، وهمزه : الموتة »[(١)].

ولما علم الله رسوله ، وهو كلامه ، صانه عن تعليم قرآن الشيطان . وأخبر أنه لا ينبغى له ، فقال ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ**﴾ [يس :٦٩] .

وأما كون الوشم كتابه ، فإنه من عمله وتزيينه ؛ ولهذا لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الواشمة والمستوشمة[(٢)] فلعن الكاتبة والمكتوب عليها .

وأما كون الميتة ومتروك التسمية طعامه ، فإن الشيطان يستحل الطعام ، إذا لم يذكر عليه اسم الله ، ويشارك آكله ، والميتة لا يذكر عليها اسم الله تعالى ، فهى وكل طعام لا يذكر عليه اسم الله عز وجل من طعامه ؛ ولهذا لما سأل الجن الذين آمنوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الزاد ، قال : « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه »[(٣)] فلم يبح لهم طعام الشياطين ، وهو متروك التسمية .

وأما كون المسكر شرابه ، فقال تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ** ﴾ [المائدة : ٩٠] فهو يشرب من الشراب الذى عمله أولياؤه بأمره ، وشاركهم فى عمله . فيشاركهم فى عمله وشربه ، وإثمه ، وعقوبته .

وأما كون الأسواق مجلسه ، ففى الحديث الآخر : « أنه يركز رايته بالسوق »[(٤)]؛ ولهذا يحضره اللغو واللغط والصخب والخيانة والغش . وكثير من عمله ، وفى صفة النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى الكتب المتقدمة : « أنه ليس صخابا بالأسواق »[(٥)].

وأما كون الحمام بيته ، فشاهده كونه غير محل للصلاة ، وفى حديث أبى سعيد : «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام »[(٦)] ؛ ولأنه محل كشف العورات ، وهو بيت

(١) أبو داود (٧٦٤) فى الصلاة ، باب : ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ، وضعفه الألبانى .
(٢) البخارى (٥٩٣٧) فى اللباس ، باب : وصل الشعر ، ومسلم (٢١٢٤ / ١١٩) فى اللباس والزينة ، باب : تحريم فعل الواصلة والمستوصلة ... إلخ ، وأبو داود (٤١٦٨) فى الترجل ، باب : فى صلة الشعر ، والترمذى (١٧٥٩) فى اللباس ، باب : ما جاء فى مواصله الشعر ، والنسائى (٥٠٩٥) فى الزينة ، باب : المستوصلة ، وابن ماجه (١٩٨٧) فى النكاح ، باب : الواصلة والواشمة ، وأحمد (٢ / ٢١) .
(٣) مسلم (٤٥٠ / ١٥٠) فى الصلاة ، باب : الجهر بالقراءة فى الصبح والقراءة على الجن ، والترمذى (٣٢٥٨) فى تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الأحقاف ، وأحمد (١ / ٤٣٦) .
(٤) أبو داود (١٠٥١) فى الصلاة ، باب : فضل الجمعة بمعناه ، وضعفه الألبانى .
(٥) الترمذى (٢٠١٦) فى البر والصلة، باب: ما جاء فى خلق النبى ﷺ وقال: «حسن صحيح »، وأحمد (٦/ ١٧٤).
(٦) أبو داود (٤٩٢) فى الصلاة ، باب : فى المواضع التى لا تجوز فيها الصلاة ، والترمذى (٣١٧) فى الصلاة ، باب : ما جاء أن الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام ، وقال : « حديث فيه اضطراب » ، وابن ماجه (٧٤٥) فى المساجد والجماعات ، باب : المواضع التى تكره فيها الصلاة ، وأحمد (٣ / ٨٣) .

مؤسس على النار ، وهى مادة الشيطان التى خلق منها .

وأما كون المزمار مؤذنه ، ففى غاية المناسبة ، فإن الغناء قرآنه ، والرقص والتصفيق - اللذان هما المكاء والتصدية - صلاته ، فلابد لهذه الصلاة من مؤذن وإمام ومأموم ، فالمؤذن المزمار ، والإمام المغنى ، والمأموم الحاضرون .

وأما كون الكذب حديثه ، فهو الكاذب ، الآمر بالكذب ، المزين له ، فكل كذب يقع فى العالم فهو من تعليمه وحديثه .

وأما كون الكهنة رسله ؛ فلأن المشركين يهرعون إليهم ، ويفزعون إليهم فى أمورهم العظام ، ويصدقونهم ، ويتحاكمون إليهم ، ويرضون بحكمهم ، كما يفعل أتباع الرسل بالرسل ، فإنهم يعتقدون أنهم يعلمون الغيب ، ويخبرون عن المغيبات التى لا يعرفها غيرهم، فهم عند المشركين بهم بمنزلة الرسل ، فالكهنة رسل الشيطان حقيقة ، أرسلهم إلى حزبه من المشركين وشبههم بالرسل الصادقين ، حتى استجاب لهم حزبه ، ومثل رسل الله بهم لينفر عنهم ، ويجعل رسله هم الصادقين العالمين بالغيب ، ولما كان بين النوعين أعظم التضاد ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » (١) .

فإن الناس قسمان : أتباع الكهنة ، وأتباع رسل الله . فلا يجتمع فى العبد أن يكون من هؤلاء وهؤلاء ، بل يبعد عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بقدر قربه من الكاهن ، ويكذب الرسول بقدر تصديقه للكاهن .

وقوله: اجعل لى مصايد ، قال : مصايدك النساء ، فالنساء أعظم شبكة له ، يصطاد بهن الرجال .

والمقصود : أن الغناء المحرم قرآن الشيطان .

ولما أراد عدو الله أن يجمع عليه نفوس المبطلين قرنه بما يزينه من الألحان المطربة ، وآلات الملاهى والمعازف ، وأن يكون من امرأة جميلة ، أو صبى جميل ، ليكون ذلك أدعى إلى قبول النفوس لقرآنه ، وتعوضها به عن القرآن المجيد .

---

(١) الترمذى (١٣٥) فى الطهارة ، باب : ما جاء فى كراهية إتيان الحائض ، وابن ماجه (٦٣٩) فى الطهارة وسننها ، باب : النهى عن إتيان الحائض ، وأحمد (٢ / ٤٠٨) .

فصل

وأما تسميته بالصوت الأحمق ، والصوت الفاجر ، فهى تسمية الصادق المصدوق ، الذى لا ينطق عن الهوى .

فروى الترمذى من حديث ابن أبى ليلى عن عطاء عن جابر رضي الله عنه قال : خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مع عبد الرحمن بن عوف إلى النخل ، فإذا ابنه إبراهيم يجود بنفسه ، فوضعه فى حجره ، ففاضت عيناه ، فقال عبد الرحمن : أتبكى ، وأنت تنهى الناس ؟ قال : « إنى لم أنه عن البكاء ، وإنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نغمة : لهو ولعب ومزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة : خمش وجوه ، وشق جيوب ، ورنة ، وهذا هو رحمة ، ومن لا يرحم لا يرحم ، لولا أنه أمر حق ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق أولنا ، لحزنا عليك حزنًا هو أشد من هذا ، «وإنا بك لمحزونون ، تبكى العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب » قال الترمذى : هذا حديث حسن (١) .

فانظر إلى هذا النهى المؤكد ، بتسميته صوت الغناء صوتا أحمق ، ولم يقتصر على ذلك حتى وصفه بالفجور ، ولم يقتصر على ذلك حتى سماه من مزامير الشيطان ، وقد أقر النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أبا بكر الصديق على تسمية الغناء مزمور الشيطان فى الحديث الصحيح (٢)، فإن لم يستفد التحريم من هذا لم نستفده من نهى أبدا .

وقد اختلف فى قوله : « لا تفعل » وقوله : « نهيت عن كذا » أيهما أبلغ فى التحريم؟

والصواب بلا ريب : أن صيغة « نهيت » أبلغ فى التحريم ؛ لأن « لا نفعل » يحتمل النهى وغيره ، بخلاف الفعل الصريح .

فكيف يستجيز العارف إباحة ما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وسماه صوتا أحمق فاجرا ، ومزمور الشيطان ، وجعله والنياحة التى لعن فاعلها أخوين ؟ وأخرج النهى عنهما مخرجا واحدا ، ووصفهما بالحمق والفجور وصفًا واحدا .

---

(١) الترمذى (١٠٠٥) فى الجنائز ، باب : ما جاء فى الرخصة فى البكاء على الميت .

(٢) مسلم (٨٩٢ / ١٦) فى صلاة العيدين ، باب : الرخصة فى اللعب الذى لا معصية فيه ، وابن ماجه (١٨٩٨) فى النكاح ، باب : الغناء والدف .

وقال الحسن : « صوتان ملعونان : مزمار عند نغمة ، ورنة عند مصيبة » .

وقال أبو بكر الهذلى « قلت للحسن : أكان نساء المهاجرات يصنعن ما يصنع النساء اليوم ؟ قال : لا ، ولكن ههنا خمش وجوه ، وشق جيوب ، ونتف أشعار، ولطم خدود ، ومزامير شيطان ، صوتان قبيحان فاحشان : عند نغمة إن حدثت ، وعند مصيبة إن نزلت ، ذكر الله المؤمنين فقال : ﴿**وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ** (٢٤) **لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** (٢٥) ﴾ [المعارج] ، وجعلتم أنتم فى أموالكم حقًّا معلوما للمغنية عند النغمة ، والنائحة عند المصيبة » .

فصل

وأما تسميته صوت الشيطان ، فقد قال تعالى للشيطان وحزبه : ﴿ **قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا** (٦٣) **وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا**(٦٤)﴾

[الإسراء]

قال ابن أبى حاتم فى تفسيره : حدثنا أبى أخبرنا أبو صالح ـ كاتب الليث ـ حدثنا معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس : ﴿ **وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ** ﴾ [الإسراء : ٦٤] قال : « كل داع إلى معصية » .

ومن المعلوم أن الغناء من أعظم الدواعى إلى المعصية ؛ ولهذا فسر صوت الشيطان به .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى أخبرنا يحيى بن المغيرة ، أخبرنا جرير ، عن ليث ، عن مجاهد : ﴿ **وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ** ﴾ قال : « استزل منهم من استطعت » قال : « وصوته الغناء ، والباطل » .

وبهذا الإسناد إلى جرير عن منصور عن مجاهد قال : « صوته هو المزامير » .

ثم روى بإسناد عن الحسن البصرى قال : « صوته هو الدف » .

وهذه الإضافة إضافة تخصيص ، كما أن إضافة الخيل والرجل إليه كذلك ، فكل متكلم بغير طاعة الله ، ومصوت بيراع أو مزمار ، أو دف حرام ، أو طبل . فذلك صوت الشيطان ، وكل ساع فى معصية الله على قدميه فهو من رجله ، وكل راكب فى معصية

الله فهو من خيالته ، كذلك قال السلف ، كما ذكر ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : « رجله كل رجل مشت فى معصية الله » .

وقال مجاهد : « كل رجل يقاتل فى غير طاعة الله فهو من رجله » .

وقال قتادة : « إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس » .

فصل

وأما تسميته مزمور الشيطان ، ففى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل على النبى صلى الله عليه وآله وسلم وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث ، فاضطجع على الفراش، وحول وجهه ، ودخل أبو بكر رضي الله عنه ، فانتهرنى ، وقال : مزمار الشيطان عند النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ؟ فأقبل عليه رسول الله وآله وسلم ، فقال : «دعهما » فلما غفل غمزتهما ، فخرجتا (١) .

فلم ينكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على أبى بكر تسمية الغناء مزمار الشيطان ، وأقرهما ؛ لأنهما جاريتان غير مكلفتين تغنيان بغناء االأعراب ، الذى قيل فى يوم حرب بعاث من الشجاعة ،والحرب . وكان اليوم يوم عيد ، فتوسع حزب الشيطان فى ذلك إلى صوت امرأة جميلة أجنبية ، أو صبى أمرد صوته فتنة ، وصورته فتنة ، يغنى بما يدعو إلى الزنى والفجور ، وشرب الخمر ، مع آلات اللهو التى حرمها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى عدة أحاديث مع التصفيق والرقص ، وتلك الهيئة المنكرة التى لا يستحلها أحد من أهل الأديان فضلا عن أهل العلم والإيمان ، ويحتجون بغناء جويريتين غير مكلفتين بنشيد الأعراب ، ونحوه فى الشجاعة ونحوها ، فى يوم عيد ، بغير شبابة ولا دف ، ولا رقص ولا تصفيق ، ويدعون المحكم الصريح ؛ لهذا المتشابه ، وهذا شأن كل مبطل .

نعم ، نحن لا نحرم ولا نكره مثل ما كان فى بيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على ذلك الوجه ، وإنما نحرم نحن وسائر أهل العلم والإيمان السماع المخالف لذلك، وبالله التوفيق .

---

(١) البخارى (٩٤٩) فى العيدين ، باب : الحراب والدرق يوم العيد ، ومسلم (٨٩٢ / ١٩) فى العيدين ، باب : الرخصة فى اللعب الذى لا معصية فيه .

فصل

وأما تسميته بالسمود ، فقد قال تعالى : ﴿ **أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ** (٥٩) **وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ** (٦٠) **وَأَنتُمْ سَامِدُونَ** (٦١) ﴾ [النجم] قال عكرمة عن ابن عباس : « السمود : الغناء في لغة حمير » . يقال : اسمدي لنا ، أي غني لنا ، وقال أبو زُبَيد :

وكـأن الـعزيـف فيـها غـناء   للنـدامـى مـن شارب مسمود

قال أبو عبيدة : « المسمود : الذي غنى له » وقال عكرمة : « كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا . فنزلت هذه الآية » .

وهذا لا يناقض ما قيل في هذه الآية من أن « السمود » الغفلة والسهو عن الشيء ، قال المبرد : هو الاشتغال عن الشيء بهم ، أو فرح ، يتشاغل له ، وأنشد :

رمـى الحـدثـان نسوة آل حـرب   بمـقـدار سـمـدن له سـمودا

وقال ابن الأنباري : السامد اللاهي ، والسامد الساهي ، والسامد المتكبر ، والسامد القائم .

وقال ابن عباس ، في الآية : « وأنتم مستكبرون » وقال الضحاك : « أشرون بطرون» .

وقال مجاهد : « غضاب مبرطمون » وقال غيره « لاهون غافلون معرضون » .

فالغناء يجمع هذا كله ، ويوجبه .

فهذه أربعة عشر اسمًا ، سوى اسم الغناء .

فصل

في بيان تحريم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الصريح لآلات اللهو والمعازف ، وسياق الأحاديث في ذلك .

عن عبد الرحمن بن غنم قال : حدثني أبو عمر ، أو أبو مالك الأشعري رضي الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول : « ليكونن من أمتي قوم يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف » (١) هذا حديث صـحيح ، أخرجه البخاري في صحيحه محتجا

(١) البخاري (٥٥٩٠) في الأشربة ، باب : ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه .

به . وعلقه تعليقًا مجزوما به ، فقال : « باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه ، وقال هشام بن عمار : حدثنا صدقة بن خالد حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر حدثنا عطية بن قيس الكلابى حدثنى عبد الرحمن بن غنم الأشعرى قال حدثنى أبو عامر ، أو أبو مالك الأشعرى ـ والله ما كذبنى ـ أنه سمع النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول : « ليكونن من أمتى أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف ، ولينزلن أقوام إلى جنب علم ، يروح عليهم بسارحة لهم ، يأتيهم لحاجة ، فيقولوا : ارجع إلينا غداً ، فيبيتهم الله تعالى ويضع العلم ، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة » (١) .

ولم يصنع من قدح فى صحة هذا الحديث شيئًا ، كابن حزم ، نصرة لمذهبه الباطل فى إباحة الملاهى ، وزعم أنه منقطع ؛ لأن البخارى لم يصل سنده به .

وجواب هذا الوهم من وجوه :

أحدها : أن البخارى قد لقى هشام بن عمار وسمع منه ، فإذا قال : « قال هشام » فهو بمنزلة قوله « عن هشام » .

الثانى : أنه لو لم يسمع منه فهو لم يستجز الجزم به عنه إلا وقد صح عنه أنه حدث به . وهذا كثيراً ما يكون لكثرة من رواه عنه عن ذلك الشيخ وشهرته . فالبخارى أبعد خلق الله من التدليس .

الثالث:أنه أدخله فى كتابه المسمى بالصحيح محتجا به،فلولا صحته عنده لما فعل ذلك.

الرابع : أنه علقه بصيغة الجزم ، دون صيغة التمريض ؛ فإنه إذا توقف فى الحديث أو لم يكن على شرطه يقول : « ويروى عن رسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم » ويذكر عنه » ونحو ذلك ، فإذا قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » فقد جزم وقطع بإضافته إليه .

الخامس : أنا لو أضربنا عن هذا كله صفحًا فالحديث صحيح متصل عند غيره .

قال أبو داود فى كتاب اللباس : حدثنا عبد الوهاب بن نجدة حدثنا بشر بن بكر عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر حدثنا عطية بن قيس قال :سمعت عبد الرحمن بن غنم الأشعرى قال : حدثنا أبو عامر أو أبو مالك ، فذكره مختصراً . رواه أبو بكر الإسماعيلى فى كتابه الصحيح مسنداً ، فقال : أبو عامر . ولم يشك .

ووجه الدلالة منه:أن المعازف هى آلات اللهو كلها.لا خلاف بين أهل اللغة فى ذلك.

---

(١) سبق تخريجه ص ٧١ .

ولو كانت حلالا ذمهم على استحلاها ، ولما قرن استحلالها استحلال الخمر والخز ، فإن كان بالحاء والراء المهملتين ، فهو استحلال الفروج الحرام . وإن كان بالخاء والزاى المعجمتين فهو نوع من الحرير ، غير الذى صح عن الصحابة لبسه . إذ الخز نوعان . أحدهما : من حرير . والثانى : من صوف . وقد روى هذا الحديث بالوجهين .

وقال ابن ماجه فى سننه :حدثنا عبد الله بن سعيد عن معاوية بن صالح عن حاتم بن حريث عن ابن أبى مريم عن عبد الرحمن بن غنم الأشعرى عن أبى مالك الأشعرى ﷺ قال : قال : رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « ليشربن ناس من أمتى الخمر ،يسمونها بغير اسمها ، يعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات ، يخسف الله بهم الأرض ، ويجعل منهم قردة وخنازير » (١) وهذا إسناد صحيح . وقد توعد مستحلى المعازف فيه بأن يخسف الله بهم الأرض ، ويمسخهم قردة وخنازير ، وإن كان الوعيد على جميع هذه الأفعال ، فلكل واحد قسط فى الذم والوعيد .

وفى الباب عن سهل بن سعد الساعدى ، وعمران بن حصين ، وعبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن عباس ، وأبى هريرة ، وأبى أمامة الباهلى ، وعائشة أم المؤمنين ، وعلى بن أبى طالب ، وأنس بن مالك ، وعبد الرحمن بن سابط ، والغازى بن ربيعة :

ونحن نسوقها لتقر بها عيون أهل القرآن ، وتشجى بها حلوق أهل سماع الشيطان .

فأما حديث سهل بن سعد ، فقال ابن أبى الدنيا : أخبرنا الهيثم بن خارجة ، حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد الساعدى قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « يكون فى أمتى خسف وقذف ومسخ » ، قيل : يا رسول الله ، متى ؟ قال: « إذا ظهرت المعازف والقينات واستحلت الخمرة » (٢) .

وأما حديث عمران بن حصين . فرواه الترمذى من حديث الأعمش عن هلال بن يساف عـن عمران بن حصين قـال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « يكون فى أمتى قذف وخسف ومسخ »، فقال رجل من المسلمين : متى ذاك ، يا رسول الله ؟ قال : « إذا ظهرت القيان ، والمعازف ، وشربت الخمور » قال الترمذى : هذا حديث غريب (٣) .

---

(١) ابن ماجه (٤٠٢٠) فى الفتن ، باب : العقوبات .

(٢) ابن ماجه (٤٠٦٠) فى الفتن ، باب الخسوف ، وفى الزوائد : « إسناده ضعيف ؛ لضعف عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم » .

(٣) الترمذى (٢٢١٢) فى الفتن ، باب : ما جاء فى علامة حلول المسخ والخسف .

وأما حديث عبد الله بن عمرو ، فروى أحمد فى مسنده وأبو داود عنه أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « إن الله تعالى حرم على أمتى الخمر والميسر والكوبة والغبيراء، وكل مسكر حرام » (١) .

وفى لفظ آخر لأحمد : « إن الله حرم على أمتى الخمر والميسر والمزر والكوبة والقنين » (٢) .

وأما حديث ابن عباس ، ففى المسند أيضًا : عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « إن الله حرم الخمر والميسر والكوبة ، وكل مسكر حرام » (٣) ، والكوبة : الطبل . قاله سفيان .وقيل : البربط . والقنين : هو الطنبور بالحبشية . والتقنين : الضرب به ، قاله ابن الأعرابى .

وأما حديث أبى هريرة ﷺ ، فرواه الترمذى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « إذا اتخذ الفىء دولا ، والأمانة مغنما ، والزكاة مغرمًا ، وتعلم العلم لغير الدين وأطاع الرجل امرأته ، وعق أمه ، وأدنى صديقه ، وأقصى أباه ، وظهرت الأصوات فى المساجد ، وساد القبيلة فاسقهم ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وظهرت القينات والمعازف ، وشربت الخمر ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء ، وزلزلة وخسفًا ، ومسخًا ، وقذفًا . وآيات تتابع كنظام بال قطع سلكه فتتابع » (٤) قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا عبد الله بن عمر الجشمى ، حدثنا سليمان بن سالم أبو داود ، حدثنا حسان بن أبى سنان ، عن رجل ، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « يمسخ قوم من هذه الأمة فى آخر الزمان قردة وخنازير » . قالوا : يا رسول الله ، أليس يشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسوال الله ، قال : « بلى ، ويصومون ويصلون ، ويحجون » . قيل :فما بالهم؟ قال : «اتخذوا المعازف والدفوف والقينات ، فباتوا على شربهم ولهوهم ، فأصبحوا وقد مسخوا قردة وخنازير » (٥) .

وأما حديث أبى أمامة الباهلى ،فهو فى مسند أحمد والترمذى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال:« يبيت طائفة من أمتى على أكل وشرب،ولهو ولعب ، ثم يصبحون

---

(١) أبو داود (٣٦٨٥) فى الأشربة ، باب : النهى عن المسكر ، وأحمد (٢ / ١٥٨) .

(٢) أحمد (٢ / ١٦٥) .

(٣) أحمد (١ / ٢٧٤) ، وصححه الشيخ شاكر (٢٤٧٦) .

(٤) الترمذى (٢٢١١) فى الفتن ، باب : ما جاء فى علامة حلول المسخ والخسف .

(٥) الدر المنثور (٢ / ٣٢٤) وعزاه لابن أبى الدنيا .

قردة وخنازير ، ويبعث على أحياء من أحيائهم ريح ، فينسفهم كما نسف من كان قبلكم ، باستحلالهم الخمر ، وضربهم بالدفوف ، واتخاذهم القينات » (١) في إسناده فرقد السبخي، وهو من كبار الصالحين ، ولكنه ليس بقوى في الحديث . وقال الترمذي : تكلم فيه يحيى بن سعيد وقد روى عنه الناس .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا عبد الله بن عمر الجشمي ، حدثنا جعفر بن سليمان ، حدثنا فرقد السبخي ، حدثنا قتادة ، عن سعيد بن المسيب قال : حدثني عاصم بن عمرو البجلي ، عن أبى أمامة ، عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « يبيت قوم من هذه الأمة على طعم ، وشرب ولهو ، فيصبحون وقد مسخوا قردة وخنازير ، وليصيبنهم خسف وقذف حتى يصبح الناس فيقولون : خسف الليلة بدار فلان ، خسف الليلة ببني فلان ، وليرسلن عليهم حجارة من السماء ، كما أرسلت على قوم لوط ، على قبائل فيها ، وعلى دور فيها ، وليرسلن عليهم الريح العقيم التى أهلكت عاداً ، بشربهم الخمر ، وأكلهم الربا واتخاذهم القينات ، وقطيعتهم الرحم » (٢) .

وفى مسند أحمد من حديث عبيد الله بن زحر ، عن علي بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ، عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « إن الله بعثنى رحمة وهدى للعالمين ،وأمرني أن أمحق المزامير.والكبارات ، يعنى البرابط ، والمعازف والأوثان ، التى كانت تعبد في الجاهلية » (٣) قال البخارى : عبيد الله بن زحر ثقة ، وعلي بن يزيد ضعيف . والقاسم بن عبد الرحمن أبو عبد الرحمن ثقة .

وفى الترمذي ومسند أحمد بهذا الإسناد بعينه : أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « لا تبيعوا القينات ، ولا تشتروهن ، ولا تعلموهن ، ولا خير فى تجارة فيهن، وثمنهن حرام » (٤) . وفى مثل هذا نزلت هذه الآية : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [لقمان : ٦] .

وأما حديث عائشة رضي الله عنها ، فقال ابن أبى الدنيا : حدثنا الحسن بن محبوب ، حدثنا أبو النضر هاشم بن القاسم ، حدثنا أبو معشر عن محمد بن المنكدر ، عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « يكون فى أمتى

---

(١) أحمد (٥ / ٢٥٩) .
(٢) الدر المنثور (٢ / ٣٢٤) وعزاه لابن أبى الدنيا .
(٣) أحمد (٥ / ٢٥٧) .
(٤) الترمذي (٣١٩٥) فى تفسير القرآن ، باب : ومن سورة لقمان ، وقال : « هذا حديث غريب » ، وأحمد (٥ / ٢٦٤) .

خسف ومسخ وقـذف » ، قـالت عائشة : يا رسول الله ، وهم يقولون لا إله إلا الله ؟ فقال : « إذا ظهرت القينات ، وظهر الزنى ، وشربت الخمر ، ولبس الحرير ، كان ذا عند ذا ».(١) .

وقال ابن أبى الدنيا أيضاً : حدثنا محمد بن ناصح ، حدثنا بقية بن الوليد ، عن يزيد ابن عبد الله الجهنى ، حدثنى أبو العلاء ، عن أنس بن مالك أنه دخل على عائشة ﵂ ورجل معه ، فقال لها الرجل : « يا أم المؤمنين ، حدثينا عن الزلزلة . فقالت : إذا استباحوا الزنى ، وشربوا الخمر ، وضربوا بالمعازف ، غار الله فى سمائه . فقال : تزلزلى بهم ، فإن تابوا وفزعوا وإلا هدمتها عليهم ، قال : قلت : يا أم المؤمنين ، أعذاب لهم ؟ قالت : بل موعظة ورحمة وبركة للمؤمنين ، ونكال وعذاب وسخط على الكافرين ، قال أنس : ما سمعت حديثًا بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنا أشد به فرحًا منى بهذا الحديث .

وأما حديث على ،فقال ابن أبى الدنيا أيضًا : حدثنا الربيع بن تغلب ، حدثنا فرج بن فضالة ، عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن على ، عن على ﵁ قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: « إذا عملت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء » . قيل: يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : « إذا كان المغنم دولا ، والأمانة مغنمًا ، والزكاة مغرمًا ، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه ، وبر صديقه وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات فى المساجد ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وشربت الخمور ، ولبس الحرير ، واتخذت القيان ، ولعن آخر هذه الأمة أولها . فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء وخسفًا ومسخًا » (٢) .

وحدثنا عبد الجبار بن عاصم قال : حدثنا أبو طالب قال :حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن عبد الرحمن التميمى ، عن عباد بن أبى على ، عن على ﵁ عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال : « تمسخ طائفة من أمتى قردة وطائفة خنازير ، ويخسف بطائفة ، ويرسل على طائفة الريح العقيم ، بأنهم شربوا الخمر ، ولبسوا الحرير ، واتخذوا القيان ، وضربوا بالدفوف » (٣) .

وأما حديث أنس ﵁ .فقال ابن أبى الدنيا:حدثنا أبو عمرو هارون بن عمر القرشى، حدثنا الخصيب بن كثير عن أبى بكر الهذلى ، عن قتادة عن أنس ﵁ قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « ليكونن فى هذه الأمة خسف وقذف ومسخ ،

(١ ـ ٣) الدر المنثور (٢ / ٣٢٤) وعزاه لابن أبى الدنيا .

وذاك إذا شربوا الخمور ، واتخذوا القينات ، وضربوا بالمعازف » (١) .

قال : وأنبأنا أبو إسحاق الأزدى ، حدثنا إسماعيل بن أبى أويس ، حدثنى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أحد ولد أنس بن مالك ، وعن غيره ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « ليبيتن رجال على أكل وشرب وعزف ، فيصبحون على أرائكهم ممسوخين قردة وخنازير » (٢) .

وأما حديث عبد الرحمن بن سابط ، فقال ابن أبى الدنيا : حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا جرير ، عن أبان بن تغلب ، عن عمرو بن مرة ، عن عبد الرحمن بن سابط قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « يكون فى أمتى خسف وقذف ومسخ » ، قالوا : فمتى ذاك ، يا رسول الله ؟ قال : « إذا أظهروا المعازف ، واستحلوا الخمور » (٣) .

وأما حديث الغازى بن ربيعة ، فقال ابن أبى الدنيا : حدثنا عبد الجبار بن عاصم ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن عبيد الله بن عبيد ، عن أبى العباس الهمدانى ، عن عمارة ابن راشد عن الغازى بن ربيعة ـ رفع الحديث ـ قال : « ليمسخن قوم وهم على أريكتهم قردة وخنازير ، بشربهم الخمر ، وضربهم بالبرابط والقيان » (٤) .

قال ابن أبى الدنيا : وحدثنا عبد الجبار بن عاصم قال : حدثنى المغيرة بن المغيرة ، عن صالح بن خالد ـ رفع ذلك إلى النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ أنه قال : «ليستحلن ناس من أمتى الحرير والخمر والمعازف ، وليأتين الله على أهل حاضر منهم عظيم بجبل حتى ينبذه عليهم ويمسخ آخرون قردة وخنازير » (٥) .

قال ابن أبى الدنيا : حدثنا هارون بن عبيد الله ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أشرس أبو شيبان الهذلى قال : قلت لفرقد السبخى : أخبرنى يا أبا يعقوب ، من تلك الغرائب التى قرأت فى التوراة . فقال : «يا أبا شيبان ، والله ما أكذب على ربى ـ مرتين أو ثلاثا ـ لقد قرأت فى التوراة : ليكونن مسخ وخسف وقذف فى أمة محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى أهل القبلة ، قال : قلت : يا أبا يعقوب ، ما أعمالهم ، قال : باتخاذهم القينات وضربهم بالدفوف ولباسهم الحرير والذهب ، ولئن بقيت حتى ترى أعمالا ثلاثة ، فاستيقن ، واستعد واحذر ، قال : قلت : ما هى ؟ قال : إذا تكافأ الرجال بالرجال والنساء بالنساء ورغبت العرب فى آنية العجم فعند ذلك : قلت له: العرب خاصة ؟ قال : لا بل أهل القبلة ، ثم قال : والله ليقذفن رجال من السماء بحجارة يشدخون بها فى طرقهم وقبائلهم ، كما فعل بقوم لوط ،وليمسخن آخرون قردة وخنازير ، كما فعل ببنى

(١ ـ٥) الدر المنثور (٢ / ٣٢٤) وعزاهم لابن أبى الدنيا .

إسرائيل ، وليخسفن بقوم كما خسف بقارون » .

وقد تظاهرت الأخبار بوقوع المسخ فى هذه الأمة ، وهو مقيد فى أكثر الأحاديث بأصحاب الغناء ، وشاربى الخمر ، وفى بعضها مطلق .

قال سالم بن أبى الجعد : « ليأتين على الناس زمان يجتمعون فيه على باب رجل ينتظرون أن يخرج إليهم ، فيطلبون إليه حاجة ، فيخرج إليهم وقد مسخ قرداً أو خنزيراً ، وليمرن الرجل على الرجل فى حانوته يبيع ، فيرجع إليه وقد مسخ قرداً أو خنزيراً » .

وقال أبو هريرة ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يمشى الرجلان إلى الأمر يعملانه ، فيمسخ أحدهما قرداً أو خنزيرًا ، فلا يمنع الذى نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمضى إلى شأنه ذلك حتى يقضى شهوته ، وحتى يمشى الرجلان إلى الأمر يعملانه ، فيخسف بأحدهما ، فلا يمنع الذى نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمشى لشأنه ذلك ، حتى يقضى شهوته منه » .

وقال عبد الرحمن بن غنم : « سيكون حيان متجاورين ، فيشق بينهما نهر ،فيستقيان منه ، قبسهم واحد ، يقبس بعضهم من بعض ، فيصبحان يوما من الأيام قد خسف بأحدهما والآخر حى » .

وقال عبد الرحمن بن غنم أيضاً : « يوشك أن يقعد اثنان على رحًا يطحنان ، فيمسخ أحدهما والآخر ينظر » .

وقال مالك بن دينار : « بلغنى أن ريحًا تكون فى آخر الزمان وظلمًا ، فيفزع الناس إلى علمائهم ، فيجدونهم قد مسخوا » .

قال بعض أهل العلم : إذا اتصف القلب بالمكر والخديعة والفسق ، وانصبغ بذلك صبغًا تاما ، وصار صاحبه على خلق الحيوان الموصوف بذلك : من القردة ، والخنازير ، وغيرهما ، ثم لا يزال يتزايد ذلك الوصف فيه حتى يبدو على صفحات وجهه بدوا خفيا ، ثم يقوى ويتزايد حتى يصير ظاهراً على الوجه ، ثم يقوى حتى يقلب الصورة االظاهرة ، كما قلب الهيئة الباطنة ، ومن له فراسة تامة يرى على صور الناس مسخًا من صور الحيوانات التى تخلقوا بأخلاقها فى الباطن ، فقل أن ترى مختالا مكاراً مخادعا ختاراً إلا وعلى وجهه مسخة قرد ، وقل أن ترى رافضيا إلا على وجهه مسخة خنزير ، وقل أن ترى شرهًا تهمًا ، نفسه نفس كلبية إلا وعلى وجهه مسخة كلب . فالظاهر مرتبط بالباطن أتم ارتباط ، فإذا استحكمت الصفات المذمومة فى النفس قويت على قلب الصورة الظاهرة ،

ولهذا خوف النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من سابق الإمام فى الصلاة بأن يجعل الله صورته صورة حمار (١) ،لمشابهته للحمار فى الباطن ، فإنه لم يستفد بمسابقة الإمام إلا فساد صلاته ، وبطلان أجره ، فإنه لا يسلم قبله ، فهو شبيه بالحمار فى البلادة ، وعدم الفطنة .

إذا عرف هذا ، فأحق الناس بالمسخ هؤلاء الذين ذكروا فى هذه الأحاديث ، فهم أسرع الناس مسخًا قردة وخنازير ، لمشابهتهم لهم فى الباطن ، وعقوبات الرب تعالى ـ نعوذ بالله منها ـ جارية على وفق حكمته وعدله .

وقد ذكر شبه المغنين والمفتونين بالسماع الشيطانى ، ونقضناها نقضًا وإبطالا فى كتابنا الكبير فى السماع ، وذكرنا الفرق بين ما يحركه سماع الأبيات وما يحركه سماع الآيات ، وذكرنا الشبه التى دخلت على كثير من العباد فى حضوره حتى عدوه من القرب فمن أحب الوقوف على ذلك مستوفىً فى ذلك الكتاب وإنما أشرنا ههنا إلى نبذة يسيره فى كونه من مكايد الشيطان ، وبالله التوفيق (٢).

وأيضاً

من أقوى أسباب السكر الموجبة له سماع الأصوات المطربة من جهتين ؛ من جهة أنها فى نفسها توجب اللذة قوية ينغمر معها العقل ، ومن جهة أنها تحرك النفس إلى نحو محبوبها كائنا ما كان ، فيحصل بتلك الحركة الشوق والطلب مع التخيل للمحبوب وإدناء صورته إلى القلب واستيلائها على الفكرة لذة عظيمة تقهر العقل، فتجتمع لذة الألحان ولذة الأشجان ؛ ولهذا يقرن المعنيون بهذه اللذات سماع الألحان بالشراب كثيراً ليكمل لهم السكرة فى هذا الحال ما لا يجدونه بدونها .

فالخمر شراب النفوس ، والألحان شراب الأرواح ، ولاسيما إذا اقترن بها من الأقوال ما فيه ذكر المحبوب ووصف حال المحب على مقتضى الحال التى هو فيها ، فيجتمع سماع الأصوات الطيبة وإدراك المعانى المناسبة ، وذلك أقوى بكثير من اللذة الحاصلة بكل واحد

(١) البخارى (٦٩١) فى الأذان ، باب : إثم من رفع رأسه قبل الإمام ، ومسلم (٤٢٧ / ١١٤) فى الصلاة ، باب: تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما ، وأبو داود (٦٢٣) فى الصلاة ، باب : التشديد فيمن يرفع رأسه قبل الإمام ، والترمذى (٨٥٢) فى الصلاة ، باب : ما جاء من التشديد فى الذى يرفع رأسه قبل الإمام ، والنسائى (٨٢٨) فى الإمامة ، باب : مبادرة الإمام ، وابن ماجه (٩٦١) فى إقامة الصلاة ، باب : النهى أن يسبق الإمام بالركوع والسجود ، وأحمد (٢ / ٢٦٠) .

(٢) إغاثة اللهفان (١ / ٢٢٤ ـ ٢٦٨) .

منها على انفراد ، فتستولى اللذة على النفس والروح والبدن أتم استيلاء ، فيحدث غاية السكر [١] .

فصل
فى منزلة الحَزَن

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الحزن » .

وليست من المنازل المطلوبة ، ولا المأمور بنزولها ، وإن كان لابد للسالك من نزولها ، ولم يأت « الحزن » فى القرآن إلا منهيًا عنه ، أو منفيًا .

فالمنهى عنه : كقوله تعالى ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ [آل عمران : ١٣٩] وقوله : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ١٢٧] فى غير موضع ، وقوله : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] والمنفى كقوله : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] .

وسر ذلك : أن « الحزن » موقف غير مسير ، ولا مصلحة فيه للقلب ، وأحب شىء إلى الشيطان : أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره ، ويوقفه عن سلوكه ،قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [المجادلة : ١٠] ونهى النبى ﷺ الثلاثة « أن يتناجى اثنان منهم دون الثالث ؛ لأن ذلك يحزنه » [٢] .

فالحزن ليس بمطلوب ، ولا بمقصود ، ولا فيه فائدة . وقد استعاذ منه النبى ﷺ ، فقال : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن » [٣] فهو قرين . والفرق بينهما : أن المكروه الذى يرده على القلب ، إن كان لما يستقبل : أورثه الهم ، وإن كان لما مضى : أورثه الحزن ، وكلاهما مضعف للقلب عن السير ، مفتر للعزم .

ولكن نزول منزلته ضرورى بحسب الواقع ؛ ولهذا يقول أهل الجنة إذا دخلوها ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر : ٣٤] فهذا يدل على أنهم كان يصيبهم فى الدنيا الحزن ، كما يصيبهم سائر المصائب التى تجرى عليهم بغير اختيارهم .

(١) روضة المحبين (١٥٣) .

(٢) البخارى (٦٢٩٠) فى الاستئذان ، باب : إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة ، ومسلم (٢١٨٤ / ٣٧) فى السلام ، باب : تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث ، وأحمد (١ / ٤٣١ ، ٤٣٢) .

(٣) البخارى (٦٣٦٣) فى الدعوات ، باب : التعوذ من غلبة الرجال ، وأبو داود (١٥٤١) فى الصلاة ، باب : فى الاستعاذة .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة] فلم يمدحوا على نفس الحزن، وإنما مدحوا على نفس الحزن، وإنما مدحوا على ما دل عليه الحزن من قوة إيمانهم ، حيث تخلفوا عن رسول الله ﷺ لعجزهم عن النفقة ، ففيه تعريض بالمنافقين الذين لم يحزنوا على تخلفهم، بل غبطوا نفوسهم به .

وأما قوله ﷺ فى الحديث الصحيح :« ما يصيب المؤمن من هم ولا نصب ، ولا حزن إلا كفر الله به من خطاياه » (١) فهذا يدل على أنه مصيبة من الله يصيب بها العبد ، يكفر بها من سيئاته، لا يدل على أنه مقام ينبغى طلبه واستيطانه .

وأما حديث هند بن أبى هالة ، فى صفة النبى ﷺ : « إنه كان متواصل الأحزان » فحديث لا يثبت ، وفى إسناده من لا يعرف.

وكيف يكون متواصل الأحزان ، وقد صانه الله عن الحزن على الدنيا وأسبابها ،ونهاه عن الحزن على الكفار ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ فمن أين يأتيه الحزن ؟

بل كان دائم البشر ، ضحوك السن ، كما فى صفته « الضحوك القتال » صلوات الله وسلامه عليه.

وأما الخبر المروى:« إن الله يحب كل قلب حزين » فلا يعرف إسناده، ولا من رواه ، ولا تعلم صحته .

وعلى تقدير صحته : فالحزن مصيبة من المصائب ، التى يبتلى الله بها عبده ، فإذا ابتلى به العبد فصبر عليه ، أحب صبره على بلائه .

وأما الأثر الآخر : « إذا أحب الله عبداً ، نصب فى قلبه نائحة ، وإذا أبغض عبداً جعل فى قلبه مزماراً » فأثر إسرائيلى . قيل : إنه فى التوراة ، وله معنى صحيح ، فإن المؤمن حزين على ذنوبه ، والفاجر لاه لاعب ، مترنم فرح .

وأما قوله تعالى عن نبيه إسرائيل : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٨٤] فهو إخبار عن حاله بمصابه بفقد ولده ،وحبيبه ،وأنه ابتلاه بذلك كما ابتلاه بالتفريق بينه وبينه .

وأجمع أرباب السلوك : على أن حزن الدنيا غير محمود إلا أبا عثمان الحيرى ، فإنه

---

(١) البخارى (٥٦٤١ ، ٥٦٤٢) فى المرضى ، باب : ما جاء فى كفارة المرض ، ومسلم (٢٥٧٣ / ٥٢) فى البر والصلة والآداب ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك .

قال : الحزن بكل وجه فضيلة ، وزيادة للمؤمن ، ما لم يكن بسبب معصية . قال : لأنه إن لم يوجب تخصيصًا ، فإنه يوجب تمحيصًا .

فيقال : لا ريب أنه محنة وبلاء من الله ، بمنزلة المرض والهم والغم ، وأما إنه من منازل الطريق : فلا ، والله سبحانه أعلم .

فصل

قال صاحب المنازل : « الحزن توجع لفائت ، وتأسف على ممتنع » .

يريد : أن ما يفوت الإنسان قد يكون مقدوراً له ، وقد لا يكون ، فإن كان مقدوراً توجع لفوته ، وإن كان غير مقدور تأسف لامتناعه .

قال : « وله ثلاث درجات . الأولى : حزن العامة ، وهو حزن على التفريط فى الخدمة ، وعلى التورط فى الجفاء ، وعلى ضياع الأيام » .

التفريط فى الخدمة عندهم : فوق التفريط فى العمل وتضييعه ، بل هذا الحزن يكون مع القيام والعمل ؛ فإن الخدمة ـ عندهم ـ من باب الأخلاق والآداب ، لا من بال الأفعال، وهى حق العبودية ، وأدبها وواجبها ، وصاحب هذا الحزن بالأولى : أن يحزن لتضييع العمل .

وأما التورط فى الجفاء : فهو أيضًا أخص من المعصية بارتكاب المحظور ؛ لأنه قد يكون لفقد أنس سابق مع الله ، فإذا تـوارى عنه تورط فـى الجفوة ، فإن الشيخ ذكـر « الحزن » فى قسم الأبواب ، وهو عنده من قسم البدايات .

وأما تضييع الأيام : فنوعان أيضًا ؛ تضييعها بخلوها عن الطاعات ، وتضييعها بخلوها عن مواجيد الإيمان ، وذوق حلاوته ، والأنس بالله ، وحسن الصحبة معه .

فكل واحد من الثلاثة نوعان لأهل البداية ، وللسالكين المتوسطين . وكلامه يعم النوعين ، وإن كان بالثانى أخص .

قال : « الدرجة الثانية : حزن أهل الإرادة ، وهو حزن على تعلق القلب بالتفرقة ، وعلى اشتغال النفس عن الشهود . وعلى التسلى عن الحزن » .

تعلق القلب بالتفرقة : هو عدم الجمعية فى الحضور مع الله ، وتشتيت الخواطر فى أودية المرادات .

وأما اشتغال النفس عن الشهود ، فهو نوعان ؛ اشتغالها عن الذكر الذى يوجب الشهود ويثمره بغيره .

والثانى : اشتغالها عن الشهود ؛ لضعف الذكر ، أو لضعف القلب عن الشهود ، أو لمانع آخر ، ولكن إذا قهر الشهود النفس لم تتمكن من التشاغل عنه إلا بقاهر يقهرها عنه .

وأما التسلى عن الحزن : فيعنى أن وجود الحزن فى القلب دليل على الإرادة والطلب، ففقده والتسلى عنه نقص ، فيحزن على فقد الحزن ، كما يبكى على فقد البكاء، ويخاف من عدم الخوف . وهذا فيه نظر ، وإنما يحمد الحزن على فقد الحزن ، أما إذا اشتغل عن الحزن بفرح محمود ـ وهو الفرح بفضل الله ورحمته ـ فلا معنى للحزن على فوات الحزن .

قال صاحب المنازل : « وليست الخاصة من مقام الحزن فى شىء ؛ لأن الحزن فقد ، والخاصة أهل وجدان » .

وهذا إن أراد به : أنه لا ينبغى لهم تعمد الحزن : فصحيح . وإن أراد به : لا يعرض لهم حزن : فليس كذلك ، والحزن من لوازم الطبيعة ، ولكن ليس هو بمقام .

قال : « الدرجة الثالثة من الحزن : التحزن للمعارضات دون الخواطر . ومعارضات القصود . واعتراضات الأحكام » .

هذه ثلاثة أمور ، بحسب الشهود والإرادة .

الأول : حزن المعارضات . فإن القلب يعترضه وارد الرجاء مثلا ، فلم ينشب أن يعارضه وارد الخوف وبالعكس ، ويعترضه وارد البسط ، فلم ينشب أن يعترضه وارد القبض ، ويرد عليه وارد الأنس . فيعترضه وارد الهيبة ، فيوجب له اختلاف هذه المعارضات عليه حزنًا لا محالة .

وليست هذه المعارضات من قبيل الخواطر ، بل هى من قبيل الواردات الإلهية ، فلذلك قال : « دون الخواطر » فإن معارضات الخواطر غير هذا .

وعند القوم : هذا من آثار الأسماء والصفات ، واتصال أشعة أنوارها بالقلب ، وهو المسمى عندهم بالتجلى .

وأما معارضات القصود : فهى أصعب ما على القوم ، وفيه يظهر اضطرارهم إلى العلم فوق كل ضرورة ، فإن الصادق يتحرى فى سلوكه كله أحب الطرق إلى الله ، فإنه سالك به وإليه ، فيعترضه طريقان لا يدرى أيهما أرضى لله وأحب إليه .

فمنهم : من يحكم العلم بجهده استدلالاً ، فإن عجز فتقليداً ، فإن عجز عنهما سكن ينتظر ما يحكم له به القدر ، ويخلى باطنه من المقاصد جملة .

ومنهم . من يلقى الكل على شيخه . إن كان له شيخ .

ومنهم : من يلجأ إلا الاستخارة والدعاء ، ثم ينتظر ما يجرى به القدر .

وأصحاب العزائم يبذلون وسعهم فى طلب الأرضى علمًا ومعرفة ، فإن أعجزهم قنعوا بالظن الغالب ، فإن تساوى عندهم الأمران ، قدموا أرجحهما مصلحة .

ولترجيح المصالح رتب متفاوتة . فتارة تترجح بعموم النفع ، وتارة تترجح بزيادة الإيمان ، وتارة تترجح بمخالفة النفس ، وتارة تترجح باستجلاب مصلحة أخرى لا تحصل من غيرها ، وتارة تترجح بأمنها من الخوف من مفسدة لا تؤمن فى غيرها .

فهذه خمس جهات من الترجيح ، قل أن يعدم واحدة منها .

فإن أعوزه ذلك كله تخلى عن الخواطر جملة ، وانتظر ما يحركه به محرك القدر ، وافتقر إلى ربه ، افتقار مستنزل ما يرضيه ويحبه . فإذا جاءته الحركة استخار الله ، وافتقر إليه افتقاراً ثانياً ، خشية أن تكون تلك الحركة نفسية أو شيطانية ، لعدم العصمة فى حقه ، واستمرار المحنة بعدوه ، مادام فى عالم الابتلاء والامتحان ، ثم أقدم على الفعل .

فهذا نهاية ما فى مقدور الصادقين .

ولأهل الجهاد فى هذا من الهداية والكشف ما ليس لأهل المجاهدة ؛ ولهذا قال الأوزاعى وابن المبارك: « إذا اختلف الناس فى شىء فانظروا ما عليه أهل الثغر » يعنى أهل الجهاد ؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**(٦٩) ﴾ [العنكبوت] .

وأما اعتراضات الأحكام : فيجوز أن يريد بالأحكام : الأحكام الكونية ، وهو أظهر ، وأن يريد بها الأحكام الدينية ، فإن أرباب الأحوال يقع منهم اعتراضات على الأحكام الجارية عليهم بخلاف ما يريدونه ، فيحزنون عند إدراكهم لتلك الاعتراضات على ما صدر منهم من سوء الأدب ، وتلك الاعتراضات هى إرادتهم خلاف ما جرى لهم به القدر ، فيحزنون على عدم الموافقة ، وإرادة خلاف ما أريد بهم .

وإن كان المراد به: الأحكام الدينية : فإنهم تعرض لهم أحوال لا يمكنهم الجمع بينهما وبين أحكام الأمر فلا يجدون بداً من القيام بأحكام الأمر ، ولابـد أن يعرض لهم اعتراض

خفى أو جلى ، بحسب انقطاعهم عن الحال بالأمر ، فيحزنون لوجود هذه المعارضة ، فإذا قاموا بأحكام الأمر ، ورأوا أن المصلحة فى حقهم ذلك ، وحمدوا عاقبته : حزنوا على تسرعهم على المعارضة . فالتسليم لداعى العلم واجب ، ومعارضة الحال من قبيل الإرادات والعلل ، فيحزن على نفيهما فيه ، والله أعلم (١) .

فصل
فى منزلة الهمَّة

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الهمة » .

وقد صدرها صاحب المنازل بقوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) ﴾ [النجم] .

وأما وجه تصدير « الهمة » بها : فهو الإشارة إلى أن همته ﷺ ما تعلقت بسوى مشهوده ، وما أقيم فيه ، ولو تجاوزته همته : لتبعها بصره .

و « الهمة » فعلة من الهم ، وهو مبدأ الإرادة ، ولكن خصوها بنهاية الإرادة ، فالهم مبدؤها ، والهمة نهايتها .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : فى بعض الآثار الإلهية يقول الله تعالى : « إنى لا أنظر إلى كلام الحكيم . وإنما أنظر إلى همته » .

قال : والعامة تقول : قيمة كل امرئ ما يحسن . والخاصة تقول : قيمة كل امرئ ما يطلب . يريد : أن قيمة المرء همته ومطلبه .

قال صاحب المنازل : « الهمة : ما يملك الانبعاث للمقصود صرفًا ، لا يتمالك صاحبها ، ولا يلتفت عنها » .

قوله : « يملك الانبعاث للمقصود » أى يستولى عليه كاستيلاء المالك على المملوك ، و« صرفًا » أى خالصًا صرفا .

والمراد : أن همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى طلبًا صادقًا خالصًا محضًا ، فتلك هى الهمة العالية ، التى « لا يتمالك صاحبها » أى لا يقدر على المهلة . ولا يتمالك صبره لغلبة سلطانه عليه ، وشدة إلزامها إياه بطلب المقصود « ولا يلتفت عنها » إلى ما سوى أحكامها، وصاحب هذه الهمة : سريع وصوله وظفره بمطلوبه ، ما لم تعقه العوائق ،

(١) مدارج السالكين (١ / ٥٠٥ ـ ٥١١) .

وتقطعه العلائق ، والله أعلم .

فصل

قال : « وهى على ثلاث درجات ؛ الدرجة الأولى : همة تصون القلب عن وحشة الرغبة فى الفانى ، وتحمله على الرغبة فى الباقى ، وتصفيه من كدر التوانى » .

« الفانى » الدنيا وما عليها ، أى يزهد القلب فيها وفى أهلها ، وسمى الرغبة فيها «وحشة » ؛ لأنها وأهلها توحش قلوب الراغبين فيها ، وقلوب الزاهدين فيها .

أما الراغبون فيها : فأرواحهم وقلوبهم فى وحشة من أجسامهم ، إذا فاتها ما خلقت له ، فهى فى وحشة لفواته .

وأما الزاهدون فيها : فإنهم يرونها موحشة لهم ؛ لأنها تحول بينهم وبين مطلوبهم ومحبوبهم ، ولا شىء أوحش عند القلب مما يحول بينه وبين مطلوبه ومحبوبه ؛ لذلك من نازع الناس أموالهم ، وطلبها منهم : أوحش شىء إليهم وأبغضه .

وأيضًا ، فالزاهدون فيها : إنما ينظرون إليها بالبصائر ، والراغبون : ينظرون إليها بالأبصار ، فيستوحش الزاهد مما يأنس به الراغب ،كما قيل :

وإذا أفاق القلب واندمل الهوى رأت القلوب ولم تر الأبصار

وكذلك هذه الهمة تحمله على الرغبة فى الباقى لذاته ، وهو الحق سبحانه ، والباقى بإبقائه : هو الدار الآخرة .

« وتصفيه من كدر التوانى » أى تخلصه وتمحصه من أوساخ الفتور والتوانى ، الذى هو سبب الإضاعة والتفريط ، والله أعلم .

فصل

قال : الدرجة الثانية : همة تورث أنفة من المبالاة بالعلل ، والنزول على العمل والثقة بالأمل » .

« العلل » ههنا : هى علل الأعمال من رؤيتها ، أو رؤية ثمراتها وإرادتها ، ونحو ذلك ، فإنها عندهم علل .

فصاحب هذه الهمة : يأنف على همته وقلبه من أن يبالى بالعلل ، فإن همته فوق

ذلك ، فمبالاته بها ، وفكرته فيها : نزول من الهمة .

وعدم هذه المبالاة : إما لأن العلل لم تحصل له ؛ لأن علو همته حال بينه وبينها ، فلا يبالى بما لم يحصل له ، وإما لأن همته وسعت مطلوبه ، وعلوه يأتى على تلك العلل ، ويستأصلها ، فإنه إذا علق همته بما هو أعلى منها تضمنتها الهمة العالية ، فاندرج حكمها فى حكم الهمة العالية ، وهذا موضع غريب عزيز جداً ، وما أدرى قصده الشيخ أو لا ؟

وأما أنفته من النزول على العمل : فكلام يحتاج إلى تقييد وتبيين ، وهو أن العالى الهمة مطلبه فوق مطلب العمال والعباد ، وأعلى منه ، فهو يأنف أن ينزل من سماء مطلبه العالى ، إلى مجرد العمل والعبادة ، دون السفر بالقلب إلى الله ، ليحصل له ويفوز به ، فإنه طالب لربه تعالى طلبًا تاما بكل معنى واعتبار فى عمله ، وعبادته ومناجاته ، ونومه ويقظته ، وحركته وسكونه ، وعزلته وخلطته ، وسائر أحواله ، فقد انصبغ قلبه بالتوجه إلى الله تعالى أيما صبغة .

وهذا الأمر إنما يكون لأهل المحبة الصادقة ، فهم لا يقنعون بمجرد رسوم الأعمال ، ولا بالاقتصار على الطلب حال العمل فقط .

وأما أنفته من الثقة بالأمل ، فإن الثقة توجب الفتور والتوانى ، وصاحب هذه الهمة: ليس من أهل ذلك ، كيف ؟ وهو طائر لا سائر ، والله أعلم .

فصل

قال : « الدرجة الثالثة : همة تتصاعد عن الأحوال والمعاملات ، وتزرى بالأعواض والدرجات ، وتنحو عن النعوت نحو الذات » .

أى هذه الهمة أعلى من أن يتعلق صاحبها بالأحوال التى هى آثار الأعمال والواردات، أو يتعلق بالمعاملات . وليس المراد تعطيلها ، بل القيام بها مع عدم الالتفات إليها ، والتعلق بها .

ووجه صعود هذه المهمة عن هذا : ما ذكره من قوله : « وتزرى بالأعواض والدرجات، وتنحو عن النعوت نحو الذات » أى صاحبها لا يقف عند عوض ولا درجة ، فإن ذلك نزول من همته ، ومطلبه أعلى من ذلك ، فإن صاحب هذه الهمة قد قصر همته على المطلب الأعلى ، الذى لا شىء أعلى منه . والأعواض والدرجات دونه ، وهم يعلم أنه إذا حصل له فهناك كل عوض ودرجة عالية .

وأما نحوها « نحو الذات » فيريد به : أن صاحبها لا يقتصر على شهود الأفعال والأسماء والصفات ، بل الذات الجامعة لمتفرقات الأسماء والصفات والأفعال ، كما تقدم ، والله أعلم (١) .

فصل
فى منزلة الغيرة

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الغيرة » .

قال الله تعالى ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** ﴾ [الأعراف : ٣٣] وفى الصحيح عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أحد أغير من الله ، ومن غيرته : حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وما أحد أحب إليه المدح من الله ، ومن أجل ذلك: أثنى على نفسه ، وما أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك : أرسل الرسل مبشرين ومنذرين » (٢) .

وفى الصحيح أيضًا ، من حديث أبى سلمة ، عن أبى هريرة رضي الله عنه ،أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يغار ، وإن المؤمن يغار ،وغيرة الله : أن يأتى العبد ما حرم عليه»(٣).

وفى الصحيح أيضًا : أن النبى ﷺ قال : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير منه ، والله أغير منى » (٤) .

ومما يدخل فى الغيرة قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥)** ﴾ [الإسراء] .

قال السرى لأصحابه : أتدرون ما هذا الحجاب ؟ حجاب الغيرة ، ولا أحد أغير من الله ، إن الله تعالى لم يجعل الكفار أهلا لفهم كلامه ، ولا أهلا لمعرفته وتوحيده ومحبته، فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجابًا مستوراً عن العيون ، غيرة عليه أن يناله من ليس أهلا به .

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣ ـ ٦) .
(٢) مسلم (٢٧٦٠ / ٣٥) فى التوبة ، باب : غيرة الله تعالى .
(٣) مسلم (٢٧٦١ / ٣٦) فى التوبة ، باب : غيرة الله تعالى .
(٤) البخارى (٧٤١٦) فى التوحيد ، باب : قول النبى ﷺ : « لا شخص أغير من الله » .

و « الغيرة » منزلة شريفة عظيمة جداً ، جليلة المقدار ، ولكن الصوفية المتأخرين منهم من قلب موضوعها ، وذهب بها مذهبًا آخر باطلا ، سماه « غيرة » فوضعها فى غير موضعها . ولبس عليه أعظم تلبيس .

« والغيرة » نوعان : غيرة من الشىء ، وغيرة على الشىء .

والغيرة من الشىء : هى كراهة مزاحمته ومشاركته لك فى محبوبك .

والغيرة على الشىء : هى شدة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك دونك أو يشاركك فى الفوز به .

و« الغيرة » أيضًا نوعان : غيرة العبد من نفسه على نفسه ، كغيرته من نفسه على قلبه، ومن تفرقته على جمعيته ، ومن إعراضه على إقباله ، ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة . وهذه الغيرة خاصية النفس الشريفة الزكية العلوية ، وما للنفس الدنية المهيمنة فيها نصيب ، وعلى قدر شرف النفس وعلو همتها تكون هذه الغيرة .

ثم « الغيرة » أيضًا نوعان : غيرة الحق تعالى على عبده، وغيرة العبد لربه لا عليه . فأما غيرة الرب على عبده : فهى ألا يجعله للخلق عبداً ، بل يتخذه لنفسه عبداً ، فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين ، بل يفرده لنفسه ، ويضن به على غيره ، وهذه أعلى الغيرتين .

وغيرة العبد لربه ، نوعان أيضًا : غيرة من نفسه ، وغيرة من غيره . فالتى من نفسه: ألا يجعل شيئًا من أعماله وأقواله وأحواله وأوقاته وأنفاسه لغير ربه ؛ والتى من غيره : أن يغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون ، ولحقوق إذا تهاون بها المتهاونون .

وأما الغيرة على الله : فأعظم الجهل وأبطل الباطل ، وصاحبها من أعظم الناس جهلاً، وربما أدت بصاحبها إلى معاداته وهو لا يشعر ، وإلى انسلاخه من أصل الدين والإسلام ، وربما كان صاحبها شراً على السالكين إلى الله من قطاع الطريق ، بل هو من قطاع طريق السالكين حقيقة ، وأخرج قطع الطريق فى قالب الغيرة . وأين هذا من الغيرة لله ؟ التى توجب تعظيم حقوقه ، وتصفية أعماله وأحواله لله ؟ فالعارف يغار لله ، والجاهل يغار على الله . فلا يقال : أنا أغار على الله ، ولكن أنا أغار لله .

وغيرة العبد من نفسه : أهم من غيرته من غيره ، فإنك إذا غرت من نفسك صحت لك غيرتك لله من غيرك ، وإذا غرت له من غيرك ، ولم تغر من نفسك : فالغيرة مدخولة معلولة ولا بد ، فتأملها وحقق النظر فيها .

فليتأمل السالك اللبيب هذه الكلمات فى هذا المقام ، الذى زلت فيه أقدام كثير من السالكين ، والله الهادى والموفق المثبت .

كما حكى عن واحد من مشهورى الصوفية ، أنه قال : لا أستريح حتى لا أرى من يذكر الله ، يعنى غيرة عليه من أهل الغفلة وذكرهم .

والعجب أن هذا يعد من مناقبه ومحاسنه .

وغاية هذا : أن يعذر فيه لكونه مغلوبًا على عقله ، وهو من أقبح الشطحات . وذكر الله على الغفلة وعلى كل لحال : خير من نسيانه بالكلية . والألسن متى تركت ذكر الله ـ الذى هو محبوبها ـ اشتغلت بذكر ما يبغضه ويمقت عليه ، فأى راحة للعارف فى هذا ؟ وهل هو إلا أشق عليه ، وأكره إليه ؟

وقول آخر : لا أحب أن أرى الله ولا أنظر إليه . فقيل له : كيف ؟ قال : غيرة عليه من نظر مثلى .

فانظر إلى هذه الغيرة القبيحة ، الدالة على جهل صاحبها ، مع أنه فى خفارة ذله وتواضعه وانكساره واحتقاره لنفسه .

ومن هذا ما يحكى عن الشبلى : أنه لما مات ابنه دخل الحمام ونور لحيته ، حتى أذهب شعرها كله . فكل من أتاه معزيا ، قال : إيش هذا يا أبا بكر ؟ قال : وافقت أهلى فى قطع شعورهم . فقال له بعض أصحابه : أخبرنى لم فعلت هذا ؟ فقال : علمت أنهم يعزوننى على الغفلة . ويقولون : آجرك الله ، ففديت ذكرهم لله على الغفلة بلحيتى .

فانظر إلى هذه الغيرة المحرمة القبيحة ، التى تضمنت أنواعًا من المحرمات : حلق الشعر عند المصيبة ، وقد قال رسول الله ﷺ: « ليس منا من حلق وسلق وخرق » (١) أى حلق شعره ، ورفع صوته بالندب والنياحة . وخرق ثيابه .

ومنها : حلق اللحية ، وقد أمر رسول الله ﷺ بإعفائها وتوفيرها (٢) .

ومنها :منع إخوانه من تعزيته ونيل ثوابها .

---

(١) مسلم (١٠٤ / ١٦٧) فى الإيمان ، باب : تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب ، وأبو داود (٣١٣٠) فى الجنائز، باب : فى النوح ، والنسائى (١٨٦١) فى الجنائز ، باب : السلق ، وابن ماجه (١٥٨٦) فى الجنائز ، باب : ما جاء فى النهى عن ضرب الخدود ، وأحمد (٤ / ٣٩٦) .

(٢) البخارى (٥٨٩٣) فى اللباس ، باب : إعفاء اللحى ، ومسلم (٢٥٩ / ٥٢) . فى الطهارة ، باب : خصال الفطرة ، وأحمد (٢ / ١٦) .

ومنها : كراهته لجريان ذكر الله على ألسنتهم بالغفلة . وذلك خير بلا شك من ترك ذكره .

فغاية صاحب هذا : أن تغفر له هذه الذنوب ويعفى عنه ، وأما أن يعد ذلك فى مناقبه، وفى الغيرة المحمودة : فسبحانك . هذا بهتان عظيم .

ومن هذا : ما ذكر عن أبى الحسين النووى : أنه سمع رجلا يؤذن . فقال : طعنه وسم الموت .

وسمع كلبًا ينبح ، فقال : لبيك وسعديك. فقالوا له : هذا ترك للدين .

وصدقوا والله ، يقول للمؤذن فى تشهده : طعنه .وسم الموت . ويلبى نباح الكلب؟

فقال : أما ذاك فكان يذكر الله عن رأس الغفلة ، وأما الكلب : فقد قال تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

فيالله ! ماذا ترى رسول الله ﷺ يواجه هذا القائل لو رآه يقول ذلك أو عمر بن الخطاب ، أو من عد ذلك فى المناقب والمحاسن ؟ !

وسمع الشبلى رجلا يقول : جل لله . فقال : أحب أن تجله عن هذا .

وأذن مرة .فلما بلغ الشهادتين ، قال : لولا أنك أمرتنى ما ذكرت معك غيرك . وقال بعض الجهال من القوم : « لا إله إلا الله » من أصل القلب ، و« محمد رسول الله » من القرط .

ونحن نقول : محمد رسول الله ، من تمام قول لا إله إلا الله . فالكلمتان تخرجان من أصل القلب ، من مشكاة واحدة ، لا تتم إحداهما إلا بالأخرى .

فصل

قال صاحب المنازل « باب الغيرة » قال الله تعالى ـ حاكيا عن نبيه سليمان عليه السلام: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ (٣٣)﴾ [ص] .

ووجه استشهاده بالآية : أن سليمان عليه السلام كان يحب الخيل ، فشغله استحسانها ، والنظر إليها ـ لما عرضت عليه ـ عن صلاة النهار ، حتى توارت الشمس بالحجاب ، فلحقته الغيرة لله من الخيل ، إذ استغرقه استحسانها ، والنظر إليها عن خدمة مولاه وحقه ، فقال: « ردوها على » فطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف غيرة لله .

قال : « الغيرة : سقوط الاحتمال ضنا ، والضيق عن الصبر نفاسة » .

أى عجز الغيور عن احتمال ما يشغله عن محبوبه،ويحجبه عنه ضنا به ـ أى بخلاً به ـ أن يعتاض عنه بغيره ، وهذا البخل : هو محض الكرم عند المحبين الصادقين .

وأما « الضيق عن الصبر نفاسة » فهو أن يضيق ذرعه بالصبر عن محبوبه ، وهذا هو الصبر الذى لا يذم من أنواع الصبر سواه ، أو ما كان من وسيلته .والحامل له على هذا الضيق : مغالاته بمحبوبه ، وهى النفاسة . فإنه ـ لمنافسته ورغبته ـ لا يسامح نفسه بالصبر عنه . و « المنافسة » هى كمال الرغبة فى الشىء ، ومنع الغير منه : إن لم يمدح فيه المشاركة ، والمسابقة إليه إن مدحت فيه المشاركة . قال تعالى : ﴿ **وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** ﴾ [المطففين : ٢٦] وبين « المنافسة » و « الغبطة » جمع وفرق ، وبينهما وبين « الحسد » أيضا جمع وفرق .

فالمنافسة : تتضمن : مسابقة واجتهاداً وحرصاً ، والحسد : يدل على مهانة الحاسد وعجزه ، وإلا فنافس من حسدته . فلذلك أنفع لك من حسده ، كما قيل :

إذا أعجبتك خلال امرئ   فكنه يكن منك ما يعجبك
فليس على الجود والمكرما   ت إذا جئتها حاجب يحجبك

و « الغبطة » تتضمن نوع تعجب وفرح للمغبوط ، واستحسان لحاله .

فصل

قال : « وهى على ثلاث درجات ؛ الدرجة الأولى : غيرة العابد على ضائع يستر ضياعه . ويستدرك فواته ، ويتدارك قواه » .

«العابد » هو العامل ـ بمقتضى العلم النافع ـ للعمل الصالح . فغيرته على ما ضاع عليه من عمل صالح ، فهو يسترد ضياعه بأمثاله . ويجبر ما فاته من الأوراد والنوافل وأنواع القرب بفعل أمثالها ، من جنسها وغير جنسها ، فيقضى ما ينفع فيه القضاء ، ويعوض ما يقبل العوض . ويجبر ما يمكن جبره .

وقوله : « ويستدرك فواته » الفرق بين استرداد ضائعه ، واستدراك فائته ، أن الأول: يمكن أن يسترد بعينه ، كما إذا فاته الحج فى عام تمكن منه ، فأضاعه فى ذلك العام: استدركه فى العام المقبل ، وكذلك إذا أخر الزكاة عن وقت وجوبها استدركها بعد تأخيرها ،

ونحو ذلك .

وأما الفائت : فإنما يستدرك بنظيره . كقضاء الواجب المؤقت إذا فات وقته . أو يكون مراده باسترداد الضايع ، واستدراك الفائت : نوعى التفريط فى الأمر والنهى . فيسترد ضائع هذا بقضائه وفعل أمثاله . ويستدرك فائت هذا ـ أى سالفه ـ بالتوبة والندم .

وأما « تدارك قواه » فهو أن يتدارك قوته ببذلها فى الطاعة قبل أن تتبدلل بالضعف ، فهو يغار عليها : أن تذهب فى غير طاعة الله ، ويتدارك قوى العمل الذى لحقه الفتور عنه بأن يكسوه قوة ونشاطًا غيرة له وعليه ، فهذه غيرة العباد على الأعمال ، والله أعلم .

فصل

قال : الدرجة الثانية : غيرة المريد ، وهى غيرة على وقت فات ، وهى غيرة قاتلة ، فإن الوقت وحى التقضى ، أبى الجانب ، بطى الرجوع » .

و « المريدون » هم أرباب الأحوال ، « والعباد » أرباب الأوراد والعبادات ، وكل مريد عابد ، وكل عابد مريد ، لكــن القوم خصوا أهل المحبة وأذواق حقائق الإيمان باسم «المريد » وخصوا أصحاب العمل المجرد باسم « العابد » وكل مريد لا يكون عابداً فزنديق، وكل عابد لا يكون مريداً فمراء .

و « الوقت » عند العابد : هو وقت العبادة والأوراد . وعند المريد : هو وقت الإقبال على الله ، والجمعية عليه ، والعكوف عليه بالقلب كله .

و « الوقت » أعز شىء عليه ، يغار عليه أن ينقضى بدون ذلك ، فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه البتة ؛ لأن الوقت الثانى قد استحق واجبه الخاص ، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تداركه . كما فى المسند مرفوعا : « من أفطر يوماً من رمضان ، متعمداً من غير عذر : لم يقضه عنه صيام الدهر ، وإن صامه » (١) .

وقوله : « وهى غيرة قاتلة » يعنى : مضرة ضرراً شديدا بينا يشبه القتل ؛ لأن حسرة الفوت قاتلة ، ولاسيما إذا علم المتحسر : أنه لا سبيل له إلى الاستدراك .

وأيضاً ، فالغيرة على التفويت تفويت آخر ، كما يقال : الاشتغال بالندم على الوقت الفائت تضييع للوقت الحاضر؛ ولذلك يقال: الوقت سيف ، إن لم تقطعه ، وإلا قطعك.

---

(١) أحمد (٢ / ٤٤٢) . وإسناده حسن كما فى المسند (٩٦٦٧) .

ثم بين الشيخ السبب فى كون هذه الغيرة قاتلة . فقال : « فإن الوقت وحى التقضى» أى سريع الانقضاء ، كما تقول العرب : « الوحا الوحا ، العجل العجل » والوحى الإعلام فى خفاء وسرعة . ويقال : جاء فلان وحيا أى مجيئًا سريعًا ، فالوقت منقض بذاته ، منصرم بنفسه ، فمن غفل عن نفسه تصرمت أوقاته ، وعظم فواته ، واشتدت حسراته ، فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع ، وطلب الرجعى فحيل بينه وبين الاسترجاع ، وطلب تناول الفائت ، وكيف يرد الأمس فى اليوم الجديد ؟ **﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾** [سبأ : ٥٢] ومنع مما يحبه ويرتضيه ، وعلم أن ما اقتناه ليس مما ينبغى للعاقل أن يقتنيه ، وحيل بينه وبين ما يشتهيه .

فياحسرات ما إلى رد مثلها سبيل ولو ردت لهان التحسر
هى الشهوات اللاء كانت تحولت إلى حسرات حين عز التصبر
فلو أنها ردت بصبر وقوة تحولن لذات وذو اللب يبصر

ويقال : إن أصعب الأحوال المنقطعة : انقطاع الأنفاس ، فإن أربابها إذا صعد النفس الواحد صعدوه إلى نحو محبوبهم ، صاعداً إليه ، متلبسًا بمحبته والشوق إليه ، فإذا أرادوا دفعه لم يدفعوه حتى يتبعوه نفسًا آخر مثله ، فكل أنفاسهم بالله ، وإلى الله متلبسة بمحبته، والشوق إليه والأنس به ، فلا يفوتهم نفس من أنفاسهم مع الله إلا إذا غلبهم النوم ، وكثير منهم يرى فى نومه : أنه كذلك ، لالتباس روحه وقلبه ، فيحفظ عليه أوقات نومه ويقظته ، ولا تستنكر هذه الحال ، فإن المحبة إذا غلبت فى القلب وملكته : أوجبت له ذلك لا محالة .

والمقصود : أن الواردات سريعة الزوال ، تمر أسرع من السحاب ، وينقضى الوقت بما فيه ، فلا يعود عليك منه إلا أثره ، وحكمه ، فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك ، فإنه عائد عليك لا محالة ؛ ولهذا يقال للسعداء : **﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾** [الحاقة] ، ويقال للأشقياء : **﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥)﴾** [غافر] .

فصل

قال: « الدرجة الثالثة: غيرة العارف على عين غطاها غين ، وسر غشيه رين ونفس علق برجاء ، أو التفت إلى عطاء » .

أى : يغار على بصيرة غطاها ستر أو حجاب ، فإن « الغين » بمنزلة الغطاء والحجاب، وهو غطاء رقيق جداً . وفوقه « الغيم » وهو لعموم المؤمنين ، وفوقه « الرين . والران » وهو للكفار .

وقوله : « وشر غشيه رين » أى حجاب أغلظ من الغيم الأول .

و « السر » ههنا : إما اللطفية المدركة من الروح ، وإما الحال التى بين العبد وبين الله عز وجل، فإذا غشيه رين النفس والطبيعة استغاث صاحبه ،كما يستغيث المعذب فى عذابه ، غيرة على سره من ذلك الرين .

وقوله : « ونفس علق برجاء ، والتفت إلى عطاء » .

يعنى : أن صاحب النفس يغار على نفسه إذا تعلق برجاء من ثواب منفصل ، ولم يتعق بإرادة الله ومحبته ، فإن بين النفسين كما بين متعلقهما .

وكذلك قوله : « أو التفت إلى عطاء » يعنى : أنه يلتفت إلى عطاء من دون الله فيرضى به ، ولا ينبغى أن يتعلق إلا بالله ، ولا يلتفت إلا إلى المعطى الغنى الحميد ، وهو الله وحده ، والله أعلم (١) .

فصل
فى بيان الأمور المضادة للصبر والمنافية له والقادحة فيه

لما كان الصبر حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله ، والقلب عن التسخط ، والجوارح عن اللطم وشق الثياب ونحوها ـ كان ما يضاده واقعًا على هذه الجملة ، فمنه الشكوى إلى المخلوق ، فإذا شكى العبد ربه إلى مخلوق مثله فقد شكى من يرحمه إلى من لا يرحمه ، ولا تضاده الشكوى إلى الله فى شكاية يعقوب إلى الله مع قوله : ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** ﴾ [يوسف : ١٨] وأما إخبار المخلوق بالحال ، فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل إلى زوال ضروره ، لم يقدح ذلك فى الصبر : كإخبار المريض للطبيب بشكايته ، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله ، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه . وقد كان النبى ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ، ويقول : « كيف

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٢ ـ ٥١) .

نجدك؟ »(١) ، وهذا استخبار منه واستعلام بحاله .

وأما الأنين : فهل يقدح فى الصبر؟ فيه روايتان عن الإمام أحمد، قال أبو الحسين : أصحهما الكراهة لما روى عن طاوس أنه كان يكره الأنين فى المرض .

وقال مجاهد : كل شيء يكتب على ابن آدم مما يتكلم حتى أنينه فى مرضه ، قال هؤلاء: وإن الأنين شكوى بلسان الحال ينافى الصبر . وقال عبد الله ابن الإمام أحمد : قال لى فى مرضه الذى توفى فيه : أخرج إلى كتاب عبد الله بن إدريس. فأخرجت الكتاب، فقال : أخرج أحاديث ليث بن أبى سليم ، فأخرجت أحاديث ليث ، فقال : اقرأ على أحاديث ليث ، قال : قلت لطلحة : أن طاوس كان يكره الأنين فى المرض ، فما سمع له أنين حتى مات . فما سمعت أبى أنَّ فى مرضه إلى أن توفى .

والرواية الثانية :أنه لا يكره ولا يقدح فى الصبر . قال بكر بن محمد عن أبيه : سئل أحمد عن المريض يشكو ما يجد من الوجع ، فقال : تعرف فيه شيئًا عن رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، حديث عائشة : « وارأساه » ، وجعل يستحسنه .

وقال المروزى : دخلت على أبى عبد الله وهو مريض ، فسألته ، فتغرغرت عيناه ، وجعل يخبرنى ما مر به فى ليلته من العلة .

والتحقيق أن الأنين على قسمين : أنين شكوى فيكره ، وأنين استراحة وتفريج فلا يكره ، والله أعلم .

وقد روى فى أثر : أن المريض إذا بدأ بحمد الله، ثم أخبر بحاله ، لم يكن شكوى . وقال شقيق البلخى : من شكى من مصيبة نزلت به إلى غير الله ، لم يجد فى قلبه حلاوة لطاعة الله أبداً .

والشكوى نوعان : شكوى بلسان القال ، وشكوى بلسان الحال ، ولعلها أعظمها ؛ ولهذا أمر النبى ﷺ من أنعم عليه أن يظهر نعمة الله عليه . وأعظم من ذلك من يشتكى ربه وهو بخير ؛ فهذا أمقت الخلق عند ربه .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا كهمس ، عن عبد الله بن شقيق، قال : قال كعب الأحبار : إن من حسن العمل سبحة الحديث ، ومن شر العمل التحذيف.

---

(١) الترمذى (٩٨٣) ، وقال : « حسن غريب » .

قيل لعبد الله : ما سبحة الحديث ؟ قال : سبحان الله بحمده فى خلال الحديث . قيل : فما التحذيف ؟ قال : يصبح الناس بخير ، فيسألون ، فيزعمون أنهم بشر !

ومما ينافى الصبر شق الثياب عند المصيبة ، ولطم الوجه ، والضرب بإحدى اليدين على الأخرى ، وحلق الشعر ، والدعاء بالويل ؛ ولهذا برئ النبى ﷺ ممن سلق وحلق وخرق (١) ، سلق : رفع صوته عند المصيبة ، وحلق رأسه ، وشق ثيابه ، ولا ينافيه البكاء والحزن ، قال الله تعالى عن يعقوب : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٨٤] . قال قتادة : كظيم على الحزن فلم يقل إلا خيراً .

وقال حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « ما كان من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان » (٢) .

وقال هشيم ، عن عبد الرحمن بن يحيى ،عن حسان بن أبى جبلة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من بث فلم يصبر » (٣) .

وقال خالد بن أبى عثمان : مات ابن لى فرآنى سعيد بن جبير متقعنا ، فقال : إياك والتقنيع ، فإنه من الاستكانة .

وقال بكر بن عبد الله المزنى : كان يقال من الاستكانة الجلوس فى البيت بعد المصيبة.

وقال عبيد بن عمير : ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب ، ولكن الجزع القول السيئ والظن السيئ .

وسئل القاسم بن محمد عن الجزع ، فقال : القول السيئ والظن السيئ .

ومات ابن لبعض قضاة البصرة ، فاجتمع إليه العلماء والفقهاء ، فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره ، فأجمعوا أنه إذا ترك شيئًا مما كان يصنعه فقد جزع .

وقال الحسين بن عبد العزيز الحورى : مات ابن لى نفيس ، فقلت لأمه : اتقى الله واحتسبيه ، واصبرى ، فقالت : مصيبتى به أعظم من أن أفسدها بالجزع .

وقال عبد الله بن المبارك : أتى رجل يزيد بن يزيد وهو يصلى وابنه فى الموت ، فقال: ابنك يقضى وأنت تصلى ؟ ! فقال : إن الرجل إذا كان له عمل يعمله فتركه يومًا

(١) سبق تخرجه ص ٩٠ .
(٢) أحمد (١ / ٢٣٧ ، ٢٣٨) ، وصححه الشيخ شاكر (٢١٢٧) .
(٣) الدر المنثور (٤ / ٣١) .

واحداً كان ذلك خللاً فى عمله .

وقال ثابت : أصيب عبد الله بن مطرف بمصيبة فرأيته أحسن شىء شارعة وأطيبه ريحًا، فذكرت له ما رأيت ، فقال : تأمرنى يا أبا محمد أن أستكين للشيطان وأريه أنه قد أصابنى سوء ؟ ! والله يا أبا محمد ، لو كانت لى الدنيا كلها ثم أخذها منى ثم سقانى شربة يوم القيامة ما رأيتها ثمنًا لتلك الشربة .

ومما يقدح فى الصبر إظهار المصيبة ، والتحدث بها . وكتمانها رأس الصبر .

وقال الحسن بن الصباح فى مسنده : حدثنا خلف بن تميم ، حدثنا زافر بن سليمان ، عن عبد العزيز بن أبى رواد ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من البر كتمان المصائب والأمراض والصدقة » (١) . وذكر أنه : « من بث الصبر فلم يصبر » . وروى من وجه آخر عن الحسن يرفعه : « من البر كتمان المصائب ، وما صبر من بث » (٢).

ولما نزل فى إحدى عينى عطاء الماء ، مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله ، حتى جاء ابنه يومًا من قبل عينيه ، فعلم أن الشيخ قد أصيب .

ودخل رجل على داود الطائى فى فراشه فرآه يرجف ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال : مه ، لا تعلم بهذا أحداً . وقد أقعد قبل ذلك أربعة أشهر لا يعلم بذلك أحد .

وقال مغيرة : شكى الأحنف إلى عمه وجع ضرسه ، فكرر ذلك عليه ، فقال : ما تكرر على ، لقد ذهبت عينى منذ أربعين سنة فلما شكوتها إلى أحد .

ويضاد الصبر الهلع ، وهو الجزع عند ورود المصيبة ، والمنع عند ورود النعمة . قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾** ﴾ [المعارج] . وهذا تفسير الهلوع .

قال الجوهرى : الهلع أفحش الجزع ، وقد هلع بالكسر فهو هلع وهلوع .

وفى الحديث : « شر ما فى العبد شح هالع وجبن خالع » (٣) .

قلت : هنا أمران : أمر لفظى ، وأمر معنوى :

---

(١) الكامل فى الضعفاء (٣ / ٢٣٤) .
(٢) انظر : الدر المنثور (٣ / ٣١) .
(٣) أبو داود (٢٥١١) فى الجهاد ، باب : فى الجرأة والجُبن ، وأحمد (٢ / ٣٠٢) ، وصححه الشيخ شاكر (٧٩٩٧) .

فأما اللفظى : فإنه وصف الشح بكونه هالعاً ، والهالع صاحبه ، وأكثر ما يسمى هلوعًا، ولا يقال هالع له ؛ فإنه لا يتعدى ؛ ففيه وجهان :

أحدهما : أنه على النسب كقولهم : ليل نائم ،وسر كاتم ، ونهار صائم ، ونوم عاصف . كله عند سيبويه على النسب ، أى ذو كذا كما قالوا تامر ولابن .

والثانى : أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع . . له نظير .

وأما المعنوى : فإن الشح والجبن أردى صفتين فى العبد ؛ ولا سيما إذا كان شحه هالعاً . . أى ملق له فى الهلع ، وجبنه خالعاً . . أى قد خلع قلبه من مكانه ، فلا سماحة ولا شجاعة ولا نفع بماله ولا ببدنه ، كما يقال : لا طعنة ولا جفنة ؛ ولا يطرد ولا يشرد، بل قد قمعه وصغره وحقره ودساه الشح والخوف والطمع والفزع . وإذا أردت معرفة الهلوع ، فهو الذى إذا أصابه الجوع مثلاً أظهر الاستجاعة وأسرع بها ، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها ، وإذا أصابه القهر أظهر الاستطامة والاستكانة وباء بها سريعًا ، وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية ، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعًا ، وإذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح ، فلا احتمال ولا أفضال ، وهذا كله من صغر النفس . ودناءتها وتدسيسها فى البدن وإخفائها وتحقيرها ، والله المستعان (١) .

فصل
فى أعجب الصبر

أعجب الصبر صبر المحبين ، قال الشاعر :

والصبر يحمد فى المواطن كلها   إلا عليك فإنه لا يحمد

وقف رجل على الشبلى فقال : أى الصبر أشد على الصابرين ؟ قال : الصبر فى الله، فقال السائل : لا فقال : الصبر لله ، قال : لا ، قال : فالصبر مع الله ، قال : لا، قال : فما هو ؟ قال : الصبر عن الله ، فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه تزهق ، قال الشاعر :

والصبرُ عنك فمذموم عواقبه   والصبر فى سائر الأشياء محمود(٢)

(١) عدة الصابرين (٣٢٣ ـ ٣٢٨) .
(٢) روضة المحبين (٤٣٥ ـ ٤٣٦) .

فصل
فى آداب مخاطبة الرؤساء

كثير من الناس يطلب من صاحبه بعد نيله درجة الرياسة الأخلاق التى كان يعامله بها قبل الرياسة ، فلا يصادفها فينتقض ما بينهما من المودة ، وهذا من جهل الصاحب الطالب للعادة ، وهو بمنزلة من يطلب من صاحبه إذا سكر أخلاق الصاحى وذلك غلط ، فإن للرياسة سكرة كسكرة الخمر أو أشد ، ولو لم يكن للرياسة سكرة لما اختارها صاحبها على الآخرة الدائمة الباقية ، فسكرتها فوق سكرة القهوة بكثير ، ومحال أن يرى من السكران أخلاق الصاحى وطبعه ؛ ولهذا أمر الله تعالى أكرم خلقه عليه بمخاطبة رئيس القبط بالخطاب اللين ، فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعا وعقلا وعرفا ؛ ولذلك تجد الناس كالمفطورين عليه ، وهكذا كان النبى ﷺ يخاطب رؤساء العشائر والقبائل وتأمل امتثال موسى لما أمر به كيف قال لفرعون : ﴿**هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩)**﴾ [النازعات] فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض ، لا مخرج الآمر ، وقال : ﴿ **إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ** ﴾ ، ولم يقل : إلى أن أزكيك ، فنسب الفعل إليه هو ، وذكر لفظ التزكى دون غيره لما فيه من البركة والخير والنماء ، ثم قال : ﴿ **وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ** ﴾ ، أكون كالدليل بين يديك الذى يسير أمامك ، وقال : ﴿ **إِلَىٰ رَبِّكَ** ﴾ استدعاء لإيمانه بربه الذى خلقه ورزقه ، ورباه بنعمه صغيرا ويافعا وكبيرا ، وكذلك قول إبراهيم الخليل لأبيه : ﴿**يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا**﴾ [مريم : ٤٢] فابتدأ خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره ، ولم يسمه باسمه ، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال فقال : ﴿ **لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا** ﴾ ولم يقل : لا تعبد ، ثم قال : ﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ**﴾ [مريم :٤٣] فلم يقل به : إنك جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى فقال﴿ **جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ**﴾ ثم قال : ﴿ **فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا**﴾ [مريم :٤٣]وهذا مثل قول موسى لفرعون: ﴿ **وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩)** ﴾ [النازعات] ، ثم قال : ﴿ **يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)**﴾ [مريم] فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه ، كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه . وقال : ﴿ **يَمَسَّكَ** ﴾ فذكر لفظ المس الذى هو

ألطف من غيره ، ثم نكر العذاب، ثم ذكر الرحمن ولم يقل : الجبار ولا القهار ، فأى خطاب ألطف وألين من هذا، ونظير هذا خطاب صاحب يس لقومه حيث قال : ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) ﴾ [يس] . ونظير ذلك قول نوح لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [نوح] ، وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأمتهم فى القرآن إذا تأملته وجدته ألين خطاب وألطفه ، بل خطاب الله لعباده وألطف خطاب وألينه ، كقوله وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ الآيات [البقرة : ٢١]، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَه ﴾ [الحج : ٧٣] ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾ [فاطر] ، وتأمل ما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ﴾ [الكهف] من اللطف الذى سلب العقول ، وقوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) ﴾ [الزخرف] على أحد التأويلين ! أى نترككم فلا ننصحكم ولا ندعوكم ، ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم . وتأمل لطف خطاب نذر الجن لقومهم وقولهم: ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) ﴾ [الأحقاف] (١).

فصل
فى تقبيل يد السلطان

عوتب ابن عقيل فى تقبيل يد السلطان حين صافحه فقال : أرأيتم لو كان والدى فعل ذلك فقبلت يده أكان خطأ أم واقعا موقعه ؟ قالوا : بلى ، قال : فالأب يربى ولده تربية خاصة والسلطان يربى العالم تربية عامة ، فهو بالإكرام أولى ، ثم قال : « وللحال الحاضرة حكم من لابسها ، وكيف يطلب من المبتلى بها ما يطلب من الخالى عنها » (٢) .

---

(١) بدائع الفوائد (٣ / ١٣٢ ـ ١٣٤) .
(٢) بدائع الفوائد (٣ / ١٧٦) .

فصل
فى عدم المؤاخذة حال الغضب

من دقيق الورع ألا يقبل المبذول حال هيجان الطبع من حزن أو سرور ، فذلك كبذل السكران ، ومعلوم أن الرأى لا يتحقق الا مع اعتدال المزاج ، ومتى بذل باذل فى تلك الحال يعقبه ندم ، ومن هنا لا يقضى القاضى وهو غضبان ، وإذا أردت اختبار ذلك فاختبر نفسك فى كل مواردك من الخير والشر ، فالبدار بالانتقام حال الغضب يعقب ندما ، وظالما ندم المسرور على مجازفته فى العطاء ، وود أن لو كان اقتصر ، وقد ندم الحسن على تمثيله بابن ملجم [١] .

فصل
فى النهى عن الغضب

سأله ﷺ رجل فقال : قل لى قولا ينفعنى الله به وأقلل ، لعلّى أفعله ، فقال : « لا تغضب » ، فردد مراراً كل ذلك يقول : « لا تغضب » [٢] [٣] .

فصل
فى هديه ﷺ فى السلام

ثبت عنه ﷺ فى « الصحيحين » عن أبى هريرة : « أن أفضل الإسلام وخيره إطعام الطعام ، وأن تقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف » [٤] .

وفيهما أن آدم عليه الصلاة والسلام لما خلقه الله قال له : اذهب إلى أولئك النفر من الملائكة ، فسلم عليهم ، واستمع ما يحيونك به ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال :

---

(١) بدائع الفوائد (٣ / ١٣٦) .

(٢) البخارى (٦١١٦) فى الأدب ، باب : الحذر من الغضب ، والترمذى (٢٠٢٠) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى كثرة الغضب ، وأحمد (٢ / ٣٦٢) .

(٣) إعلام الموقعين (٤ / ٤٠١ ، ٤٠٢) .

(٤) البخارى (١٢) فى الإيمان ، باب : إطعام الطعام من الإسلام ، ومسلم (٣٩ / ٦٣) فى الإيمان ، باب : بيان تفاضل الإسلام ، وهما عن عبد الله بن عمرو وليس عن أبى هريرة .

السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه « ورحمة الله » (١).

وفيهما أنه ﷺ أمر بإفشاء السلام وأخبرهم أنهم إذا أفشوا السلام بينهم تحابوا ، وأنهم لا يدخلون الجنة حتى يؤمنوا ، ولا يؤمنون حتى يتحابوا (٢) .

وقال البخارى فى « صحيحه » : قال عمار : ثلاث من جمعهن ، فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم ، والإنفاق من الإقتار .

وقد تضمنت هذه الكلمات أصول الخير وفروعه ، فإن الإنصاف يوجب عليه أداء حقوق الله كاملة موفرة ، وأداء حقوق الناس كذلك وألا يطالبهم بما ليس له ، ولا يحملهم فوق وسعهم ، ويعاملهم بما يحب أن يعاملوه به ، ويعفيهم مما يحب أن يعفوه منه ، ويحكم لهم وعليهم بما يحكم به لنفسه وعليها ، ويدخل فى هذا إنصافه نفسه من نفسه ، فلا يدعى لها ما ليس لها ، ولا يخبثها بتدنيسه لها ، وتصغيره إياها ، وتحقيرها بمعاصى الله، وينميها ويكبرها ويرفعها بطاعة الله وتوحيده ، وحبه وخوفه ، ورجائه ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، وإيثار مرضاته ومحابه على مراضى الخلق ومحابهم ، ولا يكون بها مع الخلق ولا مع الله ، بل يعزلها من البين كما عزلها الله ، ويكون بالله لا بنفسه فى حبه وبغضه ، وعطائه ومنعه ، وكلامه وسكوته ، ومدخله ومخرجه ، فينجى نفسه من البين، ولا يرى لها مكانة يعمل عليها ، فيكون ممن ذمهم الله بقوله : **﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾** [الأنعام : ١٣٥] ، فالعبد المحض ليس لله مكانة يعمل عليها ، فإنه مستحق المنافع والأعمال لسيده ، ونفسه ملك لسيده ، فهو عامل على أن يؤدى إلى سيده ما هو مستحق له عليه ، ليس له مكانة أصلا، بل قد كوتب على حقوق منجمة، كلما أدى نجمًا حل عليه نجم آخر ، ولا يزال المكاتب عبداً ما بقى عليه شىء من نجوم الكتابة .

والمقصود : أن إنصافه من نفسه يوجب عليه معرفة ربه ، وحقه عليه ، ومعرفة نفسه، وما خلقت له ، وألا يزاحم بها مالكها ، وفاطرها ويدعى لها الملكة والاستحقاق، ويزاحم مراد سيده ، ويدفعه بمراده هو ، أو يقدمه ويؤثر عليه ، أو يقسم إرادته بين مراد سيده ومراده ، وهى قسمة ضيزى ، مثل قسمة الذين قالوا : **﴿ هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا**

---

(١) البخارى (٣٣٢٦) فى أحاديث الأنبياء ، باب : خلق آدم وذريته ، ومسلم (٢٨٤١ / ٢٨) فى الجنة وصفة نعيمها، باب : يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير .

(٢) مسلم (٥٤ / ٩٣) فى الإيمان ، باب : بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ، ولم يعزه صاحب التحفة إلا لمسلم (٩ / ٣٧٨ ، ٣٧٩) .

يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام : ١٣٦] .

فلينظر العبد لا يكون من أهل هذه القسمة بين نفسه وشركائه وبين الله لجهله وظلمه وإلا لبس عليه ، وهو لا يشعر ، فإن الإنسان خلق ظلومًا جهولاً ، فكيف يطلب الإنصاف ممن وصفه الظلم والجهل ؟ ! وكيف ينصف الخلق من لم ينصف الخالق ؟ ! كما فى أثر إلهى يقول الله عز وجل : « ابن آدم ، ما أنصفتنى ، خيرى إليك نازل ، وشرك إلى صاعد ، كم أتحبب إليك بالنعم ، وأنا غنى عنك ، وكم تتبغض إلى بالمعاصى وأنت فقير إلى ، ولايزال الملك الكريم يعرج إلى منك بعمل قبيح » .

وفى أثر آخر : « ابن آدم ما أنصفتنى ، خلقتك وتعبد غيرى ، وأرزقك وتشكر سواى » .

ثم كيف ينصف غيره من لم ينصف نفسه ، وظلمها أقبح الظلم ، وسعى فى ضررها أعظم السعى ، ومنعها أعظم لذاتها من حيث ظن أنه يعطيها إياها . فأتعبها كل التعب ، وأشقاها كل الشقاء من حيث ظن أنه يريحها ويسعدها ، وجد كل الجد فى حرمانها حظها من الله ، وهو يظن أنه ينيلها حظوظها .ودساها كل التدسية ، وهو يظن أنه يكبرها وينميها ، وحقرها كل التحقير ، وهو يظن أنه يعظمها ، فكيف يرجى الإنصاف ممن هذا إنصافه لنفسه ؟ ! إذا كان هذا فعل العبد بنفسه ، فماذا تراه بالأجانب يفعل .

والمقصود : أن قول عمار ﷺ : ثلاث من جمعهن ، فقد جمع الإيمان : الإنصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم ، والإنفاق من الإقتار ، كلام جامع لأصول الخير وفروعه .

وبذل السلام للعالم يتضمن تواضعه وأنه لا يتكبر على أحد ، بل يبذل السلام للصغير والكبير ، والشريف والوضيع ، ومن يعرفه ومن لا يعرفه ، والمتكبر ضد هذا ، فإنه لا يرد السلام على كل من سلم عليه كبراً منه وتيهاً ، فكيف يبذل السلام لكل أحد .

وأما الإنفاق من الإقتار ، فلا يصدر إلا عن قوة ثقة بالله ، وأن الله يخلفه ما أنفقه، وعن قوة يقين ، وتوكل ، ورحمة ، وزهد فى الدنيا ، وسخاء نفس بها ، ووثوق بوعد من وعده مغفرة منه وفضلاً ، وتكذيبًا بوعد من يعده الفقر ، ويأمر بالفحشاء ، والله المستعان .

فصل

وثبت عنه ﷺ أنه مر بصبيان ، فسلم عليهم ، ذكره مسلم (١) .

وذكر الترمذى فى « جامعه » عنه ﷺ مر يومًا بجماعة نسوة ، فألوى بيده بالتسليم .

وقال أبو داود : عن أسماء بنت يزيد مر علينا النبى فى نسوة ، فسلم علينا ، وهى رواية حديث الترمذى ، والظاهر أن القصة واحدة وأنه سلم عليهن بيده (٢) .

وفى « صحيح البخارى » : أن الصحابة كانوا ينصرفون من الجمعة فيمرون على عجوز فى طريقهم ، فيسلمون عليها ، فتقدم لهم طعامًا من أصول السلق والشعير (٣).

وهذا هو الصواب فى مسألة السلام على النساء يسلم على العجوز وذوات المحارم دون غيرهن .

فصل

وثبت عنه فى « صحيح البخارى » وغيره تسليم الصغير على الكبير ، والمار على القاعد ، والراكب على الماشى ، والقليل على الكثير (٤) .

وفى « جامع الترمذى » عنه : يسلم الماشى على القائم (٥) .

وفى « مسند البزار » عنه : يسلم الراكب على الماشى ، والماشى على القاعد ، والماشيان أيهما بدأ ، فهو أفضل (٦) .

وفى « سنن أبى داود » عنه : « إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام » (٧).

---

(١) مسلم (٢١٦٨ / ١٤) فى السلام ، باب : استحباب السلام على الصبيان .

(٢) أبو داود (٥٢٠٤) فى الأدب ، باب : فى السلام على النساء ، والترمذى (٢٦٩٧) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى التسليم على النساء ، وقال : « حديث حسن » .

(٣) البخارى (٦٢٤٨) فى الاستئذان ، باب : تسليم الرجال على النساء والنساء على الرجال .

(٤) البخارى (٦٢٣١) فى الاستئذان ، باب : تسليم القليل على الكثير ، ومسلم (٢١٦٠ / ١) فى السلام ، باب: يسلم الراكب على الماشى .

(٥) الترمذى (٢٧٠٥) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى تسليم الراكب على الماشى . وقال : « حسن صحيح » .

(٦) الهيثمى فى المجمع (٨ / ٣٩) فى الأدب ، باب : فيمن يسن البداءة بالسلام من الراكب وغيره ، وقال : «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح » .

(٧) أبو داود (٥١٩٧) فى الأدب ، باب : فى فضل من بدأ بالسلام .

وكان من هديه ﷺ السلام عند المجىء إلى القوم ، والسلام عند الانصراف عنهم ، وثبت عنه أنه قال : « إذا قعد أحدكم ، فليسلم ، وإذا قام ، فليسلم ، وليست الأولى أحق من الآخرة » (١) .

وذكر أبو داود عنه : « إذا لقى أحدكم صاحبه فليسلم عليه ، فإن حال بينهما شجرة أو جدار ، ثم لقيه ، فليسلم عليه أيضاً » (٢).

وقال أنس : كان أصحاب رسول الله ﷺ يتماشون ، فإذا استقبلتهم شجرة أو أكمة ، تفرقوا يميناً وشمالاً ، وإذا التقوا من ورائها ، سلم بعضهم على بعض (٣) .

ومن هديه ﷺ أن الداخل إلى المسجد يبتدئ بركعتين تحية المسجد ، ثم يجىء فيسلم على القوم ، فتكون تحية المسجد قبل تحية أهله ، فإن تلك حق الله تعالى ، والسلام على الخلق هو حق لهم ، وحق الله فى مثل هذا أحق بالتقديم ، بخلاف الحقوق المالية ، فإن فيها نزاعًا معروفًا ، والفرق بينهما حاجة الآدمى وعدم اتساع الحق المالى لأداء الحقين ، بخلاف السلام .

وكانت عادة القوم معه هكذا ، يدخل أحدهم المسجد ، فيصلى ركعتين ، ثم يجىء ، فيسلم على النبى ﷺ ، ولهذا جاء فى حديث رفاعة بن رافع أن النبى ﷺ بينما هو جالس فى المسجد يومًا قال رفاعة : ونحن معه إذا جاء رجل كالبدوى ، فصلى ،فأخفَّ صلاته ، ثم انصرف فسلم على النبى ﷺ ، فقال النبى ﷺ : « وعليك فارجع ، فصل ، فإنك لم تصل » ، وذكر الحديث(٤) ، فأنكر عليه صلاته ، ولم ينكر عليه تأخير السلام عليه ﷺ إلى ما بعد الصلاة .

وعلى هذا : فيسن لداخل المسجد إذا كان فيه جماعة ثلاث تحيات مترتبة : أن يقول عند دخوله : بسم الله والصلاة على رسول الله ، ثم يصلى ركعتين تحية المسجد ، ثم يسلم على القوم .

---

(١) أبو داود (٥٢٠٨) فى الأدب ، باب : فى السلام إذا قام من المجلس ، والترمذى (٢٧٠٦) فى الاستئذان ، باب : فى التسليم عند القيام وعند القعود ، وقال « حسن » ، وأحمد (٢ / ٢٣٠) .

(٢) أبو داود (٥٢٠٠) فى الأدب ، باب : فى الرجل يفارق الرجل ثم يلقاه أيسلم عليه ؟ .

(٣) البخارى فى الأدب المفرد (١٠١١) . وذكر الهيثمى فى المجمع (٨ / ٣٧) فى الأدب ، باب : تكرار السلام عند اللقاء ، وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط واسناده حسن » .

(٤) الترمذى (٣٠٢) فى الصلاة ، باب : ما جاء فى وصف الصلاة ، وقال : « حديث رفاعة بن رافع حديث حسن » .

فصل

وكان إذا دخل على أهله بالليل ، يسلم تسليمًا لا يوقظ النائم . ويسمع اليقظان ، ذكره مسلم (١) .

فصل

وذكر الترمذى عنه ﷺ : « السلام قبل الكلام » (٢) .

وفى لفظ آخر : « لا تدعوا أحداً إلى الطعام حتى يسلم » (٣) .

وهذا وإن كان إسناده وما قبله ضعيفًا ، فالعمل عليه .

وقد روى أبو أحمد بإسناد أحسن منه من حديث عبد العزيز بن أبى رواد ، عن نافع، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « السلام قبل السؤال ، فمن بدأكم بالسؤال قبل السلام ، فلا تجيبوه » (٤) .

ويذكر عنه أنه كان لا يأذن لمن لم يبدأ بالسلام . ويذكر عنه :« لا تأذنوا لمن لم يبدأ بالسلام » (٥) .

وأجود منها ما رواه الترمذى عن كلدة بن حنبل ، أن صفوان بن أمية بعثه بلبن ولبأ وجداية وضغابيس إلى النبى ﷺ ، والنبى ﷺ بأعلى الوادى قال: فدخلت عليه ، ولم أسلم، ولم أستأذن ، فقال النبى ﷺ : « ارجع فقل : السلام عليكم ، أأدخل ؟ » ، قال: هذا حديث حسن غريب (٦) .

---

(١) مسلم (٢٠٥٥ / ١٧٤) فى الأشربة ، باب : إكرام الضيف وفضل إيثاره .

(٢) الترمذى (٢٦٩٩) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى السلام قبل الكلام ، وقال : « هذا حديث منكر لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .

(٣) انظر : الترمذى (٥ / ٥٧) .

(٤) الطبرانى فى الأوسط (٤٢٩) ، وذكره الهيثمى فى المجمع (٨ / ٣٥) فى الأدب ، باب : فيمن سأل ولم يسلم ، وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه هارون بن محمد أبو الطيب وهو كذاب » .

(٥) الهيثمى فى المجمع (٨ / ٣٥) فى الأدب ، باب : فيمن سأل ولم يسلم ، وقال : « رواه أبو يعلى وفيه من لم أعرفه » .

(٦) الترمذى (٢٧١٠) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى التسليم قبل الاستئذان . وقال : « حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن جريج » .

وكان إذا أتى باب قوم ، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن ، أو الأيسر ، فيقول : « السلام عليكم ، السلام عليكم » (١) .

فصل

وكان يسلم بنفسه على من يواجهه ، ويحمل السلام لمن يريد السلام عليه من الغائبين عنه(٢) ، ويتحمل السلام لمن يبلغه إليه ، كما تحمل السلام من الله عز وجل على صديقة النساء خديجة بنت خويلد رضي الله عنها لما قال له جبريل : « هذه خديجة قد أتتك بطعام ، فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة » (٣) .

وقال للصديقة الثانية بنت الصديق عائشة رضي الله عنها : « هذا جبريل يقرأ السلام » فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ، يرى ما لا أرى (٤) .

فصل

وكان هديه انتهاء السلام إلى « وبركاته » ، فذكر النسائى عنه أن رجلاً جاء فقال : السلام عليكم ، فرد عليه النبى ﷺ وقال : « عشرة » ثم جلس ، ثم جاء آخر ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد عليه النبى ﷺ وقال : « عشرون » ثم جلس وجاء آخر، فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد عليه رسول الله ﷺ ، وقال : « ثلاثون» رواه النسائى ، والترمذى من حديث عمران بن حصين ، وحسنه (٥) .

وذكره أبو داود من حديث معاذ بن أنس، وزاد فيه : « ثم أتى آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته فقال : « أربعون » فقال : هكذا تكون الفضائل»(٦). ولا يثبت هذا الحديث ، فإن له ثلاث علل :

---

(١) أبو داود (٥١٨٦) فى الأدب ، باب : كم مرة يسلم الرجل فى الاستئذان .

(٢) مسلم (١٨٩٤ / ١٣٤) فى الإمارة ، باب : فضل إعانة الغازى فى سبيل الله .

(٣) البخارى (٣٨٢٠) فى مناقب الأنصار ، باب : تزويج النبى ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها ،ومسلم (٢٤٣٢ / ٧) فى فضائل الصحابة ، باب : فضل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها .

(٤) البخارى (٣٧٦٨) فى فضائل الصحابة ، باب : فضل عائشة رضي الله عنها ، ومسلم (٢٤٤٧ / ٩٠) فى فضائل الصحابة ، باب : فى فضل عائشة رضي الله عنها .

(٥) الترمذى (٢٦٨٩) فى الاستئذان ، باب : ما ذكر فى فضل السلام ، وقال : « حسن صحيح غريب من هذا الوجه » ، والنسائى فى الكبرى (١٠١٦٩) فى عمل اليوم والليلة ، باب : ثواب السلام .

(٦) أبو داود (٥١٩٦) فى الأدب ، باب : كيف السلام ؟ وضعفه الألبانى .

إحداها : أنه من رواية أبى مرحوم عبد الرحيم بن ميمون ، ولا يحتج به .

الثانى : أن فيه أيضًا سهل بن معاذ وهو أيضًا كذلك .

الثالثة : أن سعيد بن أبى مريم أحد رواته لم يجزم بالرواية ، بل قال : أظن أنى سمعت نافع بن يزيد .

وأضعف من هذا الحديث الآخر عن أنس : كان رجل يمر بالنبى ﷺ يقول : السلام عليك يا رسول الله ، فيقول له النبى ﷺ : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه » فقيل له : يا رسول الله ، تسلم على هذا سلامًا ما تسلمه على أحد من أصحابك ؟ فقال : « وما يمنعنى من ذلك ، وهو ينصرف بأجر بضعة عشر رجلاً » وكان يرعي على أصحابه [١] .

فصل

وكان من هديه ﷺ أن يسلم ثلاثًا كما فى « صحيح البخارى » عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تفهم عنه ، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم ثلاثًا [٢] .

ولعل هذا كان هديه فى السلام على الجمع الكثير الذين لا يبلغهم سلام واحد ، أو هديه فى إسماع السلام الثانى والثالث ، إن ظن أن الأول لم يحصل به الإسماع ، كما سلم لما انتهى إلى منزل سعد بن عبادة ثلاثًا ،فلما لم يجبه أحد رجع[٣] . وإلا فلو كان هديه الدائم التسليم ثلاثًا لكان أصحابه يسلمون عليه كذلك ، وكان يسلم على كل من لقيه ثلاثًا ، وإذا دخل بيته ثلاثًا ، ومن تأمل هديه ، علم أن الأمر ليس كذلك ، وأن تكرار السلام كان منه أمراً عارضًا فى بعض الأحيان ، والله أعلم .

فصل

وكان يبدأ من لقيه بالسلام ، وإذا سلم عليه أحد ، رد عليه مثل تحيته أو أفضل منها على الفوز من غير تأخير ، إلا لعذر ، مثل حالة الصلاة ، وحالة قضاء الحاجة .

(١) الأذكار للنووى (٦٢١) فى السلام والاستئذان ، باب : كيفية السلام .

(٢) البخارى (٩٥) فى العلم ، باب : من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه .

(٣) البخارى فى الأدب المفرد (١٠٧٣) باب : إذا سلم الرجل على الرجل فى بيته .

وكان يسمع المسلم رده عليه ، ولم يكن يرد بيده ولا رأسه ولا أصبعه إلا فى الصلاة، فإنه كان يرد على من سلم عليه إشارة ، ثبت ذلك عنه فى عدة أحاديث،ولم يجئ عنه ما يعارضها إلا بشىء باطل لا يصح عنه كحديث يرويه أبو غطفان رجل مجهول ، عن أبى هريرة عنه ﷺ:«من أشار فى صلاته إشارة تفهم عنه،فليعد صلاته » (١) .قال الدارقطنى : قال لنا ابن أبى داود : أبو غطفان هذا رجل مجهول . والصحيح عن النبى ﷺ أنه كان يشير فى الصلاة ، رواه أنس وجابر وغيرهما عن النبى ﷺ (٢) .

فصل

وكان هديه فى ابتداء السلام أن يقول : « السلام عليكم ورحمة الله » وكان يكره أن يقول المبتدئ : عليك السلام .

قال أبو جرى الهجيمى : أتيت النبى ﷺ فقلت : عليك السلام يا رسول الله ، فقال: « لا تقل عليك السلام ، فإن عليك السلام تحية الموتى » حديث صحيح (٣) .

وقد أشكل هذا الحديث على طائفة ، وظنوه معارضًا لما ثبت عنه ﷺ فى السلام على الأموات بلفظ : « السلام عليكم » بتقديم السلام ، فظنوا أن قوله : « فإن عليك السلام تحية الموتى » إخبار عن المشروع ، وغلطوا فى ذلك غلطًا أوجب لهم ظن التعارض ، وإنما معنى قوله : « فإن عليك السلام تحية الموتى » إخبار عن الواقع ، لا المشروع ، أى : إن الشعراء وغيرهم يحيون الموتى بهذه اللفظة ، كقول قائلهم :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما
فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

فكره النبى ﷺ أن يحيى بتحية الأموات ، ومن كراهته لذلك لم يرد على المسلم بها .

وكان يرد على المسلم « وعليك السلام » بالواو ، وبتقديم « عليك » على لفظ السلام.

وتكلم الناس هاهنا فى مسألة ، وهى لو حذف الراد « الواو » فقال : « عليك

(١) أبو داود (٩٤٤) فى الصلاة ، باب : الإشارة فى الصلاة ، وضعفه الألبانى .
(٢) الدارقطنى ٢ / ٨٣ ، ٨٤ (٢) فى الجنائز ، باب : الإشارة فى الصلاة .
(٣) أبو داود (٥٢٠٩) فى الأدب ، باب : كراهية أن يقول : عليك السلام ، والترمذى (٢٧٢٢) فى الاستئذان ، باب: ما جاء فى كراهة أن يقول : عليك السلام مبتدئا .

السلام» هل يكون صحيحًا ؟ فقالت طائفة منهم المتولى وغيره : لا يكون جوابًا ، ولا يسقط به فرض الرد ؛ لأنه مخالف لسنة الرد ، ولأنه لا يعلم : هل هو رد ، أو ابتداء تحية؟ فإن صورته صالحة لهما ، ولأن النبى ﷺ قال : « إذا سلم عليكم أهل الكتاب ، فقولوا : وعليكم » (١) فهذا تنبيه منه على وجوب الواو فى الرد على أهل السلام ، فإن « الواو » فى مثل هذا الكلام تقتضى تقرير الأول ، وإثبات الثانى ، فإذا أمر بالواو فى الرد على أهل الكتاب الذين يقولون : السام عليكم ، فقال : « إذا سلم عليكم أهل الكتاب ، فقولوا : وعليكم » فذكرها فى الرد على المسلمين أولى وأحرى .

وذهبت طائفة أخرى إلى أن ذلك رد صحيح ، كما لو كان بالواو ،ونص عليه الشافعى رحمه الله فى كتابه الكبير ، واحتج لهذا القول بقوله تعالى : ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ** ﴾ [الذاريات : ٢٤] أى : سلام عليكم ، لا بد من هذا ، ولكن حسن الحذف فى الرد ، لأجل الحذف فى الابتداء ، واحتجوا بما فى « الصحيحين » عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم طوله ستون ذراعًا ، فلما خلقه ، قال له : اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة ، فاستمع ما يحيونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم فقالوا : السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله » (٢) . فقد أخبر النبى ﷺ أن هذه تحيته وتحية ذريته ، قالوا : ولأن المسلم عليه مأمور أن يحيى المسلم بمثل تحيته عدلاً ، وبأحسن منها فضلاً ، فإذا رد عليه بمثل سلامه ، كان قد أتى بالعدل .

وأما قوله : « إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم » فهذا الحديث قد اختلف فى لفظة « الواو » فيه ، فروى على ثلاثة أوجه ، أحدها : بالواو ، قال أبو داود: كذلك رواه مالك عن عبد الله بن دينار ، ورواه الثورى عن عبد الله بن دينار ، فقال فيه : « فعليكم » وحديث سفيان فى « الصحيحين » ورواه النسائى من حديث ابن عيينة عن عبد الله بن دينار بإسقاط « الواو » ، وفى لفظ لمسلم والنسائى : فقل : «عليك» بغير واو .

وقال الخطابى : عامة المحدثين يروونه « وعليكم » بالواو ، وكان سفيان بن عيينة يرويه « عليكم » بحذف الواو ، وهو الصواب ، وذلك أنه إذا حذف الواو ، صار قولهم

(١) مسلم (٢١٦٣ /٦) فى السلام ، باب : النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام ، وأبو داود (٥٢٠٧) فى الأدب، باب : فى السلام على أهل الذمة .

(٢) سبق تخريجه ص ١٠٣ .

الذى قالوه بعينه مردوداً عليهم ، وبإدخال الواو يقع الاشتراك معهم ، والدخول فيما قالوا، لأن الواو حرف للعطف والاجتماع بين الشيئين . انتهى كلامه .

وما ذكره من أمر الواو ليس بمشكل ، فإن « السام » الأكثرون على أنه الموت ، والمسلم والمسلم عليه مشتركون فيه ، فيكون فى الإتيان بالواو بيان لعدم الاختصاص ، وإثبات المشاركة ، وفى حذفها إشعار بأن المسلم أحق به وأولى من المسلم عليه وعلى هذا فيكون الإتيان بالواو هو الصواب ، وهو أحسن من حذفها ، كما رواه مالك وغيره ، ولكن قد فسر السام بالسآمة ، وهى الملالة وسآمة الدين ، قالوا : وعلى هذا فالوجه حذف الواو ولا بد ، ولكن هذا خلاف المعروف من هذه اللفظة فى اللغة ؛ ولهذا جاء فى الحديث : « إن الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام » (١) .

ولا يختلفون أنه الموت ، وقد ذهب بعض المتحذلقين إلى أنه يرد عليهم السلام بكسر السين ، وهى الحجارة ، جمع سلمة ، ورد هذا الرد متعين .

فصل فى هديه ﷺ فى السلام على أهل الكتاب

صح عنه ﷺ أنه قال : « لا تبدؤوهم بالسلام، وإذا لقيتموهم فى الطريق، فاضطروهم إلى أضيق الطريق » لكن قد قيل : إن هذا كان فى قضية خاصة لما ساروا إلى بنى قريظة قال : « لا تبدؤوهم بالسلام » فهل هذا حكم عام لأهل الذمة مطلقًا ، أو يختص بمن كانت حاله بمثل حال أولئك ؟ هذا موضع نظر ، ولكن قد روى مسلم فى « صحيحه » من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم فى الطريق ، فاضطروه إلى أضيقه » (٢) . والظاهر أن هذا حكم عام .

وقد اختلف السلف والخلف فى ذلك ، فقال أكثرهم : لا يبدؤون بالسلام ، وذهب آخرون إلى جواز ابتدائهم كما يرد عليهم ، روى ذلك عن ابن عباس ، وأبى أمامة وابن محيريز ، وهو وجه فى مذهب الشافعى رحمه الله ، لكن صاحب هذا الوجه قال : يقال له : السلام عليك فقط بدون ذكر الرحمة ، وبلفظ الإفراد : وقالت طائفة : يجوز الابتداء

---

(١) البخارى (٥٦٨٨) فى الطب ، باب : الحبة السوداء ، ومسلم (٢٢١٥ / ٨٨) فى السلام ، باب : التداوى بالحبة السوداء .

(٢) مسلم (٢١٦٧ / ١٣) فى السلام ، باب : النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام ، وأبو داود (٥٢٠٥) فى الأدب، باب : فى السلام على أهل الذمة ، والترمذى (١٦٠٢) فى السير ، باب : ما جاء فى التسليم على أهل الكتاب .

لمصلحة راجحة من حاجة تكون له إليه ،أو خوف من أذاه ، أو لقرابة بينهما ، أو لسبب يقتضى ذلك، يروى ذلك عن إبراهيم النخعى ، وعلقمة . وقال الأوزاعى : إن سلمت ، فقد سلم الصالحون ، وإن تركت ، فقد ترك الصالحون

واختلفوا فى وجوب الرد عليهم ، فالجمهور على وجوبه ، وهو الصواب ، وقالت طائفة : لا يجب الرد عليهم ، كما لا يجب على أهل البدع وأولى ، والصواب الأول ، والفرق أنا مأمورون بهجر أهل البدع تعزيراً لهم ، وتحذيراً منهم ، بخلاف أهل الذمة .

فصل

وثبت عنه ﷺ أنه مر على مجلس فيه أخلاط من المسلمين ، والمشركين عبدة الأوثان، واليهود ، فسلم عليهم (١) .

وصح عنه أنه كتب إلى هرقل وغيره : « السلام على من اتبع الهدى » (٢) .

فصل

ويذكر عنه ﷺ أنه قال : « يجزئ عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ، ويجزئ عن الجلوس أن يرد أحدهم » (٣) ، فذهب إلى هذا الحديث من قال : إن الرد فرض كفاية يقوم فيه الواحد مقام الجميع ، لكن ما أحسنه لو كان ثابتًا ، فإذا هذا الحديث رواه أبو داود من رواية سعيد بن خالد الخزاعى المدنى ، قال أبو زرعة الرازى : مدنى ضعيف. وقال أبو حاتم الرازى : ضعيف الحديث ، وقال البخارى : فيه نظر . وقال الدارقطنى : ليس بالقوى .

فصل

وكان من هديه ﷺ إذا بلغه أحد السلام عن غيره أن يرد عليه وعلى المبلغ ، كما فى « السنن » أن رجلاً قال له : إن أبى يقرئك السلام ، فقال له : « عليك وعلى أبيك

(١) البخارى (٦٢٥٤) فى الاستئذان ، باب : التسليم فى مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين ، ومسلم (١٧٩٨ / ١١٦) فى الجهاد والسير ، باب : فى دعاء النبى ﷺ وصبره على أذى المنافقين .

(٢) البخارى (٦٢٦٠) فى الاستئذان ، باب : كيف يكتب إلى أهل الكتاب ؟

(٣) أبو داود (٥٢١٠) فى الأدب ، باب : ما جاء فى رد الواحد عن الجماعة .

السلام » (١) .

وكان من هديه ترك السلام ابتداء ورداً على من أحدث حدثًا حتى يتوب منه ، كما هجر كعب بن مالك وصاحبيه ، وكان كعب يسلم عليه ، ولا يدرى هل حرك شفتيه برد السلام عليه أم لا ؟ (٢) .

وسلم عليه عمار بن ياسر ، وقد خلقه أهله بزعفران ، فلم يرد عليه ، فقال : «اذهب فاغسل هذا عنك » (٣) . وهجر زينب بنت جحش شهرين وبعض الثالث لما قال لها: « أعطى صفية ظهراً لما اعتل بعيرها » فقالت : أنا أعطى تلك اليهودية ؟ ! ذكرهما أبو داود (٤) (٥) .

فصل
فى إفشاء السلام

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تُؤمنوا ولا تؤمنون حتى تحابوا ، أفلا أدُلُّكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » .

أخرجه مسلم والترمذى وابن ماجه (٦) .

وقد أخرجا فى الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع : أمرنا بعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وتشميت العاطس ، ونصر الضعيف ، وعون المظلوم ، وإفشاء السلام ، وإبراء القسم (٧) .

---

(١) أبو داود (٥٢٣١) فى الأدب ، باب : فى الرجل يقول : فلان يقرئك السلام .

(٢) البخارى (٦٢٥٥) فى الاستئذان ، باب : من لم يسلم على من اقترف ذنبا ، ومسلم (٢٧٦٩ / ٥٣) فى التوبة، باب : حديث توبة كعب بن مالك .

(٣) أبو داود (٤١٧٦) فى الترجل ، باب : فى الخلوق للرجال.

(٤) أبو داود (٤٦٠٢) فى السنة ، باب : ترك السلام على أهل الأهواء ، وضعفه الألبانى .

(٥) زاد المعاد (٢ / ٤٠٦ ـ ٤٢٨) .

(٦) مسلم (٥٤ / ٩٣) فى الإيمان ، باب : بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ، والترمذى (٢٦٨٨) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى إفشاء السلام ، وابن ماجه (٦٨) فى المقدمة ، باب : فى الإيمان .

(٧) البخارى (٦٢٣٥) فى الاستئذان ، باب : إفشاء السلام ، ومسلم (٢٠٦٦ / ٣) فى اللباس والزينة ، باب : تحريم استعمال الذهب والفضة على الرجال .

وفى جامع الترمذى عن عبد الله بن سلام ﷺ قال: سمعت النبى ﷺ يقول « يا أيها الناس ، أفشوا السلام وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » قال الترمذى : حديث صحيح (١) .

وفى الموطأ بإسناد صحيح عن الطفيل بن أبى بن كعب : أنه كان يأتى عبد الله بن عمر ﷺ ، فيغدو معه إلى السوق ، قال : فإذا غدونا إلى السوق لم يمر عبد الله على سقاط ولا صاحب بيعة ولا مسكين ؛ ولا أحد إلا سلم عليه ، قال الطفيل : فجئت عبد الله بن عمر يومًا ، فاستتبعنى إلى السوق ، فقلت له : وما تصنع بالسوق وأنت لا تقف على البيع ، ولا تسأل عن السلع ، ولا تسوم بها ، ولا تجلس فى مجالس السوق ؟ قال : وأقول : اجلس بنا هاهنا نتحدث .

قال : فقال لى عبد الله بن عمر : يا أبا بطن ـ وكان الطفيل ذا بطن ـ إنما نغدو من أجل السلام نسلم على من لقينا (٢) .

فصل
فى حكم رد السلام على من يستحق الهجر

وقوله (٣) : وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول : هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟ فيه دليل على أن الرد على من يستحق الهجر غير واجب ، إذا لو وجب الرد لم يكن بد من إسماعه (٤) .

فصل
فى كيفية رد السلام على اليهود

عن عبد الله بن عمر ﷺ أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن اليهود إذا سلم عليكم أحدهم فإنما يقول : السام عليكم فقولوا : وعليكم » (٥).

قال أبو داود : وكذلك ، رواه مالك عن عبد الله بن دينار (٦) . ورواه الثورى عن

---

(١) الترمذى (٢٤٨٥) فى صفة القيامة ، باب : ٤٢ .
(٢) تهذيب السنن (٨ / ٦٧) .
(٣) أى قول كعب بن مالك ﷺ .
(٤) زاد المعاد (٣ / ٥٨٠) .
(٥) أبو داود (٥٢٠٦) فى الأدب ، باب : فى السلام على أهل الذمة .
(٦) مالك فى الموطأ ٢ / ٩٦٠ (٣) فى السلام ، باب : ما جاء فى السلام على اليهودى والنصرانى .

عبد الله بن دينار ، قال فيه : «وعليكم » (١) .

وأخرجه الترمذى والنسائى ، ولفظ الترمذى وفى لفظ لمسلم والنسائى : « فقل : عليك» (٢) بغير واو .

وحديث مالك ـ الذى أشار إليه أبو داود ـ أخرجه البخارى فى صحيحه(٣) .

وحديث سفيان الثورى : أخرجه البخارى ومسلم . وأخرجه النسائى من حديث سفيان بن عيينة بإسقاط الواو (٤).

وقال الخطابى : هكذا يرويه عامة المحدثين : « وعليكم » بالواو . وكان سفيان بن عيينة يرويه : « عليكم » بحذف الواو ، وهو الصواب .

وذلك أنه إذا حذف الواو : صار قولهم الذى قالوه بعينه ، مردودا عليهم . وبإدخال الواو : يقع الاشتراك معهم ، والدخول فيما قالوه ؛ لأن الواو حرف العطف والاجتماع بين الشيئين .

و « السام » فسره بالموت . هذا آخر كلامه .

وقد أخرجه مسلم والترمذى والنسائى من حديث إسماعيل بن جعفر عن عبد الله بن دينار ، بغير واو أيضا .

وقال غيره : أما من فسر « السام » بالموت : فلا تبعد الواو ، ومن فسره بالسآمة ـ وهى الملالة ، أى تسأمون دينكم ـ فإسقاط الواو هو الوجه .

واختار بعضهم :أن يرد عليهم السلام ـ بكسر السين ـ وهى الحجارة .

وقال غيره : الأول أولى ؛ لأن السنة وردت بما ذكرنا ، ولأن الرد إنما يكون بجنس المردود ، لا بغيره .

---

(١) أبو داود تحت رقم (٥٢٠٦) فى الأدب ، باب : فى السلام على أهل الذمة ، والتمهيد لابن عبد البر (١٦ / ٩٥) فى السلام ، باب : ما جاء فى السلام على اليهودى والنصرانى .

(٢) الترمذى (١٦٠٣) فى السير ، باب : ما جاء فى التسليم على أهل الكتاب ، والنسائى فى الكبرى (١٠٢١٠) فى عمل اليوم والليلة ، باب : ما يقول لأهل الكتاب إذا سلموا عليه ، ومسلم (٢١٦٤ / ٨) فى السلام ، باب : النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام .

(٣) البخارى (٦٢٥٧) فى الاستئذان ، باب : كيف الرد على أهل الذمة بالسلام .

(٤) البخارى (٦٩٢٨) فى استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ، باب : إذا عرض الذمى أو غيره بسب النبى ﷺ ولم يصرح بلفظ:« عليك بدون واو» ومسلم (٢١٦٤/٩) فى السلام ، باب:النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام . والنسائى فى الكبرى (١٠٢١١) فى عمل اليوم والليلة ، باب : ما يقول لأهل الكتاب إذا سلموا عليه .

قلت : معنى ما أشار إليه الخطابى : فى قوله : « لأن الواو حرف العطف والجمع بين الشيئين » أن الواو فى مثل هذا تقتضى تقرير الجملة الأولى وزيادة الثانية عليها ، كما إذا قلت : زيد كاتب ، فقال المخاطب : وشاعر وفقيه : اقتضى ذلك تقرير كونه كاتبًا ، وزيادة كونه شاعراً وفقيها ، وكذلك إذا قلت لرجل : فلان أخوك . فقال : وابن عمى : كان ذلك تقريراً لكونه أخاه وزيادة كونه ابن عمه .

ومن هنا استنبط أبو القاسم السهيلى : أن عدة أصحاب ، الكهف سبعة ، قال : لأن الله تعالى حكى قول من قال ثلاثة ،وخمسة،ولم يذكر الواو فى قوله ﴿رَابِعُهُمْ﴾ [الكهف : ٢٢] ﴿ سَادِسُهُمْ ﴾ وحكى قول من قال : إنهم سبعة ، ثم قال : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قال : لأن الواو عاطفة على كلام مضمر ، تقديره : نعم ، وثامنهم كلبهم .

وذلك : أن قائلا لو قال : إن زيداً شاعر ، فقلت له : وفقيه ، كنت قد صدقته ، كأنك قلت : نعم ، هو كذلك ، وفقيه أيضًا .

وفى الحديث : سئل رسول الله ﷺ : أنتوضأ بما أفضلت الحمر ؟ قال : « وبما أفضلت السباع » يريد : نعم ، وبما أفضلت السباع . خرجه الدارقطنى (١) .

وفى التنزيل ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة : ١٢٦] هو من هذا الباب .

وفيما قاله السهيلى نظر ؛ فإن هذا إنما يتم إذا كان حرف العطف بين كلامين لمتكلمين، وهو نظير ما استشهد به من الآى .

وأما إذا كان متكلم واحد : لم يلزم ذلك ، كما إذا قلت : زيد فقيه وكاتب وشاعر ، والآية ليس فيها : أن كلامهم انتهى إلى قوله : ﴿ سَبْعَةٌ ﴾ ثم قررهم الله على ذلك ، ثم قال : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف : ٢٢] بل سياق الآية يدل على أن الجملتين من كلامهم ؛ وأن جميعه داخل تحت الحكاية ، فهو كقول من قبلهم مع اقترانه بالواو .

وأما هذا الحديث فى رد السلام فإدخال الواو فيه لا يقتضى اشتراكا معهم فى مضمون هذا الدعاء ؛ وإن كان كلامين لمتكلمين ،بل غايته : التشريك فى نفس الدعاء .

وهذا ، لأن الدعاء الأول قد وجد منهم ، وإذا رد عليهم نظيره : حصل الاشتراك فى نفس الدعاء ، ولا يستلزم ذلك الاشتراك معهم فى مضمونه ومقتضاه . إذ غايته : أنا نرد

(١) الدارقطنى ١ / ٦٢ (٢) فى الطهارة ، باب : الآسار .

عليكم كما قلتم لنا .

وإذا كان « السام » معناه الموت ـ كما هو المشهور فيه ـ فالاشتراك ظاهر . والمعنى : أنا لسنا نموت دونكم ، بل نحن نموت وأنتم أيضاً تموتون ، فلا محذور فى دخول الواو على كل تقدير ، وقد تقدم أن أكثر الأئمة رواه بالواو (١) .

فصل
فى حكم إلقاء السلام على من يبول

وكان ﷺ إذا سلم عليه أحد وهو يبول لم يرد عليه ذكره مسلم فى « صحيحه » عن ابن عمر (٢).

وروى البزار فى « مسنده » فى هذه القصة : أنه رد عليه ثم قال : « إنما رددت عليك خشية أن تقول : سلمت عليه فلم يرد على سلامًا فإذا رأيتنى هكذا فلا تسلم على ، فإنى لا أرد عليك السلام » .

وقد قيل : لعل هذا كان مرتين ، وقيل : حديث مسلم أصح لأنه من حديث الضحاك بن عثمان عن نافع عن ابن عمر وحديث البزار من رواية أبى بكر ـ رجل من أولاد عبد الله بن عمر ـ عن نافع عنه . قيل : وأبو بكر هذا : هو أبو بكر بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر وروى عنه مالك وغيره والضحاك أوثق منه (٣) (٤) .

فصل
فى بيان حقيقة لفظة « السلام »

فحقيقتها البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب، وعلى هذا المعنى تدور تصاريفها . فمن ذلك قولك : سلمك الله ، وسلم فلان من الشر . ومنه : دعاء المؤمنين على الصراط : رب سلم ، اللهم سلم . ومنه : سلم الشيء لفلان أى خلص له وحده فخلص من ضرر الشركة فيه ، قال تعالى : ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ**

(١) تهذيب السنن (٨ / ٧٥ ـ ٧٧) .
(٢) مسلم (٣٧٠ / ١١٥) فى الحيض ، باب : التيمم .
(٣) انظر : المنتقى لابن الجارود ص ٢٧ .
(٤) زاد المعاد (١ / ١٧٣ ـ ١٧٤) .

وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ [الزمر : ٢٩] أى خالصا له وحده لا يملكه معه غيره . ومنه : السلم ضد الحرب ، قال تعالى : ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا** ﴾ [الأنفال : ٦١] ، لأن كلا من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر ؛ ولهذا يبنى منه على المفاعلة ، فيقال : المسالمة مثل المشاركة . ومنه القلب السليم ، وهو النقى من الغل والدغل . وحقيقته الذى قد سلم لله وحده فخلص من دغل الشرك وغله ، ودغل الذنوب والمخالفات ، بل هو المستقيم على صدق حبه وحسن معاملته ، فهذا هو الذى ضمن له النجاة من عذابه والفوز بكرامته ومنه أخذ الإسلام ، فإنه من هذه المادة ؛ لأنه الاستسلام والانقياد لله والتخلص من شوائب الشرك ، فسلم لربه وخلص له كالعبد الذى سلم لمولاه ليس فيه شركاء متشاكسون ؛ ولهذا ضرب ـ سبحانه ـ هذين المثلين للمسلم المخلص الخالص لربه والمشرك به . ومنه : السلم : للسلف ، وحقيقته : العوض المسلم فيه ؛ لأن من هو فى ذمته قد ضمن سلامته لربه ، ثم سمى العقد سلما وحقيقته ما ذكرناه .

فإن قيل : فهذا ينتقض بقولهم للديغ : سليما ؟ قيل : ليس هذا بنقص له،بل طرد لما قلناه ، فإنهم سموه سليما باعتبار ما يهمه ويطلبه ويرجو أن يؤول إليه حاله من السلامة ، فليس عنده أهم من السلامة ولا هو أشد طلبا منه لغيرها ، فسمى سليما لذلك ، وهذا من جنس تسميتهم المهلكة مفازة ؛ لأنه لا شيء أهم عند سالكها من فوزه منها ، أى نجاته ، فسميت مفازة لأنه يطلب الفوز منها ، وهذا أحسن من قولهم : إنما سميت مفازة ، وسمى اللديغ سليما تفاؤلا ، وإن كان التفاؤل جزء هذا المعنى الذى ذكرناه وداخل فيه ، فهو أعم وأحسن .

فإن قيل : فكيف يمكنكم رد السلم إلى هذا الأصل؟

قيل : ذلك ظاهر ؛ لأن الصاعد إلى مكان مرتفع لما كان متعرضا للهوى والسقوط طالبًا للسلامة راجيًا لها سميت الآلة التى يتوصل بها إلى غرضه سلما لتضمنها سلامته ؛ إذ لو صعد بتكلف من غير سلم لكان عطبه متوقعا ، فصح أن السلم من هذا المعنى .

ومنه تسمية الجنة بدار السلام . وفى إضافتها إلى السلام ثلاثة أقوال :

أحدها أنها إضافة إلى مالكها السلام ـ سبحانه . الثانى : أنها إضافة إلى تحية أهلها ؛ فإن تحيتهم فيها سلام . الثالث : أنها إضافة إلى معنى السلامة ، أى دار السلامة من كل آفة ونقص وشر ، والثلاثة متلازمة وإن كان الثالث أظهرها ، فإنه لو كانت الإضافة إلى مالكها لأضيفت إلى اسم من أسمائه غير السلام ، وكان يقال : دار الرحمن ، أو

دار الله، أو دار الملك ونحو ذلك ، فإذا عهدت إضافتها إليه ثم جاء دار السلام حملت على المعهود ، وأيضا فإن المعهود فى القرآن إضافتها إلى صفتها أو إلى أهلها . أما الأول فنحو: دار القرار ، دار الخلد ، جنة المأوى ، جنات النعيم ، جنات الفردوس . وأما الثانى فنحو: دار المتقين ، ولم تعهد إضافتها إلى اسم من أسماء الله فى القرآن ، فالأولى حمل الإضافة على المعهود فى القرآن ، وكذلك إضافتها إلى التحية ضعيف من وجهين ؛ ضعيف من وجهين ؛ أحدهما : أن التحية بالسلام مشتركة بين دار الدنيا والآخرة وما يضاف إلى الجنة لا يكون إلا مختصا بها كالخلد والقرار والبقاء . الثانى : أن من أوصافها غير التحية ما هو أكمل منها مثل كونها دائمة وباقية ، ودار الخلد والتحية عارضة عند التلاقى والتزاور، بخلاف السلامة من كل عيب ونقص وشر ؛ فإنها من أكمل أوصافها المقصودة على الدوام التى لا يتم النعيم فيها إلا به ، فإضافتها إليه أولى ، وهذا ظاهر .

فصل
فى إطلاق (السلام) على الله تعالى اسمًا

وإذا عرف هذا ، فإطلاق السلام على الله تعالى اسما من أسمائه هو أولى من هذا كله ، وأحق بهذا الاسم من كل مسمى به ؛ لسلامته ـ سبحانه ـ من كل عيب ونقص من كل وجد ، فهو السلام الحق بكل اعتبار ، والمخلوق سلام بالإضافة ، فهو ـ سبحانه ـ سلام فى ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم ، وسلام فى صفاته من كل عيب ونقص، وسلام فى أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة ، بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار ، فعلم أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه ، وهذا هو حقيقة التنزيه الذى نزه به نفسه ونزهه به رسوله ، فهو السلام من الصاحبة والولد ، والسلام من النظير والكفء والسمى والمماثل ، والسلام من الشريك ؛ ولذلك إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلامًا مما يضاد كمالها ، فحياته سلام من الموت ومن السنة والنوم .

وكذلك قيوميته ، وقدرته سلام من التعب واللغوب ، وعلمه سلام من عزوب شىء عنه أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر وتفكر ، وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة ، وكلماته سلام من الكذب والظلم ، بل تمت كلماته صدقا وعدلا ، وغناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجه ما ، بل كل ما سواه محتاج إليه وهو غنى عن كل ما سواه ، وملكه سلام من منازع فيه أو مشارك أو معاون مظاهر أو شافع عنده بدون إذنه ،

وإلهيته سلام من مشارك له فيها ، بل هو الله الذى لا إله إلا هو ، وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه سلام من أن يكون عن حاجة منه أو ذل أو مصانعة كما يكون من غير ، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه .

وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه وسرعة عقابه سلام من أن يكون ظلمًا أو تشفيًا أو غلظة أو قسوة ، بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء مواضعها ، وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء ، كما يستحقه على إحسانه وثوابه ونعمه ، بل لو وضع الثواب موضع العقوبة لكان مناقضا لحكمته ولعزته ، فوضعه العقوبة موضعها هو من حمده وحكمته وعزته ، فهو سلام مما يتوهم أعداؤه والجاهلون به من خلاف حكمته ، وقضاؤه وقدره سلام من العنت والجور والظلم ومن توهم وقوعه على خلاف الحكمة البالغة ، وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم ، وخلاف حكمته ، بل شرعه كله حكمة ورحمة ومصلحة وعدل .

وكذلك عطاؤه سلام من كونه معاوضة أو لحاجة إلى المعطى ، ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق ، بل عطاؤه إحسان محض لا لمعاوضة ولا لحاجة ، ومنعه عدل محض وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز ، واستواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكون محتاجًا إلى ما يحمله أو يستوى عليه بل العرش محتاج إليه ، وحملته محتاجون إليه ، فهو الغنى عن العرش وعن حملته وعن كل ما سواه ، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر ولا حاجة إلى عرش ولا غيره ، ولا إحاطة شىء - سبحانه وتعالى - بل كان - سبحانه - ولا عرش ولم يكن به حاجة إليه ، وهو الغنى الحميد ، بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه على خلقه من موجبات ملكه وقهره من غير حاجة إلى عرش ولا غيره بوجه ما ، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا سلام مما يضاد علوه وسلام مما يضاد غناه ، وكماله سلام من كل ما يتوهم معطل أو مشبه وسلام من أن يصير تحت شىء أو محصوراً فى شىء ، تعالى الله ربنا عن كل ما يضاد كماله ، وغناه وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل ، وموالاته لأولياءه سلام من أن تكون عن ذل كما يوالى المخلوق المخلوق ، بل هى موالاة رحمة وخير وإحسان وبر ، كما قال : ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ** ﴾ [الإسراء : ١١١] فلم ينف أن يكون له ولى مطلقا بل نفى أن يكون له ولى من الذل .

وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه أو تملق له أو انتفاع بقربه ، وسلام مما يتقوله المعطلون فيها ، وكذلك ما

أضافه إلى نفسه من اليد والوجه فإنه سلام عما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل ، فتأمل كيف تضمن اسمه السلام كل ما نزه عنه تبارك وتعالى ، وكم ممن حفظ هذا الاسم لا يدرى ما تضمنه من هذه الأسرار والمعانى والله المستعان المسؤول أن يوفق للتعليق على الأسماء الحسنى على هذا النمط ، إنه قريب مجيب (١) .

فصل
فى معنى السلام المطلوب عند التحية

فيه قولان مشهوران :

أحدهما : أن المعنى اسم السلام عليكم ، والسلام هنا هو الله عز وجل .ومعنى الكلام: نزلت بركة اسمه عليكم وحلت عليكم ، ونحو هذا .

واحتج أصحاب هذا القول بحجج منها : ما ثبت فى الصحيح أنهم كانوا يقولون فى الصلاة : السلام على الله قبل عباده ، السلام على جبريل ، السلام على فلان . فقال النبى ﷺ : « لا تقولوا : السلام على الله ، فإن الله هو السلام ، ولكن قولوا : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » (٢) فنهاهم النبى ﷺ أن يقولوا : السلام على الله لأن السلام على المسلم عليه دعاء له ، وطلب أن يسلم ، والله تعالى هو المطلوب منه لا المطلوب له ، وهو المدعو لا المدعو له ، فيستحيل أن يسلم عليه ، بل هو المسلم على عباده ، كما سلم عليهم فى كتابه حيث يقول : ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١)**﴾ [الصافات] وقوله : ﴿**سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩)**﴾ [الصافات] ﴿ **سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ** ﴾ [الصافات : ٧٩] ﴿ **سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠)** ﴾ [الصافات] وقال فى يحيى : ﴿ **وَسَلَامٌ عَلَيْهِ** ﴾ [مريم : ١٥] ، وقال لنوح : ﴿**اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ**﴾ [هود : ٤٨] ، ويسلم يوم القيامة على أهل الجنة كما قال تعالى : ﴿ **لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)** ﴾ [يس] فقولا منصوب على المصدر ، وفعله ما تضمنه سلام من القول ؛ لأن السلام قول .

وفى مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجه من حديث محمد بن المنكدر عن جابر قال : قال رسول اللهﷺ : « بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور من فوقهم ، فرفعوا

---

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٣٣ ـ ١٣٧) .

(٢) البخارى (٦٢٣٠) فى الاستئذان ، باب : السلام اسم من أسماء الله تعالى .

رؤوسهم فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم ، وقال : يا أهل الجنة ، سلام عليكم ، ثم قرأ قوله : ﴿ **سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** (٥٨) ﴾ [يس] ثم يتوارى عنهم فتبقى رحمته وبركته عليهم فى ديارهم » (١) .

وفى سنن ابن ماجه مرفوعا : « أول من يسلم عليه الحق يوم القيامة عمر » (٢) ، وقال تعالى : ﴿ **تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ** ﴾ [الأحزاب : ٤٤] ، فهذا تحيتهم يوم يلقونه تبارك وتعالى ، ومحال أن تكون هذه تحية منهم له فإنهم أعرف به من أن يسلموا عليه وقد نهوا عن ذلك فى الدنيا ، وإنما هذا تحية منه لهم ، والتحية هنا مضافة إلى المفعول ، فهى التحية التى يحيون بها لا التحية التى يحيونه هم بها ، ولولا قوله تعالى فى سورة يس : ﴿ **قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴾ [يس : ٥٨] لاحتمل أن تكون التحية لهم من الملائكة كما قال تعالى : ﴿ **وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ** (٢٣) **سَلَامٌ عَلَيْكُم** ﴾ [الرعد] ولكن هذا سلام الملائكة إذا دخلوا عليهم وهم فى منازلهم من الجنة يدخلون مسلمين عليهم ، وأما التحية المذكورة فى قوله : ﴿ **تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ** ﴾ فتلك تحية لهم وقت اللقاء ، كما يحيى الحبيب حبيبه إذا لقيه ، فماذا حرم المحجوبون عن ربهم يومئذ.

يكفى الذى غاب عنك غيبته فذاك ذنب عقابه فيه

والمقصود : أن الله تعالى يطلب منه السلام فلا يمتنع فى حقه أن يسلم على عباده ، ولا يطلب له فلذلك لا يسلم عليه . وقوله ﷺ : « إن الله هو السلام » صريح فى كون السلام اسما من أسمائه ، قالوا : فإذا قال المسلم : سلام عليكم ، كان معناه اسم السلام عليكم .

ومن حججهم : ما رواه أبو داود من حديث ابن عمر : أن رجلا سلم على النبى ﷺ فلم يرد عليه حتى استقبل الجدار ، ثم تيمم ورد عليه ، وقال : « إنى كرهت أن أذكر الله إلا على طهر » (٣) ، قالوا : ففى هذا الحديث بيان أن السلام ذكر الله ، وإنما يكون ذكرا إذا تضمن اسما من أسمائه .

ومن حججهم أيضا : أن الكفار من أهل الكتاب لا يبدؤون بالسلام ، فلا يقال لهم : سلام عليكم . ومعلوم أنه لا يكره أن يقال لأحدهم : سلمك الله ، وما ذاك إلا أن السلام اسم من أسماء الله ،فلا يسوغ أن يطلب للكافر حصول بركة ذلك الاسم عليه .

---

(١) ابن ماجه (١٨٤) فى المقدمة ، باب : فيما أنكرت الجهمية ، وضعفه الألبانى .

(٢) ابن ماجه (١٠٤) فى المقدمة ، باب : فضل عمر رضي الله عنه .

(٣) أبو داود (١٦ ، ١٧) فى الطهارة ، باب : أيرد السلام وهو يبول ؟

فهذه حجج كما ترى قوية ظاهرة .

القول الثانى : أن السلام مصدر بمعنى السلامة ، وهو المطلوب المدعو به عند التحية .

ومن حجة أصحاب هذا القول : أنه يذكر بلا ألف ولام ، بل يقول المسلم : سلام عليكم . ولو كان اسما من أسماء الله لم يستعمل كذلك ، بل كان يطلق عليه معرفا كما يطلق عليه سائر أسمائه الحسنى فيقال : « السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر » ، فإن التنكير لا يصرف اللفظ إلى معين ، فضلا عن أن يصرفه إلى الله وحده ، بخلاف المعرف فإنه ينصرف إليه تعيينا إذا ذكرت أسماؤه الحسنى .

ومن حججهم أيضا : أن عطف الرحمة والبركة عليه فى قوله : « سلام عليكم ورحمة الله وبركاته » يدل على أن المراد به المصدر ، ولهذا عطف عليه مصدرين مثله .

ومن حججهم أيضا : أنه لو كان السلام هنا اسما من أسماء الله لم يستقم الكلام إلا بإضمار وتقدير يكون به مقيدا ، ويكون المعنى : بركة اسم السلام عليكم ، فإن الاسم نفسه ليس عليهم . ولو قلت : اسم الله عليك ، كان معناه : بركة هذا الاسم ونحو ذلك من التقدير ، ومعلوم أن هذا التقدير خلاف الأصل ولا دليل عليه .

ومن حججهم أيضًا : أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبرا ودعاء ؛ ولهذا كان السلام أمانًا لتضمنه معنى السلامة ، وأمن كل واحد من المسلم والراد عليه من صاحبه ، قالوا : فهذا يدل على أن السلام مصدر بمعنى السلامة وحذفت تاؤه لأن المطلوب هذا الجنس لا المرة الواحدة منه والتاء تفيد التحديد .

وفصل الخطاب فى هذه المسألة أن يقال : الحق فى مجموع القولين ، فكل منهما بعض الحق والصواب فى مجموعهما ، وإنما نبين ذلك بقاعدة قد أشرنا إليها مرارا وهى : أن من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل فى كل مطلوب ويتوسل إليه بالاسم المقتضى لذلك المطلوب المناسب لحصوله،حتى كأن الداعى مستشفع إليه متوسل إليه به ، فإذا قال : « رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الغفور » فقد سأله أمرين وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه ، وكذلك قول النبى ﷺ لعائشة ـ وقد سألته ما تدعو به إن وافقت ليلة القدر: «قولى:اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عنى»(١). وكذلك قوله للصديق ـ وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به:«اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما

---

(١) الترمذى (٣٥١٣) فى الدعوات ، باب : ٨٥ ، وقال : « حسن صحيح » ، والنسائى فى الكبرى (١٠٧٠٨) فى عمل ياليوم والليلة ، باب : ما يقول إذا وافق ليلة القدر ، وابن ماجه (٣٨٥٠) فى الدعاء ، باب : الدعاء بالعفو والعافية ، وأحمد (٦ / ١٧١) .

كثيرا ، وإنه لا يغفر الذنوب الا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم » [١] . وهذا كثير جدا فلا نطول بإيراد شواهده .

وإذا ثبت هذا فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التى هى أهم ما عند الرجل ، أتى فى لفظها بصيغة اسم من أسماء الله وهو السلام الذى يطلب منه السلامة ، فتضمن لفظ السلام معنيين : أحدهما ذكر الله كما فى حديث ابن عمر ، والثانى طلب السلامة وهو مقصود المسلم ، فقد تضمن « سلام عليكم » اسما من أسماء الله وطلب السلامة منه ، فتأمل هذه الفائدة .وقريب من هذا ما روى عن بعض السلف أنه قال فى آمين : إنه اسم من أسماء الله تعالى ، وأنكر كثير من الناس هذا القول ، وقالوا : ليس فى أسمائه آمين ، ولم يفهموا معنى كلامه ، فإنه إنما أراد أن هذه الكلمة تتضمن اسمه تبارك وتعالى ؛ فإن معناها استجب وأعط ما سألناك ، فهى متضمنة لاسمه مع دلالتها على الطلب ، وهذا التضمن فى « سلام عليكم » أظهر ؛ لأن السلام من أسمائه تعالى ، فهذا كشف سر المسألة.

فصل

إذا عرف هذا ، فالحكمة فى طلبه عند اللقاء دون غيره من الدعاء ، أن عادة الناس الجارية بينهم أن يحيى بعضهم بعضًا عند لقائه ، وكل طائفة لهم فى تحيتهم ألفاظ وأمور اصطلحوا عليها ، وكانت العرب تقول فى تحيتهم بينهم فى الجاهلية : أنعم صباحا وأنعموا صباحًا ، فيأتون بلفظة (أنعموا) من النعمة بفتح النون ، وهى طيب العيش والحياة ، ويصلونها بقولهم صباحا لأن الصباح فى أول النهار ، فإذا حصلت فيه النعمة استصحب حكمها ، واستمرت اليوم كله فخصوها بأوله إيذانا بتعجيلها وعدم تأخرها ، إلى أن يتعالى النهار ، وكذلك يقولون :أنعموا مساء فإن الزمان هو صباح ومساء ، فالصباح فى أول النهار إلى بعد انتصافه ، والمساء من بعد انتصافه إلى الليل ؛ ولهذا يقول الناس : صبحك الله بخير ومساك الله بخير ، فهذا معنى : أنعم صباحا ومساء ، إلا أن فيه ذكر الله . وكانت الفرس يقولون فى تحيتهم : هزا رساله ميمابى ، أى تعيش ألف سنة ، وكل أمة لهم تحية من هذا الجنس أو ما أشبهه ، ولهم تحية يخصون بها ملوكهم من هيئات خاصة عند دخولهم عليهم كالسجود ونحوه وألفاظ خاصة تتميز بها تحية الملك من تحية السوقة ،

---

(١) البخارى (٨٣٤) فى الأذان ، باب : الدعاء قبل السلام ، ومسلم (٢٧٠٥ / ٤٨) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : استحباب خفض الصوت بالذكر .

وكل ذلك مقصودهم به الحياة ونعيمها ودوامها ، ولهذا سميت تحية وهى تفعلة من الحياة كتكرمة من الكرامة ، لكن أدغم المثلان ، فصار تحية ، فشرع الملك القدوس السلام تبارك وتعالى لأهل الإسلام تحية بينهم « سلام عليكم » وكانت أولى من جميع تحيات الأمم التى منها ما هو محال وكذب ، نحو قولهم : تعيش ألف سنة ، وما هو قاصر المعنى مثل : أنعم صباحًا ، ومنها ما لا ينبغى إلا لله مثل السجود ، فكانت التحية بالسلام أولى من ذلك كله لتضمنها السلامة التى لا حياة ولا فلاح إلا بها ، فهى الأصل المقدم على كل شىء ، ومقصود العبد من الحياة إنما يحصل بشيئين ، بسلامته من الشر ، وحصول الخير كله ، والسلامة من الشر مقدمة على حصول الخير وهى الأصل ، ولهذا إنما يهتم الإنسان بل كل حيوان بسلامته أولا ، ثم غنيمته ثانيا ، على أن السلامة المطلقة تتضمن حصول الخير ،فإنه لو فاته حصل له الهلاك والعطب أو النقص والضعف . ففوات الخير يمنع حصول السلامة المطلقة ، فتضمنت السلامة نجاته من كل شر وفوزه بالخير ،فانتظمت الأصلين اللذين لا تتم الحياة إلا بهما مع كونها مشتقة من اسمه السلام ومتضمنة له ، وحذفت التاء منها لما ذكرنا من إرادة الجنس لا السلامة الواحدة . ولما كانت الجنة دار السلامة من كل عيب وشر وآفة ، بل قد سلمت من كل ما ينغص الحياة ، كانت تحية أهلها فيها سلام ، والرب يحييهم فيها بالسلام ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب : ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد] فهذا سر التحية بالسلام عند اللقاء . وأما عند المكاتبة فلما كان المراسلان كل منهما غائب عن الآخر ورسول إليه كتابه يقوم مقام خطابه له ، استعمل فى مكاتبته له من السلام ما يستعمله معه لو خاطبه لقيام الكتاب مقام الخطاب (١) .

فصل
فى الحكمة فى تقديم السلام فى جانب المسلم وفى جانب الراد تقديم المسلم عليه

إن فى ذلك فوائد عديدة : أحدها : الفرق بين الرد والابتداء ، فإنه لو قال له فى الرد : السلام عليكم ،أو سلام عليكم؛لم يعرف أهذا رد لسلامه عليه أم ابتداء تحية منه ؟ فإذا قال : عليك السلام ، عرف أنه قد رد عليه تحيته ، ومطلوب المسلم من المسلم عليه أن

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٤٠ ـ ١٤٥) .

يرد عليه سلامه ، ليس مقصوده أن يبدأه بسلام كما ابتدأه به ؛ ولهذا السر ـ والله أعلم ـ نهى النبى ﷺ المسلم عليه بقوله : عليك السلام عن ذلك فقال : « لا تقل : عليك السلام، فإن عليك السلام تحية الموتى » (١) أفلا ترى كيف نهاه النبى ﷺ عن ابتداء السلام بصيغة الرد التى لا تكون إلا بعد تقديم سلام ، وليس فى قوله : « فإنها تحية الموتى » ما يدل على أن المشروع فى تحايا الموتى كذلك .

وإذا كانوا قد اعتمدوا الفرق بين سلام المبتدئ وسلام الراد خصوا المبتدئ بتقديم السلام ؛لأنه هو المقصود ، وخصوا الراد بتقديم الجار والمجرور

الفائدة الثانية وهى : أن سلام الراد يجرى مجرى الجواب؛ولهذا يكتفى فيه بالكلمة المفردة الدالة على أختها،فلو قال : (وعليك) لكان متضمنا للرد كما هو المشروع فى الرد على أهل الكتاب، مع أنا مأمورون أن نرد على من حيانا بتحية مثل تحيته ، وهذا من باب العدل الواجب لكل أحد ، فدل على أن قول الراد : (وعليك) مماثل لقول المسلم : (سلام عليك) ، لكن اعتمد فى حق المسلم إعادة اللفظ الأول بعينه تحقيقا للمماثلة ودفعا لتوهم المسلم عدم رده عليه ؛ لاحتمال أن يرد عليك شىء آخر . وأما أهل الكتاب فلما كانوا يحرفون السلام ولا يعدلون فيه ، وربما سلموا سلاما صحيحا غير محرف ، ويشتبه الأمر فى ذلك على الراد ، ندب إلى اللفظ المفرد المتضمن لرده عليهم نظير ما قالوه ، ولم تشرع له الجملة التامة لأنها إما أن تتضمن من التحريف مثل ما قالوا ولا يليق بالمسلم تحريف السلام الذى هو تحية أهل الإسلام،ولاسيما وهو ذكر الله لأجل تحريف الكافر له ، وإما أن يرد سلاما صحيحا غير محرف مع كون المسلم محرفا للسلام فلا يستحق الرد الصحيح ، فكان العدول إلى المفرد ـ وهو (عليك) ـ هو مقتضى العدل والحكمة ، مع سلامته من تحريف ذكر الله ، فتأمل هذه الفائدة البديعة .

والمقصود : أن الجواب يكفى فيه قولك : (وعليك) ، وإنما كمل تكميلا للعدل وقطعا للتوهم .

الفائدة الثالثة : وهى أقوى مما تقدم ؛ أن المسلم لما تضمن سلامه الدعاء للمسلم عليه بوقوع السلامة عليه وحلولها عليه ، وكان الرد متضمنا لطلب أن يحل عليه من ذلك مثل ما دعا به ، فإنه إذا قال : (وعليك السلام) كان معناه : وعليك من ذلك مثل ما طلبت لى ، كما إذا قال : غفر الله لك ، فإنك تقول له : ولك يغفر ، ويكون هذا أحسن من

(١) أبو داود (٥٢٠٩) فى الأدب ، باب: كراهية أن يقول : عليك السلام .

قولك : وغفر لك وكذا إذا قال : رحمة الله عليك ، تقول : وعليك . وإذا قال : عفا الله عنك ، تقول : وعنك . وكذلك نظائره ؛ لأن تجريد القصد إلى مشاركة المدعو للداعى فى ذلك الدعاء لا إلى إنشاء دعاء مثل ما دعا به ، فكأنه قال : ولك أيضا ، وعنك أيضا ، أى وأنت مشارك لى فى ذلك مماثل لى فيه ، لا أنفرد به عنك ، ولا أختص به دونك ، ولا ريب أن هذا المعنى يستدعى تقديم المشارك المساوى فتأمله (١) .

فصل
فى الحكمة فى تسليم الله عز وجل على أنبيائه ورسله عليهم السلام

ما الحكمة فى تسليم الله على أنبيائه ورسله ، والسلام هو طلب ودعاء ، فكيف يتصور من الله ؟

فهذا سؤال له شأن ينبغى الاعتناء به ولا يهمل أمره ، وقل من يدرك سره إلا من رزقه الله فهما خاصا وعناية ، وليس هذا من شأن أبناء الزمان الذين غاية فاضلهم نقلا أن يحكى قيلا وقالا ، وغاية فاضلهم بحثا أن يبدى احتمالا ويبرز أشكالًا ، وأما تحقيق العلم كما ينبغى :

فللحروب أناس قائمون بها   وللدواوين كتاب وحسّاب

وقد كان الأولى بنا الإمساك وكف عنان القلم ، وأن نجرى معهم فى ميدانهم ، ونخاطبهم بما يألفونه ، وألا نجلو عرائس المعانى على ضرير ، ولا نزف خودها إلى عنين ، ولكن هذه سلعة وبضاعة لها طلاب ، وعروس لها خطاب ، فستصير إلى أهلها ، وتهدى إلى بعلها، ولا تستطل الخطابة فإنها نفثة مصدور ، فلنرجع إلى المقصود فنقول :

لا ريب أن الطلب يتضمن أموراً ثلاثة طالبا ، ومطلوبا ، ومطلوبا منه . ولا تتقوم حقيقته إلا بهذه الأركان الثلاثة ، وتغاير هذه ظاهر إذا كان الطالب يطلب شيئا من غيره كما هو الطلب المعروف ، مثل من يأمر غيره وينهاه ويستفهمه ، وأما إذا كان طالبا من نفسه فهنا يكون الطالب هو المطلوب منه ، ولم يكن هنا إلا ركنان طالب ومطلوب ، والمطلوب منه هو الطالب منه .

فإن قيل : كيف يعقل اتحاد الطالب والمطلوب منه وهما حقيقتان متغايرتان ، فكما لا

---

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٥٢ ـ ١٥٤).

يتحد المطلوب والمطلوب منه،ولا المطلوب والطالب فكذلك لا يتحد الطالب والمطلوب منه، فكيف يعقل طلب الإنسان من نفسه ؟ قيل:هذا هو الذى أوجب غموض المسألة وإشكالها، ولابد من كشفه وبيانه،فنقول :

الطلب من باب الإرادات والمريد كما يريد من غيره أن يفعل شيئا ، فكذلك يريد من نفسه هو أن يفعله ، والطلب النفسى وإن لم يكن الإرادة فهو أخص منها ، والإرادة كالجنس له ، فكما يعقل أن يكون المريد يريد من نفسه فكذلك يطلب من نفسه ، وللفرق بين الطلب والإرادة ، وما قيل فى ذلك مكان غير هذا . والمقصود : أن طلب الحى من نفسه أمر معقول يعلمه كل أحد من نفسه ، وأيضا فمن المعلوم أن الإنسان يكون آمر لنفسه ناهيا لنفسه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف :٥٣] ، وقال : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النازعات]، وقال الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

وهذا أكثر من إيراد شواهده ، فإذا كان معقولا أن الإنسان يأمر نفسه وينهاها ، والأمر والنهى طلب مع أن فوقه آمراً وناهيا ، فكيف يستحيل ممن لا آمر فوقه ولا ناه أن يطلب من نفسه فعل ما يحبه وترك ما يبغضه ، وإذا عرف هذا عرف سر سلامه تبارك وتعالى على أنبيائه ورسله ، وأنه طلب من نفسه لهم السلامة ، فإن لم يتسع لهذا ذهنك فسأزيدك إيضاحا وبيانا وهو :

أنه قد أخبر ـ سبحانه ـ فى كتابه أنه كتب على نفسه الرحمة ، وهذا إيجاب منه على نفسه ، فهو الموجب وهو متعلق الإيجاب الذى أوجبه ، فأوجب بنفسه على نفسه ، وقد أكد النبى ﷺ هذا المعنى بما يوضحه كل الإيضاح ، ويكشف حقيقته بقوله فى الحديث الصحيح : «لما قضى الله الخلق كتب بيده على نفسه فى كتاب فهو عنده موضوع فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى » (١) ،وفى لفظ : « سبقت غضبى » (٢) .فتأمل كيف أكد هذا الطلب والإيجاب بذكر فعل الكتابة وصفة اليد ،وسحل الكتابة ،وأنه كتاب ، وذكر مستقر الكتاب وأنه عنده فوق العرش ، فهذا إيجاب مؤكد بأنواع من التأكيد ، وهو إيجاب منه على نفسه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] فهذا حق

---

(١) البخارى (٧٤٠٤) فى التوحيد ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ ، ومسلم (٢٧٥١ / ١٤) فى التوبة ، باب : فى سعة رحمة الله تعالى .

(٢) البخارى (٧٤٥٣) فى التوحيد ، باب : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، ومسلم (٢٧٥١/ ١٥) فى التوبة ، باب : فى سعة رحمة الله تعالى .

أحقه على نفسه ، فهو طلب وإيجاب على نفسه بلفظ الحق ولفظ على . ومنه قول النبى ﷺ فى الحديث الصحيح لمعاذ : « أتدرى ما حق الله على عباده ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » قلت: الله ورسوله أعلم ، قال : « حقهم عليه ألا يعذبهم بالنار » (١) . ومنه قوله ﷺ فى غير حديث : من فعل كذا وكذا كان حقا على الله أن يفعل به كذا وكذا فى الوعد والوعيد، فهذا الحق هو الذى أحقه على نفسه . ومنه الحديث الذى فى المسند من حديث أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قول الماشى إلى الصلاة :« أسألك بحق ممشاى هذا وبحق السائلين عليك »، فهذا حق للسائلين عليه هو أحقه على نفسه ، لا أنهم هم أوجبوه ولا أحقوه ، بل أحق على نفسه أن يجيب من سأله ، كما أحق على نفسه فى حديث معاذ ألا يعذب من عبده ، فحق السائلين عليه أن يجيبهم ، وحق العابدين له أن يثيبهم ، والحقان هو الذى أحقها وأوجبهما ، لا السائلون ولا العابدون ، فإنه ـ سبحانه :

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعى لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ** ﴾ [التوبة : ١١١]، فهذا الوعد هو الحق الذى أحقه على نفسه وأوجبه . ونظير هذا ماأخبر به ـ سبحانه ـ من قسمه ليفعلنه نحو : ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢)** ﴾ [الحجر] ، وقوله : ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ** ﴾ [مريم : ٦٨] وقوله : ﴿ **لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣)** ﴾ [إبراهيم] ، وقوله : ﴿ **لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)** ﴾ [ص] ، وقوله :﴿ **فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ [آل عمران : ١٩٥] وقوله : ﴿ **فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦)** ﴾ [الأعراف] إلى أمثال ذلك ، مما أخبر أن يفعله إخبارًا مؤكدا بالقسم ، والقسم فى مثل هذا يقتضى الحض والمنع بخلاف القسم على ما فعله تعالى ، مثل قوله : ﴿ **يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣)** ﴾ [يس] والقسم على ثبوت ما ينكره المكذبون ، فإنه توكيد للخبر، وهو من باب القسم المتضمن للتصديق ، ولهذا يقول الفقهاء : اليمين ما

---

(١) البخارى (٢٨٥٦) فى الجهاد ، باب : اسم الفرس والحمار ، ومسلم (٣٠ / ٤٩) فى الإيمان ، باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا .

اقتضى حضا أو منعًا أو تصديقا أو تكذيبا ، فالقسم الذى يقتضى الحض والمنع هو من باب الطلب ؛ لأن الحض والمنع طلب ، ومن هذا ما أخبر به أنه لابد أن يفعله لسبق كلماته به كقوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]، وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : ١١٩] ، وقوله : ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [طه : ١٢٩] فهذا إخبار عما يفعله ويتركه أنه لسبق كلمته به فلا يتغير .

ومن هذا تحريمه ـ سبحانه ـ ما حرمه على نفسه ، كقوله ـ فيما يرويه عنه رسوله : «يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما » (١) ، فهذا التحريم نظير ذلك الإيجاب ،ولا يلتفت إلى ما قيل فى ذلك من التأويلات الباطلة ،فإن الناظر فى سياق هذه المواضع ومقصودها به يجزم ببعد المراد منها ، كقول بعضهم : إن معنى الإيجاب والكتابة فى ذلك كله هو إخباره به ، ومعنى : ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام : ١٢] أخبر بها عن نفسه ، وقوله : « حرمت الظلم على نفسى » أى أخبرت أنه لا يكون ، ونحو ذلك مما يتيقن المرء أنه ليس هو المراد بالتحريم ، بل الإخبار ههنا هو الإخبار بتحريمه وإيجابه على نفسه ، فمتعلق الخبر هو التحريم والإيجاب ، ولا يجوز إلغاء متعلق الخبر ، فإنه يتضمن إبطال الخبر ، ولهذا إذا قال القائل : أوجبت على نفسى صوما فإن متعلقه وجوب الصوم على نفسه ، فإذا قيل : إن معناه : أخبرت بأنى أصوم كان ذلك إلغاء وإبطالا لمقصود الخبر فتأمله .

وإذا كان معقولا من الإنسان أنه يوجب على نفسه ويحرم ويأمرها وينهاها مع كونه تحت أمر غيره ونهيه ، فالآمر الناهى الذى ليس فوقه آمر ولا ناه كيف يمتنع فى حقه أن يحرم على نفسه ، ويكتب على نفسه ، وكتابته على نفسه ـ سبحانه ـ تستلزم إرادته لما كتبه ومحبته له ورضاه به ، وتحريمه على نفسه يستلزم بغضه لما حرمه وكراهته له وإرادة ألا يفعله ، فإن محبته للفعل تقتضى وقوعه منه وكراهته لأن يفعله تمنع وقوعه منه ، وهذا غير ما يحبه ـ سبحانه ـ من أفعال عباده ويكرهه ، فإن محبة ذلك منهم لا تستلزم وقوعه ، وكراهته منهم لا تمنع وقوعه ، ففرق بين فعله هو ـ سبحانه ـ وبين فعل عباده الذى يقع مع كراهته وبغضه له ، ويتخلف مع محبته له ورضاه به ، بخلاف فعله هو ـ سبحانه ـ فهذا نوع وذاك نوع .

فتدبر هذا الموضع الذى هو مزلة أقدام الأولين والآخرين إلا من عصم الله وهداه إلى

---

(١) مسلم (٢٥٧٧ / ٥٥) فى البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم .

صراط مستقيم ، وتأمل أين تكون محبته وكراهته موجبة لوجود الفعل ومانعة من وقوعه ، وأين تكون المحبة منه والكراهة لا توجب وجود الفعل ولا تمنع وقوعه ، ونكتة المسألة هو الفرق بين ما يريد أن يفعله هو ـ سبحانه ـ وما لا يريد أن يفعله ، وبين ما يحبه من عبده أن يفعله العبد أو لا يفعله ، ومن حقق هذا المقام زالت شبهات ارتبكت فيها طوائف من النظار والمتكلمين والله الهادى إلى سواء السبيل (١) .

فصل

فى نهى النبى ﷺ عن قول : « عليك السلام »

نهى النبى ﷺ من قال له : (عليك السلام) عن ذلك ، وقال : « لا تقل : عليك السلام ، فإن عليك السلام تحية الموتى » (٢) . فما أكثر من ذهب عن الصواب فى معناه ، وخفى عليه مقصوده وسره ، فتعسف ضروبا من التأويلات المستنكرة الباردة ، ورد بعضهم الحديث وقال : قد صح عن النبى ﷺ أنه قال فى تحية الموتى : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين » (٣) قالوا :وهذا أصح من حديث النهى ، وقد تضمن تقديم ذكر لفظ (السلام) فوجب المصير إليه .

وتوهمت طائفة أن السنة فى سلام الموتى أن يقال : عليكم السلام ، فرقا بين السلام على الأحياء والأموات . وهؤلاء كلهم إنما أتوا ما أتوه من عدم فهمهم لمقصود الحديث ، فإن قوله ﷺ : « عليك السلام تحية الموتى » ليس تشريعا منه وإخباراً عن أمر شرعى ، وإنما هو إخبار عن الواقع المعتاد الذى جرى على ألسنة الشعراء والناس ، فإنهم كانوا يقدمون اسم الميت على الدعاء ،كما قال قائلهم :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ... ورحمته ما شاء أن يترحما

وقول الذى رثى عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

عليك سلام من أمير وباركت ... يد الله فى ذاك الأديم الممزق

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٦٠ ـ ١٦٤) .
(٢) أبو داود (٥٢٠٩) فى الأدب ، باب : كراهية أن يقول : عليك السلام .
(٣) مسلم (٢٤٩ / ٣٩) فى الطهارة ، باب : استحباب إطالة الغرة والتحجيل فى الوضوء ، وأحمد (٢ / ٣٧٥) .

وهذا أكثر فى أشعارهم من أن نذكره ههنا ، والإخبار عن الواقع لا يدل على جوازه، فضلا عن كونه سنة ، بل نهيه عنه مع إخباره بوقوعه يدل على عدم مشروعيته ، وأن السنة فى السلم تقديم لفظه على لفظ المسلم عليه فى السلام على الأحياء وعلى الأموات ، فكما لا يقال فى السلام على الأحياء : عليكم السلام ، فكذلك لا يقال فى سلام الأموات ، كما دلت السنة الصحيحة على الأمرين ، وكأن الذى تخيله القوم من الفرق أن المسلم على غيره لما كان يتوقع الجواب،وأن يقال له : وعليك السلام ، بدؤوا باسم السلام على المدعو له ، توقعًا لقوله : وعليك السلام ، وأما الميت فما لم يتوقعوا منه ذلك قدموا المدعو له على الدعاء فقالوا : عليك السلام . وهذا الفرق لو صح كان دليلا على التسوية بين الأحياء والأموات فى السلام ، فإن المسلم على أخيه الميت يتوقع الجواب أيضًا . قال ابن عبد البر : ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : « ما من رجل يمر بقبر أخيه كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه ، إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام » (١) .

وبالجملة فهذا الخيال قد أبطلته السنة الصحيحة. وهنا نكتة بديعة ينبغى التفطن لها وهى أن السلام شرع على الأحياء والأموات بتقديم اسمه على المسلم عليهم ؛ لأنه دعاء بخير ، والأحسن فى دعاء الخير أن يتقدم الدعاء به على المدعو له،كقوله تعالى: ﴿ **رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ** ﴾ [هود : ٧٣] ، وقوله: ﴿ **سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩)** ﴾[الصافات] ﴿ **سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ** ﴾ [الصافات : ٧٩] ﴿ **سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠)** ﴾ [الصافات] ﴿ **سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ** ﴾ [الرعد : ٢٤] ، وأما الدعاء بالشر فيقدم فيه المدعو عليه على المدعو به غالبا ، كقوله تعالى لإبليس : ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي** ﴾ [ص : ٧٨] ، وقوله: ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ** ﴾ [الحجر : ٣٥] ، وقوله : ﴿ **عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ** ﴾ [الفتح : ٦] ، وقوله : ﴿ **وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ** ﴾ [الشورى :١٦] ، وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أن فى الدعاء بالخير قدموا اسم الدعاء المحبوب الذى تشتهيه النفوس وتطلبه ، ويلذ للسمع لفظه ، فيبدأ السمع بذكر الاسم المحبوب المطلوب ، ويبدأ القلب بتصوره ، فيفتح له القلب والسمع ، فيبقى السامع كالمنتظر لمن يحصل هذا وعلى من يحل،فيأتى باسمه فيقول : عليك أو لك ، فيحصل له من السرور والفرح ما يبعث على التحاب والتواد والتراحم الذى هو المقصود بالسلام .

وأما فى الدعاء عليه ففى تقديم المدعو عليه إيذان باختصاصه بذلك الدعاء ، وأنه عليه

(١) انظر : تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (٧ / ٢٩٢) .

وحده ، كأنه قيل له :هذا عليك وحدك لايشركك فيه السامعون ، بخلاف الدعاء بالخير ، فإن المطلوب عمومه وكل ما عم به الداعى كان أفضل .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : فضل عموم الدعاء على خصوصه كفضل السماء على الأرض ، وذكر فى ذلك حديثا مرفوعا عن على: أن النبى ﷺ مر به وهو يدعو فقال : « يا على ، عم ، فإن فضل العموم على الخصوص كفضل السماء على الأرض » .

وفيه فائدة ثانية أيضا وهى : أنه فى الدعاء عليه إذا قال له : « عليك » انفتح سمعه،وتشوف قلبه إلى أى شىء يكون عليه ، فإذا ذكر له اسم المدعو به صادف قلبه فارغا متشوفا لمعرفته ، فكان أبلغ فى نكايته . ومن فهم هذا فهم السر فى حذف الواو فى قوله تعالى : ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ [الزمر : ٧١] ففاجأهم وبغتهم عذابها ،وما أعد الله فيها ،فهم بمنزلة من وقف على باب لا يدرى بما يفتح له من أنواع الشر ، إلا أنه متوقع منه شراً عظيما ،ففتح فى وجهه وفاجأه ما كان يتوقعه،وهذا كما تجد فى الدنيا من يساق إلى السجن، فإنه يساق إليه وبابه مغلق ، حتى إذا جاءه فتح الباب فى وجهه ففاجأته روعته وألمه ،بخلاف ما لو فتح له قبل مجيئه . وهذا بخلاف أهل الجنة فإنهم لما كانوا مساقين إلى دار الكرامة ، وكان من تمام إكرام المدعو الزائر أن يفتح له باب الدار فيجىء فيلقاه مفتوحا فلا يلحقه ألم الانتظار ، فقال فى أهل الجنة : ﴿**حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ [الزمر :٧٣] وحـذف الجواب تفخيما لأمره وتعظيما لشأنه ، على عادتهم فى حذف الجوابات لهذا المقصد .

وهذه الطريقة تريحك من دعوى زيادة الواو ومن دعوى كونها واو الثمانية ؛ لأن أبواب الجنة ثمانية ، فإن هذا لوصح فإنما يكون إذا كانت الثمانية منسوقة فى اللفظ واحدا بعد واحد فينتهون إلى السبعة ، ثم يستأنفون العدد من الثمانية بالواو وهنا لا ذكر للفظ الثمانية فى الآية ولا عدها فتأمله . على أن فى كون الواو تجىء للثمانية كلام ذكرناه فى الفتح المكى وبينا المواضع التى ادعى فيها أن الواو للثمانية وأين يمكن دعوى ذلك وأين يستحيل .

فإن قيل : فهذا ينتقض عليكم بأن سيد الخلائق ﷺ يأتى باب الجنة فيلقاه مغلقا حتى يستفتحه . قلنا من تمام إظهار شرفه وفضله على الخلائق ؛ أن الجنة تكون مغلقة فلا تفتح

لأهلها إلا على يديه ، فلو جاءها وصادفها مفتوحة فدخلها وأهلها، لم يعلم الداخلون أن فتحها كان على يديه، وأنه هو الذى استفتحها لهم. إلا ترى أن الخلق إذا راموا دخول باب مدينة أو حصن وعجزوا ويمكنهم فتحه ، حتى جاء رجل ففتحه لهم أحوج ما كانوا إلى فتحه ، كان فى ذلك من ظهور سيادته عليهم وفضله وشرفه ما لا يعلم لو جاء هو وهم فوجده مفتوحا . وقد خرجنا عن المقصود وما أبعدنا ، ولا تستطل هذه النكت ، فإنك لا تكاد تجدها فى غير هذا التعليق ، والله المان بفضله وكرمه (١) .

فصل
فى الحكمة فى اقتران الرحمة والبركة بالسلام

ما الحكمة فى اقتران الرحمة والبركة بالسلام ؟ فالجواب عنه أن يقال : لما كان الإنسان لا سبيل له إلى انتفاعه بالحياة إلا بثلاثة أشياء : أحدها : سلامته من الشر ومن كان ما يضاد حياته وعيشه ، والثانى : حصول الخير له ، والثالث : دوامه وثباته له ، فإن بهذه الثلاثة يكمل انتفاعه بالحياة ، شرعت التحية متضمنة للثلاثة . فقوله : (سلام عليكم) يتضمن السلامة من الشر ، وقوله : (ورحمة الله) يتضمن حصول الخير ، وقوله : (وبركاته) يتضمن دوامه وثباته كما هو موضوع لفظ البركة ، وهو كثرة الخير واستمراره .

ومن هنا يعلم حكمة اقتران اسمه الغفور باسمه الرحيم فى عامة القرآن . ولما كانت هذه الثلاثة مطلوبة لكل أحد بل هى متضمنة لكل مطالبه ، وكل المطالب دونها وسائل إليها وأسباب لتحصيلها ، جاء لفظ التحية دالا عليها بالمطابقة تارة وهو كمالها ،وتارة دالا عليها بالتضمن ، وتارة دالا عليها باللزوم ، فدلالة اللفظ عليها مطابقة إذا ذكرت بلفظها ، ودلالته بالتضمن إذا ذكر السلام والرحمة ، فإنهما يتضمنان الثالث ، ودلالته عليها باللزوم إذا اقتصر على السلام وحده ، فإنه يستلزم حصول الخير وثباته ، إذ لو عدم لم تحصل السلامة المطلقة ، فالسلامة مستلزمة لحصول الرحمة . وقد عرف بهذا فضل هذه التحية وكمالها على سائر تحيات الأمم ؛ ولهذا اختارها الله لعباده ، وجعلها تحيتهم بينهم فى الدنيا وفى دار السلام .

وقد بان لك أنها من محاسن الإسلام وكماله ،فإذا كان هذا فى فرع من فروع الإسلام، وهو التحية التى يعرفها الخاص والعام ، فما ظنك بسائر محاسن الإسلام وجلالته

---

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٧٢ ـ ١٧٥) .

وعظمته وبهجته التى شهدت بها العقول والفطر ،حتى أنها من أكبر الشواهد وأظهر البراهين الدالة على نبوة محمد ﷺ وكمال دينه وفضله وشرفه على جميع الأديان ، وأن معجزته فى نفس دعوته ،فلو اقتصر عليها كانت آية وبرهانا على صدقه ، وأنه لا يحتاج معها إلى خارق ولا آية منفصلة ، بل دينه وشريعته ودعوته وسيرته من أعظم معجزاته عند الخاصة من أمته ، حتى أن إيمانهم به إنما هو مستند إلى ذلك ، والآيات فى حقهم مقويات بمنزلة تظاهر الأدلة (١) .

فصل

ما الحكمة فى تقديم السلام على النبى ﷺ فى الصلاة قبل الصلاة عليه وهلا وقعت البداءة بما بدأ الله به فى الآية ؟

فهذا سؤال له شأن لا ينبغى الإضراب عنه صفحا وتمشية ، والنبى ﷺ كان شديد التحرى لتقديم ما قدمه الله ، والبداءة بما بدأ به ، فلهذا بدأ بالصفا فى السعى وقال : «نبدأ بما بدأ الله به » (٢) . وبدأ بالوجه ، ثم اليدين ، ثم الرأس فى الوضوء ولم يخل ذلك مرة واحدة ، بل كان هذا وضوءه إلى أن فارق الدنيا ، لم يقدم منه مؤخرا، ولم يؤخر منه مقدما قط ، ولا يقدر أحد أن ينقل عنه خلاف ذلك ، لا بإسناد صحيح ولا حسن ولا ضعيف .

ومع هذا فوقع فى الصلاة والسلام عليه تقديم السلام وتأخير الصلاة، وذلك لسر من أسرار الصلاة نشير إليه بحسب الحال إشارة ، وهو : أن الصلاة قد اشتملت على عبودية جميع الجوارح والأعضاء مع عبودية القلب ، فلكل عضو منها نصيب من العبودية ، فجميع أعضاء المصلى وجوارحه متحركة فى الصلاة عبودية لله ، وذلا له ، وخضوعا ، فلما أكمل المصلى هذه العبودية وانتهت حركاته ، ختمت بالجلوس بين يدى الرب تعالى جلوس تذلل وانكسار وخضوع لعظمته عز وجل، كما يجلس العبد الذليل بين يدى سيده ، وكان جلوس الصلاة أخشع ما يكون من الجلوس، وأعظمه خضوعا وتذللا ، فأذن للعبد فى هذه الحال بالثناء على الله تبارك وتعالى بأبلغ أنواع الثناء ، وهو التحيات لله والصلوات والطيبات . وعادتهم إذا دخلوا على ملوكهم أن يحيوهم بما يليق بهم ، وتلك التحية تعظيم

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٧٨ ، ١٧٩) .

(٢) مسلم (١٢١٨ / ١٤٧) فى الحج ، باب : حجة النبى ﷺ ، وأبو داود (١٩٠٥) فى المناسك ، باب : صفة حجة النبى ﷺ ، والترمذى (٨٦٢) فى الحج ، باب : ما جاء أنه يبدأ بالصفا قبل المروة .

لهم وثناء عليهم ، والله أحق بالتعظيم والثناء من كل أحد من خلقه .

فجمع العبد فى قوله : التحيات والصلوات والطيبات أنواع الثناء على الله ، وأخبر أن ذلك له وصفا وملكا ، وكذلك الصلوات كلها لله ، فهو الذى يصلى له وحده لا لغيره ، وكذلك الطيبات كلها من الكلمات والأفعال كلها له ، فكلماته طيبات وأفعاله كذلك ، وهو طيب لا يصعد إليه إلا طيب ، والكلم الطيب إليه يصعد ، فكانت الطيبات كلها له ومنه وإليه ، له ملكا ووصفا ، ومنه مجيؤها وابتداؤها ، وإليه مصعدها ومنتهاها ، والصلاة مشتملة على عمل صالح وكلم طيب ، والكلم الطيب إليه يصعد ، والعمل الصالح يرفعه، فناسب ذكر هذا عند انتهاء الصلاة وقت رفعها إلى الله تعالى ، فلما أتى بهذا الثناء على الرب تعالى التفت إلى شأن الرسول الذى حصل هذا الخير على يديه ، فسلم عليه أتم سلام معرف باللام التى للاستغراق ، مقرونا بالرحمة والبركة . هذا هو أصح شىء فى السلام عليه فلا تبخل عليه بالألف واللام فى هذه المقام ، ثم انتقل إلى السلام على نفسه وعلى سائر عباد الله الصالحين ، وبدأ بنفسه لأنها أهم ، والإنسان يبدأ بنفسه ثم بمن يعول، ثم ختم هذا المقام بعقد الإسلام وهو التشهد بشهادة الحق ، التى هى أول الأمر وآخره ، وعندها كل الثناء والتشهد ، ثم انتقل إلى نوع آخر وهو الدعاء والطلب ، فالتشهد يجمع نوعى الدعاء : دعاء الثناء والخير ، ودعاء الطلب والمسألة ، والأول أشرف النوعين ؛ لأنه حق الرب ووصفه ، والثانى حظ العبد ومصلحته ، وفى الأثر : « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »(١) . لكن لما كانت الصلاة أتم العبادات عبودية وأكملها ، شرع فيها النوعين ، وقدم الأول منهما لفضله ، ثم انتقل إلى النوع الثانى وهــو دعاء الطلب والمسألة فبدأ بأهمه وأجله وأنفعه له ، وهو طلب الصلاة من الله على رسوله ﷺ ، وهو من أجل أدعية العبد وأنفعها له فى دنياه وآخرته ، كما ذكرناه فى كتاب تعظيم شأن الصلاة على النبى ﷺ .

وفيه أيضا أن الداعى جعله مقدمة بين يدى حاجته وطلبه لنفسه ، وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المعنى فى قوله : « ثم لينتخب من الدعاء أعجبه إليه »(٢) ، وكذلك فى حديث فضالة بن عبيد : « إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ليصل على النبى ﷺ، ثم ليدع »(٣) . فتأمل كيف جاء التشهد من أوله إلى آخره مطابقا لهذا ، منتظما له

(١) الترمذى (٢٩٢٦) فى فضائل القرآن ، باب : ٢٥ وقال : « حسن غريب » .

(٢) البخارى (٨٣٥) فى الأذان ، باب : ما يتخير من الدعاء بعد التشهد ، ومسلم (٤٠٢ / ٥٥ ـ ٥٨) كلاهما بلفظ : « يتخير » .

(٣) الترمذى (٣٤٧٧) فى الدعوات ، باب : ٦٥ ، وقال : « حسن صحيح » ، وفى المطبوعة : « إذا دعا » ، والمثبت من الترمذى .

أحسن انتظام . فحديث فضالة هذا هوالذى كشف لنا المعنى وأوضحه وبينه ، فصلوات الله وسلامه على من أكمل به لنا دينه ، وأتم برسالته علينا نعمته ، وجعله رحمة للعالمين ، وحسرة على الكافرين (١) .

فصل
ما السر فى كون السلام فى آخر الصلاة

والجواب قد جعل الله لكل عبادة تحليلا منها ،فالتحليل من الحج بالرمى وما بعده ، وكذلك التحلل من الصوم بالفطر بعد الغروب .فجعل السلام تحليلا من الصلاة ، كما قال النبى ﷺ : « تحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم » (٢) . تحريمها هنا هو بابها الذى يدخل منه إليه ، وتحليلها بابها الذى يخرج به منها . فجعل التكبير باب الدخول ، والتسليم باب الخروج لحكمة بديعة بالغة ، يفهمها من عقل عن الله وألزم نفسه بتأمل محاسن هذا الدين العظيم ، وسافر فكره فى استخراج حكمه وأسراره وبدائعه ، وتغرب عن عالم العادة والألف ، فلم يقنع بمجرد الأشباح حتى يعلم ما يقوم بها من الأرواح ، فإن الله لم يشرع شيئا سدى ولا خلوًا من حكمة بالغة ، بل فى طوايا ما شرعه وأمر به من الحكم والأسرار التى تبهر العقول ما يستدل به الناظر فيه على ما وراءه ، فيسجد القلب خضوعا وإذعانًا ، فنقول ـ وبالله التوفيق :

لما كان المصلى قد تخلى عن الشواغل ، وقطع جميع العلائق ، وتطهر وأخذ زينته وتهيأ للدخول على الله ومناجاته ، شرع له أن يدخل عليه دخول العبيد على الملوك ، فيدخل بالتعظيم والإجلال ، فشرع له أبلغ لفظ يدل على هذا المعنى ، وهو قول : الله أكبر ؛ فإن فى اللفظ من التعظيم والتخصيص والإطلاق فى جانب المحذوف المجرور بمن ما لا يوجد فى غيره ؛ ولهذا كان الصواب أن غير هذا اللفظ لا يقوم مقامه ، ولا يؤدى معناه، ولا تنعقد الصلاة إلا به ، كما هو مذهب أهل المدينة وأهل الحديث . فجعل هذا اللفظ واستشعار معناه ، والمقصود به باب الصلاة الذى يدخل العبد على ربه منه ،فإنه إذا استشعر بقلبه أن الله أكبر من كل ما يخطر بالبال ، استحيا منه أن يشغل قلبه فى الصلاة

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٧٨ ـ ١٨٠) .

(٢) أبو داود (٦١) فى الطهارة ، باب : فرض الوضوء ، والترمذى (٣) فى الطهارة ، باب : ما جاء أن مفتاح الصلاة الطهور ، وقال :« هذا الحديث أصح شيء فى هذا الباب وأحسنه » ، وابن ماجه (٢٧٥) فى الطهارة وسننها ، باب : مفتاح الصلاة الطهور ، وأحمد (١ / ١٢٣) .

بغيره ، فلا يكون موفيا لمعنى (الله أكبر) ولا مؤديا لحق هذا اللفظ ولا أتى البيت من بابه بل الباب عنه مسدود .

وهذا بإجماع السلف أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها وحضره بقلبه ، وما أحسن ما قال أبو الفرج ابن الجوازى فى بعض وعظه : حضور القلب أول منزل من منازل الصلاة ، فإذا نزلته انتقلت إلى بادية المعنى ، فإذا رحلت عنها أنحت بباب المناجاة ، فكان أول قرى الضيف اليقظة وكشف الحجاب لعين القلب ، فكيف يطمع فى دخول مكة من لا خرج إلى البادية ، وقد تبعث قلبك فى كل واد ، فربما تفجأك الصلاة وليس قلبك عندك ، فتبعث الرسول وراءه فلا يصادفه ، فتدخل فى الصلاة بغير قلب . والمقصود أنه قبيح بالعبد أن يقول بلسانه : الله أكبر ، وقد امتلأ قلبه بغير الله ، فهو قبلة قلبه فى الصلاة ، ولعله لا يحضر بين يدى ربه فى شىء منها ، فلو قضى حق الله أكبر ، وأتى البيت من بابه لدخل وانصرف بأنواع التحف والخيرات ، فهذا الباب الذى يدخل منه المصلى وهو التحريم .

وأما الباب الذى يخرج منه فهو باب السلام المتضمن أحد الأسماء الحسنى ، فيكون مفتتحا لصلاته باسمه تبارك وتعالى ، ومختما لها باسمه فيكون ذاكراً لاسم ربه أول الصلاة وآخرها ، فأولها باسمه ، وآخرها باسمه ،فدخل فيها باسمه وخرج منها باسمه مع ما فى اسم السلام من الخاصية والحكمة المناسبة لانصراف المصلى من بين يدى الله ، فإن المصلى ما دام فى صلاته بين يدى ربه فهو فى حماه ، الذى لا يستطيع أحد أن يخفره ، بل هو فى حمى من جميع الآفات والشرور ، فإذا انصرف من بين يديه تبارك وتعالى ابتدرته الآفات والبلايا والمحن ، وتعرضت له من كل جانب ، وجاءه الشيطان بمصائده وجنده ، فهو متعرض لأنواع البلايا والمحن ، فإذا انصرف من بين يدى الله مصحوبا بالسلام لا يزل عليه حافظ من الله إلى وقت الصلاة الأخرى .

وكان من تمام النعمة عليه أن يكون انصرفه من بين يديه ربه بسلام يستصحبه ، ويدوم له ويبقى معه ، فتدبر هذا السر الذى لو لم يكن فى هذا التعليق غيره لكان كافيا ، فكيف وفيه من الأسرار والفوائد ما لا يوجد عند أبناء الزمان والحمد فى ذلك لله وحده . فكما أن المنعم به هو الله وحده ، فالمحمود عليه هو الله وحده (١) .

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٩٥ ـ ١٩٧) .

فصل
فى ألفاظ الترحيب

قول الملائكة للنبى ﷺ ليلة الأسراء : مرحبا به[١] ، أصل فى استعمال هذه الألفاظ وما ناسبها عند اللقاء ، نحو : أهلا وسهلا ، ومرحبا ، وكرامة ، وخير مقدم ، وأيمن مورد ونحوها . ووقع الاقتصار منها على لفظ (مرحبا) وحدها لاقتضاء الحال لها ؛ فإن الترحيب هو السعة ، وكان قد أفضى إلى واسع الأماكن ، ولم يطلق فيها (سهلا) لأن معناه : وطئت مكانا سهلا ،والنبى ﷺ كان محمولا إلى السماء [٢].

فصل
فى هديه ﷺ فى الاستئذان

صح عنه ﷺ أنه قال : « الاستئذان ثلاث ، فإن أذن لك وإلا فارجع » [٣] .

وصح عنه ﷺ أنه قال : « إنما جعل الاستئذان من أجل البصر »[٤] .

وصح عنه ﷺ، أنه أراد أن يفقأ عين الذى نظر إليه من جحر فى حجرته ، وقال : «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر » [٥] .

وصح عنه أنه قال : «لوأن أمرأ اطلع عليك بغير إذن ، فخذفته بحصاة ففقأت عينه ، لم يكن عليك جناح » [٦] .

وصح عنه أنه قال : « من اطلع على قوم فى بيتهم بغير إذنهم ، فقد حل لهم أن

---

(١) البخارى (٣٣٤٢) فى الأنبياء ، باب : ذكر إدريس عليه السلام ، ومسلم (١٦٣ / ٢٦٣) فى الإيمان ، باب : الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات .

(٢) بدائع الفوائد (٣ / ٢٠٥) .

(٣) البخارى (٦٢٤٥) فى الاستئذان ، باب : التسليم والاستئذان ثلاثا ، ومسلم (٢١٥٣ / ٣٣) فى الآداب ، باب : الاستئذان .

(٤) البخارى (٦٢٤١) فى الاستئذان ، باب : الاستئذان من أجل البصر ، ومسلم (٢١٥٦ / ٤٠) فى الآداب ، باب : تحريم النظر فى بيت غيره .

(٥) البخارى (٦٩٠١) فى الديات ، باب : من اطلع فى بيت قوم ففقؤوا عينه فلا دية له ، ومسلم (٢١٥٦ / ٤١) فى الآداب ، باب : تحريم النظر فى بيت غيره .

(٦) البخارى (٦٩٠٢) فى الديات ، باب : من اطلع فى بيت قوم ففقؤوا عينه فلا دية له ، ومسلم (٢١٥٨ / ٤٤) فى الآداب ، باب : تحريم النظر فى بيت غيره .

يفقؤوا عينه » (١) .

وصح عنه أنه قال : « من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم ، ففقؤوا عينه ، فلا دية له ، ولا قصاص » (٢) .

وصح عنه : التسليم قبل الاستئذان فعلاً وتعليمًا ، واستأذن عليه رجل ، فقال : أألج ؟ فقال رسول الله ﷺ لرجل : « اخرج إلى هذا ، فعلمه الاستئذان » . فقال له : قل : « السلام عليكم ، أأدخل ؟ » .

فسمعه الرجل ، فقال : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن له النبى ﷺ فدخل (٣) .

ولما استأذن عليه عمر رضي الله عنه ، وهو فى مشربته مؤلياً من نسائه ، قال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليكم ، أيدخل عمر ؟ (٤) .

وقد تقدم قوله ﷺ لكلدة بن حنبل لما دخل عليه ولم يسلم : « ارجع فقل : السلام عليكم أأدخل ؟ » (٥) .

وفى هذه السنن رد على من قال : يقدم الاستئذان على السلام ، ورد على من قال : إن وقعت عينه على صاحب المنزل قبل دخوله ، بدأ بالسلام ، وإن لم تقع عينه عليه ، بدأ بالاستئذان ، والقولان ، مخالفان للسنة .

وكان من هديه ﷺ إذا استأذن ثلاثًا ولم يؤذن له ، انصرف، وهو رد على من يقول : إن ظن أنهم لم يسمعوا ، زاد على الثلاث ، ورد على من قال : يعيده بلفظ آخر ، والقولان مخالفان للسنة .

فصل

وكان من هديه أن المستأذن إذا قيل له : من أنت ؟ يقول : فلان بن فلان ، أو يذكر كنيته ، أو لقبه ، ولا يقول : أنا ، كما قال جبريل للملائكة فى ليلة المعراج لما استفتح باب السماء فسألوه من ؟ فقال : جبريل . واستمر ذلك فى كل سماء سماء .

(١ ، ٢) النسائى (٤٨٦٠) فى القسامة ، باب : من اقتص وأخذ حقه دون السلطان . وأحمد (٢ / ٣٨٥) .

(٣) أبو داود (٥١٧٧) فى الأدب ، باب : كيف الاستئذان .

(٤) البخارى (٤٩١٣) فى التفسير ، باب : ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ ، ومسلم (١٤٧٩ / ٣٤) فى الطلاق ، باب: فى الإيلاء واعتزال النساء .

(٥) أبو داود (٥١٧٦) فى الأدب ، باب : كيف الاستئذان ، والترمذى (٢٧١٠) فى الاستئذان ، باب : ماجاء فى التسليم قبل الاستئذان ، وقال : « حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن جريج » .

وكذلك فى « الصحيحين » لما جلس النبى ﷺ فى البستان ، وجاء أبو بكر رضي الله عنه ، فاستأذن فقال :« من ؟ » قال : أبو بكر ،ثم جاء عمر ، فاستأذن فقال : « من ؟ » قال : عمر ، ثم عثمان كذلك (١) .

وفى « الصحيحين » ، عن جابر ، أتيت النبى ﷺ ، فدققت الباب ، فقال : « من ذا؟ » فقلت : أنا ، فقال : «أنا أنا »كأنه كرهها (٢).

ولما استأذنت أم هانئ ، قال لها : « من هذه؟ » قالت : أم هانئ (٣) ، فلم يكره ذكرها الكنية ، وكذلك لما قال لأبى ذر : « من هذا؟ » قال : أبو ذر . وكذلك لما قال لأبى قتادة : « من هذا ؟ » قال : أبو قتادة .

فصل

وقد روى أبو داود عنه ﷺ من حديث قتادة ، عن أبى رافع ،عن أبى هريرة : «رسول الرجل إلى الرجل إذنه » (٤) :وفى لفظ : «إذا دعى أحدكم إلى طعام ، ثم جاء مع الرسول ، فإن ذلك إذن له » (٥) . وهذا الحديث فيه مقال ، قال أبو على اللؤلؤى : سمعت أبا داود يقول : قتادة لم يسمع من أبى رافع . وقال البخارى فى «صحيحه »:وقال سعيد : عن قتادة ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ :« هو إذنه »،فذكره تعليقًا لأجل الانقطاع فى إسناده .

وذكر البخارى فى هذا الباب حديثًا يدل على أن اعتبار الاستئذان بعد الدعوة ، وهو حديث مجاهد عن أبى هريرة ، دخلت مع النبى ﷺ ، فوجدت لبنًا فى قدح ،فقال : «اذهب إلى أهل الصفة ، فادعهم إلى » قال : فأتيتهم ، فدعوتهم ، فأقبلوا ،فاستأذنوا ، فأذن لهم ، فدخلوا (٦) .

وقد قالت طائفة : بأن الحديثين على حالين ، فإن جاء الداعى على الفور من غير

---

(١) البخارى (٣٦٩٥) فى فضائل الصحابة ، باب : مناقب عثمان بن عفان ، ومسلم (٢٤٠٣/ ٢٨) فى فضائل الصحابة ، باب :من فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٢) البخارى (٦٢٥٠) فى الاستئذان ، باب : إذا قال : من ذا ؟ قال : أنا ، ومسلم (٢١٥٥ / ٣٨ ، ٣٩) فى الآداب ، باب : كراهة قول المستأذن أنا ، إذا قيل من هذا ؟

(٣) البخارى (٢٨٠) فى الغسل ، باب : التستر فى الغسل عند الناس .

(٤) أبو داود (٥١٨٩) فى الأدب ، باب : فى الرجل يدعى أيكون ذلك إذنه ؟

(٥) أبو داود (٥١٩٠) فى الأدب ، باب : فى الرجل يدعى أيكون ذلك إذنه ؟

(٦) البخارى (٦٣٤٦) فى الاستئذان ، باب : إذا دعى الرجل فجاء هل يستأذن ؟

تراخ ،لم يحتج إلى استئذان ، وإن تراخى مجيؤه عن الدعوة ، وطال الوقت ، احتاج إلى استئذان .

وقال آخرون : إن كان عند الداعى من قد أذن له قبل مجىء المدعو ، لم يحتج إلى استئذان آخر ، وإن لم يكن عنده من قد أذن له ، لم يدخل حتى يستأذن .

وكان رسول الله ﷺ ،إذا دخل إلى مكان يحب الانفراد فيه ،أمر من يمسك الباب، فلم يدخل عليه أحد إلا بإذن (١) .

فصل

وأما الاستئذان الذى أمر الله به المماليك ،ومن لم يبلغ الحلم ، فى العورات الثلاث، قبل الفجر ، ووقت الظهيرة،وعند النوم ، فكان ابن عباس يأمر به ،ويقول :ترك الناس العمل بها ، فقالت طائفة : الآية منسوخة ، ولم تأت بحجة . وقالت طائفة : أمر ندب وإرشاد ، لا حتم وإيجاب ، وليس معها ما يدل على صرف الأمر عن ظاهره ، وقالت طائفة : المأمور بذلك النساء خاصة ، وأما الرجال ، فيستأذنون فى جميع الأوقات ، وهذا ظاهر البطلان ، فإن جمع « الذين » لا يختص به المؤنث ، وإن جاز إطلاقه عليهن مع الذكور تغليبًا . وقالت طائفة عكس هذا: إن المأمور بذلك الرجال دون النساء ،نظراً إلى لفظ « الذين » فى الموضعين ، ولكن سياق الآية يأباه فتأمله .

وقالت طائفة : كان الأمر بالاستئذان فى ذلك الوقت للحاجة ، ثم زالت ، والحكم إذا ثبت بعلة زال بزوالها ، فروى أبو داود فى « سننه » أن نفراً من أهل العراق قالوا لابن عباس : يا بن عباس ، كيف ترى هذه الآية التى أمرنا فيها بما أمرنا،ولا يعمل بها أحد : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النور : ٥٨] . فقال ابن عباس : إن الله حكيم رحيم بالمؤمنين ، يحب الستر وكان الناس ليس لبيوتهم ستور ولا حجال ، فربما دخل الخادم ، أو الولد أو يتيمة الرجل ، والرجل على أهله ، فأمرهم الله بالاستئذان فى تلك العورات ، فجــاءهم الله بالستور والخير ، فلم أر أحداً يعمل بذلك بعد (٢) .

وقد أنكر بعضهم ثبوت هذا عن ابن عباس ، وطعن فى عكرمة ، ولم يصنع شيئًا ،

(١) البخارى (٣٦٩٥) فى فضائل الصحابة ، باب : مناقب عثمان بن عفان ،ومسلم (٢٤٠٣ / ٢٩) فى فضائل الصحابه ، باب : من فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٢) أبو داود (٥١٩٢) فى الأدب ، باب : الاستئذان فى العورات الثلاث .

وطعن فى عمرو بن أبى عمرو مولى المطلب ، وقد احتج به صاحبا الصحيح ، فإنكار هذا تعنت واستبعاد لا وجه له.

وقالت طائفة : الآية محكمة عامة لا معارض لها ولا دافع ، والعمل بها واجب ، وإن تركه أكثر الناس .

والصحيح : أنه إن كان هناك ما يقوم مقام الاستئذان من فتح باب ؛ فتحه دليل على الدخول ، أو رفع ستر ، أو تردد الداخل والخارج ونحوه ، أغنى ذلك عن الاستئذان ، وإن لم يكن ما يقوم مقامه ، فلابد منه ، والحكم معلل لعلة قد أشارت إليها الآية ، فإذا وجدت وجد الحكم ، وإذا انتفت انتفى ، والله أعلم (١) .

فصل
فى هديه ﷺ فى العطاس

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا عطس وضع يده ، أو ثوبه على فيه ، وخفض ـ أو غض ـ بها صوته .شك يحيى ، وهو القطان . وأخرجه الترمذى ، وقال : حسن صحيح (٢) .

وقد أخرج الترمذى عن نافع أن رجلا عطس إلى جنب ابن عمر ، فقال : الحمد لله، والسلام على رسول الله ، قال ابن عمر : وأنا أقول : الحمد لله ، والسلام على رسول الله ، وليس هكذا علمنا رسول الله ﷺ أن نقول ، علمنا أن نقول : « الحمد لله على كل حال » وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث زياد بن الربيع (٣) .

وفى الترمذى أيضًا من حديث سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « لما خلق الله آدم ، ونفخ فيه الروح عطس ، فقال : الحمد لله ، فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: رحمك الله يا آدم ، اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملأ منهم جلوس، فقل : السلام عليكم ، قالوا : وعليك السلم ورحمة الله ، ثم رجع إلى ربه، فقال :إن هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم » وذكر الحديث .

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٤٢٨ .

(٢) أبو داود (٥٠٢٩) فى الأدب ، باب : فى العطاس ، والترمذى (٢٧٤٥) فى الأدب ، باب : ما جاء فى خفض الصوت ، وتخمير الوجه عند العطاس .

(٣) الترمذى (٢٧٣٨) فى الأدب ، باب : ما يقول العاطس إذا عطس.

وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (١) .

وقد روى من غير وجه عن النبى ﷺ، ورواه زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة (٢) .

وعن إياس بن سلمة بن الأكوع ، عن أبيه رضي الله عنه : أن رجلا عطس عند النبى ﷺ ، فقال له : « يرحمك الله » ، ثم عطس ، فقال النبى ﷺ : « الرجل مزكوم » . وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه (٣) .

هذا لفظ أبى داود ، ولفظ مسلم : « ثم عطس أخرى » ولفظ مسلم : « ثم عطس الثانية ، فقال : إنه مزكوم » .

وأما ابن ماجه : فلفظه: « يشمت العاطس ثلاثًا ، فما زاد فهو مزكوم » رواه عن على بن محمد حدثنا وكيع عن عكرمة بن عمار عن إياس بن سلمة عن أبيه عن النبى ﷺ. وهذا يوافق رواية أبى هريرة ، وعبيد بن رفاعة فى حد ذلك بالثلاث .

وأما الترمذى فلفظه فيه : عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : عطس رجل عند النبى ﷺ ، وأنا شاهد ، فقال رسول الله ﷺ : « يرحمك الله » ثم عطس الثانية ، أو الثالثة، فقال رسول الله ﷺ : « هذا رجل مزكوم » رواه من حديث سويد عن ابن المبارك عن عكرمة بن عمار .

ثم قال : حدثنا محمد بن يسار ، حدثنا يحيى بن يسار ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عكرمة بن عمار ، عن إياس بن سلمة ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ نحوه ، إلا أنه قال له فى الثالثة « إنك مزكوم » .

قال الترمذى : وهذا أصح من حديث ابن المبارك ، وقد روى شعبة عن عكرمة بن عمار هذا الحديث نحو رواية يحيى بن سعيد (٤) .

وعن أنس رضي الله عنه ،قال : عطس رجلان عند النبى ﷺ ، فشمت أحدهما وترك

---

(١) الترمذى (٣٣٦٨) فى تفسير القرآن ، باب : ٩٤ .

(٢) تهذيب السنن (٧ / ٣٠٤) .

(٣) أبو داود (٥٠٣٧) فى الأدب ، باب : كم مرة يشمت العاطس ، ومسلم (٢٩٩٣ / ٥٥) فى الزهد والرقائق ، باب : تشميت العاطس ، والترمذى (٢٧٤٣) فى الأدب ، باب : ما جاء كم يشمت العاطس ، والنسائى فى الكبرى (١٠٠٥١) فى عمل اليوم والليلة ، باب : كم مرة يشمت ؟، وابن ماجه (٣٧١٤) فى الأدب ، باب : تشميت العاطس .

(٤) تهذيب السنن (٧ / ٣١٠) .

الآخر،قال : فقيل : يا رسول الله ، رجلان عطسا ، فشمت أحدهما ـ قال أحمد ، وهو ابن يونس ـ فشمت أحدهما وتركت الآخر ؟ فقال : « إن هذا حمد الله ، وإن هذا لم يحمد الله » .وأخرجه البخارى ومسلم والترمذى (١) .

وقد تقدم حديث أبى هريرة (٢) وفيه : «فإذا عطس أحدكم ، وحمد الله ،كان حقًا على مسلم سمعه أن يقول : يرحمك الله»(٣).

وترجم الترمذى على حديث أنس:(باب ما جاء فى إيجاب التشميت بحمد العاطس).

وهذا يدل على أنه واجب عنده ، وهو الصواب ، للأحاديث الصريحة الظاهرة فى الوجوب من غير معارض ، والله أعلم .

فمنها :حديث أبى هريرة ، وقد تقدم .

ومنها :حديثه الآخر : « خمس تجب للمسلم على أخيه » وقد تقدم (٤) .

ومنها : حديث سالم بن عبيد ، وفيه : «وليقل له من عند : يرحمك الله » (٥) .

ومنها : ما رواه الترمذى عن على قال :قال رسول اللهﷺ: « للمسلم على المسلم ست بالمعروف : يسلم عليه إذا لقيه ، ويجبه إذا دعاه ،ويشمته إذا عطس ، ويعوده إذا مرض ويتبع جنازته إذا مات ،ويحب له ما يحب لنفسه »(٦) وقال : هذا حديث حسن ،قد روى من غير وجه عن النبى ﷺ ، وقد تكلم بعضهم فى الحارث الأعور ، وفى الباب عن أبى هريرة ، وأبى أيوب والبراء ، وأبى مسعود .

ومنها : مارواه الترمذى عن أبى أيوب : أن رسول اللهﷺ قال : «إذا عطس أحدكم فليقل : الحمد لله ،وليقل : على كل حال ، وليقل الذى يرد عليه : يرحمك الله، وليقل هو : يهديكم الله ويصلح بالكم » (٧) .

---

(١) أبو داود (٥٠٣٩) فى الأدب ، باب : فيمن يعطس ولايحمد الله، والبخارى (٦٢٢١) فى الأدب ، باب : الحمد للعاطس ،ومسلم (٢٩٩١ / ٥٣) فى الزهد والرقائق ، باب : تشميت العاطس كراهة التثاؤب ، والترمذى (٢٧٤٢) فى الأدب ، باب : ما جاء فى إيجاب التشميت بحمد العاطس .

(٢) انظر : تهذيب السنن (٧ / ٣٠٨) رقم (٤٨٦٨) .

(٣) الترمذى (٢٧٤٧) فى الأدب ، باب : ما جاء إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب ، وقال : «صحيح » .

(٤) أبو داود (٥٠٣٠) فى الأدب ، باب : فى العطاس .

(٥) أبو داود (٥٠٣١) فى الأدب ، باب : ماجاء فى تشميت العاطس ، والترمذى (٢٧٤٠) فى الأدب ، باب : ما جاء كيف تشميت العاطس،وقال: « هذا حديث اختلفوا فى روايته عن منصور ».

(٦) الترمذى (٢٧٣٦) فى الأدب ، باب : ما جاء فى تشميت العاطس.

(٧) الترمذى (٢٧٤١) فى الأدب ، باب: ماجاء كيف تشميت العاطس .

فهذه أربع طرق من الدلالة :

أحدها:التصريح بثبوت وجوب التشميت بلفظه الصريح ،الذى لايحتمل تأويلاً .

الثانى : إيجابه بلفظ الحق .

الثالث : إيجابه بلفظه « على الظاهرة فى الوجوب » .

الرابع : الأمر به ،ولا ريب فى إثبات واجبات كثيرة بدون هذه الطرق ، والله تعالى أعلم (١) .

وأيضا

عطس رجل فقال :ما أقول يا رسول الله ؟ قال : « قل : الحمد لله » ، فقال القوم:ما نقول له يا رسول الله ؟ قال :« قولوا له: يرحمك الله»،قال : ما أقول لهم يا رسول الله ؟ قال :« قل لهم: يهديكم الله ويصلح بالكم ». ذكره أحمد (٢) (٣) .

وأيضا

وكان من هديه ﷺ فى العطاس ما ذكره أبو داود والترمذى ، عن أبى هريرة : كان رسول الله ﷺ إذا عطس،وضع يده أو ثوبه على فيه،وخفض ، أو غض به صوته . قال الترمذى :حديث صحيح (٤).

ويذكر عنه ﷺ: أن التثاوب الشديد ، والعطسة الشديدة من الشيطان (٥) .

ويذكر عنه : إن الله يكره رفع الصوت بالتثاوب والعطاس (٦) .

وصح عنه : أنه عطس عنده رجل ، فقال له «يرحمك الله». ثم عطس أخرى ، فقال:«الرجل مزكوم ».هذا لفظ مسلم أنه قال فى المرة الثانية،وأما الترمذى: فقال فيه عن سلمة بن الأكوع : عطس رجل عند رسول الله ﷺ وأنا شاهد ،فقال رسول الله ﷺ :

(١) تهذيب السنن (٧ / ٣١١ ، ٣١٢) .
(٢) أحمد (٦ / ٧٩) .
(٣) إعلام الموقعين (٤ / ٢١١) .
(٤) سبق تخريجه ص ١٤٤ .
(٥) كنز العمال (٢٥٥١٣) وعزاه لابن السنى عن أم سلمة
(٦) كنز العمال(٢٥٥١٢) وعزاه أيضا لابن السنى عن ابن الزبير.

«يرحمك الله ».ثم عطس الثانية والثالثة ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا رجل مزكوم»(١).

قال الترمذى :هذا حديث حسن صحيح .

وقد روى أبو داود عن سعيد بن أبى سعيد ، عن أبى هريرة موقوفًا عليه : « شمت أخاك ثلاثًا ، فما زاد ،فهو زكام » (٢) .

وفى رواية عن سعيد : قال : لا أعلمه إلا أنه رفع الحديث إلى النبى ﷺ بمعناه . قال أبو داود : رواه أبو نعيم ، عن موسى بن قيس ، عن محمد بن عجلان،عن سعيد ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ؛ انتهى .

وموسى بن قيس هذا الذى رفعه هو الحضرمى الكوفى يعرف بعصفور الجنة . قال يحيى بن معين : ثقة . وقال أبو حاتم الرازى :لا بأس به .

وذكر أبو داود ، عن عبيد بن رفاعة الزرقى ، عن النبى ﷺ ،قال : «تشمت العاطس ثلاثا ، فإن شئت ، فشمته ، وإن شئت فكف » (٣).

ولكن له علتان : إحداهما: إرساله،فإن عبيداً هذا ليست له صحبة ، والثانية : أن فيه أبا خالد يزيد بن عبد الرحمن الدالانى ،وقد تكلم فيه .

وفى الباب حديث آخر ، عن أبى هريرة يرفعه : « إذا عطس أحدكم ، فليشمته جليسه ،فإن زاد على الثلاثة ، فهو مزكوم ،ولا تشمته بعد الثلاث » (٤) .

وهذا الحديث هو حديث أبى داود الذى قال فيه : رواه أبو نعيم ، عن موسى بن قيس ، عن محمد بن عجلان ، عن سعيد، عن أبى هريرة ، وهو حديث حسن .

فإن قيل : إذا كان به زكام ، فهو أولى أن يدعى له ممن لا علة به ؟ قيل : يدعى له كما يدعى للمريض ، ومن به داء ووجع .

وأما سنة العطاس الذى يحبه الله ، وهو نعمة ، ويدل على خفة البدن ، وخروج الأبخرة المحتقنة ، فإنما يكون إلى تمام الثلاث ، وما زاد عليها يدعى لصاحبه بالعافية .

وقوله فى هذا الحديث : « الرجل مزكوم » تنبيه على الدعاء له بالعافية ؛ لأن الزكمة علة ، وفيه اعتذار من ترك تشميته بعد الثلاث ، وفيه تنبيه له على هذه العلة ليتداركها ولا

---

(١) سبق تخريجه ص ١٤٥ .

(٢) أبو داود (٥٠٣٤) فى الأدب ، باب : كم مرة يشمت العاطس .

(٣) أبو داود (٥٠٣٦) فى الأدب ، باب : كم مرة يشمت العاطس ، وضعفه الألبانى .

(٤) أبو داود (٥٠٣٥) فى الأدب ، باب : كم مرة يشمت العاطس .

يهملها ، فيصعب أمرها ، فكلامه ﷺ كله حكمة ورحمة ، وعلم وهدى .

وقد اختلف الناس فى مسألتين :

إحداهما : أن العاطس إذا حمد الله ، فسمعه بعض الحاضرين دون بعض ، هل يسن لمن لم يسمعه تشميته ؟ فيه قولان ، والأظهر : أنه يشمته إذا تحقق أنه حمد الله ، وليس المقصود سماع المشمت للحمد ، وإنما المقصود نفس حمده ، فمتى تحقق ترتب عليه التشميت ، كما لو كان المشمت أخرس ، ورأى حركة شفتيه بالحمد . والنبى ﷺ قال : فإن حمد الله ، فشمتوه هذا هو الصواب .

الثانية : إذا ترك الحمد ، فهل يستحب لمن حضره أن يذكره الحمد ؟ قال ابن العربى : لا يذكره ، قال : وهذا جهل من فاعله . وقال النووى :أخطأ من زعم ذلك ،بل يذكره ، وهو مروى عن إبراهيم النخعى .قال : وهو من باب النصيحة ، والأمر بالمعروف ، والتعاون على البر والتقوى ،وظاهر السنة يقوى قول ابن العربى ، لأن النبى ﷺ لم يشمت الذى عطس ، ولم يحمد الله ، ولم يذكره ، وهذا تعزير له ، وحرمان لبركة الدعاء لما حرم نفسه بركة الحمد ، فنسى الله ، فصرف قلوب المؤمنين وألسنتهم عن تشميته والدعاء له ، ولو كان تذكيره سنة ، لكان النبى ﷺ أولى بفعلها وتعليمها ، والإعانة عليها .

فصل

وصح عنه ﷺ : « أن اليهود كانوا يتعاطسون عنده ، يرجون أن يقول لهم : يرحمكم الله ، فكان يقول : يهديكم الله ويصلح بالكم »[(١)] [(٢)] .

فصل
من أسباب انشراح الصدر

منها : ترك فضول النظر ، والكلام، والاستماع ، والمخالطة، والأكل ، والنوم ، فإن

---

(١) أبو داود (٥٠٣٨) فى الأدب ، باب : كيف يشمت الذمى ، والترمذى (٢٧٣٩) فى الأدب ، باب : ما جاء كيف تشميت العاطس ، وقال : «حسن صحيح ».

(٢) زاد المعاد (٢ / ٤٣٩ ـ ٤٤٢) .

هذه الفضول تستحيل آلامًا وغمومًا ، وهمومًا فى القلب، تحصره ، وتحبسه ، وتضيقه ، ويتعذب بها ، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها ، فلا إله إلا الله ما أضيق صدر من ضرب فى كل آفة من هذه الآفات بسهم، وما أنكد عيشه، وما أسوأ حاله ، وما أشد حصر قلبه ،ولا إله إلا الله ، ما أنعم عيش من ضرب فى كل خصلة من تلك الخصال المحمودة بسهم ، وكانت همته دائرة عليها ،حائمة حولها ،فلهذا نصيب وافر من قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ** (١٣) ﴾ [الانفطار]،ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى:﴿**وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ** (١٤)﴾ [الانفطار]، وبينهما مراتب متفاوتة لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى (١) .

فصل

فيمن ليست له غيبة

عن أبى عبد الله الجشمى ، عن جندب ـ وهو ابن عبد الله البجلى رضي الله عنه ـ قال : جاء أعرابى ، فأناخ راحلته ثم عقلها ، ثم دخل المسجد ، فصلى خلف رسول الله ﷺ ، فلما سلم رسول الله ﷺ أتى راحلته ، فأطلقها ، ثم ركب ، ثم نادى : اللهم ارحمنى ومحمدًا ، ولا تشرك فى رحمتنا أحدًا ، فقال رسول الله ﷺ : « أتقولون هو أضل ، أم بعيره ؟ ألم تسمعوا إلى ما قال ؟ » قالوا : بلى (٢) .

أبو عبد الله ـ هذا ـ هو عباس الجشمى ،ذكره النسائى فى كتاب الكنى وقد أخرج الترمذى والنسائى وابن ماجة نحوًا منه من حديث أبى هريرة ، وليس الفصل الأخير (٣) .

وأخرجه البخارى ومسلم من حديث أنس بن مالك (٤) .

وإدخال أبى داود هذا الحديث هنا يريد : أن ذكر الرجل بما فيه فى موضع الحاجة ليس بغيبة مثل هذا ، ونظيره حديث عائشة المتفق عليه : « ائذنوا له ،فبئس أخو العشيرة » (٥)

---

(١) زاد المعاد (٢ / ٢٧).

(٢) أبو داود (٤٨٨٥) فى الأدب ، باب : من ليست له غيبة ، وقال الألبانى : « ضعيف ، بزيادة فقال : رسول الله . . . وهو صحيح بدونها وبزيادة أخرى » .

(٣) الترمذى (٣٤٧) فى الطهارة ، باب : ما جاء فى البول يصيب الأرض ، والنسائى (١٢١٧) فى السهو ، باب : الكلام فى الصلاة ، وابن ماجه (٥٢٩) فى الطهارة وسننها ، باب : الأرض يصيبها البول كيف تغسل .

(٤) البخارى (٢٢١) فى الوضوء ، باب : صب الماء على البول فى المسجد ، ومسلم (٢٨٤ / ٩٨ ـ ١٠٠) فى الطهارة ، باب : وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت فى المسجد .

(٥) البخارى (٦٠٥٤) فى الأدب ، باب : ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب ، ومسلم (٢٥٩١ / ٧٣) فى البر والصلة والآداب ، باب : مداراة من يتقى فحشه .

بوب عليه البخارى : «باب غيبة أهل الفساد والريب » وذكر فى الباب عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « ما أظن فلانًا وفلانًا يعرفان من ديننا شيئًا » (١) .

وفى الباب حديث فاطمة بنت قيس لها خطبها معاوية وأبو جهم ، فقال النبى ﷺ : «أما معاوية :فصعلوك ؛وأما أبو جهم : فلا يضع العصا عن عاتقه » (٢) .

وقالت هند للنبى ﷺ : « إن أبا سفيان رجل شحيح » (٣) .

وقال الأشعث بن قيس للنبى ﷺ فى خصمه : «إنه امرؤ فاجر » (٤) .

وقال الحضرمى بين يدى رسول الله ﷺ فى خصمه : «إنه رجل فاجر لا يبالى ما حلف عليه ، وليس يتورع من شىء » رواه مسلم (٥) .

وقد رد النبى ﷺ غيبة مالك بن الدخشم ـ وقال للقائل : إنه منافق لا يحب الله ورسوله : « لا تقل ذاك » (٦) .

ورد معاذ بن جبل غيبة كعب بن مالك لما قال الرجل فيه عند النبى ﷺ : حبسه النظر فى برديه ، والنظر فى عطفيه ، فقال معاذ : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ، ما علمنا عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ (٧) والحديثان متفق عليهما .

وقد أخرج الترمذى عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال : « من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة » وقال : هذا حديث حسن (٨) (٩) .

---

(١) البخارى (٦٠٦٧) فى الأدب ، باب :ما يجوز من الظن .

(٢) مسلم (١٤٨٠ / ٣٦) فى الطلاق ، باب :المطلقة ثلاثا لا نفقة لها .ولم يعزه صاحب التحفة (١٢ / ٤٦٩) للبخارى .

(٣) البخارى (٥٣٦٤) فى النفقات ، باب : إذا لم ينفق الرجل ، فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف .

(٤) البخارى (٢٣٥٦ ، ٢٣٥٧) فى المساقاة ، باب : الخصومة فى البئر .

(٥) مسلم (١٣٩ / ٢٢٣) فى الإيمان ، باب : وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار .

(٦) البخارى (٤٢٥) فى الصلاة ، باب : المساجد فى البيوت ، ومسلم (٣٣ / ٢٦٣) فى المساجد ومواضع الصلاة، باب : الرخصة فى التخلف عن الجماعة بعذر .

(٧) البخارى (٤٤١٨) فى المغازى ، باب : حديث كعب بن مالك ، ومسلم (٢٧٦٩ / ٥٣) فى التوبة ، باب : حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه .

(٨) الترمذى (١٩٣١) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى الذب عن عرض المسلم .

(٩) تهذيب السنن (٧ / ٢١٦ ، ٢١٧) .

فصل
فيما يجوز من الغيبة

جواز قول الرجل فى غريمه ما فيه من العيوب عند شكواه ، وأن ذلك ليس بغيبة ـ ونظير ذلك قول الآخر فى خصمه: يا رسول الله،إنه فاجر لا يبالى ما حلف عليه (١) (٢).

وأيضا

قال ابن منصور : قلت لأحمد : إن علم من الرجل الفجور أيخبر به الناس ؟ قال : بل يستر عليه ، إلا أن يكون داعية . وزاد إسحاق : يخبر عند الحاجة فى تعديل أو تجريح أو تزويج (٣) .

فصل
فيما يقول من اغتاب أخاه المسلم

يذكر عن النبى ﷺ : أن كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته تقول : « اللهم اغفر لنا وله » ذكره البيهقى فى كتاب « الدعوات الكبير » وقال : فى إسناده ضعف (٤) .

وهذه المسألة فيها قولان للعلماء ـ هما روايتان عن الإمام أحمد ـ وهما : هل يكفى فى التوبة من الغيبة الاستغفار للمغتاب ، أم لا بد من إعلامه وتحليله ؟

والصحيح أنه لا يحتاج إلى إعلامه ، بل يكفيه الاستغفار له وذكره بمحاسن ما فيه فى المواطن التى اغتابه فيها . وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره .

والذين قالوا : لا بد من إعلامه ، جعلوا الغيبة كالحقوق المالية ، والفرق بينهما ظاهر، فإن الحقوق المالية ينتفع المظلوم بعود نظير مظلمته إليه ، فإن شاء أخذها ، وإن شاء تصدق بها .

وأما فى الغيبة ، فلا يمكن ذلك ، ولا يحصل له بإعلامه إلا عكس مقصود الشارع ﷺ ، فإنه يوغر صدره ويؤذيه إذا سمع ما رمى به ، ولعله يهيج عداوته ولا يصفو له

---

(١) سبق تخريجه ص ١٥١ .

(٢) زاد المعاد (٥ / ٥٠٢) .

(٣) بدائع الفوائد (٤ / ٨٠) .

(٤) الخرائطى فى مساوئ الأخلاق ص ٩٢ رقم (٢١٢) .

أبداً، وما كان هذا سبيله ، فإن الشارع الحكيم ﷺ لا يبيحه ولا يجوزه ، فضلاً عن أن يوجبه ويأمر به ، ومدار الشريعة على تعطيل المفاسد وتقليلها ، لا على تحصيلها وتكميلها، والله تعالى أعلم (١) .

فصل
فى هديه ﷺ فى تسميه المولود

حديث قتادة عن الحسن، عن سمرة فى العقيقة : « تذبح يوم سابعه ويسمى » (٢) .

قال الميمونى : تذاكرنا لكم يسمى الصبى ؟ قال لنا أبو عبد الله : يروى عن أنس أنه يسمى لثلاثة ، وأما سمرة ، فقال يسمى فى اليوم السابع (٣) .

فصل
فى هديه ﷺ فى الأسماء والكنى

ثبت عنه ﷺ أنه قال : « إن أخنع اسم عند الله رجل يسمى ملك الأملاك ، لا ملك إلا الله » (٤) .

وثبت عنه أنه قال : « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها حارث وهمام ، وأقبحها حرب ومرة » (٥).

وثبت عنه أنه قال : « لا تسمين غلامك يساراً ولا رباحًا ولا نجيحًا ولا أفلح ، فإنك تقول : أثمت هو ؟ فلا يكون ، فيقال : لا » (٦) .

وثبت عنه أنه غير اسم عاصية ، وقال : « أنت جميلة » (٧) .

---

(١) الوابل الصيب (٣٢٠ ، ٣٢١) . (٢) أبو داود (٢٨٣٨) فى الأضاحى ، باب : فى العقيقة .

(٣) زاد المعاد (٢ / ٣٣٣) .

(٤) البخارى (٦٢٠٥) فى الأدب ، باب : أبغض الأسماء إلى الله ، ومسلم (٢١٤٣ / ٢٠) فى الآداب ، باب : تحريم التسمى بملك الأملاك .

(٥) مسلم (٢١٣٢ / ٢) فى الآداب ، باب : النهى عن التكنى بأبى القاسم ، والترمذى (٢٨٣٣) فى الأدب ، باب: ما جاء ما يستحب من الأسماء .

(٦) مسلم (٢١٣٧ / ١٢) فى الآداب ، باب : كراهة التسمى بالأسماء القبيحة .

(٧) مسلم (٢١٣٩ / ١٤) فى الآداب ، باب : استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن . وأبو داود (٤٩٥٢) فى الأدب ، باب : فى تغيير الاسم القبيح .

وكان اسم جويرية برة ، فغيره رسول الله ﷺ باسم جويرية (١) .

وقالت زينب بنت أم سلمة : نهى رسول الله ﷺ أن يسمى بهذا الاسم ، فقال : « لا تزكوا أنفسكم ، الله أعلم بأهل البر منكم » (٢) .

وغير اسم أصرم بزرعة (٣) ، وغير اسم أبى الحكم بأبى شريح (٤).

وغير اسم حزن جد سعيد بن المسيب وجعله سهلاً فأبى ، وقال : « السهل يوطأ ويمتهن » (٥) .

قال أبو داود : وغير النبى ﷺ اسم العاص وعزيز وعتلة وشيطان والحكم وغراب وحباب وشهاب ، فسماه هشامًا ، وسمى حربًا سلمًا ، وسمى المضطجع المنبعث ، وأرضا عفرة سماها خضرة ، وشعب الضلالة سماه شعب الهدى ، وبنو الزنية سماهم بنى الرشدة، وسمى بنى مغوية بنى رشدة (٦) .

فصل
فى فقه هذا الفصل

لما كانت الأسماء قوالب للمعانى ، ودالة عليها ، اقتضت الحكمة أن يكون بينها وبينها ارتباط وتناسب ، وألا يكون المعنى معها بمنزلة الأجنبى المحض الذى لا تعلق له بها ، فإن حكمة الحكيم تأبى ذلك ، والواقع يشهد بخلافه ، بل للأسماء تأثير فى المسميات ، وللمسميات تأثر عن أسمائها فى الحسن والقبح ، والخفة والثقل ، واللطافة والكثافة ، كما قيل :

وقلما أبصرت عيناك ذا لقب إلا ومعناه إن فكرت فى لقبه

(١) مسلم (٢١٤٠ / ١٦) فى الآداب ، باب : استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن .
(٢) مسلم (٢١٤١ / ١٩) فى الآداب ، باب : استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن . وأبو داود (٤٩٥٣) فى الأدب ، باب : فى تغير الاسم القبيح .
(٣) أبو داود (٤٩٥٤) فى الأدب ، باب : فى تغير الاسم القبيح .
(٤) أبو داود (٤٩٥٥) فى الأدب ، باب : فى تغيير الاسم القبيح .
(٥) البخارى (٦١٩٠) فى الأدب ، باب : اسم الحزن ، وأبو داود (٤٩٥٦) فى الأدب ، باب : فى تغيير الاسم القبيح .
(٦) أبو داود تحت رقم (٤٩٥٦) فى الأدب ، باب : فى تغيير الاسم القبيح .

وكان ﷺ يستحب الاسم الحسن ، وأمر إذا أبردوا إليه بريداً أن يكون حسن الاسم حسن الوجه (١) وكان يأخذ المعانى من أسمائها فى المنام واليقظة ، كما رأى أنه وأصحابه فى دار عقبة بن رافع ، فأتوا برطب من رطب ابن طاب ، فأوله بأن لهم الرفعة فى الدنيا، والعاقبة فى الآخرة ، وأن الدين الذى قد اختاره الله لهم قد أرطب وطاب(٢) ، وتأول سهولة أمرهم يوم الحديبية من مجىء سهيل بن عمرو إليه (٣) .

وندب جماعة إلى حلب شاة ، فقام رجل يحلبها ، فقال : « ما اسمك ؟ » قال:«مرة» فقال : اجلس ، فقام آخر فقال : « ما اسمك ؟ » قال : أظنه حرب ، فقال: اجلس ، فقام آخر قال : « ما اسمك ؟ » فقال : يعيش ، فقال : « احلبها »(٤).

وكان يكره الأمكنة المنكرة الأسماء ، ويكره العبور فيها ، كما مر فى بعض غزواته بين جبلين ، فسأل عن اسميهما فقالوا : فاضح ومخز ، فعدل عنهما ، ولم يجز بينهما .

ولما كان بين الأسماء والمسميات من الارتباط والتناسب والقرابة ، ما بين قوالب الأشياء وحقائقها ، وما بين الأرواح والأجسام ، عبر العقل من كل منهما إلى الآخر ، كما كان إياس بن معاوية وغيره يرى الشخص ، فيقول : ينبغى أن يكون اسمه كيت وكيت ، فلا يكاد يخطئ ، وضد هذا العبور من الاسم إلى مسماه ، كما سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً عن اسمه ،فقال:جمرة ، فقال : واسم أبيك ؟ قال : شهاب ، قال : ممن ؟ قال: من الحرقة ، قال : فمنزلك ؟ قال بحرة النار ، قال : فأين مسكنك ؟ قال : بذات لظى : قال : اذهب فقد احترق مسكنك ، فذهب فوجد الأمر كذلك .

فعبر عمر من الألفاظ إلى أرواحها ومعانيها ، كما عبر النبى ﷺ من اسم سهيل إلى سهولة أمرهم يوم الحديبية ، فكان الأمر كذلك ، وقد أمر النبى ﷺ أمته بتحسين أسمائهم، وأخبر أنهم يدعون يوم القيامة بها ، وفى هذا ـ والله أعلم ـ تنبيه على تحسين الأفعال المناسبة لتحسين الأسماء ، لتكون الدعوة على رؤوس الأشهاد بالاسم الحسن ، والوصف المناسب له .

وتأمل كيف اشتق للنبى ﷺ من وصفه اسمان مطابقان لمعناه ، وهما أحمد ومحمد ،

---

(١) المقاصد الحسنة (٨٢) ، وذكره ابن عراق فى تنزيه الشريعة (١ / ٢٠٠) من القسم الثانى وعزاه للعقيلى من حديث أبى هريرة وقال : « لا يصح » .

(٢) مسلم (٢٢٧٠ / ١٨) فى الرؤيا ، باب : رؤيا النبى ﷺ ، وأبو داود (٥٠٢٥) فى الأدب ، باب : ما جاء فى الرؤيا ، وأحمد (٣ / ٢٨٦) .

(٣) البيهقى فى الكبرى (٩ / ٢٢٠) فى الجزية ، باب : المهادنة على النظر للمسلمين .

(٤) مالك فى الموطأ ٢ / ٩٧٣ (٢٤) فى الاستئذان ، باب : ما يكره من الأسماء .

فهو لكثرة ما فيه من الصفات المحمودة محمد ، ولشرفها وفضلها على صفات غيره أحمد ، فارتبط الاسم بالمسمى ارتباط الروح بالجسد ، وكذلك تكنيته ﷺ لأبى الحكم بن هشام بأبى جهل كنية مطابقة لوصفه ومعناه ، وهو أحق الخلق بهذه الكنية ، وكذلك تكنية الله عز وجل لعبد العزى بأبى لهب ، لما كان مصيره إلى نار ذات لهب ، كانت هذه الكنية أليق به وأوفق ، وهو بها أحق وأخلق .

ولما قدم النبى ﷺ المدينة ، واسمها يثرب لا تعرف بغير هذا الاسم ، غيره بطيبة (١) لما زال عنها ما فى لفظ يثرب من التثريب بما فى معنى طيبة من الطيب ، استحقت هذا الاسم، وازدادت به طيبًا آخر ، فأثر طيبها فى استحقاق الاسم ، وزادها طيبًا إلى طيبها .

وما كان الاسم الحسن يقتضى مسماه ، ويستدعيه من قرب، قال النبى ﷺ لبعض قبائل العرب وهو يدعوهم إلى الله وتوحيده : « يا بنى عبد الله ، إن الله قد حسن اسمكم واسم أبيكم » . فانظر كيف دعاهم إلى عبودية الله بحسن اسم أبيهم ، وبما فيه من المعنى المقتضى للدعوة ، وتأمل أسماء الستة المتبارزين يوم بدر كيف اقتضى القدر مطابقة أسمائهم لأحوالهم يومئذ ، فكان الكفار : شيبة ، وعتبة ، والوليد ، ثلاث أسماء من الضعف ، فالوليد له بداية الضعف ، وشيبة له نهاية الضعف ، كما قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً** ﴾ [الروم : ٥٤] ، وعتبة من العتب ، فدلت أسماؤهم على عتب يحل بهم ، وضعف ينالهم ، وكان أقرانهم من المسلمين : على ، وعبيدة ، والحارث ، رضي الله عنهم ، ثلاثة أسماء تناسب أوصافهم، وهى العلو ، والعبودية ، والسعى الذى هو الحرث فعلوا عليهم بعبوديتهم وسعيهم فى حرث الآخرة . ولما كان الاسم مقتضيًا لمسماه ، ومؤثراً فيه ، كان أحب الأسماء إلى الله ما اقتضى أحب الأوصاف إليه ، كعبد الله ، وعبد الرحمن ، وكان إضافة العبودية إلى اسم الله ، واسم الرحمن ، أحب إليه من إضافتها إلى غيرهما ، كالقاهر ، والقادر ، فعبد الرحمن أحب إليه من عبد القادر ، وعبد الله أحب إليه من عبد ربه ، وهذا لأن التعلق الذى بين العبد وبين الله إنما هو العبودية المحضة ، والتعلق الذى بين الله وبين العبد بالرحمة المحضة ، فبرحمته كان وجوده وكمال وجوده ، والغاية التى أوجده لأجلها أن يتأله له وحده محبة وخوفًا ، ورجاء وإجلالاً وتعظيمًا ، فيكون عبد لله وقد عبده لما فى اسم الله من معنى الإلهية التى يستحيل أن تكون لغيره ، ولما غلبت رحمته

---

(١) البخارى (١٨٧٢) فى فضائل المدينة ، باب : المدينة طابة ، ومسلم (١٣٩٢ / ٥٠٣) فى الحج ، باب : أحد جبل يحبنا ونحبه .

غضبه وكانت الرحمة أحب إليه من الغضب ، كان عبد الرحمن أحب إليه من عبد القاهر.

فصل

ولما كان كل عبد متحركًا بالإرادة ، والهم مبدأ الإرادة ، ويترتب على إرادته حركته وكسبه ، كان أصدق الأسماء اسم همام واسم حارث ، إذ لا ينفك مسماهما عن حقيقة معناهما ، ولما كان الملك الحق لله وحده ، ولا ملك على الحقيقة سواه ، كان أخنع اسم وأوضعه عند الله ، وأغضبه له اسم « شاهان شاه » أى : ملك الملوك ، وسلطان السلاطين ، فإن ذلك ليس لأحد غير الله ، فتسمية غيره بهذا من أبطل الباطل ، والله لا يحب الباطل .

وقد ألحق بعض أهل العلم بهذا « قاضى القضاة » وقال : ليس قاضى القضاة إلا من يقضى الحق وهو خير الفاصلين ، الذى إذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن فيكون .

ويلى هذا الاسم فى الكراهة والقبح والكذب : سيد الناس ، وسيد الكل ، وليس ذلك إلا لرسول الله ﷺ خاصة ، كما قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر »[1] فلا يجوز لأحد قط أن يقول عن غيره : إنه سيد الناس وسيد الكل ، كما لا يجوز أن يقول : إنه سيد ولد آدم .

فصل

ولما كان مسمى الحرب والمرة أكره شىء للنفوس وأقبحها عندها ، كان أقبح الأسماء حربًا ومرة ، وعلى قياس هذا حنظلة وحزن ، وما أشبههما ، وما أجدر هذه الأسماء بتأثيرها فى مسمياتها ، كما أثر اسم « حزن » الحزونة فى سعيد بن المسيب وأهل بيته .

فصل

ولما كان الأنبياء سادات بنى آدم ، وأخلاقهم أشرف الأخلاق ، وأعمالهم أصح الأعمال ، كانت أسماؤهم أشرف الأسماء ، فندب النبى ﷺ أمته إلى التسمى بأسمائهم ،

---

(١) مسلم (٢٢٧٨) فى الفضائل ، باب : تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ، وأبو داود (٤٦٧٣) فى السنة ، باب : فى التخيير بين الأنبياء عليهم السلام .

كما فى سنن أبى داود والنسائى عنه « تسموا بأسماء الأنبياء »[١] . ولو لم يكن فى ذلك من المصالح إلا أن الاسم يذكر بمسماه ويقتضى التعلق بمعناه ، لكفى به مصلحة مع ما فى ذلك من حفظ أسماء الأنبياء وذكرها ، وألا تنسى ، وأن تذكر أسماؤهم بأوصافهم وأحوالهم .

فصل

وأما النهى عن تسمية الغلام بـ : يسار وأفلح ونجيح ورباح ، فهذا لمعنى آخر قد أشار إليه فى الحديث ، وهو قوله : « فإنك تقول : أثمت هو ؟ فيقال :لا »[٢] ـ الله أعلم ـ هل هذه الزيادة من تمام الحديث المرفوع ، أو مدرجة من قول الصحابى ، وبكل حال فإن هذه الأسماء لما كانت قد توجب تطيراً تكرهه النفوس ، ويصدها عما هى بصدده، كما إذا قلت لرجل : أعندك يسار ، أو رباح ، أو أفلح ؟ قال :لا ،تطيرت أنت وهو من ذلك ، وقد تقع الطيرة لا سيما على المتطيرين ، فقل من تطير إلا ووقعت به طيرته ، وأصابه طائره ، كما قيل :

تعلم أنه لا طير إلا ... على متطير فهو الثبور

اقتضت حكمة الشارع ، الرؤوف بأمته ، الرحيم بهم ، أن يمنعهم من أسباب توجب لهم سماع المكروه أو وقوعه ، وأن يعدل عنها إلى أسماء تحصل المقصود من غير مفسدة ، هذا أولى ، مع ما ينضاف إلى ذلك من تعليق ضد الاسم عليه ، بأن يسمى يساراً من هو من أعسر الناس ، ونجيحًا من لا نجاح عنده ،ورباحًا من هو من الخاسرين ، فيكون قد وقع فى الكذب عليه وعلى الله، وأمر آخر أيضًا وهو أن يطالب المسمى بمقتضى اسمه ، فلا يوجد عنده ، فيجعل ذلك سببًا لذمه وسبه ، كما قيل :

سموك من جهلهم سديداً ... والله ما فيك من سداد
أنت الذى كونه فساداً ... فى عالم الكون والفساد

فتوصل الشاعر بهذا الاسم إلى ذم المسمى به ،ولى من أبيات :

---

(١) أبو داود (٤٩٥٠) فى الأدب ، باب : فى تغيير الأسماء ، والنسائى (٣٥٦٥) فى الخيل ، باب : ما يستحب من شبة الخيل ، وقال الألبانى : « صحيح ، دون قوله : تسموا بأسماء الأنبياء » .

(٢) تقدم تخريجه ص ١٥٣ .

وسميته صالحاً فاغتدى بضد اسمه فى الورى سائرا
وظن بأن اسمه ساتر لأوصافه فغدا شاهرا

وهذا كما أن من المدح ما يكون ذمًا وموجبًا لسقوط مرتبة الممدوح عند الناس ، فإنه يمدح بما ليس فيه ، فتطالبه النفوس بما مدح به ، وتظنه عنده ، فلا تجده كذلك ، فتنقلب ذمًا ، ولو ترك بغير مدح ، لم تحصل له هذه المفسدة ، ويشبه حاله حال من ولى ولاية سيئة ، ثم عزل عنها ، فإنه تنقص مرتبته عما كان عليه قبل الولاية ، وينقص فى نفوس الناس عما كان عليه قبلها ، وفى هذا قال القائل :

إذا ما وصفت امرءاً لا مرئ فلا تغل فى وصفه واقصد
فإنك إن تغل الظنو ن فيه إلى الأمد الأبعد
فينقص من حيث عظمته لفصل المغيب عن المشهد

وأمر آخر : وهو ظن المسمى واعتقاده فى نفسه أنه كذلك ، فيقع فى تزكية نفسه وتعظيمها وترفعها على غيره ، وهذا هو المعنى الذى نهى النبى ﷺ لأجله أن تسمى « برة» وقال : « لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم » (١) .

وعلى هذا فتكره التسمية بـ : التقى ، والمتقى ، والمطيع ، والطائع ، والراضى ، والمحسن ، والمخلص ، والمنيب ، والرشيد ، والسديد ، وأما تسمية الكفار بذلك ، فلا يجوز التمكين منه ، ولا دعاؤهم بشىء من هذه الأسماء ، ولا الإخبار عنهم بها ، والله عز وجل يغضب من تسميتهم بذلك .

فصل

وأما الكنية فهى نوع تكريم للمكنى وتنويه به ، كما قال الشاعر :

أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه والسوءة اللقب

وكنى النبى ﷺ صهيباً بأبى يحيى، وكنى علياً رضي الله عنه بأبى تراب إلى كنيته بأبى الحسن، وكانت أحب كنيته إليه ، وكنى أخا أنس بن مالك وكان صغيراً دون البلوغ بأبى عمير .

وكان هديه ﷺ تكنية من له ولد ، ومن لا ولد له ، ولم يثبت عنه أنه نهى عن كنية

(١) تقدم تخريجه ص ١٥٤ .

إلا الكنية بأبى القاسم ، فصح عنه أنه قال : « تسموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى »[(١)] .

فاختلف الناس فى ذلك على أربعة أقوال :

أحدها : أنه لا يجوز التكنى بكنيته مطلقًا ، سواد أفردها عن اسمه ، أو قرنها به ، وسواء محياه وبعد مماته ، وعمدتهم عموم هذا الحديث الصحيح وإطلاقه ، وحكى البيهقى ذلك عن الشافعى ، قالوا : لأن النهى إنما كان لأن معنى هذه الكنية والتسمية مختصة به ﷺ ، وقد أشار إلى ذلك بقوله : « والله لا أعطى أحداً ، ولا أمنع أحداً ، وإنما أنا قاسم، أضع حيث أمرت »[(٢)] . قالوا : ومعلوم أن هذه الصفة ليست على الكمال لغيره.

واختلف هؤلاء فى جواز تسمية المولود بقاسم ، فأجازه طائفة ، ومنعه آخرون ، والمجيزون نظروا إلى أن العلة عدم مشاركة النبى ﷺ فيما اختص به من الكنية ، وهذا غير موجود فى الاسم ، والمانعون نظروا إلى أن المعنى الذى نهى عنه فى الكنية موجود مثله هنا فى الاسم سواء ، أو هو أولى بالمنع ، قالوا :وفى قوله :« إنما أنا قاسم » إشعار بهذا الاختصاص .

القول الثانى : أن النهى إنما هو عن الجمع بين اسمه وكنيته ، فإذا أفرد أحدهما عن الآخر ، فلا بأس . قال أبو داود : باب من رأى ألا يجمع بينهما ، ثم ذكر حديث أبى الزبير عن جابر أن النبى ﷺ قال : « من تسمى باسمى فلا يتكن بكنيتى ، ومن تكنى بكنيتى فلا يتسم باسمى »[(٣)] .ورواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب[(٤)] . وقد رواه الترمذى أيضًا من حديث محمد بن عجلان عن أبيه عن أبى هريرة وقال : حسن صحيح ، ولفظه : نهى رسول الله ﷺ أن يجمع أحد بين اسمه وكنيته ، ويسمى محمدًا أبا القاسم[(٥)] . قال أصحاب هذا القول : فهذا مقيد مفسر لما فى « الصحيحين » من نهيه عن التكنى بكنيته قالوا : ولأن فى الجمع بينهما مشاركة فى الاختصاص بالاسم والكنية ، فإذا أفرد أحدهما عن الآخر ، زال الاختصاص .

---

(١) البخارى (٦١٨٧) فى الأدب ، باب : قول النبى ﷺ:« سموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى »، ومسلم (٢١٣٤ / ٨) فى الآداب ، باب النهى عن التكنى بأبى القاسم ، وأبو داود (٤٩٦٥) فى الأدب ، باب : فى الرجل يتكنى بأبى القاسم .

(٢) البخارى (٣١١٧) فى فرض الخمس ، باب : قول الله تعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ ، وأبو داود (٢٩٤٩) فى الخراج والإمارة والفىء ، باب : فيما يلزم الإمام من أمر الرعية .

(٣) أبو داود (٤٩٦٦) فى الأدب ، باب : من رأى ألا يجمع بينهما ، وقال الألبانى : « منكر » .

(٤) الترمذى (٢٨٤٢) فى الأدب ، باب : ما جاء فى كراهية الجمع بين اسم النبى ﷺ وكنيته .

(٥) الترمذى (٢٨٤١) فى الأدب ، باب : ما جاء فى كراهية الجمع بين اسم النبى ﷺ وكنيته

القول الثالث : جواز الجمع بينهما وهو المنقول عن مالك ، واحتج أصحاب هذا القول بما رواه أبو داود ، والترمذى من حديث محمد بن الحنفية ، عن على رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، إن ولد لى ولد من بعدك أسميه باسمك وأكنيه بكنيتك ؟ قال : «نعم» قال الترمذى : حديث حسن صحيح (١) .

وفى سنن أبى داود عن قالت : جاءت امرأة إلى النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إنى ولدت غلامًا فسميته محمداً وكنيته أبا القاسم ، فذكر لى أنك تكره ذلك ، فقال : « ما الذى أحل اسمى وحرم كنيتى » أو « ما الذى حرم كنيتى وأحل اسمى » (٢) قال هؤلاء : وأحاديث المنع منسوخة بهذين الحديثين .

القول الرابع : أن التكنى بأبى القاسم كان ممنوعًا منه فى حياة النبى ﷺ ، وهو جائز بعد وفاته ، قالوا : وسبب النهى إنما كان مختصًا بحياته ، فإنه قد ثبت فى « الصحيح » من حديث أنس قال : نادى رجل بالبقيع : يا أبا القاسم ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى لم أعنك ، إنما دعوت فلانًا ، فقال رسول الله ﷺ : « تسموا باسمى ، ولا تكنوا بكنيتى » (٣) . قالوا : وحديث على فيه إشارة إلى ذلك بقوله : إن ولد لى من بعدك ولد ، ولم يسأله عمن يولد له فى حياته ، ولكن قال على رضي الله عنه فى هذا الحديث : « وكانت رخصة لى » وقد شذ من لا يؤبه لقوله ، فمنع التسمية باسمه ﷺ قياسًا على النهى عن التكنى بكنيته ، والصواب أن التسمى باسمه جائز ، والتكنى بكنيته ممنوع منه ، والمنع فى حياته أشد ، والجمع بينهما ممنوع منه ، وحديث عائشة غريب لا يعارض بمثله الحديث الصحيح ، وحديث على رضي الله عنه فى صحته نظر ، والترمذى فيه نوع تساهل فى التصحيح ، وقد قال على إنها رخصة له ، وهذا يدل على بقاء المنع لمن سواه ، والله أعلم .

فصل

وقد كره قوم من السلف والخلف الكنية بأبى عيسى ، وأجازها آخرون ، فروى أبو

(١) أبو داود (٤٩٦٧) فى الأدب ، باب : فى الرخصة فى الجمع بينهما ، والترمذى (٢٨٤٣) فى الأدب ، باب : ما جاء فى كراهية الجمع بين اسم النبى ﷺ وكنيته .

(٢) أبو داود (٤٩٦٨) فى الأدب ، باب : فى الرخصة فى الجمع بينهما ، وضعفه الألبانى .

(٣) البخارى (٣٥٣٧) فى المناقب ، باب : كنية النبى ﷺ ، ومسلم (٢١٣١ / ١) فى الآداب ، باب : النهى عن التكنى بأبى القاسم .

داود عن زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب ضرب ابنًا له يكنى أبا عيسى ، وأن المغيرة بن شعبة تكنى بأبى عيسى ، فقال له عمر : أما يكفيك أن تكنى بأبى عبد الله ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ كنانى ، فقال : إن رسول الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وإنا لفى جَلْجَتِنَا فلم يزل يكنى بأبى عبد الله حتى هلك (١) .

وقد كنى عائشة بأم عبد الله (٢) ، وكان لنسائه أيضًا كنى كأم حبيبة ، وأم سلمة .

فصل

ونهى رسول الله ﷺ عن تسمية العنب كرمًا (٣) . وقال : « الكرم قلب المؤمن »(٤)، وهذا لأن اللفظة تدل على كثرة الخير والمنافع فى المسمى بها ، وقلب المؤمن هو المستحق لذلك دون شجرة العنب ،ولكن:هل المراد النهى عن تخصيص شجرة العنب بهذا الاسم ، وأن قلب المؤمن أولى به منه ، فلا يمنع عن تسميته بالكرم كما قال فى « المسكين» و « الرقوب » و « المفلس » ، أو المراد أن تسميته بهذا مع اتخاذ الخمر المحرم منه وصف بالكرم والخير والمنافع لأصل هذا الشراب الخبيث المحرم ، وذلك ذريعة إلى مدح ما حرم الله وتهيج النفوس إليه ؟ هذا محتمل ، والله أعلم بمراد رسوله ﷺ ، والأولى ألا يسمى شجر العنب كرمًا .

فصل

قال ﷺ : « لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم ، ألا وإنها العشاء ، وإنهم يسمونها العتمة » (٥) ، وصح عنه أنه قال : « لو يعلمون ما فى العتمة والصبح ، لأتوهما ولو حبوا »(٦) ، فقيل : هذا ناسخ للمنع ، وقيل بالعكس ، والصواب خلاف القولين ، فإن العلم بالتاريخ متعذر ، ولا تعارض بين الحديثين ، فإنه لم ينه عن إطلاق اسم العتمة

---

(١) أبو داود (٤٩٦٣) فى الأدب ، باب : فيمن يتكنى بأبى عيسى .

(٢) أبو داود (٤٩٧٠) فى الأدب ، باب : فى المرأة تكنى .

(٣) البخارى (٦١٨٢) فى الأدب ، باب : لا تسبوا الدهر .

(٤) البخارى (٦١٨٣) فى الأدب ، باب : قول النبى ﷺ : « إنما الكرم قلب المؤمن » ، ومسلم (٢٢٤٧ / ٩) فى الألفاظ من الأدب ، باب : كراهة تسمية العنب كرما .

(٥) البخارى (٥٦٣) فى مواقيت الصلاة ، باب : من كره أن يقال للمغرب والعشاء .

(٦) البخارى (٦١٥) فى الأذان ، باب : الاستهام فى الأذان ، ومسلم (٤٣٧ / ١٢٩) فى الصلاة ، باب : تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها .

بالكلية ، وإنما نهى عن أن يهجر اسم العشاء ، وهو الاسم الذى سماها الله به فى كتابه ، ويغلب عليها اسم العتمة ، فإذا سميت العشاء وأطلق عليها أحيانًا العتمة ، فلا بأس ، والله أعلم ، وهذا محافظة منه ﷺ على الأسماء التى سمى الله بها العبادات ، فلا تهجر ، ويؤثر عليها غيرها ، كما فعله المتأخرون فى هجران ألفاظ النصوص ، وإيثار المصطلحات الحادثة عليها ، ونشأ بسبب هذا من الجهل والفساد ما الله به عليم ، وهذا كما كان يحافظ على تقديم ما قدمه الله وتأخير ما أخره ، كما بدأ بالصفا ، وقال : « أبدأ بما بدأ الله به»[1] وبدأ فى العيد بالصلاة ، ثم جعل النحر بعدها ، وأخبر أن « من ذبح قبلها ، فلا نسك له » [2] تقديمًا لما بدأ الله به فى قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ ﴾ [الكوثر] وبدأ فى أعضاء الوضوء بالوجه ، ثم اليدين ، ثم الرأس ، ثم الرجلين ، تقديمًا لما قدمه الله ، وتأخيراً لما أخره ، وتوسيطًا لما وسطه ، وقدم زكاة الفطرعلى صلاة العيد تقديمًا لما قدمه فى قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۝١٥ ﴾ [الأعلى] ونظائره كثيرة [3].

وأيضا

أشرف صفات العبد صفة العبودية ، وأحب أسمائه إلى الله اسم العبودية ، كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : «أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » ، وأصدقها حارث وهمام ، وأقبحها حرب ومرة [4] ،وإنما كان حارث وهمام أصدقها لأن لكل أحد لابد له من هم وإرادة وعزم ينشأ عنه حرث وفعله ،وكل أحد حارث وهمام ، وإنما كان أقبحها حرب ومرة لما فى مسمى هذين الاسمين من الكراهة ونفور العقل عنهما ، وبالله التوفيق [5].

---

(١) مسلم (١٢١٧ / ١٤٧) فى الحج ، باب : حجة النبى ﷺ ، وأبو داود (١٩٠٥) فى الحج ، باب : صفة حجة النبى ﷺ ، والترمذى (٨٦٢) فى الحج ، باب : ما جاء أنه يبدأ بالصفا قبل المروة .

(٢) البخارى (٥٥٤٥) فى الأضاحى ، باب : سنة الأضحية ، ومسلم (١٩٦١ / ٧) فى الأضاحى ، باب : وقتها.

(٣) زاد المعاد (٢ / ٣٣٤ ـ ٣٥١) .

(٤) أبو داود (٤٩٥٠) فى الأدب ، باب : فى تغيير الأسماء ، وقال الألبانى : « صحيح دون قوله : تسموا بأسماء الأنبياء » .

(٥) روضة المحبين (٥٣) .

فائدة

قال قائل : أرانى إذا دعيت باسمى دون لقبى شق ذلك على جدا ، بخلاف السلف فإنهم كانوا يدعون بأسمائهم : فقيل : له : هذا لمخالفة العادات ، لأن أنس النفوس بالعادة طبيعة ثابتة ، ولأن الاسم عن السلف لم يكن عندهم دالا على قلة رتبة المدعو ، واليوم صارت المنازل فى القلوب تعلم بإمارة الاستدعاء ، فإذا قصر دل على تقصير رتبته فيقع السخط لما وراء الاستدعاء ، فلما صارت المخاطبات موازين المقادير شق على المحطوط من رتبته قولا ، كما يشق عليه فعلا (١) .

فصل
فى تغيير الأسماء

عن عبد الله بن أبى زكرياء ، عن أبى الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فأحسنوا أسماءكم » (٢) .

عبد الله بن أبى زكرياء : كنيته أبو يحيى ، خزاعى دمشقى ثقة عابد ، لم يسمع من أبى الدرداء . فالحديث منقطع . وأبوه أبو زكرياء : اسمه إياس بن يزيد .

وفى هذا الحديث : رد على من قال : إن الناس يوم القيامة إنما يدعون بأمهاتهم ، لا آبائهم ، وقد ترجم البخارى فى صحيحه لذلك ، فقال : «باب يدعى الناس بآبائهم » ، وذكر فيه حديث نافع عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: «الغادر يرفع له لواء يوم القيامة ؟ يقال له: هذه غدرة فلان ابن فلان » (٣) .

واحتج من قال بالأول : بما رواه الطبرانى فى معجمه من حديث سعيد بن عبد الله الأودى قال : « شهد أبا أمامة ـ وهو فى النزع ـ قال : إذا مت فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله ﷺ ، فقال : «إذا مات أحد من إخوانكم فسويتم التراب على قبره ، فليقم أحدكم على رأس قبره ، ثم ليقل: يا فلان ابن فلانة ، فإنه يسمعه ولا يجيبه ، ثم يقول : يا فلان ابن فلانة ، فإنه يقول : أرشدنا رحمك الله » فذكر الحديث، وفيه : فقال رجل :

(١) بدائع الفوائد (٣ / ١٧٨) .

(٢) أبو داود (٤٩٤٨) فى الأدب ، باب : فى تغيير الأسماء ، وضعفه الألبانى .

(٣) البخارى (٦١٧٧) فى الأدب ، باب : مايدعى الناس بآبائهم .

يا رسول الله ،فإن لم يعرف أمه ، قال :« فلينسبه إلى أمه حواء ، فلان بن حواء » (١) .

ولكن هذا الحديث متفق على ضعفه فلا تقوم به حجة ، فضلا عن أن يعارض به ما هو أصح منه .

وفى الصحيحين عن أبى موسى قال : ولد لى غلام ، فأتيت به النبى ﷺ ، فسماه إبراهيم ، وحنكه بتمرة .

زاد البخارى : « ودعا له بالبركة ، ودفعه إلى ، وكان أكبر ولد أبى موسى (٢) (٣) .

فصل

فى هديه ﷺ فى حفظ المنطق واختيار الألفاظ

كان يتخير فى خطابه ، ويختار لأمته أحسن الألفاظ ، وأجملها ، وألطفها ، وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء ، والغلظة والفحش ، فلم يكن فاحشا ولا متفحشًا ولا صخابًا ، ولا فظًا .

وكان يكره أن يستعمل اللفظ الشريف المصون فى حق من ليس كذلك ، وأن يستعمل اللفظ المهين المكروه فى حق من ليس من أهله .

فمن الأول منعه أن يقال للمنافق : « يا سيدنا » ، وقال : « فإنه إن يك سيدًا ، فقد أسخطتم ربكم عز وجل » (٤) ، ومنعه أن تسمى شجرة العنب كرمًا ، ومنعه تسمية أبى جهل بأبى الحكم ، وكذلك تغييره لاسم أبى الحكم من الصحابة : بأبى شريح ، وقال : «إن الله هو الحكم ، وإليه الحكم » (٥) .

ومن ذلك نهيه للمملوك أن يقول لسيده أو لسيدته : ربى وربتى ، وللسيد أن يقول لمملوكه : عبدى ، ولكن يقول المالك : فتاى وفتاتى ، ويقول المملوك : سيدى

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٨ / ٢٩٨ ، ٢٩٩ (٧٩٧٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ٣٢٧) : « وفيه من لم أعرفه جماعة » .

(٢) البخارى (٦١٩٨) فى الأدب ، باب : من سمى بأسماء الأنبياء ، ومسلم (٢١٤٥ / ٢٤) فى الآداب ، باب : استحباب تحنيك المولود عند ولادته .

(٣) تهذيب السنن (٧ / ٢٥٠ ، ٢٥١) .

(٤) أبو داود (٤٩٧٧) فى الأدب ، باب : لا يقول المملوك : « ربى وربتى » .

(٥) أبو داود (٤٩٥٥) فى الأدب ، باب : فى تغيير الاسم القبيح .

وسيدتى(١) ، وقال لمن ادعى أنه طبيب : « أنت رجل رفيق ، وطبيبها الذى خلقها »(٢) ، والجاهلون يسمون الكافر الذى له علم بشىء من الطبيعة حكيماً ، وهو من أسفه الخلق .

ومن هذا قوله للخطيب الذى قال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى « بئس الخطيب أنت » (٣) .

وأما القسم الثانى وهو أن تطلق ألفاظ الذم على من ليس من أهلها ، فمثل نهيه ﷺ عن سب الدهر ، وقال :« إن الله هو الدهر » وفى حديث آخر : « يقول الله عز وجل : يؤذينى ابن آدم فيسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر أقلب الليل والنهار » (٤) . وفى حديث آخر « لا يقولن أحدكم : يا خيبة الدهر » (٥) .

فى هذا ثلاث مفاسد عظيمة .

إحداها : سبه من ليس بأهل أن يسب ، فإن الدهر خلق مسخر من خلق الله ، منقاد لأمره، مذلل لتسخيره ، فسابه أولى بالذم والسب منه .

الثانية : أن سبه متضمن للشرك ، فإنه إنما سبه لظنه أنه يضر وينفع ، وأنه مع ذلك ظالم قد ضر من لا يستحق الضرر ، وأعطى من لا يستحق العطاء ، ورفع من لا يستحق الرفعة ، وحرم من لا يستحق الحرمان ، وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة ، وأشعار هؤلاء الظلمة الخونة فى سبه كثيرة جداً . وكثير من الجهال يصرح بلعنه وتقبيحه .

الثالثة : أن السب منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال التى لو اتبع الحق فيها أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ، وإذا وقعت أهواؤهم ، حمدوا الدهر ، وأثنوا عليه. وفى حقيقة الأمر ، فرب الدهر تعالى هو المعطى المانع ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، والدهر ليس له من الأمر شىء ، فمسبتهم للدهر مسبة لله عز وجل ؛ ولهذا كانت مؤذية للرب تعالى ، كما فى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال :

---

(١) أبو داود (٤٩٧٥) فى الأدب ، باب : لا يقول المملوك : « ربى ، وربتى » .

(٢) أبو داود (٤٢٠٧) فى الترجل ، باب : فى الخضاب .

(٣) مسلم (٨٧٠ / ٤٨) فى الجمعة ، باب : تخفيف الصلاة والخطبة ، وأبو داود (١٠٩٩) فى الصلاة ، باب : الرجل يخطب على قوس .

(٤) البخارى (٧٤٩١) فى التوحيد ، باب : قول الله تعالى : « يريدون أن يبدلوا كلام الله »، ومسلم (٢٢٤٦ / ١) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : النهى عن سب الدهر ، وأبو داود (٥٢٧٤) فى الأدب ، باب : فى الرجل يسب الدهر .

(٥) البخارى (٦١٨١) فى الأدب ، باب : لا تسبوا الدهر ، ومسلم (٢٢٤٦ / ٤) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : النهى عن سب الدهر .

« قال الله تعالى : يؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر » فساب الدهر دائر بين أمرين لابد له من أحدهما . إما سبه لله ، أو الشرك به ، فإنه إذا اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك ، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذى فعل ذلك وهو يسب من فعله ، فقد سب الله .

ومن هذا قوله ﷺ « لا يقولن أحدكم : تعس الشيطان ، فإنه يتعاظم حتى يكون مثل البيت ، فيقول : بقوتى صرعته ، ولكن ليقل : بسم الله ، فإنه يتصاغر حتى يكون مثل الذباب » (١) .

وفى حديث آخر : « إن العبد إذا لعن الشيطان يقول : إنك لتلعن ملعنا »

ومثل هذا قول القائل : أخزى الله الشيطان ، وقبح الله الشيطان ، فإن ذلك كله يفرحه ويقول : علم ابن آدم أنى قد نلته بقوتى ، وذلك مما يعينه على إغوائه ، ولا يفيده شيئًا ، فأرشد النبى ﷺ من مسه شىء من الشيطان أن يذكر الله تعالى ، ويذكر اسمه ، ويستعيذ بالله منه ، فإن ذلك أنفع له ، وأغيظ للشيطان .

من ذلك : نهيه ﷺ أن يقول الرجل : « خبثت نفسى ، ولكن ليقل : لقست نفسى»(٢) ، ومعناهما واحد ، أى : غثت نفسى ، وساء خلقها ، فكره لهم لفظ الخبث لما فيه من القبح والشناعة ، وأرشدهم إلى استعمال الحسن ، وهجران القبيح ، وإبدال اللفظ المكروه بأحسن منه (٣) .

فصل
فى الفراسة

إن لم يكن لك فراسة أهل الإيمان فتدبر قوله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم ﴾ [الفتح: ٢٩] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) ﴾ [الحجر] . قال ابن عباس وغيره : «هم المتفرسون الذين يأخذون بالسيما وهى العلامة » . وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُم ﴾ [محمد : ٣٠] . فهذه ثلاث آيات فى الفراسة .

(١) أبو داود (٤٩٨٢) فى الأدب ، باب : لا يقال : خبثت نفسى .

(٢) البخارى (٦١٧٩) فى الأدب ، باب : لا يقل : « خبثت نفسى » ، ومسلم (٢٢٥٠ / ١٦) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : كراهة قول الإنسان : « خبثت نفسى » .

(٣) زاد المعاد (٢ / ٣٥٢ ـ ٣٥٦) .

واسمع قول المتوسمين من هذه الأمة . قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : «ما أضمر رجل شيئًا إلا أظهره الله على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه » ، ودخل عليه رجل فقال له عثمان :«يدخل أحدكم والزنا فى عينيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أوحى بعد رسول الله ﷺ ؟ قال : لا ، ولكن ما عمل آدمى عملاً إلا ألبسه الله رداءه » أو كما قال .

وقال ابن عباس : « إن للحسنة لنوراً فى القلب ، وضياء فى الوجه ، وقوة فى البدن وزيادة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الخلق ، وإن للسيئة لظلمة فى القلب ، وسوادًا فى الوجه ، وضعفًا فى البدن، ونقصًا فى الرزق ، وبغضة فى قلوب الخلق » . وهذا الأمر يكون كامنًا فى القلب فى الدنيا ، ويفيض على صفحات الوجه ، فيراه من له فراسة صادقة ، فإذا كان يوم القيامة صار هو الظاهر ورآه كل أحد عيانًا ، قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾ [آل عمران : ١٠٦] ، وقال تعالى ﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ**﴾ [الزمر : ٦٠]، وقال تعالى : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)**﴾ [القيامة] ، فالأول : من نضرة النعيم ، وبهجته ، والثانى : من النظر ، وقال تعالى : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)**﴾ [عبس] ، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤)** ﴾ [المطففين] ، وقال تعالى ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧)**﴾ [يونس]، وقال النبى ﷺ :« لا تزال المسألة بأحدهم حتى يجىء يوم القيامة وليس فى وجهه مزعة لحم » (١) ، وقال : « من سأل الناس وله ما يكفيه جاءت مسألته خدوشًا أو كدوحًا فى وجهه يوم القيامة » (٢) ، وقال : « أول زمرة تلج الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم كأشد كوكب فى السماء إضاءة » (٣) .

---

(١) مسلم (١٠٤٠ / ١٠٣) فى الزكاة ، باب : كراهة المسألة الناس ، وأحمد (٢ / ١٥) .

(٢) أبو داود (١٦٢٦) فى الزكاة ، باب : من يعطى من الصدقة ؟ وحد الغنى ، والترمذى (٦٥٠) فى الزكاة ، باب : ما جاء من تحل له الزكاة ، وقال : « حسن » ، والنسائى (٢٥٩٢) فى الزكاة ، باب : حد الغنى ، وأحمد (١ / ٣٨٨) .

(٣) البخارى (٣٣٢٧) فى الأنبياء ، باب : خلق آدم وذريته ، ومسلم (٢٨٣٤ / ١٦) فى الجنة وصفة نعيمها ، باب: أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر .

وأمثال هذا كثير مما فيه وصف وجوه أهل السعادة ، بالحسن والبهاء والجمال والنضرة، ووجوه أهل الشقاوة بالقبح والسواد والوحشة ، وأظهر هذه السمات على الوجوه سمة الصدق والكذب ، فإن الكذاب يكسى وجهه من السواد بحسب كذبه ، والصادق يكسى وجهه من البياض بحسب صدقه ؛ ولهذا روى عن عمر بن الخطاب أنه أمر بتعزير شاهد الزور بأن يسود وجهه ، ويركب مقلوباً على الدابة فإن العقوبة من جنس الذنب ، فلما سود وجهه بالكذب وقلب الحديث سود وجهه وقلب فى ركوبه ، وهذا أمر محسوس لمن له قلب ، فإن ما فى القلب من النور والظلمة والخير والشر يسرى كثيراً إلى الوجه والعين وهما أعظم الأعضاء ارتباطًا بالقلب .

وتأمل قوله تعالى : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [محمد : ٣٠] ، فهذا التعريف داخل تحت المشيئة معلق بها ، ثم قال ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد : ٣٠] فهذا قسم محقق لا شرط فيه ، وذلك أن ظهور ما فى قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره على وجهه ، لكنه يبدو فى الوجه بدوًا خفيًا يراه الله ، ثم يقوى حتى يصير صفة فى الوجه يراها أصحاب الفراسة ، ثم يقوى حتى يظهر لجمهور الناس ، ثم يقوى حتى يمسخ الوجه على طبيعة الحيوان الذى هو على خلقه من قرد أو خنزير كما جرى على كثير من الأمم قبلنا ، ويجرى على بعض هذه الأمة، كما وعد به الصادق الذى لا ينطق عن الهوى (١) .

فصل
فى محاسن الفراسة

ومن محاسن الفراسة : أن الرشيد رأى فى دار حزمة خيزران . فقال لوزيره الفضل ابن الربيع : ما هذه ؟ قال : عروق الرماح يا أمير المؤمنين . ولم يقل : الخيزران ؛ لموافقة اسم أمه .

ونظير هذا: أن بعض الخلفاء سأل ولده ـ وفى يده مسواك ـ ما جمع هذا ؟ قال : ضد محاسنك يا أمير المؤمنين . وهذا من الفراسة فى تحسين اللفظ . وهو باب عظيم النفع، اعتنى به الأكابر والعلماء ، وله شواهد كثيرة فى السنة ، وهو من خاصية العقل والفطنة .

فقد روينا عن عمر ﷺ : أنه خرج يعس المدينة بالليل ، فرأى ناراً موقدة فى

(١) الكلام على مسألة السماع (٣٦٩ ـ ٣٧٣) .

خباء،فوقف وقال : « يا أهل الضوء » وكره أن يقول : يا أهل النار .

وسأل رجلا عن شيء « هل كان ؟ » قال : لا ، أطال الله بقاءك ، فقال : « قد علمتم فلم تتعلموا ، هلا قلت : لا ، وأطال الله بقاءك » .

وسئل العباس : أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ فقال : هو أكبر منى ، وأنا ولدت قبله.

وسئل عن ذلك قباث بن أشيم ؟ فقال : رسول الله ﷺ أكبر منى، وأنا أسن منه .

وكان لبعض القضاة جليس أعمى ، فكان إذا أراد أن ينهض يقول : يا غلام ، اذهب مع أبى محمد . ولا يقول : خذ بيده . قال : والله ما أخل بها مرة واحدة .

ومن ألطف ما يحكى فى ذلك : أن بعض الخلفاء سأل رجلا عن اسمه ؟ فقال : سعد يا أمير المؤمنين ، فقال : أى السعود أنت ، قال : سعد السعود لك يا أمير المؤمنين ، وسعد الذابح لأعدائك ، وسعد بلع على سماطك ، وسعد الأخبية لسرك فأعجبه ذلك .

ويشبه هذا : أن معن بن زائدة دخل على المنصور ، فقارب فى خطوه . فقال له المنصور : كبرت سنك يا معن .قال : فى طاعتك يا أمير المؤمنين . قال : إنك لجلد . قال: على أعدائك . قال : وإن فيك لبقية . قال : وهى لك .

وأصل هذا الباب قوله تعالى : ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الإسراء : ٥٣] إذا كلم بعضهم بعضا بغير التى هى أحسن فرب حرب وقودها جثث وهام أهاجها قبيح الكلام .

وفى الصحيحين من حديث سهل بن حنيف قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يقولن أحدكم : خبثت نفسى . ولكن ليقل :لقست نفسى » (١) . وخبثت ولقست وعثت متقاربة فى المعنى . فكره رسول الله ﷺ لفظ « الخبث » لبشاعته ، وأرشدهم إلى العدول إلى لفظ هو أحسن منه وإن كان بمعناه ، تعليما للأدب فى المنطق وإرشادا إلى استعمال الحسن وهجر القبيح فى الأقوال ، كما أرشدهم إلى ذلك فى الأخلاق والأفعال (٢).

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٦٧ .

(٢) الطرق الحكمية (٤٢ ـ ٤٤) .

فصل

فى غسل اليدين عند الطعام

عن عبد الله بن عباس : أن رسول الله ﷺ خرج من الخلاء فقدم إليه طعام ، فقالوا: ألا نأتيك بوضوء ؟ فقال : « إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة » .

وأخرجه الترمذى والنسائى، وقال الترمذى : حديث حسن (١).

فصل

فى غسل اليد قبل الطعام

عن سلمان ، قال : قرأت فى التوراة : أن بركة الطعام الوضوء قبله ، فذكرت ذلك للنبى ﷺ ، فقال : « بركة الطعام : الوضوء قبله ، والوضوء بعده » . قال أبو داود : وهو ضعيف(٢) .

وأخرجه الترمذى ، وقال : لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث قيس بن الربيع .

وقيس بن الربيع : يضعف فى الحديث (٣) .

فى هذه المسألة قولان لأهل العلم :

أحدهما : يستحب غسل اليدين قبل الطعام .

والثانى : لا يستحب . وهما فى مذهب أحمد وغيره ، والصحيح : أنه لا يستحب .

وقال النسائى فى كتابه الكبير : باب ترك غسل اليدين قبل الطعام ، ثم ذكر من حديث ابن جريج عن سعيد بن الحويرث عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ تبرز ثم خرج ، فطعم ولم يمس ماء (٤) . وإسناده صحيح .

---

(١) أبو داود (٣٧٦٠) فى الأطعمة ، باب : فى غسل اليدين عند الطعام ، والترمذى (١٨٤٧) فى الأطعمة ، باب: فى ترك الوضوء قبل الطعام ، وقال ، « حسن صحيح » ، والنسائى (١٣٢) فى الطهارة ، باب : الوضوء لكل صلاة .

(٢) أبو داود (٣٧٦١) فى الأطعمة ، باب : فى غسل اليد قبل الطعام ، وضعفه الألبانى .

(٣) الترمذى (١٨٤٦) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى الوضوء قبل الطعام وبعده .

(٤) النسائى فى الكبرى (٦٧٣٦) فى آداب الأكل .

ثم قال : باب غسل الجنب يده إذا طعم ، وساق من حديث الزهرى عن أبى سلمة عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن ينام وهو جنب توضأ وضوءه للصلاة ، وإذا أراد أن يأكل غسل يديه (١) .

وهذا التبويب والتفصيل فى المسألة هو الصواب .

وقال الخلال فى الجامع : عن مهنا قال : سألت أحمد عن حديث قيس بن الربيع عن أبى هاشم عن زاذان ، عن سلمان ، عن النبى ﷺ : « بركة الطعام الوضوء قبله وبعده »؟ فقال لى أبو عبد الله : هو منكر . فقلت : ما حدث بهذا إلا قيس بن الربيع ؟قال : لا . وسألت يحيى بن معين ـ وذكرت له حديث قيس بن الربيع عن أبى هاشم عن زاذان عن سلمان ـ الحديث ، فقال لى يحيى معين : ما أحسن الوضوء قبل الطعام وبعده ، قلت له: بلغنى عن سفيان الثورى : أنه كان يكره الوضوء قبل الطعام .

وقال مهنا : سألت أحمد ، قلت : بلغنى عن يحيى بن سعيد أنه قال : كان سفيان يكره غسل اليد عند الطعام ، قلت : لم كره سفيان ذلك ؟ قال : لأنه من زى العجم ، وضعف أحمد حديث قيس بن الربيع .

قال الخلال : وأخبرنا أبو بكر المروذى قال : رأيت أبا عبد الله يغسل يديه قبل الطعام وبعده وإن كان على وضوء (٢) .

فصل
فى التسمية عند الأكل

الصحيح وجوب التسمية عند الأكل ، وهو أحد الوجهين لأصحاب أحمد وأحاديث الأمر بها صحيحة صريحة (٣) ولا معارض لها ، ولا إجماع يسوغ مخالفتها ويخرجها عن ظاهرها ، وتاركها شريكه الشيطان فى طعامه وشرابه (٤) .

---

(١) النسائى فى الكبرى (٢٥٥) فى الطهارة .

(٢) تهذيب السنن (٥ / ٢٩٧ ، ٢٩٨) .

(٣) البخارى (٥٣٧٦) فى الأطعمة ، باب : التسمية على الطعام ، والأكل باليمين ، ومسلم (٢٠٢٢ / ١٠٨) فى الأشربة ، باب : آداب الطعام والشراب وأحكامها .

(٤) زاد المعاد (٢ / ٣٩٧ ، ٣٩٨) .

فصل
هل تزول مشاركة الشيطان فى طعام الجماعة بتسمية أحدهم ؟

هاهنا مسألة تدعو الحاجة إليها وهى أن الآكلين إذا كانوا جماعة فسمَّى أحدهم ، هل تزول مشاركة الشيطان لهم فى طعامهم بتسميته وحده أم لا تزول إلا بتسمية الجميع ، فنص الشافعى على إجزاء تسمية الواحد عن الباقين وجعله أصحابه كرد السلام وتشميت العاطس، وقد يقال : لا ترفع مشاركة الشيطان للآكل إلا بتسميته هو ، ولا يكفيه تسمية غيره؛ولهذا جاء فى حديث حذيفة : إنا حضرنا مع رسول الله ﷺ طعامًا ، فجاءت جارية كأنما تدفع فذهبت لتضع يدها فى الطعام ، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها ، ثم جاء أعرابى كأنما يدفع فأخذ بيده ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان ليستحل الطعام ألا يذكر اسم الله عليه ، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها فأخذت بيدها ، فجاء بهذا الأعرابى ليستحل به فأخذت بيده ، والذى نفسى بيده ، إن يده لفى يدى مع يديهما » ثم ذكر اسم الله وأكل(١). ولو كانت تسمية الواحد تكفى لما وضع الشيطان يده فى ذلك الطعام .

ولكن قد يجاب بأن النبى ﷺ لم يكن قد وضع يده وسمى بعد ، ولكن الجارية ابتدأت بالوضع بغير تسمية ، وكذلك الأعرابى فشاركهما الشيطان ، فمن أين لكم أن الشيطان شارك من لم يسمِ بعد تسمية غيره ، فهذا مما لا يمكن أن يقال ، لكن قد روى الترمذى وصححه من حديث عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يأكل طعامًا فى ستة من أصحابه ، فجاء أعرابى فأكله بلقمتين ، فقال رسول الله ﷺ: « أما إنه لو سمى لكفاكم»(٢) . ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ وأولئك الستة سموا ، فلما جاء هذا الأعرابى فأكل ولم يسمِ شاركه الشيطان من أكله ، فأكل الطعام بلقمتين ، ولو سمى لكفى الجميع .

وأما مسألة رد السلام وتشميت العاطس ففيها نظر ، وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا عطس أحدكم فحمد الله فحق على كل من سمعه أن يشمته » (٣) وإن سلم الحكم

---

(١) مسلم (٢٠١٧ / ١٠٢) فى الأشربة ، باب : آداب الطعام والشراب وأحكامهما ، وأبو داود (٣٧٦٦) فى الأطعمة ، باب : التسمية على الطعام .

(٢) الترمذى (١٨٥٨) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى التسمية على الطعام .

(٣) البخارى (٦٢٢٣) فى الأداب ، باب : ما يستحب من العطاس ، وما يكره من التثاؤب .

فيهما ، فالفرق بينهما وبين مسألة الأكل ظاهر ، فإن الشيطان إنما يتوصل إلى مشاركة الآكل فى أكله إذا لم يسم ، فإذا سمى غيره لم تجز تسمية من سمى عمن لم يسم من مقارنة الشيطان له فيأكل معه ، بل تقل مشاركة الشيطان بتسمية بعضهم ، وتبقى الشركة بين من لم يسم وبينه ، والله أعلم .

ويذكر عن جابر عن النبى ﷺ « من نسى أن يسمى على طعامه فليقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص] إذا فرغ » (١) وفى ثبوت هذا الحديث نظر (٢) .

فصل

فى هديه ﷺ فى الطعام

وكان ﷺ إذا دخل على أهله ربما يسألهم : « هل عندكم طعام ؟ » وما عاب طعامًا قط، بل كان إذا اشتهاه أكله ، وإن كرهه تركه وسكت (٣) ، وربما قال : « أجدنى أعافه، إنى لا أشتهيه » (٤) .

وكان يمدح الطعام أحيانًا ، كقوله لما سأل أهله الإوام ، فقالوا : ما عندنا إلا خل ، فدعا به فجعل يأكل منه ويقول « نعم الأدم الخل » (٥) ، وليس فى هذا تفضيل له على اللبن واللحم والعسل والمرق وإنما هو مدح له فى تلك الحال التى حضر فيها ولو حضر لحم أو لبن ، كان أولى بالمدح منه ، وقال هذا جبراً وتطييبًا لقلب من قدمه ، لا تفضيلاً له على سائر أنواع الإدام .

وكان إذا قرب إليه طعام وهو صائم قال : « إنى صائم » (٦) ، وأمر من قرب إليه الطعام وهو صائم أن يصلى أى يدعو لمن قدمه وإن كان مفطراً أن يأكل منه (٧) .

---

(١) حلية الأولياء (١٠ / ١١٤) وقال : « لا أعلم أحداً رواه عن أبى الزبير إلا حمزة » ، والموضوعات (٣ / ٣٤) .

(٢) زاد المعاد (٢ / ٣٩٨ ـ ٤٠٠) .

(٣) البخارى (٥٤٠٩) فى الأطعمة، باب:ما عاب النبى ﷺ طعامًا ، ومسلم (٢٠٦٤ / ١٨٧) فى الأشربة ، باب : لا يعيب الطعام .

(٤) البخارى (٥٤٠٠) فى الأطعمة ،باب:الشواء ،ومسلم (١٩٤٦/ ٤٤) فى الصيد والذبائح ،باب: إباحة الضب.

(٥) مسلم (٢٠٥٢ / ١٦٦) فى الأشربة ، باب : فضيلة الخل والتأدم به ، وأبو داود (٣٨٢٠) فى الأطعمة ، باب: فى الخل .

(٦) البخارى (١٩٨٢) فى الصوم ، باب : من زار قوما فلم يفطر عندهم .

(٧) مسلم (١٤٣١ /١٠٦) فى النكاح ، باب : الأمر بإجابة الداعى إلى دعوة ، وأبو داود (٢٤٦٠) فى الصوم ، باب : فى الصائم يدعى إلى وليمة .

وكان إذا دعى لطعام وتبعه أحد أعلم به رب المنزل ، وقال : « إن هذا تبعنا ، فإن شئت أن تأذن له وإن شئت رجع » (١) .

وكان يتحدث على طعامه ، وكما قال لربيبه عمر بن أبى سلمة وهو يؤاكله : « سم الله ، وكل مما يليك » (٢) .

وربما كان يكرر على أضيافه عرض الأكل عليهم مراراً كما يفعله أهل الكرم ، كما فى حديث أبى هريرة عند البخارى فى قصة شرب اللبن ،وقوله له مراراً : « اشرب » فما زال يقول : « اشرب » حتى قال : والذى بعثك بالحق لا أجد له مسلكاً (٣) .

وكان إذا أكل عند قوم لم يخرج حتى يدعو لهم ، فدعا فى منزل عبد الله بن بسر فقال : « اللهم بارك لهم فيما رزقتهم ، واغفر لهم وارحمهم » ذكره مسلم (٤) .

ودعا فى منزل سعد بن عبادة فقال : « أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة » (٥) .

وذكر أبو داود عنه ﷺ أنه لما دعاه أبو الهيثم بن التيهان هو وأصحابه فأكلوا ، فلما فرغوا قال : « أثيبوا أخاكم » قالوا : يا رسول الله ، وما إثابته ؟ قال : « إن الرجل إذا دخل بيته فأكل طعامه وشرب شرابه فدعوا له فذلك إثابته » (٦) .

وصح عنه ﷺ أنه دخل منزله ليلة فالتمس طعامًا فلم يجده ، فقال : « اللهم أطعم من أطعمنى ، واسق من سقانى » (٧) .

وذكر عنه أن عمر بن الحمق سقاه لبناً ، فقال : « اللهم أمتعه بشبابه » (٨) .

فمرت عليه ثمانون سنة لم ير شعرة بيضاء .

وكان يدعو لمن يضيف المساكين ويثنى عليهم ، فقال مرة : « ألا رجل يضيف هذا

(١) البخارى (٥٤٦١) فى الأطعمة ، باب : الرجل يدعى إلى طعام فيقول : وهذا معى » .
(٢) سبق تخريجه ص ١٧٢ .
(٣) البخارى (٦٤٥٢) فى الرقاق ، باب : كيف كان عيش النبى ﷺ وأصحابه .
(٤) مسلم (٢٠٤٢ / ١٤٦) فى الأشربة ، باب : استحباب وضع النوى خارج التمر .
(٥) أبو داود (٣٨٥٤) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى الدعاء لرب الطعام إذا أكل عنده .
(٦) أبو داود (٣٨٥٢) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى الدعاء لرب الطعام إذا أكل عنده ، وضعفه الألبانى .
(٧) مسلم (٢٠٥٥ / ١٧٤) فى الأشربة ، باب : إكرام الضيف وفضل إيثاره .
(٨) ابن أبى شيبة فى مصنفه ١١ / ٤٩٤ (١١٨٠٨) فى الفضائل .

رحمه الله » (١) ، وقال للأنصارى وامرأته اللذين آثرا بقوتهما وقوت صبيانهما ضيفهما: «لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة » (٢).

وكان لا يأنف من مؤاكلة أحد ، صغيراً كان أو كبيراً ، حراً أو عبداً ، أعرابياً أو مهاجراً ، حتى لقد روى أصحاب السنن عنه أنه أخذ بيد مجذوم فوضعها معه فى القصعة فقال : « كل بسم الله ، ثقة بالله ، وتوكلاً عليه » (٣).

وكان يأمر بالأكل باليمين وينهى عن الأكل بالشمال ويقول : « إن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » (٤) . ومقتضى هذا تحريم الأكل بها وهو الصحيح ؛ فإن الآكل بها إما شيطان وإما شبه به .

وصح عنه أنه قال لرجل أكل عنده فأكل بشماله : « كل بيمينك » فقال : لا أستطيع، فقال : « لا استطعت » فما رفع يده إلى فيه بعدها(٥) .فلو كان ذلك جائزاً لما دعا عليه بفعله ، وإن كان كبره حمله على ترك امتثال الأمر ، فذلك أبلغ فى العصيان واستحقاق الدعاء عليه .

وأمر من شكوا إليه أنهم لا يشبعون : أن يجتمعوا على طعامهم ولا يتفرقوا ، وأن يذكروا اسم الله عليه يبارك لهم فيه (٦) .

وصح عنه أنه قال : « إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكله يحمده عليها ، ويشرب الشربة يحمده عليها » (٧) (٨) .

---

(١) مسلم (٢٠٥٤ / ١٧٣ م) فى الأشربة ، باب : إكرام الضيف وفضل إيثاره .

(٢) البخارى (٤٨٨٩) فى التفسير ، باب : ويؤثرون على أنفسهم » ، ومسلم (٢٠٥٤ / ١٧٢) فى الأشربة ، باب: إكرام الضيف وفضل إيثاره .

(٣) أبو داود (٣٩٢٥) فى الطب ، باب : فى الطيرة ، والترمذى (١٨١٧) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى الأكل مع المجذوم ، وقال : « غريب » ، وابن ماجه (٣٥٤٢) فى الطب ، باب : الجذام .

(٤) مسلم (٢٠٢٠ / ١٠٥) فى الأشربة ، باب : آداب الطعام والشراب وأحكامهما ، وأبو داود (٣٧٧٦) فى الأطعمة ، باب : الأكل باليمين ، والترمذى (١٧٩٩) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى النهى عن الأكل والشرب بالشمال ، وأحمد (٢ / ٨) .

(٥) مسلم (٢٠٢١ / ١٠٧) فى الأشربة ، باب : آداب الطعام والشراب وأحكامهما ، وأحمد (٤ / ٤٦) .

(٦) أبو داود (٣٧٦٤) فى الأطعمة ، باب :فى الاجتماع على الطعام ، وابن ماجه (٣٢٨٦) فى الأطعمة ، باب : الاجتماع على الطعام ، وأحمد (٣ / ٥٠١) .

(٧) مسلم (٢٧٣٤ / ٨٩) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب ، والترمذى (١٨١٦) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى الحمد على الطعام إذا فرغ منه .

(٨) زاد المعاد (٢ / ٤٠٢ ـ ٤٠٦) .

فائدة
فى الكلام على الطعام

قال إسحاق بن هانئ : تعشيت مرة أنا وأبو عبد الله وقرابة لنا ، فجعلنا نتكلم وهو يأكل ، وجعل يمسح عند كل لقمة يده بالمنديل ، وجعل يقول عند كل لقمة : الحمد لله وبسم الله . ثم قال لى : أكل وحمد ، خير من أكل وصمت (١) .

فصل
فى استماع المادحين

ومنها (٢):

استماع النبى ﷺ مدح المادحين له ، وترك الإنكار عليهم ، ولا يصحُّ قياس غيره عليه فى هذا ؛ لما بين المادحين والممدوحين من الفروق ، وقد قال : « احثوا فى وجوه المداحين التراب » (٣) (٤) .

فائدة

سأل تلميذ أستاذه أن يمدحه فى رقعة إلى رجل ويبالغ فى مدحه بما هو فوق رتبته ، فقال : لو فعلت ذلك لكنت عند المكتوب إليه إما مقصرا فى الفهم ، حيث أعطيتك فوق حقك . أو متهما فى الإخبار فأكون كذابا ، وكلا الأمرين يضرك لأنى شاهدك ، وإذا قدح فى الشاهد بطل حق المشهود له (٥) .

---

(١) بدائع الفوائد (٤ / ١١٩) .

(٢) أى : مما يستفاد من غزوة تبوك .

(٣) مسلم (٣٠٠٢ / ٦٨ ، ٦٩) فى الزهد والرقائق ، باب : النهى عن المدح إذا كان فيه إفراط ، وأبو داود (٤٨٠٤) فى الأدب ، باب : فى كراهية التمادح ، والترمذى (٢٣٩٣) فى الزهد ، باب ما جاء فى كراهية المدحة والمداحين ، وابن ماجه (٣٧٤٢) فى الأدب ، باب : المدح ، وأحمد (٦ / ٥) .

(٤) زاد المعاد (٣ / ٥٧٣) .

(٥) بدائع الفوائد (٣ / ١٧٨) .

فصل
فى تحيّل المظلوم على مسبَّة الناس لظالمه لردعه

لا بأس للمظلوم أن يتحيل على مسبَّة الناس لظالمه والدعاء عليه ، والأخذ من عرضه، وإن لم يفعل ذلك بنفسه ، إذ لعل ذلك يردعه ويمنعه من الإقامة على ظلمه ، وهذا كما لو أخذ ماله ، فلبس أرث الثياب بعد أحسنها ، وأظهر البكاء والنحيب والتأوه .

أو آذاه فى جواره ، فخرج من داره ، وطرح متاعه على الطريق .

أو أخذ دابته ، فطرح حمله على الطريق ، وجلس يبكى ، ونحو ذلك ، فكل هذا مما يدعو الناس إلى لعن الظالم له ، وسبه والدعاء عليه ، وقد أرشد النبى ﷺ المظلوم بأذى جاره له إلى نحو ذلك .

ففى السنن ، ومسند الإمام أحمد من حديث أبى هريرة : أن رجلا شكا إلى النبى ﷺ من جاره ، فقال : « اذهب فاصبر » ، فأتاه مرتين ، أو ثلاثًا ، فقال : « اذهب ، فاطرح متاعك فى الطريق » ، فطرح متاعه فى الطريق ، فجعل الناس يسألونه ، فيخبرهم خبره ، فجعل الناس يلعنونه : فعل الله به وفعل ، فجاء إليه جاره ، فقال له : « ارجع لا ترى منى شيئًا تكرهه » : هذا لفظ أبى داود (١) (٢) .

فصل
فى بر الوالدين

عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ، من أبَرُّ؟قال : « أُمَّك، ثم أُمَّك ، ثم أُمك ، ثم أباك ، ثم الأقرب فالأقرب » (٣) . وقال رسول ﷺ : لا يسألُ رجل مولاه من فضل هو عنده ، فيمنعه إيَّاه ، إلا دُعى له يوم القيامة فضلُه الذى منعه شُجَاعُ أقرع » . وأخرجه الترمذى ، وقال : حسن (٤) .

---

(١) أبو داود (٥٣ / ٥) فى الأدب ، باب : فى حق الجوار ، ولم يعزه صاحب التحفة إلا لأبى داود (١٠ / ٢٥١).

(٢) إعلام الموقعين (٤ / ٢١ ـ ٢٢) .

(٣) أبو داود (٥١٣٩) فى الأدب ، باب : فى بر الوالدين .

(٤) الترمذى (١٨٩٧) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى بر الوالدين .

قال الإمام أحمد : للأم ثلاثة أرباع البر ، وقال أيضًا : « الطاعة للأب ، والبر للأم»، واحتج بحديث ابن عمر : « أطع أباك » لما أمره عمر بن الخطاب رضي الله عنه بطلاق زوجته (١).

وقد روى ابن ماجه فى سننه من حديث القاسم بن محمد عن أبى أمامة : أن رجلا قال يا رسول الله ، ماحق الوالدين على ولدهما ؟قال : « هما جنتك ونارك » (٢) .

وأخرج أيضا عن أبى الدرداء سمع النبى ﷺ يقول : « الوالد أوسط أبواب الجنة فأضِعْ ذلك الباب ، أو احفظه » (٣) (٤) .

وأيضًا

وسأله ﷺ رجل : من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : « أمك » ، قال ثم من ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « أمك » ، وقال : ثم من ؟ قال : « أبوك » . متفق عليه (٥) . زاد مسلم : « ثم أدناك فأدناك » .

قال الإمام أحمد : للأم ثلاثة أرباع البر ، وقال أيضا : الطاعة للأب ، وللأم ثلاثة أرباع البر ،وعند الإمام أحمد قال : « ثم الأقرب فالأقرب » (٦) . وعند أبى داود أن رجلا سأل النبى ﷺ : من أبرُّ ؟ قال : « أمك ، وأباك ، وأختك ، وأخاك ، ومولاك الذى يلى ذاك، حق واجب ورحم موصولة » (٧) (٨).

---

(١) أحمد (٢ / ٢٠) ، وصححه الشيخ شاكر (٤٧١١) .

(٢) ابن ماجه (٣٦٦٢) فى الأدب ، باب : بر الوالدين ، وفى الزوائد : « قال ابن معين : على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة ، هى ضعيفة كلها » .

(٣) ابن ماجه (٣٦٦٣) فى الأدب ، باب : بر الوالدين .

(٤) تهذيب السنن (٨ / ٣٦) .

(٥) البخارى (٥٩٧١) فى الأدب ، باب : من أحق الناس بحسن الصحبة ، ومسلم (٢٥٤٨ / ١ ، ٢) فى البر والصلة والآداب ، باب : بر الوالدين ، وأنهما أحق به .

(٦) أحمد (٥ / ٣) .

(٧) أبو داود (٥١٤٠) فى الأدب ، باب : فى بر الوالدين ، وضعفه الألبانى .

(٨) إعلام الموقعين (٤ / ٤٤٦) .

وأيضا

سأله ﷺ رجل عن الهجرة والجهاد معه ، فقال : « ألك والدان ؟ » قال : نعم ، قال : « فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما » . ذكره مسلم (١).

وسأله ﷺ آخر عن ذلك ، فقال : « ويحك أحية أمك » ؟ قال : نعم ، قال : «ويحك ! إلزم رجلها فثم الجنة » . ذكره ابن ماجه (٢).

وسأله ﷺ رجل من الأنصار : هل بقى علـى من بر أبوى شىء بعد موتهما ؟ قال : « نعم ، خصال أربع ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من قبلهما ، فهو الذى بقى عليك من برهما بعد موتهما » . ذكره أحمد (٣) .

وسئل ﷺ :ما حق الوالدين على الولد ؟ فقال : «هما جنتك ونارك ». ذكره ابن ماجة (٤) (٥) .

فصل
فى بيان كيف يلعن الرجل والديه

عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه » ، قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه ، فيسب أمه » متفق عليه (٦) .

ولفظ البخارى :« إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه »، قيل : يا رسول الله كيف يلعن الرجل والديه؟ قال:« يسب أبا الرجل،فيسب أباه،ويسب أمه،فيسب أمه » .

فجعل رسول الله ﷺ الرجل سابًا لاعنا لأبويه بتسببه إلى ذلك ، وتوسله إليه وإن لم يقصده (٧) .

---

(١) مسلم (٢٥٤٩ / ٦ م) فى البر والصلة والآداب ، باب : بر الوالدين وأنهما أحق به .
(٢) ابن ماجه (٢٧٨١) فى الجهاد ، باب : الرجل يغزو وله أبوان .
(٣) أحمد (٣ / ٤٩٨) .
(٤) سبق تخريجه ص ١٧٩ .
(٥) إعلام الموقعين (٤ / ٥٠٩ ، ٥١٠) .
(٦) البخارى (٥٩٧٣) فى الأدب ، باب : لا يسب الرجل والديه ، ومسلم (٩٠ / ١٤٦) فى الإيمان ، باب : بيان الكبائر وأكبرها .
(٧) إعلام الموقعين (٣ / ١٧٩) .

فصل
فى حق الضيف

إن للضيف حقًا على من نزل به ، وهو ثلاث مراتب : حق واجب ، وتمام مستحب، وصدقة من الصدقات ، فالحق الواجب يوم وليلة ، وقد ذكر النبى ﷺ المراتب الثلاثة فى الحديث المتفق على صحته من حديث أبى شريح الخزاعى ، أن رسول الله ﷺ قال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه جائزته » ، قالوا : وما جائزته يا رسول الله؟ قال : « يومه وليلته ، والضيافة ثلاثة أيام ، فما كان وراء ذلك ، فهو صدقة ، ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يحرجه » (١) (٢) .

وأيضا

سأله ﷺ عقبة بن عامر فقال: إنك تبعثنا ، فننزل بقوم لا يقروننا ، فما ترى ؟ قال : « إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغى للضيف فاقبلوا ، فإن لم يفعلوا ، فخذوا منهم حق الضيف الذى ينبغى لهم » . ذكره البخارى (٣) .وعند الترمذى : إنا نمر بقوم فلا يضيفوننا، ولا يؤدون ما لنا عليهم من الحق ، ولا نحن نأخذ منهم ، فقال : « إن أبوا إلا أن تأخذوا قرى فخذوه » (٤) . وعند أبى داود : « ليلة الضيف حق على كل مسلم ، فإن أصبح بفنائه محرومًا كان دينًا عليه ،إن شاء اقتضاه ، وإن شاء تركه » (٥) . وعنده أيضًا : « من نزل بقوم فعليهم أن يقروه ، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه » (٦) .

وهو دليل على وجوب الضيافة ، وعلى أخذ الإنسان نظير حقه ممن هو عليه إذا أبى

---

(١) البخارى (٦١٣٥) فى الأدب ، باب : حق الضيف ، ومسلم (٤٨ / ١٤ ، ١٥) فى اللقطة ، باب : الضيافة ونحوها .

(٢) زاد المعاد (٣ / ٦٥٨) .

(٣) البخارى (٦١٣٧) فى الأدب ، باب : حق الضيف .

(٤) الترمذى (١٥٨٩) فى السير ، باب : ما يحل من أموال أهل الذمة ، وقال « حسن » .

(٥) أبو داود (٣٧٥٠) فى الأطعمة ، باب : ما جاء فى الضيافة .

(٦) أبو داود (٣٨٠٤) فى الأطعمة باب : النهى عن أكل السباع .

دفعه ، وقد استدل به فى مسألة الظفر ، ولا دليل فيه ؛ لظهور سبب الحق ههنا ، فلا يتهم الآخذ .

وسأله ﷺ عوف بن مالك فقال : الرجل أمر به فلا يقرينى ولا يضيفنى ، ثم يمر بى أفأجزيه ؟ قال : « لا ، بل اقره » ، قال : ورآنى - يعنى النبى ﷺ - رث الثياب ، فقال : « هل لك من مال ؟ » قال : قلت : من كل المال قد أعطانى الله ، من الإبل والغنم ، قال : « فلير عليك » ذكره الترمذى (١).

وسئل ﷺ عن جائزة الضيف ، فقال : « يومه وليلته ، والضيافة ثلاثة أيام ، فما كان وراء ذلك فهو صدقة ، ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يحرجه . متفق عليه(٢) .

فصل
فى خطورة المسألة

وسمعته (٣) يقول : السؤال : هو ظلم فى حق الربوبية ، وظلم فى حق الخلق ، وظلم فى حق النفس .

أما فى حق الربوبية : فلما فيه من الذل لغير الله ، وإراقة ماء الوجه لغير خالقه ، والتعوض عن سؤاله بسؤال المخلوقين ، والتعرض لمقته إذا سأل وعنده ما يكفيه يومه .

وأما فى حق الناس : فبمنازعتهم ما فى أيديهم بالسؤال ، واستخراجه منهم ، وأبغض ما إليهم : من يسألهم ما فى أيديهم ، وأحب ما إليهم : من لا يسألهم ، فإن أموالهم محبوباتهم ، ومن سألك محبوبك فقد تعرض لمقتك وبغضك .

وأما ظلمه السائل نفسه : فحيث امتهنها وأقامها فى مقام ذل السؤال ، ورضى لها بذل الطلب ممن هو مثله ، أو لعل السائل خير منه وأعلى قدرًا ، وترك سؤال من ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، فقد أقام السائل نفسه مقام الذل وأهانها بذلك ، ورضى أن يكون شحاذاً من شحاذ مثله ، فإن من تشحذه فهو أيضًا شحاذ مثلك ، والله وحده هو الغنى الحميد .

فسؤال المخلوق للمخلوق سؤال الفقير للفقير،والرب تعالى كلما سألته كرمت عليه

---

(١) الترمذى (٢٠٠٦) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى الإحسان والعفو ، وقال : « حسن صحيح » .
(٢) إعلام الموقعين (٤ / ٤٧٥ ، ٤٧٦) .
(٣) أى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

ورضى عنك وأحبك. والمخلوق كلما سألته هنت عليه وأبغضك ومقتك وقلاك، كما قيل :

الله يغضب إن تركت سؤاله وبنى آدم حين يسأل يغضب

وقبيح بالعبد المريد : أن يتعرض لسؤال العبيد ، وهو يجد عند مولاه كل ما يريد . وفى صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعى ﷺ قال : كنا عند رسول الله ﷺ تسعة ـ أو ثمانية أو سبعة ـ فقال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ » وكنا حديثى عهد ببيعة . فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله . ثم قال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ » فبسطنا أيدينا وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام نبايعك ؟ فقال : « أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، والصلوات الخمس ـ وأسر كلمة خفية ـ ولا تسألوا الناس شيئًا » (١) . قال : ولقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله إياه . وفى الصحيحين عن ابن عمر ﷺ عن النبى ﷺ قال : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم » (٢) .

وفيهما أيضًا عنه : أن رسول الله ﷺ قال ـ وهو على المنبر ـ وذكر الصدقة والتعفف عن المسألة : « واليد العليا خير من اليد السفلى »(٣) واليد العليا : هى المنفقة ، والسفلى: هى السائلة .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : « من سأل الناس تكثراً فإنما يسأل جمراً ، فليستقل أو ليستكثر » (٤) .

وفى الترمذى عن سمرة بن جندب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المسألة كَدٌّ يكدُّ بِها الرجل وجهه ، إلا أن يسأل الرجل سلطانا ، أو فى الأمر الذى لابد منه » . قال الترمذى : حديث صحيح (٥) .

وفيه عن ابن مسعود ﷺ مرفوعًا : « من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن أنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل » (٦) .

---

(١) مسلم (١٠٤٣ / ١٠٨) فى الزكاة ، باب : كراهة المسألة للناس .

(٢) البخارى (١٤٧٤) فى الزكاة ، باب : من سأل الناس تكثرا ، ومسلم (١٠٤٠ / ٣) فى الزكاة ، باب : كراهة المسألة للناس .

(٣) البخارى (١٤٢٩) فى الزكاة ، باب : لا صدقة إلا عن ظهر غنى ، ولم يعزه صاحب التحفة (٦ / ٧٦) إلا للبخارى .

(٤) مسلم (١٠٤١ / ١٠٥) فى الزكاة ، باب : كراهة المسألة للناس .

(٥) الترمذى (٦٨١) فى الزكاة ، باب : فى النهى عن المسألة .

(٦) الترمذى (٢٣٢٦) فى الزهد ، باب : ما جاء فى الهم فى الدنيا وحبها ، وقال : « حسن صحيح غريب » .

وفى السنن والمسند عن ثوبان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من تكفل لى ألا يسأل الناس شيئًا أتكفل له بالجنة ؟ » فقلت : أنا ، فكان لا يسأل أحدًا شيئًا (١) .

وفى صحيح مسلم عن قبيصة ﷺ عن النبى ﷺ : « إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة ، فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك . ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله ، فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش أو قال : سداداً من عيش ـ ورجل أصابته فاقة ، حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجى من قومه : لقد أصابت فلانًا فاقة ، فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش ـ أو قال سداداً من عيش ـ فما سواهن من المسألة يا قبيصة فسحت ، يأكلها صاحبها سحتًا » (٢) (٣).

فصل
فيما جاء فى المزاح

عن أنس بن مالك ﷺ : أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، احملنى ، قال النبى ﷺ:« إنا حاملُوك على ولد ناقة » . قال ما أصنعُ بولد الناقة ؟ فقال النبى ﷺ : «وهل تلدُ الإبل إلا النوُّقُ ؟ » .وأخرجه الترمذى وقال : صحيح غريب (٤) .

وفى الصحيحين عن أنس : كان رسول الله ﷺ يخالطنا حتى يقول لأخ لى صغير : «يا أبا عمير ما فعل النغير » (٥) .

وقد أخرج الترمذى من حديث أسامة بن زيد عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال : قالوا : يا رسول الله : إنك تداعبنا ، قال : « إنى لا أقول إلا حقًا » . قال الترمذى : حديث حسن (٦) (٧) .

---

(١) أبو داود (١٦٤٣) فى الزكاة ، باب : كراهية المسأله ، ولم يعزه صاحب التحفة (٢ / ١٣٠) إلا لأبى داود ، وأحمد (٥ / ٢٧٦) .

(٢) مسلم (١٠٤٤ / ١٠٩) فى الزكاة ، باب : من تحل له المسألة .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ١٣١) .

(٤) أبو داود (٤٩٩٨) فى الأدب ، باب : ما جاء فى المزاح ، والترمذى (١٩٩١) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى المزاح .

(٥) البخارى (٦١٢٩) فى الآداب ، باب : الانبساط إلى الناس ،، ومسلم (٢١٥٠ / ٣) فى الآداب : استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه .

(٦) الترمذى (١٩٩٠) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى المزاح ، وقال : « حسن صحيح » .

(٧) تهذيب السنن (٧ / ٢٨٥) .

فصل
فى الرجل يقول : جعلنى الله فداك

عن أبى ذر رضي الله عنه ، قال : قال النبى ﷺ « أبا ذرٍ » ، فقلت : لبَّيك وسعديك يا رسول الله وأنا فداؤك (١) .

وقد أخرجا فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر ، فقال : « إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ، وبين ما عنده ، فاختار ما عنده » فبكى أبو بكر ، وقال : فديناك بآبائنا وأمهاتنا . الحديث (٢) .

وهذا كان بعد إسلام أبى قحافة ، فإنه خطب بهذه الخطبة قبيل وفاته ﷺ بقليل . وهذا أصح من حديث الزبير وأولى أن يؤخذ به منه ، والله أعلم(٣) .

فصل
فى قتل الأوزاغ

عن عامر بن سعد ـ وهو ابن أبى وقاص ـ عن أبيه رضي الله عنه ، قال : أمر رسول الله ﷺ بقتل الوزغ ـ وسماه فُوَيسقا . وأخرجه مسلم (٤) .

وفى صحيح البخارى عن أم شريك رضي الله عنها : أن النبى ﷺ أمر بقتل الوزغ ، وقال : «كان ينفخ على إبراهيم » (٥) .

وفى الصحيحين رضي الله عنها : استأمرت النبى ﷺ فى قتل الأوزاغ فأمر بقتلها (٦) (٧) .

---

(١) أبو داود (٥٢٢٦) فى الأدب ، باب : فى الرجل يقول : جعلنى الله فداك .

(٢) البخارى (٣٩٠٤) فى مناقب الأنصار ، باب : هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، ومسلم (٢٣٨٢ / ٢) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل أبى بكر الصديق رضي الله عنه .

(٣) تهذيب السنن (٨ / ٩١) .

(٤) ومسلم (٢٢٣٨ / ١٤٤) فى السلام ، باب : استحباب قتل الوزغ ورواه أبو داود (٥٢٦٢) فى الأدب ، باب : فى قتل الأوزاغ .

(٥) البخارى (٣٣٥٩) فى الأنبياء ، باب : قول الله تعالى : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » .

(٦) البخارى (٣٣٠٧) فى بدء الخلق ، باب : خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال (بمعناه) ، ومسلم (٢٢٣٧/ ١٤٣) فى السلام ، باب : استحباب قتل الوزغ .

(٧) تهذيب السنن (٨ / ١١٠) .

فصل
فى رد الوسوسة

عن أبى زُميل ،قال : سألت ابن عباس ، فقلت : ما شيءُ أُجدُه فى صدرى ؟ قال : ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلَّم به ، قال : فقل لى : أشيء من شكٍّ ؟ قال ـ وضحك : قلت : ما نجا من ذلك أحد ، قال :حتى أنزل الله عز وجل ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴾ الآية [يونس : ٩٤] قال : فإذا وجدت فى نفسك شيئًا فقل: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) ﴾ [الحديد : ٣].

أبو زُميل : هو سماك بن الوليد الحنفى . وقد احتج به مسلم .

فى الصحيحين « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ، ما لم يتكلموا ، أو يعملوا به » (١) (٢) .

فصل
فى حكمه ﷺ فيما كان يهدى إليه

كان أصحابه ﷺ يهدون إليه الطعام وغيره مقبل منهم ، ويكافئهم أضعافها . وكانت الملوك تهدى إليه فيقبل هداياهم ، ويقسمها بين أصحابه ، ويأخذ منها لنفسه ما يختاره فيكون كالصفى الذى له من الغنم ، وفى « صحيح البخارى » : أن النبى ﷺ أهديت إليه أقبية ديباج مزررة بالذهب ، فقسمها فى ناس من أصحابه وعزل منها واحداً لمخرمة بن نوفل ، فجاء ومعه المسور ابنه فقام على الباب ، فقال : ادعه لى ، فسمع النبى ﷺ صوته فتلقاه به ، فاستقبله وقال : « : « يا أبا المسور ، خبأت هذا لك » (٣) .

وأهدى له المقوقس مارية أم ولده ، وسيرين التى وهبها لحسان ، وبغلة شهباء وحماراً.

وأهدى له النجاشى هدية فقبلها منه ، وبعث إليه هدية عوضها ،وأخبر أنه مات قبل

---

(١) البخارى (٦٦٦٤) فى الأيمان والنذور ، باب : إذا حدثت ناسيا فى الأيمان ، ومسلم (١٢٧ / ٢٠١) فى الإيمان ، باب : تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ، واللفظ لمسلم .

(٢) تهذيب السنن (٨ / ١١) .

(٣) البخارى (٣١٢٧) فى فرض الخمس ، باب : قسمة الإمام ما يقدم عليه .

أن تصل إليه وأنها ترجع ، فكان الأمر كما قال .

وأهدى له فروة بن نفاثة الجذامة بغلة بيضاء ركبها يوم حنين . ذكره مسلم (١) .

وذكر البخارى : أن ملك أيلة أهدى له بغلة بيضاء ، فكساه رسول ﷺ بردة وكتب لهم ببحرهم (٢) . وأهدى له أبو سفيان هدية فقبلها (٣) . وذكر أبو عبيد : أن عامر بن مالك ـ ملاعب الأسنة ـ أهدى للنبى ﷺ فرسًا فرده وقال : « إنا لا نقبل هدية مشرك » (٤) وكذلك قال لعياض المجاشعى : « إنا لا نقبل زبد المشركين »(٥) يعنى : رفدهم .

قال أبو عبيد: وإنما قبل هدية أبى سفيان لأنها كانت فى مدة الهدنة بينه وبين أهل مكة، وكذلك المقوقس صاحب الإسكندرية إنما قبل هديته لأنه أكرم حاطب بن أبى بلتعة رسوله إليه، وأقرَّ بنبوته، ولم يؤيسه من إسلامه، ولم يقبل ﷺ هدية مشرك محارب له قط.

فصل

وأما حكم هدايا الأئمة بعده ، فقال سحنون من أصحاب مالك : إذا أهدى أمير الروم هدية إلى الإمام فلا بأس بقبولها ، وتكون له خاصة ، وقال الأوزاعى : تكون للمسلمين ويكافئه عليها من بيت المال . وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ وأصحابه : ما أهداه الكفار للإمام أو لأمير الجيش أو قواده فهو غنيمة ، حكمها حكم الغنائم (٦) .

فصل
فى إعطاء المبشرين

وفى نزع كعب ثوبيه وإعطائهما للبشير دليل على أن إعطاء المبشرين من مكارم الأخلاق والشيم ، وعادة الأشراف ، وقد أعتق العباس غلامه لما بشره أن عند الحجاج بن

---

(١) مسلم (١٧٧٥ / ٧٦) فى الجهاد والسير ، باب : فى غزوة حنين .

(٢) البخارى (٣١٦١) فى الجزية والموادعة ، باب : إذا وادع الإمام ملك القرية هل يكون ذلك لبقيتهم .

(٣) انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة (٢ / ١٧٩) .

(٤) فتح البارى (٥ / ٢٣٠) ، والطبرانى فى الكبير ١٩ / ٧٠ (١٣٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٦ / ١٢٩ ، ١٣٠ : « ورجاله رجال الصحيح » .

(٥) أبو داود (٣٠٥٧) فى الخراج والإمارة والفىء ، باب : فى الإمام يقبل هدايا المشركين ، والترمذى (١٥٧٧) فى السير ، باب : فى كراهية هدايا المشركين ، وقال : « حسن صحيح » ، وأحمد (٤ / ١٦٢) .

(٦) زاد المعاد (٥ / ٧٧ ـ ٧٩) .

علاط من الخبر عن رسول الله ﷺ ما يسره .

وفيه دليل على جواز إعطاء البشير جميع ثيابه .

وفيه دليل على استحباب تهنئة من تجددت له نعمة دينية ، والقيام إليه إذا أقبل ، ومصافحته ، فهذه سنة مستحبة ، وهو جائز لمن تجددت له نعمة دنيوية ، وأن الأولى أن يقال له : ليهنك ما أعطاك الله ، وما منَّ الله به عليك ، ونحو هذا الكلام ، فإن فيه تولية النعمة ربَّها والدعاء لمن نالها بالتهنى بها (١) .

فصل
فى العزل

جلس إلى عمر على والزبير وسعد رضي الله عنهم فى نفر من أصحاب رسول الله ﷺ وتذاكروا العزل ، فقالوا : لا بأس به ، فقال رجل : إنهم يزعمون أنها الموؤودة الصغرى ، فقال على رضي الله عنه: لا تكون موؤودة حتى تمر عليها التارات السبع : حتى تكون من سلالة من طين ، ثم تكون نطفة ، ثم تكون علقة ، ثم تكون مضغة ، ثم تكون عظامًا ، ثم تكون لحمًا ، ثم تكون خلقًا آخر . فقام عمر رضي الله عنه :صدقت أطال الله بقاءك . ولهذا احتج من احتج على جواز الدعاء للرجل بطول البقاء (٢) .

فصل
فى تَبَسُّم الغضبان والمسرور

التبسم قد يكون عن الغضب ، كما يكون عن التعجب والسرور فإن كلاً منهما يُوجب انبساط دم القلب وثورانه ، ولهذا تظهر حمرةُ الوجه لسرعة ثوران الدم فيه فينشأ عن ذلك السرور ، والغضب تعجُّب ضحك وتبسم ، فلايغتر المغتر بضحك القادر عليه فى وجهه ، ولا سيما عند المعتبة كما قيل :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة   فلا تَظُنَّنَّ أن الليث مبتسم (٣)

(١) زاد المعاد (٣ / ٥٨٥) .
(٢) زاد المعاد (٥ / ١٤٥ ، ١٤٦) .
(٣) زاد المعاد (٣ / ٥٧٥ ، ٥٧٦) .

فصل
فى إنشاد الشعر للقادم

جواز إنشاد الشعر للقادم فرحًا وسروراً به ما لم يكن معه محرم من لهو ،كمزمار ، وشبابة وعود ، ولم يكن غناءً يتضمن رقّية الفواحش وما حرَّم الله ، فهذا لا يُحرمة أحد(١) .

فصل
فى آداب المرور على ديار المعذبين

إن من مرَّ بديار المغضوب عليهم والمعذبين لم ينبغ له أن يدخلها ولا يُقيم بها ، بل يسرع السير ،ويتقنع بثوبه حتى يجاوزها ، ولا يدخل عليهم إلا باكيًا معتبراً .

ومن هذا إسراعُ النبى ﷺ السير فى وادى مُحَسِّر بين منى وعرفة فإنه المكان الذى أهلك الله فيه الفيل وأصحابه (٢) .

فصل
فى رد الكلام الباطل ولو كان لغير مُكلَّف

ومنها (٣) : ردُّ الكلام الباطل ولو نسب إلى غير مُكَلَّفٍ ، فإنهم لما قالوا : خلأت القصواءُ ، يعنى حرنت وألحَّت فلم تسر والخلاء فى الإبل بكسر الخاء والمدّ ، نظير الحران فى الخيل ، فلما نسبوا إلى الناقة ما ليس من خُلُقها وطبعها ردَّهُ عليهم ، وقال : « ما خلأت وما ذاك لها بخلق » (٤) ثم أخبر ﷺ عن سبب بروكها وأن الذى حبس الفيل عن مكة حبسها للحكمة العظيمة التى ظهرت بسبب حبسها وما جرى بعده (٥) .

---

(١) زاد المعاد (٣ / ٥٧٢ ، ٥٧٣) .

(٢) زاد المعاد (٣ / ٥٦٠) .

(٣) أى من الفوائد فى قصة الحديبية .

(٤) البخارى (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) فى الشروط ، باب : الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، وكتابة الشروط.

(٥) زاد المعاد (٣ / ٣٠٢) .

فصل
فى أسباب الشكر

إنه ـ سبحانه ـ اقتضت حكمته وحمده أن فاوت بين عباده أعظم تفاوت وأبينه ؛ ليشكره منهم من ظهرت عليه نعمته وفضله ، ويعرف أنه قد حبى بالأنعام ، وخص دون غيره بالإكرام ، ولو تساووا جميعهم فى النعمة والعافية لم يعرف صاحب النعمة قدرها ولم يبذل شكرها ؛ إذ لا يرى أحداً إلا فى مثل حاله .

ومن أقوى أسباب الشكر وأعظمها استخراجًا له من العبد أن يرى غيره فى ضد حاله الذى هو عليها من الكمال والفلاح ، وفى الأثر المشهور : إن الله سبحانه لما رأى آدم ذريته وتفاوت مراتبهم قال : يا رب ، هلا سويت بين عبادك . قال : إنى أحب أن أشكر. فاقتضت محبته ـ سبحانه ـ لأن يشكر خلق الأسباب التى يكون شكر الشاكرين عندها أعظم وأكمل ، وهذا هو عين الحكمة الصادرة عن صفة الحمد [١] .

فصل
فى أداء الأمانة

قد روى أبو داود فى سننه من حديث يوسف بن ماهك قال : كنت أكتب لفلان نفقة أيتام كان وليهم ، فغالطوه بألف درهم ، فأداها إليهم ، فأدركت له من أموالهم مثلها ، فقلت: اقبض الألف الذى ذهبوا به منك ، قال : لا . حدثنى أبى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « أد الأمانة إلى مَنْ ائتمنك ، ولا تخن من خانك » [٢] .

وهذا ، وإن كان فى حكم المنقطع ، فإن له شاهداً من وجه آخر ، وهو حديث طلق ابن غنام : أخبرنا شريك وقيس عن أبى حصين عن أبى صالح عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك » [٣] . وقيس هو ابن الربيع ،وشريك ثقة ، وقد قوى حديثه بمتابعة قيس له ، وإن كان فيه ضعف .

---

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ٦) .

(٢) أبو داود (٣٥٣٤) فى البيوع ، باب : فى الرجل يأخذ حقه من تحت يده .

(٣) أبو داود (٣٥٣٥) فى البيوع : باب : فى الرجل يأخذ حقه من تحت يده .

وله شاهد آخر من حديث أيوب بن سويد عن ابن شوذب ، عن أبى التياح ، عن أنس ﷺ عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم نحوه ، وأيوب بن سويد ـ وإن كان فيه ضعف ـ فحديثه يصلح للاستشهاد به .

وله شاهد آخر ، وإن كان فيه ضعف ؛ فهو يقوى بانضمام هذه الأحاديث إليه . رواه يحيى بن أيوب عن إسحاق بن أسيد ، عن أبى حفص الدمشقى ، عن مكحول : أن رجلا قال لأبى أمامة الباهلى : الرجل استودعه الوديعة ، أو يكون لى عليه دين ، فيجحدنى ، ثم يستودعنى أو يكون له عندى الشىء ، أفأجحده ؟ فقال : لا ، سمعت رسول صلى الله تعالى وآله وسلم يقول : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك » (١) .

وله شاهد آخر مرسل . قال يحيى بن أيوب : عن ابن جريج عن الحسن ، عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك»(٢).

فصل
فى التفريق بين الأولاد فى المضاجع

إنه ﷺ أمر أن يفرق بين الأولاد فى المضاجع (٣) ، وألا يترك الذكر ينام مع الأنثى فى فراش واحد ؛ لأن ذلك قد يكون ذريعة إلى نسج الشيطان بينهما المواصلة المحرمة بواسطة اتحاد الفراش ، ولاسيما مع الطول ، والرجل قد يعبث فى نومه بالمرأة فى نومها إلى جانبه وهو لا يشعر ، وهذا أيضًا من ألطف سد الذرائع (٤) .

فصل
فى أن ترتب أحكام الدنيا والآخرة على ما كسبه القلب وعقد عليه

سأله صلى الله عليه وآله وسلم الحجاج بن علاط ، فقال : إن لى بمكة مالا ، وإن لى بها أهلا ، وإنى أريد أن آتيهم ، فأنا فى حل إن أنا نلت منك ، أو قلت شيئًا ؟ فأذن له

---

(١) البيهقى فى الكبرى (١٠ / ٢٧١) فى الدعوى والبينات ، باب : أخذ الرجل حقه ممن يمنعه إياه ، بنحوه .
(٢) إغاثة اللهفان (٢ / ٧٧ ، ٧٨) .
(٣) أبو داود (٤٩٥) فى الصلاة ، باب : متى يؤمر الغلام بالصلاة .
(٤) إعلام الموقعين (٣ / ١٩٤) .

رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء ، ذكره أحمد (١) .

وفيه دليل على أن الكلام إذا لم يرد به قائله معناه ، إما لعدم قصده له ، أو لعدم علمه به ، أو أنه أراد به غير معناه لم يلزمه ما لم يرده بكلامه ، وهذا هو دين الله الذى أرسل له رسوله ؛ ولهذا لم يلزم المكره على التكلم بالكفر الكفر ، ولم يلزم زائل العقل يجنون أو نوم أو سكر ما تكلم به ، ولم يلزم الحجاج بن علاط حكم ما تكلم به ؛ لأنه أراد به غير معناه ، ولم يعقد قلبه عليه ، وقد قال تعالى : ﴿ **لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَان** ﴾ [المائدة : ٨٩] ، وفى الآية الأخرى : ﴿ **وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُم** ﴾ [البقرة : ٢٢٥] ، فالأحكام فى الدنيا والآخرة مرتبة على ما كسبه القلب ، وعقد عليه ، وأراده من معنى كلامه (٢) .

فصل

فيما جاء فى القيام

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه : أن أهل قريظة لما نزلوا على حكم سعد ، أرسل إليه النبى ﷺ ، فجاء على حمار أقمر ، فقال النبى ﷺ : « قوموا إلى سيدكم ـ أو إلى خيركم» فجاء حتى قعد إلى رسول الله ﷺ (٣) .

وأخرج الترمذى عن عائشة رضي الله عنها قالت : قدم زيد بن حارثة المدينة ، ورسول الله ﷺ فى بيتى ، فأتاه ، فقرع الباب ، فقام إليه النبى ﷺ يجر ثوبه ، فاعتنقه وقبله . وقال: حديث حسن (٤) .

وأخرج أيضًا بإسناد على شرط مسلم عن أنس قال : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ، لما يعلمون من كراهيته لذلك . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه (٥).

وأخرج أيضًا من حديث سفيان ـ وهو الثورى ـ عن حبيب بن الشهيد عن أبى مجلز قال : خرج معاوية ، فقام عبد الله بن الزبير وابن صفوان حين رأوه ،فقال : اجلسا ،

---

(١) أحمد (٣ / ١٣٨ ، ١٣٩) . (٢) إعلام الموقعين (٤ / ٤٠٣) .

(٣) أبو داود (٥٢١٥) فى الأدب ، باب : ما جاء فى القيام .

(٤) الترمذى (٢٧٣٢) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى المعانقة والقبلة وقال : « حسن غريب » .

(٥) الترمذى (٢٧٥٤) فى الأدب ، باب : ما جاء فى كراهية قيام الرجل للرجل .

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سره أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار» قال : هذا حديث حسن (١).

حدثنا هناد حدثنا أبو أسامة عن حبيب بن الشهيد عن أبى مجلز عن معاوية عن النبى ﷺ مثله (٢) .

وهذا الإسناد على شرط الصحيح ، قال : وفى الباب عن أبى أمامة .

وفيه رد على من زعم أن معناه : أن يقوم الرجل للرجل فى حضرته وهو قاعد ؛ فإن معاوية روى الخبر لما قاما له حين خرج .

وأما الأحاديث المتقدمة : فالقيام فيها عارض للقادم ، مع أنه قيام إلى الرجل للقائه ، لا قيامًا له ، وهو وجه حديث فاطمة .

فالمذموم : القيام للرجل ، وأما القيام إليه للتلقى إذا قدم : فلا بأس به ، وبهذا تجتمع الأحاديث . والله أعلم (٣).

وأيضا

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ما رأيت أحداً كان أشبه سمتا وهديا ودلا ـ وقال الحسن : وهو الحلوانى ـ حديثًا وكلامًا ، ولم يذكر الحسن السمت والهدى والدل ـ برسول الله ﷺ فاطمة رضي الله عنها : كانت إذا دخلت عليه قام إليها ، فأخذ بيدها ، وقبلها وأجلسها فى مجلسه ، وكانت إذا دخل عليها قامت إليه وأخذت بيده ، وقبلته وأجلسته فى مجلسها .وأخرجه الترمذى والنسائى . وقال الترمذى : حسن غريب من هذا الوجه (٤).

وحكى عن شعبة قال : سألت عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة فقال : يعرف وينكر هذا آخر كلامه .

وهذا الحديث يرويه شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن صفون بن عسال .وفى نفس الحديث ، ما يدل على أنه منكر جداً ، فإن فيه : أنهم سألوه عن تسع

---

(١) الترمذى (٢٧٥٥) فى الأدب ، باب : ما جاء فى كراهية قيام الرجل للرجل .
(٢) الترمذى تحت رقم (٢٧٥٥) فى الأدب ، باب : ما جاء فى كراهية قيام الرجل للرجل .
(٣) تهذيب السنن (٨ / ٨٢ ـ ٨٤) .
(٤) أبو داود (٥٢١٧) فى الأدب ، باب : ما جاء فى القيام ، والترمذى (٣٨٧٢) فى المناقب ، باب : فضل فاطمة بنت محمد ﷺ ،والنسائى فى الكبرى (٨٣٦٩) ، فى المناقب ، باب:مناقب فاطمة بنت محمد ﷺ (رضي الله عنها).

آيات بينات ؟ فقال لهم : « لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » إلى آخره (١) . والآيات التسع التى أرسل لها موسى إلى فرعون : إنما كانت آيات نبوته ، ومعجزات صدقه ، كالعصا ، واليد ، وباقى الآيات .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) ﴾ [الإسراء] .

فهذه آيات النبوة قبل نزول آيات الحكم والشرع ، وهذا بين بحمد الله تعالى (٢) .

فصل
الرجل يقوم للرجل عن مجلسه

عن أبى الخصيب عن ابن عمر رضي الله عنه قال : جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقام له رجلٌ عن مجلسه فذهب ليجلس فيه ، فنهاه رسول الله ﷺ (٣) .

وقال أبو داود : أبو الخصيب : زياد بن عبد الرحمن . هذا آخر كلامه . وهو بفتح الخاء المعجمة وكسر الصاد المهملة وسكون الياء آخر الحروف وبعدها باء بواحدة .

وقد أخرج الترمذى من حديث حماد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : لا يقم أحدكم أخاه من مجلسه ثم يجلس فيه قال : وكان الرجل يقوم لابن عمر فما يجلس ، قال : هذا حديث حسن صحيح (٤) .

وحديث ابن عمر هذا فى الصحيحين ولفظه : نهى رسول الله ﷺ أن يقام الرجل من مجلسه ، ويجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا (٥) .

وفى صحيح مسلم عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يقم أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالفه إلى مقعده ، ولكن ليقل : افسحوا » (٦) (٧) .

---

(١) الترمذى (٢٧٣٣) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى قبلة اليد والرجل ، وقال : « حسن صحيح » .

(٢) تهذيب السنن (٨ / ٨٤ ـ ٨٦) .

(٣) أبو داود (٤٨٢٨) فى الأدب ، باب : فى الرجل يقوم للرجل من مجلسه .

(٤) الترمذى (٢٧٤٩ ، ٢٧٥٠) فى الأدب ، باب : كراهية أن يقام الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه .

(٥) البخارى (٦٢٧٠) فى الاستئذان ، باب: ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا ﴾ الآية،ومسلم (٢١٧٧ / ٢٧) فى السلام ،باب:تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذى سبق إليه .

(٦) مسلم (٢١٧٨ / ٣٠) فى السلام ، باب : تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذى سبق إليه .

(٧) تهذيب السنن (٧ / ١٨٤) .

وأيضا

عن أبى مجلز قال : خرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر ، فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير ، فقال معاوية لابن عامر : اجلس ، فإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من أحبَّ أن يتمثَّل له الرّجالُ قيامًا فليتبوأ مقعده من النار » . وأخرجه الترمذى . وقال : حسن (١) . هذا آخر كلامه .

وقد أخرج مسلم فى صحيحه من حديث أبى الزبير عن جابر: أنهم لما صلوا خلفه ﷺ. قال : فلما سلم قال : « إن كدتم آنفا أن تفعلوا فعل فارس والروم » الحديث (٢) .

وحمل أحاديث النهى عن القيام على مثل هذه الصورة ممتنع ، فإن سياقها يدل على خلافه ، وأنه ﷺ كان ينهى عن القيام له إذا خرج عليهم ، ولأن العرب لم يكونوا يعرفون هذا ، وإنما هو من فعل فارس والروم ، ولأن هذا لا يقال له : قيام للرجل إنما هو قيام عليه . ففرق بين القيام للشخص المنهى عنه ، والقيام عليه المشبه لفعل فارس والروم ، والقيام إليه عند قدومه الذى هو سنة العرب ، وأحاديث الجواز تدل عليه فقط (٣) .

فصل
فى النهى عن التكنية بأبى القاسم

قال أحمد فى رواية حنبل : لا يكنى ولده بأبى القاسم ؛ لأنه يروى عن النبى ﷺ أنه نهى عنه . وقال فى رواية على بن سعيد ـ وقد سأله عن الحديث : « تسموا باسمى ، ولا تكنوا بكنيتى » (٤) هو أن يجمع بين اسمه وكنيته أو يفرد أحدهما ، فقال آخر : الحديث : « تسموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى » ، وهذا موافق لرواية حنبل (٥) .

---

(١) أبو داود (٥٢٢٩) فى الأدب ، باب : فى قيام الرجل للرجل ، والترمذى (٢٧٥٥) فى الأدب ، باب : ما جاء فى كراهية قيام الرجل للرجل .

(٢) مسلم (٤١٣ ، ٨٤) فى الصلاة ، باب : ائتمام المأموم بالإمام .

(٣) تهذيب السنن (٨ / ٩٢ ، ٩٣) .

(٤) تقدم تخريجه ص ١٦٠ .

(٥) بدائع الفوائد (٤ / ٧٩) .

فصل
فى النهى عن حبس الطير

وسئل (١) عن حبس الطير لطيب نغمتها ، فقال : سفه وبطر ، يكفينا أن نقدم على ذبحها للأكل فحسب ، لأن الهواتف من الحمام ربما هتفت نياحة على الطيران وذكر أفراخها، أفيحسن بعاقل أن يعذب حيا ليترنم فيلتذ بنياحته ، وقد منع من هذا بعض أصحابنا وسموه سفها (٢) .

فصل
فى النهى عن اللعب بالنردشير

قول النبى ﷺ : « من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده فى لحم خنزير ودمه » (٣) ، سر هذا التشبيه ـ والله أعلم ـ أن اللاعب بها لما كان مقصوده بلعبه أكل المال بالباطل الذى هو حرام كحرمة لحم الخزير ،وتوصل إليه بالقمار ،وظن أن يفيده حل المال ، كان كالمتوصل إلى أكل لحم الخزير بذكاته . والنبى ﷺ شبه اللاعب بها بغامس فى لحم خنزير ودمه إذ هو مقدمة الأكل كما أن اللعب بها مقدمة آكل المال ؛فإن أكل بها المال كان كآكل لحم الخنزير ، والتشبه إنما وقع فى مقدمة هذا بمقدمة هذا ،والله أعلم (٤).

فصل
فى أكل الكراث والبصل والثوم

وسئل (٥) عن أكل الكراث والبصل فى السفر ، قال : إن كان من علة فأرجو ، وإن كان من غير ذلك فلا يأكل ، وأما الكراث فليس له كبير شىء ، وهو أهون من البصل . قيل له : فالثوم ؟ قال : إنما جاءت الكراهية فى الثوم والبصل ، فلا تأكل (٦) .

---

(١) أى ابن عقيل ـ شيخ الحنابلة . (٢) بدائع الفوائد (٣ / ١٣٦) .
(٣) أبو داود (٤٩٣٩) فى الأدب ، باب : فى النهى عن اللعب بالنرد .
(٤) بدائع الفوائد (٣ / ١٩٨ ، ١٩٩) .
(٥) أى الإمام أحمد رحمه الله .
(٦) بدائع الفوائد (٤ / ٥٠) .

فصل
فى النهى عن خلوة النساء بالخصيان والمجبوبين

قال ابن عقيل : يحرم خلوة النساء بالخصيان والمجبوبين ، إذ غاية ما تجد فيهم عدم العضو أو ضعفه ، ولا يمنع ذلك ، لإمكان الاستمتاع بحسبهم من القبلة واللمس والاعتناق . والخصى يقرع قرع الفحل ، والمجبوب يساحق . ومعلوم أن النساء لو عرض فيهن حب السحاق ومنعنا خلوة بعضهن ببعض ، فأولى أن يمنع خلوة من هو فى الأصل على شهوته للنساء (١) .

فصل
فى النهى عن الدخول على النساء

إنه ﷺ حرم الخلوة بالأجنبية ولو فى إقراء القرآن ، والسفر بها ، ولو فى الحج وزيارة الوالدين ، سداً لذريعة ما يحاذر من الفتنة وغلبات الطباع (٢) .

وأيضا

إنه ﷺ نهى الرجال عن الدخول على النساء ؛ لأنه ذريعة ظاهرة (٣) .

فصل
فى غض البصر

إن الله أمر بغض البصر ـ وإن كان إنما يقع على محاسن الخلقة والتفكر فى صنع الله ـ سداً لذريعة الإرادة والشهوة المفضية إلى المحظور (٤).

فصل
فى النهى عن إدامة النظر إلى المجزومين

إنه ﷺ نهى عن إدامة النظر إلى المجزومين (٥) ، وهذا ـ والله أعلم ـ لأنه ذريعة إلى

(١) بدائع الفوائد (٣ / ١٥٧) .
(٢) إعلام الموقعين (٣ / ١٨٠) .
(٣) إعلام الموقعين (٣ / ١٩٥) .
(٤) إعلام الموقعين (٣ / ١٨٠) .
(٥) أحمد (١ / ٢٩٩) ، وصححه الشيخ شاكر (٢٧٢١) .

أن يصابوا بإيذائهم ، وهى من ألطف الذرائع . وأهل الطبيعة يعترفون به ، وهو جار على قاعدة الأسباب وأخبرنى رجل من علمائهم أنه جلس قرابة له يكحل الناس ، فرمد ثم برئ، فجلس يكحلهم ، فرمد مرارا ، قال : فعلمت أن الطبيعة تنتقل ، وأنه من كثرة ما يفتح عينيه فى أعين الرُّمْد نقلت الطبيعة الرمد إلى عينيه ، وهذا لابدَّ معه من نوع استعداد، وقد جبلت الطبيعة والنفس على التشبه والمحاكاة (١) .

فصل
فى النهى عن أن تنعت المرأةُ المرأةَ

إنه ﷺ نهى أن تنعت المرأةُ المرأةَ لزوجها حتى كأنه ينظر إليها (٢) . ولا يخفى أن ذلك سد للذريعة ، وحماية عن مفسدة وقوعها فى قلبه وميله إليها بحضور صورتها فى نفسه ، وكم ممن أحَبَّ غيره بالوصف قبل الرؤية (٣) .

فصل
فى النهى عن النظر إلى الأمة

وأما تحريم النظر إلى العجوز الحرة الشوهاء القبيحة وإباحته إلى الأمة البارعة الجمال ، فكذب على الشارع ، فأين حرم الله هذا ، وأباح هذا ، والله ـ سبحانه ـ إنما قال : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ** ﴾ [النور : ٣٠] ، ولم يطلق الله ورسوله للأعين النظر إلى الإماء البارعات الجمال ، وإذا خشى الفتنة بالنظر إلى الأمة جرم عليه بلا ريب ، وإنما نشأت الشبهة أن الشارع شرع للحرائر أن يسترن وجوههن عن الأجانب ، وأما الإماء ، فلم يوجب عليهن ذلك ، لكن هذا فى إماء الاستخدام والابتذال ، وأما إماء التسرى اللاتى جرت العادة بصونهن ، وحجبهن ، فأين أباح الله ورسوله لهن أن يكشفن وجوههن فى الأسواق والطرقات ومجامع الناس ، وأذن للرجال فى التمتع بالنظر إليهن .

فهذا غلط محض على الشريعة ، وأكد هذا الغلط أن بعض الفقهاء ، سمع قولهم أن الحرة كلها عورة إلا وجهها وكفيها ، وعورة الأمة ما لا يظهر غالباً كالبطن والظهر والساق ، فظن أن ما يظهر غالبًا حكمه حكم وجه الرجل ، وهذا إنما هو فى الصلاة ، لا فى النظر، فإن العورة عورتان : عورة فى الصلاة ، وعورة فى النظر ، فالحرة لها أن تصلى مكشوفة

(١) إعلام الموقعين (٣ / ١٩٩) .

(٢) البخارى (٥٢٤٠) فى النكاح ، باب : لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها ، وأبو داود (٢١٥٠) فى النكاح ، باب : ما يؤمر به من غض البصر ، وأحمد ١ / ٣٨٧ .

(٣) إعلام الموقعين (٣ / ١٩٢) .

الوجه والكفين ، وليس لها أن تخرج فى الأسواق ، ومجامع الناس كذلك ، والله أعلم (١) .

فصل
فى حفظ المنطق

عن الأعرج ، عن أبى هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « لا يقولن أحدكم : الكرم ، فإن الكرم : الرجل المسلم ، ولكن قولوا : حدائق الأعناب » .

وقد أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « لا تسموا العنب الكرم . فإن الكرم الرجل المسلم » (٢) .

وأخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث سعيد بن المسيب عن أبى هريرة بمعناه (٣) .

وأخرج مسلم من حديث وائل بن حجر : أن النبى ﷺ قال « لا تقولوا : الكرم . ولكن قولوا : العنب والحبلة » (٤) .

العرب تسمى شجر العنب كرما لكرمه ، والكرم كثرة الخير والمنافع والفوائد ، لسهولة تناولها من الكريم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان : ١٠] ، وفى آية أخرى : ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [ق : ٧] فهو كريم فى مخبره ، بهيج فى منظره ، وشجر العنب قد جمع وجوهًا ، من ذلك :

منها : تذليل ثمره لقاطفه .

ومنها : أنه ليس دونه شوك يؤذى مجتنيه .

ومنها : أنه ليس بممتنع على من أراده لعلو ساقه وصعوبته كغيره .

ومنها : أن الشجرة الواحدة منه ـ مع ضعفها ودقة ساقها ـ تحمل أضعاف ما تحمله غيرها .

---

(١) إعلام الموقعين (٢ / ٤٤ ـ ٤٥) وهو من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فى الرد على نفاة القياس.

(٢) أبو داود (٤٩٧٤) فى الأدب ، باب : فى الكرم وحفظ المنطق ، ومسلم (٢٢٤٧ /٨) فى الألفاظ من الأدب وغيره ، باب : كراهة تسمية العنب كرما.

(٣) البخارى (٦١٨٣) فى الأدب ، باب : قول النبى ﷺ : « إنما الكرم قلب المؤمن » ، ومسلم (٢٢٤٧ / ٧) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : كراهة تسمية العنب كرما .

(٤) مسلم (٢٢٤٨ / ١٢) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : كراهة تسمية العنب كرما .

ومنها : أن الشجرة الواحدة منه إذا قطع أعلاها أخلفت من جوانبها وفروعها ، والنخلة إذا قطع أعلاها ماتت ، ويبست جملة .

ومنها : أن ثمره يؤكل قبل نضجه ، وبعد نضجه ، وبعد يبسه .

ومنها : أنه يتخذ منه من أنواع الأشربة الحلوة والحامضة ، كالدبس والخل ، ما لا يتخذ من غيره ، ثم يتخذ من شرابه من أنواع الحلاوة والأطعمة والأقوات ما لا يتخذ من غيره ، وشرابه الحلال غذاء وقوت ومنفعة وقوة .

ومنها : أنه يدخر يابسه قوتًا وطعامًا وأدمًا .

ومنها : أن ثمره قد جمع نهاية المطلوب من الفاكهة من الاعتدال ، فلم يفرط إلى البرودة كالخوخ وغيره ، ولا إلى الحرارة كالتمر ، بل هو فى غاية الاعتدال ، إلى غير ذلك من فوائده فلما كان بهذه المنزلة سموه كرمًا ، فأخبرهم النبى ﷺ أن الفوائد والثمرات والمنافع التى أودعها الله قلب عبده المؤمن : ـ من البر ، وكثرة الخير ـ أعظم من فوائد كرم العنب ، فالمؤمن أولى بهذه التسمية منه .

فيكون معنى الحديث على هذا : النهى عن قصر اسم الكرم على شجر العنب ، بل المسلم أحق بهذا الاسم منه .

وقيل فى معنى النهى وجه آخر ، وهو : قصد النبى ﷺ سلب هذا الاسم المحبوب للنفوس التى يلذ لها سماعه عن هذه الشجرة التى تتخذ منها أم الخبائث ، فيسلبها الاسم الذى يدعو النفوس إليها ، ولاسيما فإن العرب قد تكون سمتها كرمًا ؛ لأن الخمر المتخذة منها تحث على الكرم وبذل المال ، فلما حرمها الشارع نفى اسم المدح عن أصلها ، وهو « الكرم » ، كما نفى اسم المدح عنها ، وهو الدواء ، فقال : « إنها داء وليست بدواء » (١) ومن عرف سر تأثير الأسماء فى مسماتها نفرة وميلا عرف هذا ، فسلبها النبى ﷺ هذا الاسم الحسن ، وأعطاه ما هو أحق منها ، وهو « قلب المؤمن » .

ويؤكد المعنى الأول : أن النبى ﷺ شبه المسلم بالنخلة ؛ لما فيها من المنافع والفوائد ، حتى إنها كلها منفعة ، لا يذهب منها شىء بلا منفعة ، حتى شوكها ، ولا يسقط عنها لباسها وزينتها ، كما لا يسقط عن المسلم زينته ، فجذوعها للبيوت والمساكن والمساجد وغيرها ، وسعفها للسقوف ، وغيرها ، وخوصها للحصر والمكاتل والآنية ، وغيرها ، ومسدها للحبال وآلات الشد والحل وغيرها ، وثمرها يؤكل رطبًا ويابسًا ، ويتخذ قوتًا وأدما ، وهو أفضل المخرج فى زكاة الفطر تقربًا إلى الله ، وطهـرة للصائم ، ويتـخذ منه

---

(١) مسلم (١٩٨٤ / ١٢) فى الأشربة ، باب : تحريم التدواى بالخمر ، وأبو داود (٣٨٧٣) .

ما يتخذ من شراب الأعناب ، ويزيد عليه بأنه قوت وحده ، بخلاف الزبيب ، ونواه علف للإبل التى تحمل الأثقال إلى بلد لا يبلغه الإنسان إلا بشق النفس .

ويكفى فيه : أن نواه يشترى به العنب ، فحسبك بتمر نواه ثمن لغيره (١) .

فصل
فى ألفاظ كان ﷺ يكره أن تقال

فمنها : أن يقول : خبثت نفسى أو جاشت نفسى ، وليقل : « لقست » (٢) .

ومنها : أن يسمى شجر العنب كرما ، نهى عن ذلك وقال : لا تقولوا : الكرم ولكن قولوا : العنب والحبلة » (٣) .

وكره أن يقول الرجل : هلك الناس . وقال : « إذا قال ذلك ، فهو أهلكهم » (٤) . وفى معنى هذا : فسد الناس ، وفسد الزمان ونحوه .

ونهى أن يقال : ما شاء الله ، وشاء فلان ، بل يقال : ما شاء الله ، ثم شاء فلان . فقال له رجل : ما شاء الله وشئت . فقال : « اجعلتنى لله نداً ؟ ! قل : ما شاء الله وحده » (٥) .

وفى معنى هذا : لولا الله وفلان ، لما كان كذا ، بل هو أقبح وأنكر ، وكذلك : أنا بالله وبفلان ، وأعوذ بالله وبفلان ، وأنا فى حسب الله وحسب فلان ، وأنا متكل على الله وعلى فلان ، فقائل هذا ، قد جعل فلانًا ندًا لله عز وجل .

ومنها : أن يقال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، بل يقول : مطرنا بفضل الله ورحمته (٦) .

ومنها : أن يحلف بغير الله . صح عنه ﷺ أنه قال : « من حلف بغير الله فقد

---

(١) تهذيب السنن (٧ / ٢٦٨ ـ ٢٧٢) .

(٢) البخارى (٦١٧٩) فى الأدب ، باب : لا يقل : « خبثت نفسى » ، ومسلم (٢٢٥٠ / ١٦) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : كراهة قول الإنسان خبثت نفسى .

(٣) مسلم (٢٢٤٨ / ١٢) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : كراهة تسمية العنب كرما .

(٤) مسلم (٢٦٢٣ / ١٣٩) فى البر والصلة والآداب ، باب : النهى من قول : هلك الناس ، وأبو داود (٤٩٨٣) فى الأدب ، باب : لا يقال خبثت نفسى ، وأحمد (٢ / ٢٧٢) .

(٥) أبو داود (٤٩٨٠) فى الأدب ، باب : لا يقال : خبثت نفسى ، وأحمد (١ / ٢٨٣) وهما بمعناه .

(٦) النسائى (١٥٢٥) فى الاستسقاء ، باب : كراهية الاستمطار بالكوكب .

أشرك » (١) .

ومنها : أن يقول فى حلفه : هو يهودى ، أو نصرانى ، أو كافر ، إن فعل كذا (٢).

ومنها : أن يقول لمسلم : يا كافر (٣) .

ومنها : أن يقول للسلطان : ملك الملوك (٤) وعلى قياسه قاضى القضاة .

ومنها : أن يقول السيد لغلامه وجاريته : عبدى ، وأمتى ، ويقول الغلام لسيده : ربى ، وليقل السيد : فتاى وفتاتى ، وليقل الغلام : سيدتى وسيدتى (٥) .

ومنها : سب الريح إذا هبت ، بل يسأل الله خبرها ، وخير ما أرسلت به ، ويعوذ بالله من شرها وشر ما أرسلت به (٦) .

ومنها : سب الحمى ، نهى عنه ، وقال : « إنها تذهب خطايا بنى آدم ، كما يذهب الكير خبث الحديد » (٧) .

ومنها : النهى عن سب الديك ، صح عنه ﷺ أنه قال : « لا تسبوا الديك ، فإنه يوقظ للصلاة » (٨) .

ومنها : الدعاء بدعوى الجاهلية ، والتعزى بعزائهم (٩)، كالدعاء إلى القبائل والعصبية

---

(١) أبو داود (٣٢٥١) فى الأيمان والنذور ، باب : فى كراهية الحلف بالآباء ، والترمذى (١٥٣٥) فى النذور والأيمان ، باب : ما جاء فى كراهية الحلف بغير الله ، وقال : « حسن » ، وأحمد (١ / ٦٩) .

(٢) أبو داود (٣٢٥٨) فى الأيمان والنذور ، باب : ما جاء فى الحلف بالبراة وبملة غير الإسلام ، والنسائى (٣٧٧٢) فى الأيمان والنذور ، باب : الحلف بالبراءة من الإسلام .

(٣) البخارى (٦١٠٣) فى الأدب ، باب : من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال .

(٤) البخارى (٦٢٠٥) فى الأدب ، باب : أبغض الأسماء إلى الله ، ومسلم (٢١٤٣ / ٢٠) فى الآداب ، باب : تحريم التسمى بملك الأملاك ، وبملك الملوك ، وأبو داود (٤٩٦١) فى الآداب ، باب : فى تغيير الاسم القبيح، والترمذى (٢٨٣٧) فى الأدب ، باب : ما يكره من الأسماء .

(٥) البخارى (٢٥٥٢) فى العتق ، باب : كراهية التطاول على الطريق ، ومسلم (٢٢٤٩ / ١٣ ـ ١٥) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد ، وأبو داود (٤٩٧٥)فى الأدب ، باب : لا يقول المملوك : « ربى ، وربتى » .

(٦) أبو داود (٥٠٩٧) فى الأدب ، باب : ما يقول إذا هاجت الريح ، والترمذى (٢٢٥٢) فى الفتن ، باب : ما جاء فى النهى عن سب الرياح ، وقال : « حسن صحيح » .

(٧) مسلم (٢٥٧٥ / ٥٣) فى البر والصلة والآداب ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك .

(٨) أبو داود (٥١٠١) فى الأدب ، باب : ما جاء فى الديك والبهائم ، وأحمد (٥ / ١٩٢ ، ١٩٣) .

(٩) أحمد (٥ / ١٣٦) .

لها وللأنساب ، ومثله التعصب للمذاهب ، والطرائق ، والمشايخ ، وتفضيل بعضها على بعض بالهوى والعصبية ، وكونه منتسبًا إليه ، فيدعو إلى ذلك ، ويوالى عليه، ويعادى عليه ، ويزن الناس به ، كل هذا من دعوى الجاهلية .

ومنها : تسمية العشاء بالعتمة (١) ، تسمية غالبة يهجر فيها لفظ العشاء .

ومنها : النهى عن سباب المسلم (٢) . وأن يتناجى اثنان دون الثالث(٣) . وأن تخبر المرأة زوجها بمحاسن امرأة أخرى (٤) .

ومنها : أن يقول فى دعائه : « اللهم اغفر لى إن شئت ، وارحمنى إن شئت » (٥).

ومنها : الإكثار من الحلف (٦) .

ومنها : كراهة أن يقول : قوس قزح (٧) ؛ لهذا الذى يرى فى السماء .

ومنها : أن يسأل أحداً بوجه الله (٨) .

ومنها : أن يسمى المدينة بيثرب (٩) .

ومنها : أن يسأل الرجل فيم ضرب امرأته (١٠) ، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

ومنها أن يقول : صمت رمضان كله ، أو قمت الليل كله (١١) .

ومن الألفاظ المكروهة : الإفصاح عن الأشياء التى ينبغى الكناية عنها بأسمائها

---

(١) البخارى (٥٤٧) فى مواقيت الصلاة ، باب : وقت العصر ، ومسلم (٦٣٨ / ٢١٨) فى المساجد ومواضع الصلاة ، باب : وقت العشاء وتأخيرها .

(٢) البخارى (٦٠٤٤) فى الأدب ، باب : ما ينهى عن السباب واللعن ، ومسلم (٦٤ / ١١٦) فى الإيمان : باب: بيان قول النبى ﷺ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر .

(٣) البخارى (٦٢٨٨) فى الاستئذان ، باب : لا يتناجى اثنان دون الثالث ، ومسلم (٢١٨٤ / ٣٧) فى السلام ، باب : تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث .

(٤) البخارى (٥٢٤٠) فى النكاح ، باب : لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها ، وأبو داود (٢١٥٠) فى النكاح ، باب : ما يؤمر به من غض البصر .

(٥) البخارى (٦٣٣٩) فى الدعوات ، باب : ليعزم المسألة ، ومسلم (٢٦٧٩ / ٩) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : العزم بالدعاء .

(٦) مسلم (١٦٠٧ / ١٣٢) فى المساقاة ، باب : النهى عن الحلف فى البيع .

(٧) الأذكار للنووى (٩٦٩) ، وأبو نعيم فى الحلية (٢ / ٣٠٩) .

(٨) أبو داود (١٦٧١) فى الزكاة ، باب : كراهية المسألة بوجه الله تعالى ، وضعفه الألبانى .

(٩) أبو داود الطيالسى (٧٦١) .

(١٠) أبو داود (٢١٤٧) فى النكاح ، باب : فى ضرب النساء ، وضعفه الألبانى .

(١١) أبو داود (٢٤١٥) فى الصوم ، باب : من يقول : صمت رمضان كله . وضعفه الألبانى .

الصريحة .

ومنها : أن يقول : أطال الله بقاءك ، وأدام أيامك ، وعشت ألف سنة ، ونحو ذلك .

ومنها : أن يقول الصائم : وحق الذى خاتمه على فم الكافر .

ومنها : أن يقول للمكوس : حقوقًا . وأن يقول لما ينفقه فى طاعة الله :غرمت أو خسرت كذا وكذا : وأن يقول : أنفقت فى هذه الدنيا مالاً كثيراً .

ومنها : أن يقول المفتى : أحل الله كذا ، وحرم الله كذا فى المسائل الاجتهادية ، وإنما يقوله فيما ورد النص بتحريمه .

ومنها : أن يسمى أدلة القرآن والسنة ظواهر لفظية ومجازات ؛ فإن هذه التسمية تسقط حرمتها من القلوب ، ولا سيما إذا أضاف إلى ذلك تسمية شبه المتكلمين والفلاسفة قواطع عقلية ، فلا إله إلا الله ، كم حصل بهاتين التسميتين من فساد فى العقول والأديان ، والدنيا والدين .

ومنها : أن يحدث الرجل بجماع أهله ، وما يكون بينه وبينها (١) ، كما يفعله السفلة .

ومما يكره من الألفاظ : زعموا ، وذكروا ، وقالوا ، ونحوه . ومما يكره منها أن يقول للسلطان : خليفة الله ، أو نائب الله فى أرضه، فإن الخليفة والنائب إنما يكون عن غائب، والله ـ سبحانه ـ وتعالى خليفة الغائب فى أهله ، ووكيل عبده المؤمن .

وليحذر كل الحذر من طغيان « أنا » و « لى » و « عندى » ، فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتلى بها إبليس ، وفرعون ، وقارون . ﴿ **أَنَا خَيْرٌ مِّنْ** ﴾ [ص : ٨٦] لإبليس ، و ﴿ **لِي مُلْكُ مِصْرَ** ﴾ [الزخرف: ٥١] لفرعون ، و ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ [القصص : ٧٨] لقارون . وأحسن ما وضعت « أنا » فى قول العبد : أنا العبد المذنب ، المخطئ ، المستغفر ، المعترف ونحوه و « لى » فى قوله : لى الذنب ، ولى الجرم ، ولى المسكنة ، ولى الفقر والذل . و « عندى » فى قوله : « اغفر لى جدى ، وهزلى ، وخطئى ، وعمدى ، وكل ذلك عندى » (٢) (٣) .

---

(١) مسلم (١٤٣٧ / ١٢٣) فى النكاح ، باب : تحريم إفشاء سر المرأة ، وأحمد (٣ / ٦٩) .

(٢) مسلم (٢٧١٩ / ٧٠) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : التعوذ من شر ما عمل .

(٣) زاد المعاد (٢ / ٤٦٨ ـ ٤٧٥) .

فصل
فى النهى عن الكذب

اختلف الفقهاء فى الكذب فى غير الشهادة ، هل هو من الصغائر أو من الكبائر ، على قولين : هما روايتان عن الإمام أحمد حكاهما أبو الحسين فى تمامه ، واحتج من جعله من الكبائر بأن الله ـ سبحانه ـ جعله فى كتابه من صفات شر البرية ، وهم الكفار والمنافقون فلم يصف به إلا كافراً أو منافقًا ، وجعله علم أهل النار وشعارهم ، وجعل الصدق علم أهل الجنة وشعارهم .

وفى الصحيح من حديث ابن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق ، فإنه يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ،وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا »(١) .

وفى الصحيحين مرفوعاً : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذ وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان »(٢) .

وقال معمر عن أيوب عن ابن أبى مُلَيْكة عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما كان خلق أبغض إلى الرسول ﷺ من الكذب ، ولقد كان الرجل يكذب عنده بالكذبة ، فما تزال فى نفسه، حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة(٣) .

وقال مروان الطاطرى : ثنا محمد بن مسلم ، ثنا أيوب عن ابن أبى مليكة عن عائشة قالت : ما كان شىء أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب ، وما جرب على أحد كذبًا ، فرجع إليه ما كان ، حتى يعرف منه توبة حديث حسن رواه الحاكم فى المستدرك من طريق ابن وهب ، عن محمد بن مسلم ، عن أيوب ، عن ابن سيرين ، عن عائشة رضي الله عنها (٤).

وروى عبد الرزاق عن معمر ، عن موسى بن أبى شيبة : أن النبى ﷺ أبطل شهادة

---

(١) البخارى (٦٠٩٤) فى الأدب ، باب : قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ .

(٢) البخارى (٦٠٩٥) فى الأدب ، باب: قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ ، ومسلم (٥٩ / ١٠٧) فى الإيمان ، باب : بيان خصال المنافق .

(٣) الترمذى (١٩٧٣) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى الصدق والكذب ، وقال : « حسن » ، وأحمد (٦ / ١٥٢) .

(٤) الحاكم فى المستدرك (٤ / ٩٨) فى الأحكام ، باب : ظهور شهادة الزور من أشراط الساعة .

رجل فى كذبة كذبها (١) . وهو مرسل ، وقد ، احتج به أحمد فى إحدى الروايتين عنه ، وقال قيس بن أبى حازم : سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقول : إياكم والكذب ، فإن الكذب مجانب للإيمان (٢) . يروى موقوفًا ومرفوعًا .

وروى شعبة عن سلمة بن كهل عن مصعب بن سعد عن أبيه ، قال : « المسلم يطبع على كل طبيعة غير الخيانة والكذب » (٣) ويروى مرفوعًا إليه .

وفى المسند والترمذى من حديث خريم بن فاتك الأسدى : أن رسول الله ﷺ صلى صلاة الصبح ؛ فلما انصرف قام قائما ، قال : « عدلت شهادة الزور الشرك بالله » ثلاث مرار ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ** ﴾ [الحج : ٣١] (٤) .

وفى المسند من حديث عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال : « بين يدى الساعة تسليم الخاصة ، وفشو التجارة ، حتى تعين المرأة زوجها على التجارة ، وقطع الأرحام ، وشهادة الزور ، وكتمان شهادة الحق » (٥) .

وقال الحسن بن زياد اللؤلؤى : ثنا أبو حنيفة ، قال : كنا عند محارب بن دثار ، فتقدم إليه رجلان ، فادعى أحدهما على الآخر مالا ، فجحده المدعى عليه ، فسأله البينة ، فجاء رجل ،فشهد عليه ، فقال المشهود عليه : لا والله الذى لا إله إلا هو ، ما شهد على بحق ، وما علمته إلا رجلا صالحًا غير هذه الزلة ، فإنه فعل هذا لحقد كان فى قلبه على ، وكان محارب متكئًا ، فاستوى جالسًا ثم قال : ياذا الرجل ، سمعت ابن عمر يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليأتين على الناس يوم تشيب فيه الولدان ، وتضع الحوامل ما فى بطونها ، وتضرب الطير بأذنابها ، وتضع ما فى بطونها من شدة ذلك اليوم، ولا ذنب عليها،وإن شاهد الزور لا تقار قدماه على الأرض،حتى يقذف به فى النار »(٦) .

---

(١) عبد الرزاق فى المصنف (٢٠١٩٧) باب : الكذب والصدق وخطبة ابن مسعود .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى (٢٩٣١) ، وأشار لحسنه .

(٣) البيهقى فى الكبرى (١٠ / ١٩٧) فى الشهادات ، باب : من كان منكشف الكذب مظهره غير مستتر به لم تجز شهادته .

(٤) الترمذى (٢٣٠٠) فى الشهادات ، باب:ما جاء فى شهادة الزور، وقال : « هذا عندى أصح » ، وأحمد (٤ / ٣٢١) .

(٥) أحمد (١ / ٤١٩ ، ٤٢٠) ، وصححه الشيخ شاكر (٣٩٨٢) .

(٦) الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠ / ٣٣٨ ، ٣٣٩) فى البعث ، باب : ما جاء فى هول المطلع وشدة يوم القيامة، وقال : « وفى إسناده محمد بن الفرات وهو كذاب » وعزاه لأبى يعلى والطبرانى باختصار عنه .

فإن كنت شهدت بحق ، فاتق الله ،وأقم على شهادتك ، وإن كنت شهدت بباطل ، فاتق الله ، وغط رأسك واخرج من ذلك الباب .

وقال عبد الملك بن عمير : كنت فى مجلس محارب بن دثار ، وهو فى قضائه حتى تقدم إليه رجلان ، فادعى أحدهما على الآخر حقًا ، فأنكره ، فقال : ألك بينة ؟ فقال نعم ، ادع فلانًا . فقال المدعى عليه : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله إن شهد على ليشهد بزور ، ولئن سألنى عنه لأزكينه ، فلما جاء الشاهد ، قال محارب بن دثار : حدثنى عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إن الطير لتضرب بمناقيرها ،وتقذف ما فى حواصلها ، وتحرك ما فى أذنابها من هول يوم القيامة ، وإن شاهد الزور لا تقار قدماه على الأرض ، حتى يقذف به فى النار » (١) ثم قال للرجل : بم تشهد ؟ قال : كنت أشهدت على شهادة ، وقد نسيتها ، أرجع فأتذكرها ، فانصرف ولـم يشهد عـليه بشىء . ورواه أبو يعلى الموصلى فى مسنده ، فقال : ثنا محمد بن بكار ،ثنا زافر عن أبى علـى ، قال : كنت عند محارب بن دثار فاختصم إليه رجلان،فشهد على أحدهما شاهد ، فقال الرجل : لقد شهد على بزور ولئن سئلت عنه ليزكين وكان محارب متكئًا فجلس ، ثم قال : سمعت عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : « لا تزول قدما شاهد الزور من مكانها حتى يوجب الله له النار » (٢) . وللحديث طرق إلى محارب .

وأقوى الأسباب فى رد الشهادة والفتيا والرواية : الكذب ؛ لأنه فساد فى نفس آلة الشهادة والفتيا والرواية ، فهو بمثابة شهادة الأعمى على رؤية الهلال ، وشهادة الأصم الذى لا يسمع على إقرار المقر ، فإن اللسان الكذوب بمنزلة العضو الذى قد تعطل نفعه ، بل هو شر منه ، فشر ما فى المرء لسان كذوب ؛ ولهذا يجعل الله ـ سبحانه ـ شعار الكذب عليه يوم القيامة ، وشعار الكاذب على رسوله سواد وجوههم ،والكذب له تأثير عظيم فى سواد الوجه ، ويكسوه برقعًا من المقت يراد كل صادق فسيما الكاذب فى وجهه، ينادى عليه لمن له عينان ؛ والصادق يرزقه الله مهابة وجلالة فمن رآه هابه ، وأحبه ، والكاذب يرزقه إهانة ومقتًا ، فمن رآه مقته واحتقره ، وبالله التوفيق (٣) .

---

(١) الطبرانى فى الأوسط (٧٦١٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ٢٠٣) فى الأحكام ، باب : فى الشهود : « وفيه من لا أعرفه » .

(٢) الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٣٨ ، ٣٣٩) فى البحث ، باب : ما جاء فى هول المطلع وشدة يوم القيامة ، وعزاه لأبى يعلى وقال : « وفى إسناده محمد بن الفرات وهو كذاب » .

(٣) إعلام الموقعين (١ / ١٢٨ ـ ١٣١) .

فصل
فى مفاسد الكذب

الكذب متضمن لفساد نظام العالم ، ولا يمكن قيام العالم عليه ، لا فى معاشهم ولا فى معادهم ، بل هو متضمن لفساد المعاش والمعاد . ومفاسد الكذب اللازمة له معلومة عند خاصة الناس وعامتهم ، كيف وهو منشأ كل شر ، وفساد الأعضاء لسان كذوب .

وكم قد أزيلت بالكذب من دول وممالك ، وخربت به من بلاد ، واستلبت به من نعم، وتعطلت به من معايش ، وفسدت به مصالح ، وغرست به عداوات ، وقطعت به مودات ، وافتقر به غنى ، وذل به عزيز ، وهتكت به مصونة ، ورميت به محصنة ، وخلت به دور وقصور ، وعمرت به قبور ، وأزيل به أنس ، واستجلبت به وحشة ، وأفسد به بين الابن وأبيه ، وغاض بين الأخ وأخيه ، وأحال الصديق عدواً مبينًا ، ورد الغنى العزيز مسكينًا .

وكم فرق بين الحبيب وحبيبه فأفسد عليه عيشته ، ونغص عليه حياته . وكم جلا عن الأوطان . وكم سود من وجوه ، وطمس من نور ، وأعمى من بصيرة ، وأفسد من عقل، وغير من فطرة ، وجلب من معرة ، وقطعت به السبل ، وعفت به معالم الهداية ، ودرست به من آثار النبوة ، وخفيت به من مصالح العباد فى المعاش والمعاد .

وهذا وأضعافه ذرة من مفاسده ، وجناح بعوضة من مضاره ومصالحه ، إلا فيما يجلبه من غضب الرحمن ، وحرمان الجنان ، وحلول دار الهوان أعظم من ذلك .

وهل ملئت الجحيم إلا بأهل الكذب الكاذبين على الله وعلى رسوله ، وعلى دينه وعلى أوليائه ، المكذبين بالحق حمية وعصبية جاهلية (١) .

فصل
فى النهى عن الوقوف على الدابة

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إياى أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر ، فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، وجعل لكم الأرض ، فعليها فاقضوا حاجاتكم » (٢) .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢ / ٧٣) .

(٢) أبو داود (٢٥٦٧) فى الجهاد ، باب : فى الوقوف على الدابة .

في إسناده إسماعيل بن عياش ، وفيه مقال . قال الخطابي : قد ثبت عن النبي ﷺ أنه خطب على راحلته واقفًا عليها ، فدل ذلك على أن الوقوف على ظهورها إذا كان لأرب، أو بلوغ وطر لا يدرك مع النزول إلى الأرض ، مباح ، وأشار إلى أن النهى إنما ينصرف إلى استيطانها ، ويتخذها مقعدًا ، فيتعبها ، ويضر بها من غير طائل ،والله أعلم .

وأما وقوف النبي ﷺ على راحلته في حجة الوداع وخطبته عليها ، فذاك غير ما نهى عنه ، فإن هذا عارض لمصلحة عامة في وقت ما ، لا يكون دائمًا ، ولا يلحق الدابة منه من التعب والكلال ما يلحقها من اعتياد ذلك لا لمصلحة ، بل يستوطنها ويتخذها مقعداً يناجي عليها الرجل ، ولا ينزل إلى الأرض ،فإن ذلك يتكرر ويطوف ، بخلاف خطبته ﷺ على راحلته ليسمع الناس ، ويعلمهم أمور الإسلام وأحكام النسك ، فإن هذا لا يتكرر ولا يطول ، ومصلحته عامة (١) .

فصل
في النهى عن الشرب قائما

عن أنس أن رسول الله ﷺ نهى يأن يشرب الرجل قائمًا . وأخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه بنحوه (٢) .

وقد خرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله ﷺ زجر عن الشرب قائمًا (٣) .

وفيه أيضًا : عن أبي هريرة : أن النبي ﷺ قال : « لا يشربن أحد منكم قائما ، فمن نسى فليستقى » (٤) .

وفي الصحيحين : عن ابن عباس قال : سقيت رسول الله ﷺ من زمزم ، فشرب وهو قائم (٥) .

---

(١) تهذيب السنن (٣/ ٣٩٤ ، ٣٩٥) .

(٢) أبو داود (٣٧١٧) في الأشربة ، باب : في الشرب قائما ، ومسلم (٢٠٢٤ / ١١٣) في الأشربة ، باب : كراهية الشرب قائما ، والترمذي (١٨٧٩) في الأشربة ، باب : ما جاء في النهى عن الشرب قائما ، وابن ماجه (٣٤٢٤) في الأشربة ، باب : الشرب قائما .

(٣) مسلم (٢٠٢٤ / ١١٢) في الأشربة ، باب كراهية الشرب قائما .

(٤) مسلم (٢٠٢٦ / ١١٦) في الأشربة ، باب : كراهية الشرب قائما .

(٥) البخاري (٥٦١٧) في الأشربة ، باب : الشرب قائما ، ومسلم (٢٠٢٧ / ١١٧) في الأشربة ، باب : في الشرب من زمزم قائما .

وفي لفظ آخر : فحلف عكرمة : ما كان يومئذ إلا على بعير(١) .

فاختلف في هذه الأحاديث .

فقوم سلكوا بها مسلك النسخ وقالوا : آخر الأمرين من رسول الله ﷺ : الشرب قائما ، كما شرب في حجة الوداع .

وقالت طائفة : في ثبوت النسخ بذلك نظر ؛ فإن النبي ﷺ لعله شرب قائما لعذر ، وقد حلف عكرمة : أنه كان حينئذٍ راكبًا ، وحديث على : قصة عين ، فلا عموم لها . وقد روى الترمذي عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن جدته كبشة قالت : دخل على رسول الله ﷺ ، وفي البيت قربة معلقة ، فشرب قائما ، فقمت إلى فيها فقطعته .

وقال الترمذي : حديث صحيح ، وأخرجه ابن ماجه (٢).

وروى أحمد في مسنده عن أم سليم قالت : دخل على رسول الله ﷺ ، وفي البيت قربة معلقة ، فشرب منها ، وهو قائم ، فقطعت فاها ، فإنه لعندي (٣) .

فدلت هذه الوقائع على أن الشرب منها قائما كان لحاجة ، لكون القربة معلقة ، وكذلك شربه من زمزم أيضًا لعله لم يتمكن من القعود ، ولضيق الموضع ، أو لزحام وغيره .

وبالجملة ، فالنسخ لا يثبت بمثل ذلك .

وأما حديث ابن عمر : كنا على عهد رسول الله ﷺ نأكل ونحن نمشي ، ونشرب ونحن قيام . رواه الإمام أحمد وابن ماجه والترمذي وصححه (٤) ـ فلا يدل أيضًا على النسخ إلا بعد ثلاثة أمور : مقاومته لأحاديث النهي في الصحة ، وبلوغ ذلك النبي ﷺ ، وتأخره عن أحاديث النهي ، بعد ذلك فهو حكاية فعل ، لا عموم لها ، فإثبات النسخ بهذا عسير ، والله أعلم (٥) .

---

(١) البخاري (٥٦١٨) في الأشربة ، باب : من شرب وهو واقف على بعيره بمعناه .

(٢) الترمذي (١٨٩٢) في الأشربة باب : ما جاء في الرخصة في ذلك ، وقال : « حسن صحيح غريب » ، وابن ماجه (٣٤٢٣) في الأشربة ، باب : الشرب قائما .

(٣) أحمد (٦ / ٣٧٦) .

(٤) الترمذي (١٨٨٠) في الأشربة ، باب : ما جاء في النهي عن الشرب قائما ، وابن ماجه (٣٣٠١) في الأطعمة، باب : الأكل قائما ، وأحمد (٢ / ١٠٨) .

(٥) تهذيب السنن (٥ / ٢٨١ ، ٢٨٢) .

فصل
فى النهى عن تعيير المسلم

قوله (١) : « وكل معصية عيرت بها أخاك فهى إليك » :يحتمل أن يريد به :إنها صائرة إليك ولابد أن تعملها ، وهذا مأخوذ من الحديث الذى رواه الترمذى فى جامعه عن النبى ﷺ : « من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله » (٢) . قال الإمام أحمد فى تفسير هذا الحديث : من ذنب قد تاب منه ، وأيضًا : ففى التعيير ضرب خفى من الشماتة بالمعير .

وفى الترمذى أيضًا مرفوعًا : « لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك » (٣).

ويحتمل أن يريد : أن تعييرك لأخيك بذنبه أعظ إثما من ذنبه وأشد من معصيته ، لما فيه من صولة الطاعة وتزكية النفس وشكرها ، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب وأن أخاك باء به . ولعل كسرته بذنبه ، وما أحدث له من الذلة والخضوع والإزراء على نفسه ، والتخلص من مرض الدعوى والكبر والعجب ، ووقوفه بين يدى الله ناكس الرأس ، خاشع الطرف،منكسر القلب ـ أنفع له وخير من صولة طاعتك وتكثرك بها والاعتداد بها ، والمنة على الله وخلقه بها .

فما أقرب هذا العاصى من رحمة الله ، وما أقرب هذا المدل من مقت الله ، فذنب تذل به لديه أحب إليه من طاعة تدل بها عليه ، وإنك إن تبيت نائمًا وتصبح نادمًا ، خير من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا ، فإن المعجب لا يصعد له عمل . وإنك إن تضحك وأنت معترف خير من أن تبكى وأنت مدل . وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلين ، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلا هو فيك ولا تشعر .

فلله فى أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو ، ولا يطالعها إلا أهل البصائر ، فيعرفون منها بقدر ما تناله معارف البشر ، ووراء ذلك ما لا يطلع عليه الكرام الكاتبون ، وقد قال النبى ﷺ : « إذا زنت أمة أحدكم فليقم عليها الحد ولا يثرب » (٤). أى لا يعير من قول يوسف عليه السلام لإخوته : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ [يوسف : ٩٢] ، فإن الميزان

(١) أى قول صاحب المنازل .

(٢) الترمذى (٢٥٠٥) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب : ٥٣ ، وقال : « غريب وليس إسناده بمتصل » .

(٣) الترمذى (٢٥٠٦) فى صفة القيامة والرقائق والورع ، باب : ٥٤ ، وقال : « حسن غريب ».

(٤) البخارى (٦٨٣٩) فى الحدود ، باب : لا يثرب على الأمة إذا زنت ، ومسلم (١٧٠٣ / ٣٠) فى الحدود ، باب : رجم اليهود أهل الذمة فى الزنى .

بيد الله والحكم لله ، فالسوط الذى ضرب به هذا العاصى بيد مقلب القلوب ، والقصد إقامة الحد لا التعيير والتثريب . ولا يأمن كرات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله ، وقد قال الله تعالى لأعلم الخلق به وأقربهم إليه وسيلة : ﴿ **وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً** (٧٤) ﴾ [الإسراء] ، وقال يوسف الصديق ﴿ **وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [يوسف : ٣٣] ، وكانت عامة يمين رسول الله ﷺ : « لا ومقلب القلوب »(١)، وقال : « ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه » ثم قال : « اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » (٢) (٣).

فصل
فى النهى عن الحسد

عن إبراهيم بن أسيد عن جده عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ـ أو قال : العشب » (٤) .

جد إبراهيم : لم يسم ، وذكر البخارى إبراهيم هذا فى التاريخ الكبير وذكر له هذا الحديث ، وقال : لا يصح .

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى الزناد عن أنس : أن رسول الله ﷺ قال : «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، والصلاة نور المؤمن ، والصيام جنة من النار » (٥) .

ولما كان الحاسد يكره نعمة الله على عباده ، والمتصدق ينعم عليهم ، كانت صدقة هذا ونعمته تطفئ خطيئته وتذهبها ،وحسد هذا وكراهته نعمة الله على عباده : تذهب حسناته.

(١) البخارى (٧٣٩١) فى التوحيد ، باب : مقلب القلوب ، والترمذى (١٥٤٠) فى النذور والأيمان ، باب : ما جاء كيف كان يمين النبى ﷺ .

(٢) الترمذى (٢١٤٠) فى القدر ، باب : ما جاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن وقال : « حسن » ، وابن ماجه (٣٨٣٤) فى الدعاء ، باب : دعاء رسول الله ﷺ وقال : فى الزوائد : « مدار الحديث على يزيد الرقاشى وهو ضعيف » .

(٣) مدارج السالكين (١ / ١٧٦ ـ ١٧٨) .

(٤) أبو داود (٤٩٠٣) فى الأدب ، باب : فى الحسد ، وضعفه الألبانى .

(٥) ابن ماجه (٤٢١٠) فى الزهد ، باب : الحسد . وفى الزوائد : « الجملة الأولى رواها أبو داود فى سننه من حديث أبى هريرة ، وإسناد حديث أنس بن مالك فيه عيسى بن أبى عيسى ، وهو ضعيف » .

ولما كانت الصلاة مركز الإيمان ، وأصل الإسلام ، ورأس العبودية ، ومحل المناجاة والقربة إلى الله ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو مصل ، وأقرب ما يكون منه فى صلاته، وهو ساجد ، كانت الصلاة نور المسلم .

ولما كان الصوم يسد عليه باب الشهوات ، ويضيق مجارى الشيطان ، ولاسيما باب الأخوفين : الفم والفرج ، اللذين ينشأ عنهما معظم الشهوات : كان كالجنة من النار ، فإنه يتترس به من سهام إبليس .

وفى الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : « لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، ولا تقاطعوا ، وكونوا عباد الله إخوانًا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث »(١) (٢).

فصل
فى النهى عن سب الموتى

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات صاحبكُم فدعوه ، لا تقعُوا فيه » (٣) .

وقد روى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبوا الأموات ، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا » (٤) .

وأخرج النسائى من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال: « لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا » (٥) (٦).

---

(١) البخارى (٦٠٦٥) فى الأدب ، باب : ما ينهى عن التحاسد والتدابر ، ومسلم (٢٥٥٩ / ٢٣) فى البر والصلة والآداب ، باب : تحريم التحاسد والتباغض والتدابر .

(٢) تهذيب السنن (٧/ ٢٢٥ ، ٢٢٦) .

(٣) أبو داود (٤٨٩٩) فى الأدب ، باب : فى النهى عن سب الموتى .

(٤) البخارى (١٣٩٣) فى الجنائز ، باب : ما ينهى من سب الأموات .

(٥) النسائى (٤٧٧٥) فى القسامة ، باب : القود من اللطمة ، وضعفه الألبانى .

(٦) تهذيب السنن (٧/ ٢٢٤) .

فصل
فى النهى عن اللعن

عن أبى الدرداء ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد إذا لعن شيئًا صعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ، ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها ، ثم تأخذ يمينًا وشمالاً ، فإذا لم تجد مساغًا إلى الذى لُعن ، فإن كان لذلك أهلاً ، وإلا رجعت إلى قائلها » (١) .

وفى الصحيحين عن ثابت بن الضحاك قال : قال رسول الله ﷺ : « لعن المؤمن كقتله » (٢) .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « لا ينبغى لصديق أن يكون لعانًا » (٣) .

وفى الترمذى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس المؤمن بالطعان ، ولا اللعان ، ولا الفاحش ، ولا البذى ، وقال : حديث حسن (٤) (٥).

فصل
فى لعن الأنواع دون الأعيان

جواز لعن أصحاب الكبائر بأنواعهم دون أعيانهم ، كما لعن ﷺ السارق (٦) ، ولعن آكل الربا وموكله (٧) ، ولعن شارب الخمر وعاصرها (٨) ، ولعن من عمل عمل قوم

(١) أبو داود (٤٩٠٥) فى الأدب ، باب : فى اللعن .
(٢) البخارى (٦٠٤٧) فى الأدب ، باب : ماينهى عن السباب واللعن ، ومسلم (١١٠ / ١٧٦ مكرر) فى الإيمان، باب : غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه .
(٣) مسلم (٢٥٩٧ / ٨٤) فى البر والصلة والآداب ، باب : النهى عن لعن الدواب وغيرها .
(٤) الترمذى ((١٩٧٧) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى اللعنة ، وقال : « حسن غريب » .
(٥) تهذيب السنن ((٧ / ٢٢٨) .
(٦) البخارى (٦٧٨٣) فى الحدود ، باب : لعن السارق إذا لم يسم ، ومسلم (١٦٨٧ / ٧) فى الحدود ، باب : حد السرقة ونصابها .
(٧) البخارى (٥٩٦٢) فى اللباس ، باب : من لعن المصور ، وهو عن أبى جحيفة، ومسلم (١٥٩٧ / ١٠٥) فى المساقاة ، باب : لعن آكل الربا ومؤكله ، وهو عن عبد الله بن مسعود .
(٨) أبو داود (٣٦٧٤) فى الأشربة ، باب : العنب يعصر للخمر ، وابن ماجه (٣٣٨٠) فى الأشربة ، باب : لعنت الخمر على عشرة أوجه .

لوط[١] . ونهى عن لعن عبد الله حمار وقد شرب الخمر [٢] ، ولا تعارض بين الأمرين؛ فإن الوصف الذى علق عليه اللعن مقتض ، وأما المعين فقد يقوم به ما يمنع لحوق اللعن به من حسنات ماحية أو توبة ، أو مصائب مكفرة ، أو عفوٍ من الله عنه ، فتلعن الأنواع دون الأعيان [٣] .

فصل
فى النهى عن لعن البهيمة

عن عمران بن حصين أن النبى ﷺ كان فى سفر ، فسمع لعنةً ، فقال : « ما هذه ؟» قالوا : هذه فلانة ، لَعَنَتْ راحلتها ، فقال النبى ﷺ : « ضعُوا عنها ، فإنها ملعونة » ، فوضعوا عنها ، قال عمران : فكأنى أنظر إليها ناقة ورقاء » .وأخرجه مسلم والنسائى [٤].

والصواب أنه فعل ذلك عقوبة لها ؛لئلا تعود إلى مثل قولها ، وتلعن ما لا يستحق اللعن ، والعقوبة فى المال لمصلحة مشروعة بالاتفاق .

ولكن اختلفوا : هل نسخت بعد مشروعيتها أو لم يأت على نسخها حجة ؟ وقد حكى أبو عبد الله بن حامد عن بعض أصحاب أحمد أنه من لعن شيئا من متاعه زال ملكه عنه ، والله تعالى أعلم [٥] .

فصل
فى النهى عن تعاطى السيف مسلولا

إنه ﷺ نهى أن يتعاطى السيف مسلولا وما ذاك إلا أنه ذريعة إلى الإصابة بمكروه ، ولعل الشيطان يُعينه وينزع فى يده فيقع المحذور ويقرب منه [٦] .

(١) أحمد (١ / ٣٠٩) ، وصححه الشيخ شاكر (٢٨١٧) .
(٢) البخارى (٦٧٨٠) فى الحدود ، باب : ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج عن الله .
(٣) زاد المعاد (٥ / ٥٣) .
(٤) أبو داود (٢٥٦١) فى الجهاد ، باب:النهى عن لعن البهيمة ، ومسلم (٢٥٩٥ / ٨٠) فى البر والصلة والآداب ، باب : النهى عن لعن الدواب وغيرها ، والنسائى فى الكبرى (٨٨١٦) فى السير ، باب : لعن الإبل.
(٥) تهذيب السنن (٣ / ٣٩١) .
(٦) إعلام الموقعين (٣ / ١٩٧) .

فصل
فى النهى عن قول : لو

إنه ﷺ نهى الرجل بعد إصابة ما قدر له أن يقول : لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا، وأخبر أن ذلك ذريعة إلى عمل الشيطان ، فإنه لا يجدى عليه إلا الحزن والندم وضيقة الصدر والسخط على المقدور واعتقاد أنه كان يمكنه دفع المقدور لو فعل ذلك ، وذلك يضعف رضاه وتسليمه وتفويضه وتصديقه بالمقدور ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وإذا أعرض القلب عن هذا انفتح له عمل الشيطان .

وما ذاك لمجرد لفظ : لو ، بل لما قارنها من الأمور القائمة بقلبه المنافية لكمال الإيمان الفاتحة لعمل الشيطان ، بل أرشد العبد فى هذه الحال إلى ما هو أنفع له وهو الإيمان بالقدر والتفويض والتسليم للمشيئة الإلهية وأنه ما شاء الله كان ولا بد ، فمن رضى فله الرضى، ومن سخط فله السخط ، فصلوات الله وسلامه على من كلامه شفاء للصدور ، ونور للبصائر ، وحياة للقلوب ، وغذاء للأرواح ، وعلى آله ، فلقد أنعم به على عباده أتم نعمة، ومن عليهم به أعظم منة ، فلله النعمة ، وله المنة ، وله الفضل ، وله الثناء الحسن(١) .

فصل
فى النهى عن التفاخر بالأحساب

عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفخرها بالآباء : مؤمن تقى ، وفاجر شقى ، أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب، ليدعنَّ رجال فخرهم بأقوام ، إنما هم فحم من فحم جهنَّم ، أو ليكوننَّ أهون على الله من الجعلان التى تدفع بأنْفها النتن » . وأخرجه الترمذى ، وقال : حسن صحيح (٢).

الأنف : للإنسان وغيره . والجمع أنُف وأنوف وآناف .

الجُعَل :دُويبة معروفة ، وجمعها : جُعلان .

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٢٠٢) .

(٢) أبو داود (٥١١٦) فى الأدب ، باب : فى التفاخر بالأحساب ، والترمذى (٣٩٥٦) فى المناقب ، باب : فى فضل الشأم واليمن .

عُبِّيَّة الجاهلية ـ بضم العين المهملة وكسرها ـ قال الخطابى : « العبية » الكبر والنَّخْوة . وأصله من العبء ، وهو الثقل ، وأنكر بعضهم أن يكون من العَبء . وقال غيره : إن كانت بالضم : فهى من التعبية ؛ لأن المتكبر ذو تكلف وتعبية ، بخلاف من يسترسل على سجيته ، وإن كانت بالكسر : فهو من عُباب الماء وهو زخيره وارتفاعه .

وقد أخرج الترمذى من حديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر :أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة ، فقال : « يا أيها الناس ، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية ، وتعاظمها بآبائها ، الناس رجلان : مؤمن تقى كريم على الله ، وفاخر شقى هين على الله والناس بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب » . قال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** (١٣)﴾ [الحجرات] ، وقال : هذا حديث غريب ، لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار إلا من هذا الوجه (١) . وعبد الله بن جعفر ـ والد على يضعف ـ ضعفه يحيى بن معين وغيره .

وقال الترمذى أيضا من حديث الحسن عن سمرة يرفعه : « الحسب: المال ، والكرم : التقوى » . وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب (٢) (٣) .

فصل
فى المحمود والمذموم من التفاخر

الافتخار نوعان : مذموم ومحمود ، فالمذموم : إظهار مرتبته على أبناء جنسه ترفعًا عليهم ، وهذا غير مراد . والمحمود : إظهار الأحوال السنية والمقامات الشريفة بوحًا بها ، أى تصريحًا وإعلانًا ، لا على وجه الفخر بل على وجه تعظيم النعمة والفرح بها وذكرها ونشرها والتحدث بها ، والترغيب فيها وغير ذلك من المقاصد فى إظهارها ، كما قال النبى ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع مشفع ولا فخر » (٤) .

---

(١) الترمذى (٣٢٧٠) فى تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الحجرات .

(٢) الترمذى (٣٢٧١) فى تفسير القرآن الكريم ، باب : ومن سورة الحجرات .

(٣) تهذيب السنن (٨ / ١٥ ، ١٦) .

(٤) مسلم (٢٢٧٨ / ٣) فى الفضائل ، باب : تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ، وأبو داود (٤٦٧٣) فى السنن، باب : فى التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وقال سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه : أنا أول من رمى بسهم فى سبيل الله . وقال أبو ذر رضي الله عنه : لقد أتى على كذا وكذا وإنى لثالث الإسلام . وقال على رضي الله عنه : إنه لعهد النبى الأمى إلىَّ : أنه لا يحبنى إلا مؤمن ، ولا يبغضنى إلا منافق . وقال عمر رضي الله عنه : وافقت ربى فى ثلاث . وقال على رضي الله عنه ـ وأشار إلى صدره : إن هاهنا علمًا جماً ،لو أصبت له حَمَلَة . وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أخذت من فى رسول الله ﷺ سبعين سورة ، وإن زيداً ليلعب مع الغلمان .وقال أيضا : ما من كتاب الله آية إلا وأنا أعلم أين نزلت ؟ وماذا أريد بها ، ولو أعلم أن أحدًا أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لرحلت إليه . وقال بعض الصحابة : لأن تختلف فى الأسنة أحب إلىَّ من أن أحدث نفسى فى الصلاة بغير ما أنا فيه .وهذا أكثر من أن يذكر .

والصادق تختلف عليه الأحوال ، فتارة يبوح بما أولاه ربه ومنَّ به عليه .لا يطيق كتمان ذلك ، وتارة يخفيه ويكتمه لا يطيق إظهاره ، فتارة يقبض وتارة يبسط وينشط ، وتارة يجد لسانًا قائلاً لا يسكت ، وتارة لا يقدر أن ينطق بكلمة ، وتارة تجده ضاحكًا مسرورًا ، وتارة باكيًا حزينًا ، وتارة يجد جمعية لا سبيل للتفرقة عليها ، وتارة تفرقة لا جمعية معها ، وتارة يقول : واطرباه : وأخرى يقول : واحرباه ؛ بخلاف من هو على لون واحد لا يوجد على غيره ، فهذا لون والصادق لون [1] .

فصل

فى النهى عن الاطلاع فى بيت قوم بغير إذنهم

من اطلع فى بيت قوم من ثقب أو شق فى الباب بغير إذنهم فنظر حرمة أو عورة ، فلهم خذفه وطعنه فى عينه ، فإن انقلعت عينه فلا ضمان عليهم . قال القاضى أبو يعلى : هذا ظاهر كلام أحمد أنهم يدفعونه ولا ضمان عليهم من غير تفصيل . وفصل ابن حامد فقال: يدفعه بالأسهل فالأسهل ، فيبدأ بقوله :انصرف واذهب وإلا نفعل بك كذا . قلت : وليس فى كلام أحمد ولا فى السنة الصحيحة ما يقتضى هذا التفصيل ، بل الأحاديث الصحيحة تدل على خلافه ، فإن فى « الصحيحين » عن أنس أن رجلاً اطلع من جحر فى بعض حجر النبى ﷺ ، فقام إليه بمشقص أو بمشاقص ، وجعل يختله ليطعنه[2]، فأين

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٢٤) .

(٢) البخارى (٦٩٠٠) فى الديات ، باب : من اطلع فى بيت قوم ففقؤوا عينه فلا دية له ، ومسلم (٢١٥٧/ ٤٢) فى الآداب ، باب : تحريم النظر فى بيت غيره .

الدفع بالأسهل وهو ﷺ يختله أو يختبئ له ويختفى ليطعنه .

وفى« الصحيحين » أيضًا : من حديث سهل بن سعد أن رجلاً اطلع فى جحر فى باب النبى ﷺ ، وفى يد النبى ﷺ مدرى يحك به رأسه ، فلما رآه قال : « لو أعلم أنك تنظرنى لطعنت به فى عينك ، إنما جُعل الإذن من أجل البصر » (١) .

وفيهما أيضًا : عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن ، فخذفته بحصاة ففقأت عينه ، لم يكن عليك جناح » (٢) .

وفيهما أيضًا : « من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم ففقؤوا عينه ، فلا دية له ولا قصاص » (٣) . وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وقال : ليس هذا من باب دفع الصائل ، بل من باب عقوبة المعتدى المؤذى (٤) .

فصل
فى النهى عن قول : راعنا

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ [البقرة : ١٠٤] : نهاهم ـ سبحانه ـ أن يقولوا هذه الكلمة ـ مع قصدهم بها الخير ـ لئلا يكون قولهم ذريعة إلى التشبه باليهود فى أقوالهم وخطابهم ؛ فإنهم كانوا يخاطبون بها النبى ﷺ ويقصدون بها السب ، يقصدون فاعلا من الرعونة ، فنهى المسلمون عن قولها ؛ سداً لذريعة المشابهة ، ولئلا يكون ذلك ذريعة إلى أن يقولها اليهود للنبى ﷺ تشبها بالمسلمين ، يقصدون بها غير ما يقصده المسلمون ، ولئلا يخاطب بلفظ يحتمل معنى فاسداً (٥) .

فصل
فى النهى عن البول فى الجُحْر

إنه ﷺ نهى عن البول فى الجحر ، وما ذاك إلا لأنه قد يكون ذريعة إلى خروج

(١) البخارى (٦٩٠١) فى الديات ، باب : من اطلع فى بيت قوم ففقؤوا عينه فلا دية له ، ومسلم (٢١٥٦ / ٤٠) فى الآداب ، باب : تحريم النظر فى بيت غيره .

(٢) البخارى (٦٩٠٢) فى الديات ، باب : من اطلع فى بيت قوم ففقؤوا عينه فلا دية له ، ومسلم (٢١٥٨ / ٤٣) فى الآداب ، باب : تحريم النظر فى بيت غيره .

(٣) النسائى (٤٨٦٠) فى القسامة ، باب : من اقتص وأخذ حقه دون السلطان ، وأحمد (٢ / ٣٨٥) ولم يعزه صاحب التحفة (٩ / ٣٠٧) للبخارى ومسلم .

(٤) زاد المعاد (٥ / ٤٠٥ ، ٤٠٦) .

(٥) إعلام الموقعين (٣ / ١٧٨) .

حيوان يؤذيه ، وقد يكون من مساكن الجن فيؤذيهم بالبول ، فربما آذوه [١] .

فصل
فى إطلاق السيد على البشر

اختلف الناس فى جواز إطلاق (السيد) على البشر ، فمنعه قوم ، ونقل عن مالك. واحتجوا بأنه ﷺ لما قيل له : يا سيدنا ، قال : « إنما السيد الله » [٢] . وجوز قوم ، واحتجوا بقول النبى ﷺ للأنصار : « قوموا إلى سيدكم » [٣] ، وهذا أصح من الحديث الأول . قال هؤلاء : السيد أحد ما يضاف إليه ، فلا يقال لتميمى : إنه سيد كندة ، ولا يقال لمالك : إنه سيد البشر . قال : وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم ، وفى هذا نظر ؛ فإن السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو بمعنى المالك والمولى والرب ، لا بالمعنى الذى يطلق على المخلوق والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم [٤] .

فصل
فى النهى عن قول : عبدى وأمتى

إنه ﷺ نهى الرجل أن يقول لغلامه وجاريته : عبدى ، وأمتى ، ولكن يقول : فتاى، وفتاتى [٥]، ونهى أن يقول لغلامه : وضىء ربك ، أطعم ربك[٦] ؛ سداً لذريعة الشرك فى اللفظ والمعنى ، وإن كان الرب هاهنا هو المالك كرب الدار ورب الإبل،فعدل عن لفظ (العبد والأمة) إلى لفظ (الفتى والفتاة) ،ومنع من إطلاق لفظ الرب على

(١) إعلام الموقعين (٣ / ١٩٠) .
(٢) أبو داود (٤٨٠٦) فى الأدب ، باب : فى كراهية التمادح .
(٣) البخارى (٦٢٦٢) فى الاستئذان ، باب : قول النبى ﷺ : « قوموا إلى سيدكم » ، وأبو داود (٥٢١٥) فى الأدب ، باب : ما جاء فى القيام .
(٤) بدائع الفوائد (٣ / ٢١٣) .
(٥) البخارى (٢٥٥٢) فى العتق ، باب : كراهية التطاول على الرقيق ، ومسلم (٢٢٤٩ / ١٣) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب:حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد ، وأبو داود (٤٩٧٥) فى الأدب ، باب : لا يقول المملوك : « ربى وربتى » .
(٦) البخارى (٢٥٥٢) فى العتق ، باب : كراهية التطاول على الرقيق ، ومسلم (٢٢٤٩ / ١٥) فى الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب : حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد .

السيد، حماية لجانب التوحيد ، وسداً لذريعة الشرك [١] .

فصل
فى النهى عن قول : خبثت نفسى

إنه ﷺ نهى أن يقول الرجل : خبثت نفسى ، ولكن ليقل : لقست نفسى[٢] ؛ سداً لذريعة اعتياد اللسان للكلام الفاحش ، وسداً لذريعة اتصاف النفس بمعنى هذا اللفظ ، فإن الألفاظ تتقاضى معانيها وتطلبها بالمشاكلة والمناسبة التى بين اللفظ والمعنى ؛ ولهذا قل من تجده يعتاد لفظاً إلا ومعناه غالب عليه ، فسد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذريعة الخبث لفظًا ومعنى ، وهذا أيضًا من ألطف الباب[٣] .

فصل
فى النهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو

إنه ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو [٤] ؛ فإنه ذريعة إلى أن تناله أيديهم كما علل به فى نفس الحديث [٥] .

فصل
فى قول : جمعنا الله وإياك فى مستقر رحمته

ومن مسائل أحمد بن أحرم بن خزيمة بن عباد بن عبد الله بن حسان بن عبد الله بن المغفل المزنى الصحابى :

سمعته وقال له رجل : جمعنا الله وإياك فى مستقر رحمته ، فقال : لا تقل هكذا .

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ١٩٤) .
(٢) سبق تخريجه ص ٢٠١ .
(٣) إعلام الموقعين (٣/ ١٩٤) .
(٤) البخارى (٢٩٩٠) فى الجهاد ، باب : كراهية السفر بالمصاحف إلى أرض العدو ، ومسلم (١٨٦٩ / ٩٢ ، ٩٣) فى الإمارة ، باب : النهى أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار إذا خيف وقوعه بأيديهم ، وأبو داود (٢٦١٠) فى الجهاد ، باب : فى المصحف يسافر به إلى أرض العدو .
(٥) إعلام الموقعين (٣/ ١٩٨) .

قلت : اختلف السلف فى هذه الدعوة ، وذكرها البخارى فى كتاب الأدب المفرد له ، وحكى عن بعض السلف أنه كرهها وقال : مستقر رحمته ذاته .هذا معنى كلامه وحجة من أجازها ولم يكرهها ، الرحمة هنا المراد الرحمة المخلوقة ومستقرها الجنة . وكان شيخنا يميل إلى هذا القول ، انتهى (١) .

فصل
فى النهى عن الاغتسال فى الخلاء بلا إزار

عن عطاء ـ وهو ابن أبى رباح ـ عن يعلى ـ وهو ابن أمية ـ أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يغتسل بالبراز بلا إزار ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ﷺ : « إن الله عز وجل حيى ستير يحب الحياء والستر ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر » . وأخرجه النسائى(٢) .

وعن عطاء ، عن صفوان بن يعلى ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ بهذا الحديث . قال أبو داود : والأول أتم ، وأخرجه النسائى (٣) .

وأما الطريقان اللذان ذكرهما الترمذى : فأحدهما من طريق عبد الرزاق : حدثنا معمر عن أبى الزناد قال : أخبرنى ابن جرهد عن أبيه ـ فذكره ـ وقال الترمذى : هذا حديث حسن .

والطريق الثانية : من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل عن عبد الله بن جرهد الأسلمى عن أبيه عن النبى ﷺ : « الفخذ عورة » ثم قال : حسن غريب من هذا الوجه(٤) .

قال الترمذى : وفى الباب عن على ومحمد بن عبد الله بن جحش.

وحديث على: أشار إليه الترمذى : هو الذى ذكره أبو داود فى هذا الباب ، وقد

---

(١) بدائع الفوائد (٤ / ٧٢) .

(٢) أبو داود (٤٠١٢) فى الحمام ، باب : النهى عن التعرى ، والنسائى (٤٠٦) فى الغسل والتيمم ، باب : الاستتار عند الاغتسال .

(٣) أبو داود (٤٠١٣) فى الحمام ، باب : النهى عن التعرى ، والنسائى (٤٠٧) فى الغسل والتيمم ، باب : الاستتار عند الاغتسال .

(٤) الترمذى (٢٧٩٧ ، ٢٧٩٨) فى الأدب ، باب : ما جاء أن الفخذ عورة .

تقدم [١] .

وحديث محمد بن جحش : قد رواه الإمام أحمد فى مسنده ولفظه : مر رسول الله ﷺ على معمر وفخذاه مكشوفتان . فقال : « يامعمر ، غط فخذيك ، فإن الفخذين عورة» [٢] .

وفى مسند الإمام أحمد من حديث عائشة وحفصة ـ وهذا لفظ حديث عائشة : أن رسول الله ﷺ كان جالسًا كاشفًا عن فخذه ، فاستأذن أبو بكر ، فأذن له ، وهو على حاله، ثم استأذن عمر ، فأذن له ، وهو على حاله ، ثم استأذن عثمان فأرخى عليه ثيابه فلما قاموا قلت : يا رسول الله ، استأذن أبو بكر وعمر فأذنت لهما وأنت على حالك فلما استأذن عثمان أرخيت عليك ثيابك ؟ فقال : « يا عائشة ، ألا أستحى من رجل والله إن الملائكة لتستحى منه » [٣] .

وقد رواه مسلم فى صحيحه ، ولفظه عن عائشة : كان رسول الله ﷺ مضطجعًا كاشفًا عن فخذيه ، أو ساقيه . فاستأذن أبو بكر ، فأذن له ، وهو على تلك الحال ـ فذكر الحديث [٤] .

فهذا فيه الشك : هل كان كشفه عن فخذيه ، أو ساقيه؟

وحديث الإمام أحمد فيه الجزم بأنه كان كاشفًا عن فخذيه .

وفى صحيح البخارى من حديث أبى موسى الأشعرى : أن النبى ﷺ كان كاشفًا عن ركبتيه ـ فى قصة القف ـ فلما دخل عثمان غطاهما » [٥] .

وطريق الجمع بين هذه الأحاديث : ما ذكره غير واحد من أصحاب أحمد وغيرهم : أن العورة عورتان : مخففة ، ومغلظة ، فالمغلظة : السوأتان ، والمخففة : الفخذان .

ولا تنافى بين الأمر بغض البصر عن الفخذين لكونهما عورة ، وبين كشفهما لكونهما عورة مخففة ، والله تعالى أعلم [٦] .

---

(١) أى حديث عطاء رقم (٣٨٥٥) . انظر : تهذيب السنن (٦ / ١٥) ، أبو داود (٤٠١٥) فى الحمام ، باب : النهى عن التعرى ، وقال الألبانى : « ضعيف جداً » .

(٢) أحمد (٥ / ٢٩٠) .

(٣) أحمد (٦ / ٦٢) .

(٤) مسلم (٢٤٠١ / ٢٦) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٥) البخارى معلقا (الفتح ١ / ٤٧٨) فى الصلاة ، باب : ما يذكر فى الفخذ .

(٦) تهذيب السنن (٦ / ١٥ ـ ١٧) .

فصل
فى قول الرجل للرجل : فداك أبى وأمى

قلت (١) : يكره أن يقول الرجل للرجل فداك أبى وأمى ؟ قال (٢) : يكره أن تقول جعلنى الله فداك ولا بأس أن يقول : فداك أبى وأمى ، قال إسحاق : كما قال (٣) .

وأيضا

قال أحمد فى رواية ابن منصور : يكره أن يقول للرجل : جعلنى الله فداك . ولا بأس أن يقول : فداك أبى وأمى (٤) .

فصل
فى النهى عن انحناء الرجل للرجل إذا لقيه

إن النبى ﷺ نهى الرجل أن ينحنى للرجل إذا لقيه (٥) ، كما يفعله كثير من المتسببين إلى العلم ممن لا علم له بالسنة ، بل يبالغون إلى أقصى حد الانحناء مبالغة فى خلاف السنة جهلا ، حتى يصير أحدهم بصورة الراكع لأخيه ، ثم يرفع رأسه من الركوع .

كما يفعل إخوانهم من السجود بين يدى شيوخهم الأحياء والأموات ؛ فهؤلاء أخذوا من الصلاة سجودها ، وأولئك ركوعها .

وطائفة ثالثة قيامها ، يقوم عليهم الناس وهم قعود كما يقومون فى الصلاة فتقاسمت الفرق الثلاث أجزاء الصلاة .

والمقصود أن النبى ﷺ نهى عن انحناء الرجل لأخيه ، سداً لذريعة الشرك ، كما نهى عن السجود لغير الله ، وكما نهاهم أن يقوموا فى الصلاة على رأس الإمام وهو جالس ، مع أن قيامهم عبادة لله تعالى ، فما الظن إذا كان القيام تعظيما للمخلوق وعبودية له ؟

---

(١) القائل : الفضل بن زياد القطان .
(٢) أى : الإمام أحمد رحمه الله .
(٣) بدائع الفوائد (٤ / ٨٠) .
(٤) بدائع الفوائد (٤ / ١٢٢) .
(٥) الترمذى (٢٧٢٨) فى الاستئذان ، باب : ما جاء فى المصافحة ، وقال : « حسن » ، وابن ماجه (٣٧٠٢) فى الأدب ، باب : المصافحة .

فالله المستعان (١) .

فصل
فى النهى عن التسمية بأفلح ونافع ورباح ويسار

إنه ﷺ نهى أن يسمى عبده بأفلح ونافع ورباح ويسار (٢) ؛ لأن ذلك قد يكون ذريعة إلى ما يكره من الطيرة بأن يقال ليس هاهنا يسار ، ولارباح ، ولا أفلح ، وإن كان إنما قصد اسم الغلام ، ولكن سداً لذريعة اللفظ المكروه الذى يستوحش منه السامع (٣) .

فصل
فى النهى عن التسمية باسم بَرَّة

أنه ﷺ نهى أن يسمى باسم برة (٤) ؛ لأنه ذريعه إلى تزكية النفس بهذا الاسم ، وإن كان إنما قصد العلمية (٥) .

فصل جامع

قال معاذ : يا رسول الله ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار ، قال : « لقد سألت عن عظيم ،وإنه ليسير على من يسره الله عليه ،تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » .

ثم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ » قلت : بلى يا رسول الله ، قال : «الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل» .

ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله » .

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ١٩٩ ، ٢٠٠) .
(٢) أبو داود (٤٩٥٩) فى الأدب ، باب : فى تغيير الاسم القبيح .
(٣) إعلام الموقعين (٣/ ١٩٥) .
(٤) أبو داود (٤٩٥٣) فى الأدب ، باب : فى تغيير الاسم القبيح .
(٥) إعلام الموقعين (٣/ ١٩٥) .

ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » قلت : بلى يا رسول الله ، قال : « كف عليك هذا » ، وأشار إلى لسانه ، قلت : يا نبى الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال: « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» . حديث صحيح (١) .

وسأله ﷺ أعرابى فقال : دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة ، قال : « تعبد الله لا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان»، فقال : والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا ، ولا أنقص منه ، فلما ولى قال النبى ﷺ : « من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » . متفق عليه(٢).

وسأله ﷺ رجل آخر فقال : أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويبعدنى من النار ، فقال : « تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة ، وتصل الرحم » . متفق عليه (٣) .

وسأله أعرابى فقال : علمنى عملا يدخلنى الجنة ، فقال : « لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة ؛ أعتق النسمة ، وفك الرقبة » ، قال : أو ليسا واحداً ؟ قال : « لا، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين فى عتقها ، والمنحة الوكوف ، والفىء على ذى الرحم الظالم ، فإن لم تطق ذلك ، فأطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، فإن لم تطق ذلك ، فكف لسانك إلا من خير » . ذكره أحمد(٤) .

وسأله ﷺ رجل : ما الإسلام ؟ فقال : « أن يسلم قلبك لله ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » ،قال : فأى الإسلام أفضل ؟ قال : « الإيمان » ، قال : وما الإيمان ؟ قال:« تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت » ، قال: فأى الإيمان أفضل ؟ قال : « الهجرة » ، قال : وما الهجرة ؟ قال : « أن تهجر السوء » ، قال : فأى الهجرة أفضل ؟ قال : « الجهاد » ، قال : وما الجهاد ؟ قال : « أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم » ،

(١) الترمذى (٢٦١٦) فى الإيمان ، باب : ما جاء فى حرمة الصلاة ، وابن ماجه (٣٩٧٣) فى الفتن ، باب : كف اللسان فى الفتنة .

(٢) البخارى (١٣٩٧) فى الزكاة ، باب : وجوب الزكاة ، ومسلم (١٤ / ١٥) فى الإيمان ، باب : بيان الإيمان الذى يدخل به الجنة .

(٣) البخارى (١٣٩٦) فى الزكاة ، باب : وجوب الزكاة ، ومسلم (١٣ / ١٢) فى الإيمان ، باب : بيان الإيمان الذى يدخل به الجنة .

(٤) أحمد (٤ / ٢٩٩) .

قال : فأى الجهاد أفضل ؟ قال : « من عقر جواده ، وأهريق دمه ، ثم عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل بمثلهما ، حجة مبرورة أو عمرة » . ذكره أحمد(١) .

وسئل ﷺ :أى الأعمال أفضل ؟ فقال : « الإيمان بالله وحده ، ثم الجهاد ، ثم حجة مبرورة ، تفضل سائر العمل كما بين مطلع الشمس ومغربها » .

ذكره أحمد (٢) .

وسئل ﷺ أيضًا : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : « أن تحب لله ، وتبغض لله ، وتعمل لسانك فى ذكر الله » . قال السائل : وماذا يا رسول الله ؟ قال . « وأن تحب للناس ما تحب لنفسك ، وأن تقول خيراً أو تصمت »(٣) .

واختلف نفر من الصحابة فى أفضل الأعمال ؛فقال بعضهم : سقاية الحاج ، وقال بعضهم : عمارة المسجد الحرام ، وقال بعضهم : الحج ، وقال بعضهم : الجهاد فى سبيل الله ، فاستفتى عمر فى ذلك رسول الله ﷺ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩)** ﴾ إلى قوله ﴿ **فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [التوبة] (٤) .

وسأله ﷺ رجل ، فقال : يا رسول الله ، شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وصليت الخمس ، وأديت زكاة مالى ، وصمت شهر رمضان ، فقال : « من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة ، هكذا ـ ونصب أصابعه ـ ما لم يعق والديه » . ذكره أحمد (٥) .

وسأله ﷺ آخر ، فقال : أرأيت إذا صليت المكتوبة ، وصمت رمضان ، وأحللت الحلال ، وحرمت الحرام ، ولم أزد على ذلك شيئًا ، أدخل الجنة ؟ قال : « نعم »، قال: والله لا أزيد على ذلك شيئًا . ذكره مسلم (٦) .

وسئل ﷺ : أى الأعمال خير ؟ قال : « أن تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من

---

(١) أحمد (٤ / ١١٤) . (٢) أحمد (٤ / ٣٤٢) .

(٣) أحمد (٥ / ٢٤٧) .

(٤) مسلم (١٨٧٩ / ١١١) فى الإمارة ، باب : فضل الشهادة فى سبيل الله ، وأحمد (٤ / ٢٦٩) .

(٥) الهيثمى فى المجمع (٨ / ١٥٠) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى العقوق وقال : « رواه أحمد والطبرانى بإسنادين ورجال أحد إسنادى الطبرانى رجاله رجال الصحيح » .

(٦) مسلم (١٦ / ٢٢) فى الإيمان ، باب : بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام .

عرفت وعلى من لم تعرف » . متفق عليه (١) .

وسأله ﷺ أبو هريرة ، فقال : إنى إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى ، فأنبئنى عن كل شىء ، فقال : « كل شىء خلق من ماء » ، قال : أنبئنى عن أمر إذا أخذت به دخلت الجنة ، قال : « أفش السلام ، وأطعم الطعام ،وصل الأرحام ، وقم بالليل والناس نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام » . ذكره أحمد (٢) .

وسأله ﷺ آخر فشكا إليه قسوة قلبه ، فقال : « إذا أردت أن يلين قلبك ، فأطعم المسكين ، وامسح رأس اليتيم » (٣) .

وسئل ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ قال : « طول القيام » ، قيل : فأى الصدقة أفضل؟ قال : « جهد المقل » ، قيل : فأى الهجرة أفضل ؟ قال : « من هجر ما حرم الله عليه » ، قيل : فأى الجهاد أفضل ؟ قال : « من جاهد المشركين بماله ونفسه » ، قيل : فأى القتل أشرف ؟ قال : « من أهريق دمه وعقر جواده » . ذكره أبو داود (٤) .

وسئل ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ قال : « إيمان لا شك فيه ، وجهاد لا غلول فيه، وحج مبرور » (٥) .

وسأله ﷺ أبو ذر فقال : من أين أتصدق وليس لى مال ؟ قال : « إن من أبواب الصدقة التكبير ، وسبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، وأستغفر الله ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتعزل الشوكة عن طريق الناس والعظم والحجر ، وتهدى الأعمى ، وتسمع الأصم والأبكم ، حتى يفقه ، وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانها ، وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث ، وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف ، كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك ، ولك من جماعك لزوجتك أجر » ، فقال أبو ذر : فكيف يكون لى أجر فى شهوتى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أرأيت لو كان لك ولد ؛ ورجوت أجره فمات ، أكنت تحتسب به ؟ » قلت : نعم ، قال : « أنت خلقته ؟ » قلت : بل الله خلقه ، قال : « فأنت هديته ؟ » قلت : بل الله هداه ، قال : « فأنت

(١) البخارى (٢٨) فى الإيمان ، باب : إفشاء السلام من الإسلام ، ومسلم (٣٩ / ٦٣) فى الإيمان ، باب : بيان تفاضل الإسلام ، وأى أموره أفضل .

(٢) أحمد (٢ / ٢٩٥) ، وصححه الشيخ شاكر (٧٩١٩) .

(٣) أحمد (٢ / ٢٦٣) ، وضعفه الشيخ شاكر (٧٥٦٦) .

(٤) أبو داود (١٤٤٩) فى الصلاة ، باب : فى فضل التطوع فى البيت ، وقال الشيخ الألبانى : « صحيح بلفظ : أى الصلاة » .

(٥) النسائى (٤٩٨٦) فى الإيمان ، باب : ذكر أفضل الأعمال .

كنت رزقته ؟ » قلت : بل الله كان يرزقه ، قال : « فكذلك ، فضعه فى حلاله وجنبه حرامه ، فإن شاء الله أحياه وإن شاء الله أماته ، فلك أجره » . ذكره أحمد (١) .

وسأل ﷺ أصحابه يومًا : « من أصبح منكم اليوم صائمًا ؟ » قال أبو بكر : أنا ، قال: « من اتبع منكم اليوم جنازة ؟ » قال أبو بكر : أنا ، قال : « من أطعم منكم اليوم مسكينًا ؟ » قال أبو بكر : أنا ، قال : « فمن عاد منكم اليوم مريضًا ؟ » قال أبو بكر : أنا، قال رسول الله ﷺ : « ما اجتمعن فى رجل إلا دخل الجنة » . ذكره مسلم (٢) .

وسئل ﷺ : يا رسول الله ، الرجل يعمل العمل فيستره ، فإذا اطلع عليه أعجبه ، فقال : « له أجران : أجر السر ، وأجر العلانية » . ذكره الترمذى (٣) .

وسأله ﷺ أبو ذر : يا رسول الله ، أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه ؟ قال : « تلك عاجل بشرى المؤمن » . ذكره مسلم (٤) .

وسأله ﷺ رجل :أى العمل أفضل ؟ فقال : « الإيمان بالله ، وتصديق به ، وجهاد فى سبيله » . قال : أريد أهون من ذلك يا رسول الله ، قال : « السماحة والصبر » ، قال : أريد أهون من ذلك ، قال : « لا تتهم الله تعالى فى شىء قضى لك » . ذكره أحمد(٥) .

وسأله ﷺ عقبة عن فواضل الأعمال ، فقال : « يا عقبة ، صل من قطعك ، وأعط من حرمك ، وأعرض من عمن ظلمك » . ذكره أحمد (٦) (٧) .

وأيضًا

سأله ﷺ حمزة بن عبد المطلب فقال : اجعلنى على شىء أعيش به ، فقال رسول الله ﷺ : « يا حمزة ، نفس تحييها أحب إليك أم نفس تميتها ؟ » فقال : نفس أحييها ، قال : « عليك نفسك » .ذكره أحمد (٨) .

---

(١) أحمد (٥ / ١٦٨ ، ١٦٩) .

(٢) مسلم (١٠٢٨ / ١٢) فى فضائل الصحابة ، باب : من فضائل أبى بكر الصديق رضي الله عنه .

(٣) الترمذى (٢٣٨٤) فى الزهد ، باب : عمل السر ، وقال : « حسن غريب » .

(٤) مسلم (٢٦٤٢ / ١٦٦) فى البر والصلة والآداب ، باب : إذا أثنى على الصالح فهى بشرى ولا تضره .

(٥) أحمد (٥ / ٣١٨ ، ٣١٩) .

(٦) أحمد (٤ / ١٤٨) .

(٧) إعلام الموقعين (٤ / ٣٨٩ ـ ٣٩٤) .

(٨) أحمد (٢ / ١٧٥) ، وصححه الشيخ شاكر (٦٦٣٩) .

وسئل ﷺ : ما عمل الجنة ؟ قال : « الصدق ، فإذا صدق العبد بر ، وإذا بر آمن ، وإذا آمن دخل الجنة » [(١)] .

وسئل ﷺ : ما عمل أهل النار ؟ قال : « الكذب ، إذا كذب العبد فجر ، وإذا فجر كفر ، وإذا كفر دخل النار » [(٢)] .

وسئل ﷺ عن أفضل الأعمال ، فقال : « الصلاة » ، قيل : ثم مه ؟ قال : «الصلاة»، ثلاث مرات ، فلما غلب عليه قال : « الجهاد فى سبيل الله » ، قال الرجل : فإن لى والدين ، قال : « آمرك بالوالدين خيراً » ، قال : والذى بعثك بالحق نبيًا لأجاهدن ولأتركهما ، فقال : « أنت أعلم » . ذكره أحمد [(٣)] .

وسئل ﷺ عن الغرف التى فى الجنة يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، لمن هى ؟ قال : « لمن ألان الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات لله قائمًا والناس نيام » [(٤)] .

وسأله ﷺ رجل : أرأيت إن جاهدت بنفسى ومالى فقتلت صابراً محتسبًا ، مقبلا غير مدبر ، أدخل الجنة ؟ قال : « نعم » ، فقال ذلك مرتين أو ثلاثًا . قال : « إلا إن مت وعليك دين وليس عندك وفاؤه » [(٥)] ، وأخبرهم بتشديد أنزل ، فسألوه عنه ، فقال : «الدين ، والذى نفسى بيده ، لو أن رجلا قتل فى سبيل الله ، ثم عاش ، ثم قتل فى سبيل الله ، ثم عاش ، ثم قتل فى سبيل الله ما دخل الجنة حتى يقضى دينه » . ذكرهما أحمد [(٦)] .

وسأله ﷺ رجل عن أخيه مات وعليه دين ، فقال : « هو محبوس بدينه ، فاقض عنه » ، فقال : يا رسول الله ، قد أديت عنه إلا دينارين ادعتهما امرأة وليس لها بينة ، فقال : « أعطها فإنها محقة » . ذكره أحمد [(٧)] .

وفيه دليل على أن الوصى إذا علم بثبوت الدين على الميت جاز له وفاؤه وإن لم تقم به بينة .

وسألوه ﷺ أن يُسَعر لهم ، فقال : « إن الله هو الخالق القابض الباسط الرازق ،

(١ ، ٢) أحمد (٢ / ١٧٦) وصححه الشيخ شاكر (٦٦٤١) .
(٣) أحمد (٢ / ١٧٢) ، وصححه الشيخ شاكر (٦٦٠٢) .
(٤) أحمد (٢ / ١٧٣) ، وصححه الشيخ شاكر (٦٦١٥) .
(٥) أحمد (٣ / ٣٢٥) .
(٦) أحمد (٥ / ٢٨٩ ، ٢٩٠) .
(٧) أحمد (٥ / ٧) .

وإنى لأرجو أن ألقى الله ، ولا يطلبنى أحد بمظلمة ظلمتها إياه فى دم أو مال » . ذكره أحمد (١) (٢) .

وأيضًا

سأله ﷺ رجل ، فقال : إنى أصبت ذنبًا عظيما ، فهل لى من توبة ؟ فقال : « هل لك من أم ؟ » قال : لا ، قال : « فهل لك من خالة ؟ » قال : نعم . قال : « فبرها » . ذكره الترمذى وصححه (٣) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان رجل من الأنصار أسلم ، ثم ارتد ولحق بالمشركين ، ثم ندم فأرسل إلى قومه : سلوا لى رسول ﷺ هل لى من توبة ؟ فجاء قومه إلى النبى ﷺ فقالوا : هل له من توبة ؟ فنزلت : ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)﴾[آل عمران] فأرسل إليه فأسلم. ذكره النسائى (٤) .

وسئل ﷺ عن رجل أوجب فقال : « أعتقوا عنه » . ذكره أحمد وقوله : أوجب ، أى : فعل ما يستوجب النار .

وسئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت : ٢٩] قال : «كانوا يخذفون أهل الطريق ، ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذى كانوا يأتونه » . ذكره أحمد(٥) .

وسئل ﷺ : أيكون المؤمن جبانًا ؟ قال : « نعم » ، قالوا : أيكون بخيلا : قال : «نعم » ، قالوا : أيكون كذابًا ؟ قال : « لا » . ذكره مالك (٦).

وسألته ﷺ امرأة ، فقالت : إن لى ضرة ، فهل على جناح إن تشبعت من زوجى غير الذى يعطينى ؟ فقال : « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور » . متفق عليه (٧) .

---

(١) أحمد (٣ / ١٥٦) . (٢) إعلام الموقعين (٤ / ٤١٠ ، ٤١١) .

(٣) الترمذى (١٩٠٤) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى بر الخالة .

(٤) النسائى (٤٠٦٨) فى تحريم الدم ، باب : توبة المرتد .

(٥) أحمد (٦ / ٣٤١) .

(٦) مالك فى الموطأ ٢ / ٩٩٠ (١٩) فى الكلام ، باب : ما جاء فى الصدق والكذب .

(٧) البخارى (٥٢١٩) فى النكاح ، باب : المتشبع بما لم ينل وما ينهى من افتخار الضرة ، ومسلم (٢١٣٠ / ١٢٧) فى اللباس والزينة ، باب : النهى عن التزوير فى اللباس وغيره ، والتشبع بما لم يعط .

وفى لفظ : أقول : إن زوجى أعطانى ما لم يعطنى .

وسأله ﷺ رجل فقال : هل أكذب على امرأتى ؟ قال : « لا خير فى الكذب » ، فقال : يا رسول الله أعدها ، وأقول لها ، فقال رسول الله ﷺ : « لا جناح » . ذكره مالك (١) (٢) .

(١) مالك فى الموطأ ٢ / ٩٨٩ (١٥) فى الكلام ، باب : ما جاء فى الصدق والكذب .
(٢) إعلام الموقعين (٤ / ٤٩٢ ، ٤٩٣) .

كتاب الفروق والمفارقات

فصل
فى الفرق بين السماع والاستماع

السامع : هو الذى يصل الصوت إلى مسامعه من دون قصد إليه ، والمستمع : المصغى بسمعه إليه ، والأول غير مذموم فيما يذم استماعه ولا ممدوح فيما يمدح استماعه ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [القصص : ٥٥] فمدحهم على الإعراض عنه ولم يذمهم على سماعه إذا كان عن غير قصد منهم . وقال النبى ﷺ : « من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، صب فى أذنيه الآنك يوم القيامة » (١) أو كما قال ، وكذلك ما رواه الحافظ أبو بكر ومحمد بن محمد بن سليمان الباغندى فى الجزء الثانى من حديثه حدثنا أبو نعيم هو عبيد الله بن هشام الحلبى ـ وقال فيه أبو حاتم : صدوق ـ حدثنا ابن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :« من قعد إلى قينة يسمع منها صب يوم القيامة فى أذنيه الآنك » (٢) وفى بعض ألفاظه : « من قعد إلى قينة يستمع منها » وكذلك ما مدح من المستمع إنما هو الاستماع والإصغاء كقوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ⑰ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾[الزمر] وقال : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [الأحقاف : ٢٩] وقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] .

ولا يختص بحاسة السمع بل يتعلق بحاسة السمع ، ويتعلق بحاسة الشم والنظر واللمس كذلك ، فإن المحرم لا يحرم عليه شىء من الطيب إذا حملته الريح وألقته فى خياشيمه ولا يجب عليه سد أنفه كذلك ، وإنما الذى منع منه القصد لشمه واستنشاقه وتروحه وهذا شىء، ومجرد شمه من غير قصد شىء آخر ، وكذلك النظر إنما المحرم منه قصد النظر وإتباع النظرة النظرة ، لا نظر الفجاءة ؛ ولهذا قال النبى ﷺ : « ولا تتبع النظرة النظرة ، فإنما لك الأولى وليست لك الأخرى » (٣) ، وقال على : سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة فأمرنى أن أصرف بصرى (٤) وكذلك اللمس إنما المحرم منه قصد مس

(١) البخارى (٧٠٤٢) فى التعبير ، باب : من كذب فى حلمه .
(٢) كنز العمال (٤٠٦٦٩) ، والجامع الصغير للسيوطى (٨٤٢٨) وضعفه .
(٣) أبو داود (٢١٤٩) فى النكاح ، باب : ما يؤمر به من غض البصر، والترمذى (٢٧٧٧) فى الأدب ، باب : ما جاء فى نظرة المفاجأة ، وقال : « حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث شريك » ، وأحمد (٥ / ٣٥٣) .
(٤) مسلم(٢١٥٩ / ٤٥) فى الآداب، باب : نظر الفجاة ، وأبو داود (٢١٤٨) فى النكاح ، باب : ما يؤمر به من غض البصر ،وأحمد (٤ / ٣٥٨) ، كلهم عن جرير .

بشرته بشرة المحرم فلو وقعت بشرته على بشرة المحرم من غير قصد لزحمة أو غيرها لمن يكن ذلك حرما (١) .

فصل
فى الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب

قد جاء فى كتاب الله تعالى ذكرهما مقترنين ، وذكر كلا منهما منفرداً عن الآخر . فالمقترنان كقوله تعالى ـ حاكيًا من عباده المؤمنين : ﴿ **رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ** (١٩٣) ﴾ [آل عمران] ، والمنفرد كقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ** (٢) ﴾ [محمد] ، وقوله فى المغفرة ﴿ **وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾ [محمد : ١٥] ، وكقوله : ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا** ﴾ [آل عمران : ١٤٧] ونظائره .

فههنا أربعة أمور : ذنوب ، وسيئات ، ومغفرة ، وتكفير .

فالذنوب : المراد بها الكبائر . والمراد بالسيئات : الصغائر : وهى ما تعمل فيه الكفارة، من الخطأ وما جرى مجراه . ولهذا جعل لها التكفير . ومنه أخذت الكفارة . ولهذا لم يكن لها سلطان ولا عمل فى الكبائر فى أصح القولين . فلا تعمل فى قتل العمد. ولا فى اليمين الغموس فى ظاهر مذهب أحمد وأبى حنيفة والدليل على أن السيئات هى الصغائر ، والتكفير لها : قوله تعالى ﴿ **إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا** (٣١) ﴾ [النساء] وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » (٢) .

ولفظ « المغفرة » أكمل من لفظ « التكفير » . ولهذا كان مع الكبائر ، والتكفير مع الصغائر . فإن لفظ « المغفرة » يتضمن الوقاية والحفظ ، ولفظ « التكفير » يتضمن الستر والإزالة . وعند الإفراد يدخل كل منهما فى الآخر ، كما تقدم . فقوله تعالى : ﴿ **كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ** ﴾ يتناول صغائرها وكبائرها ، ومحوها ووقاية شرها . بل التكفير المفرد يتناول

---

(١) الكلام (٤١٣ ـ ٤١٥) .

(٢) مسلم (٢٣٣ / ١٦) فى الطهارة ، باب : الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر ، والترمذى (٢١٤) فى الصلاة ، باب : ما جاء فى فضل الصلوات الخمس، وابن ماجه (٥٩٨) فى الطهاره وسننها ، باب : تحت كل شعرة جنابة .

أسوأ الأعمال، كما قال تعالى : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ (١) [الزمر : ٣٥] .

فصل
فى الفرق بين المنة والحجة

إن العبد بين منة من الله عليه ، وحجة منه عليه ، ولا ينفك عنهما . فالحكم الدينى متضمن لمنته وحجته ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] ، وقال : ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [الحجرات : ١٧] ، وقال : ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ [الأنعام : ١٤٩] .

والحكم الكونى أيضًا متضمن لمنته وحجته ، فإذا حكم له كونًا حكمًا مصحوبًا باتصال الحكم الدينى به فهو مِنَّة عليه . وإن لم يصحبه الدينى فهو حجة منه عليه .

وكذلك حكمه الدينى إذا اتصل به حكمه الكونى . فتوفيقه للقيام به منة منه عليه . وإن تجرد عن حكمه الكونى صار حجة منه عليه . فالمنة : باقتران أحد الحكمين بصاحبه . والحجة : فى تجرد أحدهما عن الآخر . فكل علم صحبه عمل يرضى الله سبحانه فهو منة، وإلا فهو حجة .

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهى منة ، وإلا فهى حجة . وكل حال صحبه تأثير فى نصرة دينه ، والدعوة إليه فهو منة منه ، وإلا فهو حجة .

وكل مال اقترن به إنفاق فى سبيل الله وطاعته ، لا لطلب الجزاء ولا الشكور ، فهو منة من الله عليه ، وإلا فهو حجة .

وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه ، وإلا فهو حجة .

وكل قبول فى الناس ، وتعظيم ومحبة له ، اتصل به خضوع للرب ، وذل وانكسار ، ومعرفة بعيب النفس والعمل ، وبذل النصيحة للخلق فهو منة ، وإلا فهو حجة .

وكل بصيرة وموعظة وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد ، اتصل به عبرة ومزيد فى العقل ، ومعرفة فى الإيمان فهى منة ، وإلا فهى حجة .

وكل حال مع الله تعالى ، أو مقام اتصل به السير إلى الله ، وإيثار مراده على مراد العبد ، فهو منة من الله . وإن صحبه الوقوف عنده والرضا به ، وإيثار مقتضاه ، من لذة

(١) مدارج السالكين (٠/٣١٠ ـ ٣١٢) .

النفس به وطمأنينتها إليه ، وركونها إليه ، فهو حجة من الله عليه .

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر ، ويميز بين مواقع المنن والمحن ، والحجج والنعم . فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك . ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾ [البقرة] (١) .

فصل
فى الفرق بين النعمة المطلقة ومطلق النعمة

إن النعمة المطلقة هى الموجبة للفلاح الدائم ، وأما مطلق النعمة : فعلى المؤمن والكافر ، فكل الخلق فى نعمه . وهذا فصل النزاع فى مسألة : هل لله على الكافر من نعمة أم لا ؟ فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان ، ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم] .

والنعمة من جنس الإحسان ، بل هى الإحسان ، والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر ، والمؤمن والكافر .

وأما الإحسان المطلق : فللذين اتقوا والذين هم محسنون(٢) .

فصل
فى الفرق بين الشك والريب

الفرق بين الشك والريب من وجوه :

أحدها: أنه يقال : شك مريب ، ولا يقال : ريب مشكك .

الثانى : أن يقال : رابنى أمر كذا ، ولا يقال : شككنى .

الثالث : أنه يقال : رابه يريبه إذا أزعجه وأقلقه ، ومنه قول النبى ﷺ وقد مر بظبى خافت فى أصل شجرة : « لا يريبه أحد » (٣) . ولا يحسن هنا لا يشككه أحد .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ١٧٢ ، ١٧٣) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ١٢ ، ١٣) .

(٣) النسائى (٢٨١٨) فى الحج ، باب : ما يجوز للمحرم أكله من الصيد ، ومالك ١ / ٣٥١ (٧٩) فى الحج ، باب : ما يجوز للمحرم أكله من الصيد .

الرابع : أنه لا يقال للشاك فى طلوع الشمس أو فى غروبها أو دخول الشهر أو وقت الصلاة : هو مرتاب فى ذلك ، وإن كان شاكا فيه .

الخامس :أن الريب ضد الطمأنينة واليقين فهو قلق واضطراب وانزعاج ، كما أن اليقين والطمأنينة ثبات واستقرار .

السادس : يقال : رابنى مجيئه وذهابه وفعله ، ولا يقال : شككنى ، فالشك سبب الريب ، فإنه يشك أولا فيوقعه شكه فى الريب ، فالشك مبتدأ الريب ، كما أن العلم مبتدأ اليقين (١) .

فصل
فى الفرق بين دليل مشروعية الحكم ودليل وقوعه

الفرق بين دليل مشروعية الحكم وبين دليل وقوع الحكم: فالأول متوقف على الشارع، والثانى يعلم بالحس أو الخبر أو الزيادة ، فالأول الكتاب والسنة ليس إلا ، وكل دليل سواهما يستنبط منهما ، والثانى مثل العلم بسبب الحكم وشروطه وموانعه فدليل مشروعيته يرجع فيه إلى أهل العلم بالقرآن والحديث ، ودليل وقوعه يرجع فيه إلى أهل الخبرة بتلك الأسباب والشروط والموانع .

ومن أمثلة ذلك : بيع المغيب فى الأرض من السلجم والجزر والقلقاس وغيره ، فدليل المشروعية أو منعها موقوف على الشارع لا يعلم إلا من جهته ، ودليل سبب الحكم أو شروطه أو مانعه يرجع فيه إلى أصله ، فإذا قال المانع من الصحة : هذا غرر ؛ لأنه مستور تحت الأرض ، قيل :كون هذا غررًا أو ليس بغرر يرجع إلى الواقع لا يتوقف على الشرع ، فإنه من الأمور العادية المعلومة بالحس أو العادة ، مثل كونه صحيحًا أو سقيما وكبارا أو صغارا ونحو ذلك ، فلا يستدل على وقوع أسباب الحكم بالأدلة الشرعية كما لا يستدل على شرعيته بالأدلة الحسية ، فكون الشىء مترددا بين السلامة والعطب ، وكونه مما يجهل عاقبته وتطوى مغبته أو ليس كذلك ، يعلم بالحس أو العادة ، لا يتوقف على الشرع ، ومن استدل على ذلك بالشرع فهو كمن استدل على أن هذا الشراب مسكر بالشرع،وهذا ممتنع ، بل دليل إسكاره الحس ، ودليل تحريمه الشرع .

فتأمل هذه الفائدة ونفعها ، ولهذه القاعدة عبارة أخرى وهى : أن دليل سببية الوصف

---

(١) بدائع الفوائد (٤ / ١٠٦) .

غير دليل ثبوته ، فيستدل على سببيته بالشرع وعلى ثبوته بالحس أو العقل أو العادة ، فهذا شيء وذلك شيء (١) .

فصل
فى الفرق بين المسبية والأمة فى الاستمتاع

قد ذكر الإمام أحمد ﷺ أن عبد الله بن عمر وقع فى سهمه يوم جَلولاء جارية كأن عنقها إبريق فضة ، قال عبد الله : « فما صبرت أن قبلتها والناس ينظرون » ، وبهذا احتج الإمام أحمد على جواز الاستمتاع من المسبية قبل الاستبراء بغير الوطء ، بخلاف الأمة المشتراة .

والفرق بينهما أن انفساخ الملك لا يتوهم فى المسبية ، بخلاف المشتراة ؛ فقد ينفسخ فيها الملك ، فيكون مستمتعًا بأمة غيره (٢) .

فصل فى تفاوت درجات العشق
والعشاق ثلاثة أقسام :

منهم من يعشق الجمال المطلق .

ومنهم من يعشق الجمال المقيد ، سواء طمع فى وصاله أو لا .

ومنهم من لا يعشق إلا من يطمع فى وصاله .

وبين هذه الأنواع الثلاثة تفاوت فى القوة والضعف .

فعاشق الجمال المطلق ، يهيم قلبه فى كل واد ، وله فى كل صورة جميلة مراد :

فَيَوْماً بِحزْوَى ، وَيَوْماً بِالْعَقِيقِ وبالْـ ... عَذِيبِ يَوْماً ، وَيَوْماً بِالْخُلَيْصَاءِ
وَتَارَةً يَنْتَحِــي نَجْــداً وآونَــةً ... شُعْبَ الْعَقِيقِ وَطَوْراً قَصْرَ تَيْمَاءِ .

فهذا عشقه أوسع ، ولكنه غير ثابت كثير التنقل .

يَهِيمُ بِهذَا ثُمَّ يَعْشَقُ غَيْرَهُ ... وَيَسْلاَهُمْ مِنْ وَقْتِهِ حِينَ يُصْبِحُ

وعاشق الجمال المقيد أثبت على معشوقه ، وأدوم محبة له ، ومحبته أقوى من محبة الأول ، لاجتماعهما فى واحد ، ولكن يضعفهما عدم الطمع فى الوصال ، وعاشق الجمال

---

(١) بدائع الفوائد (٤ / ١٥) .

(٢) الداء والدواء (٣٩٦) .

الذى يطمع فى وصاله أعقل العشاق ، وحبه أقوى ؛ لأن الطمع يحده ويقوِّيه [١] .

فصل
فى الفرق بين الشهادة والرواية

الفرق بين الشهادة والرواية : أن الرواية يعم حكمها الراوى وغيره على ممر الأزمان ، والشهادة تخص المشهود عليه وله ولا يتعداهما إلا بطريق التبعية المحضة ، فإلزام المعين يتوقع منه العداوة وحق المنفعة والتهمة الموجبة للرد ، فاحتيط لها بالعدد والذكورية وردت بالقرابة والعداوة وتطرق التهم ، ولم يفعل مثل هذا فى الرواية التى يعم حكمها ولا يخص، فلم يشترط فيها عدداً ولا ذكورية ، بل اشترط فيها ما يكون مغلبا على الظن صدق المخبر ، وهو العدالة المانعة من الكذب ، واليقظة المانعة من غلبة السهو والتخليط . ولما كان النساء ناقصات عقل ودين لم يكنَّ من أهل الشهادة ، فإذا دعت الحاجة إلى ذلك قويت المرأة بمثلها ؛ لأنه حينئذ أبعد من سهوها وغلطها ؛ لتذكير صاحبتها لها وأما اشتراط الحرية ففى غاية البعد ، ولا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا إجماع . وقد حكى أحمد عن أنس ابن مالك أنه قال : ما علمت أحدًا رد شهادة العبد والله تعالى يقبل شهادته على الأمم يوم القيامة ، فكيف لا يقبل شهادته على نظيره من المكلفين ، ويقبل شهادته على الرسول ﷺ فى الرواية ، فكيف لا يقبل على رجل فى درهم . ولا ينتقض هذا بالمرأة ؛ لأنها تقبل شهادتها مع مثلها لما ذكرناه ، والمانع من قبول شهادتها وحدها منتفٍ فى العبد وعلى هذه القاعدة مسائل :

أحدها : الإخبار عن رؤية هلال رمضان من اكتفى فيه بالواحد جعله رواية لعمومه للمكلفين ، فهو كالأذان ، ومن اشترط فيه العدد ألحقه بالشهادة ؛ لأنه لا يعم الأعصار ولا الأمصار بل يخص تلك السنة وذلك المصر فى أحد القولين ، وهذا ينتقض بالأذان نقضا لا محيص عنه .

وثانيها : الإخبار بالنسب بالقافة ، فمن حيث أنه خبر جزئى عن شخص جزئى يخص ولا يعم جرى مجرى الشهادة ، ومن جعله كالرواية غلط فلا مدخل لها هنا ، بل الصواب أن يقال : من حيث هو منتصب للناس انتصابا عامًا يستند إلى أمر يختص به دونهم من الأدلة والعلامات جرى مجرى الحاكم ، فقوله حكم لا رواية . ومن هذا الجرح للمحدث والشاهد ، هل يكتفى فيه بواحد إجراءً له مجرى الحكم ؟ أو لابد من اثنين إجراء له مجرى الشهادة على الخلاف ؟ وأما أن يجرى مجرى الرواية فغير صحيح ، وأما للرواية والجرح وإنما هو يجرحه باجتهاده لا بما يرويه عن غيره .

---

(١) الداء والدواء (٤٠٠ / ٤٠١) .

ومنها : الترجمة للفتوى والخط والشهادة وغيرها هل يشترط فيها التعدد ؟ مبنى على هذا ، ولكن بناؤه على الرواية والشهادة صحيح ولا مدخل للحكم هنا .

ومنها : التقويم للسلع ،من اشترط العدد رآه شهادة ، ومن لم يشترطه أجراه مجرى الحكم لا الراوية .

ومنها : القاسم ، هل يشترط تعدده على هذه القاعدة ؟ والصحيح الاكتفاء بالواحد ؛ لقصة عبد الله بن رواحة .

ومنها : تسبيح المصلى بالإمام ، هل يشترط أن يكون المسبح اثنين ؟ فيه قولان مبنيان على هذه القاعدة .

ومنها : المخبر عن نجاسة الماء ، هل يشترط تعدده ؟ فيه قولان .

ومنها : الخارص ، والصحيح فى هذا كله الاكتفاء بالواحد كالمؤذن وكالمخبر بالقبلة ، وأما تسبيح المأموم بإمامه ففيه نظر .

ومنها : المفتى يقبل واحدا اتفاقا .

ومنها : الإخبار عن قدم العيب وحدوثه عند التنازع ، والصحيح الاكتفاء فيه بالواحد كالتقويم والقائف ، وقالت المالكية لابد من اثنين ، ثم تناقضوا فقالوا : إذا لم يوجد مسلم قُبل من أهل الذمة (١) .

فصل
فى الفرق بين حقوق المالك وحقوق الملك

حقوق المالك شىء وحقوق الملك شىء آخر ، فحقوق المالك تجب لمن له على أخيه حق ، وحقوق الملك تتبع الملك ولا يراعى بها المالك . وعلى هذا ، حق الشفعة للذمى على المسلم من أوجبه جعله من حقوق الأملاك ، ومن أسقطه جعله من حقوق المالكين ، والنظر الثانى أظهر وأصح ؛لأن الشارع لم يجعل للذمى حقًا فى الطريق المشترك عند المزاحمة فقال : « إذا لقيتموهم فى طريق فاضطروهم إلى أضيقه » (٢) ، فكيف يجعل له حقا فى انتزاع الملك المختص به عند التزاحم ؟ وهذه حجة الإمام أحمد نفسه ، وأما حديث « لا شفعة لنصرانى » فاحتج به بعض أصحابه ، وهو أعلم من أن يحتج به، فإنه من كلام بعض التابعين (٣) .

(١) بدائع الفوائد (١ / ٥ ، ٦) .
(٢) أبو داود (٥٢٠٢) فى الأدب ، باب : فى السلام على أهل الذمة ، وأحمد ٢ / ٢٦٣ ، ٤٥٩ ، ٥٢٥ .
(٣) بدائع الفوائد (١ / ٢) .

فصل
فى الفرق بين تمليك المنفعة وتمليك الانتفاع

تمليك المنفعة شيء وتمليك الانتفاع شيء آخر ، فالأول يملك به الانتفاع والمعاوضة ، والثانى يملك به الانتفاع دون المعاوضة ، وعليها إجارة ما استأجره ؛ لأنه ملك المنفعة ، بخلاف المعاوضة على البضع فإنه لم يملكه وإنما ملك أن ينتفع به ، وكذلك إجارة ما ملك أن ينتفع به من الحقوق كالجلوس بالرحاب وبيوت المدارس والرُّبُط ونحو ذلك لا يملكها ؛ لأنه لم يملك المنفعة ، وإنما ملك الانتفاع . وعلى هذا الخلاف تُخَرَّجُ إجارة المستعار ، فمن منعها ـ كالشافعى وأحمد ومن تبعهما قال : لم يملك المنفعة ، وإنما ملك الانتفاع ، ومَن جوزها ـ كمالك ومن تبعه قال : هو قد مَلك المنفعة ؛ ولهذا يلزم عنده بالتوقيت ، ولو أطلقها لزمت فى مدة ينتفع بمثلها عرفا فليس له الرجوع قبلها [1] .

فصل
فى الفرق بين ثمرة الطاعة وثمرة المعصية

كل ما تولَّد من الطاعة فهو زيادة لصاحبها وقربة ، وكل ما تولَّد عن المعصية فهو خسران لصاحبه وبُعد ، قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾ [التوبة] .

فأخبر ـ سبحانه ـ فى الآية الأولى : أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح .

وأخبر فى الثانية : أن أعمالهم الصالحة التى باشروها تكتب لهم أنفسها ، والفرق بينهما : أن الأول ليس من فعلهم ، وإنما تولد عنه ، فكتب لهم به عمل صالح ، والثانى

(١) بدائع الفوائد (١ / ٣) .

نفس أعمالهم فكتب لهم (١) .

فصل
فى الفرق بين اللذة المذمومة واللذة المحمودة

اللذة والسرور والفرح أمر مطلوب فى نفسه ، بل هو مقصود كل حى وعاقل ، وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهى تذم إذا أعقبت ألماً أعظم منها ، أو منعت لذة خيراً منها وأجلَّ ، فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات ، وفَوَّتَتْ أعظم اللذات والمسرات ؟ وتحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجه ما ، وهى لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها ، قال الله تعالى : ﴿ **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧)** ﴾ [الأعلى] . وقال السحرة لفرعون لما آمنوا : ﴿ **فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣)** ﴾ [طه] (٢) .

فصل
فى الفرق بين العلم والمعرفة

والفرق بين العلم والمعرفة لفظا ومعنى . أما اللفظ : ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد . تقول : عرفت الدار ، وعرفت زيداً . قال تعالى ﴿ **فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ** ﴾ [يوسف : ٥٨] ، وقال ﴿ **يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** ﴾ [الأنعام : ٢٠] وفعل « العلم » يقتضى مفعولين ، كقوله تعالى : ﴿ **فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ** ﴾ [الممتحنة: ١٠] وإن وقع على مفعول واحد ، كان بمعنى المعرفة، كقوله ﴿ **وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ [الأنفال : ٦٠] وأما الفرق المعنوى فمن وجوه :

أحدها : أن « المعرفة » تتعلق بذات الشىء ، و« العلم » يتعلق بأحواله .

فتقول : عرفت أباك ، وعلمته صالحًا عالمًا . ولذلك جاء الأمر فى القرآن بالعلم دون

---

(١) الداء والدواء (٣٤٤ ، ٣٤٥) .

(٢) الداء والدواء (٣٨٦) .

المعرفة ، كقوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد : ١٧] وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة : ٩٨] ، وقوله : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود : ١٤] .

فالمعرفة : حضور صورة الشىء ومثاله العلمى فى النفس ، والعلم : حضور أحواله وصفاته ، ونسبتها إليه . فالمعرفة : تشبه التصور . والعلم : يشبه التصديق .

الثانى : أن « المعرفة » ـ فى الغالب ـ تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه .

فإذا أدركه قيل : عرفه ، أو تكون لما وصف له بصفات قامت فى نفسه . فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها ، قيل : عرفه ، قال الله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : ٤٥] ، وقال تعالى: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨)﴾ [يوسف : ٥٨] ، وقال ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ﴾ الأنعام : ٢٠] لما كانت صفاته معلومة عندهم ، فرأوه : عرفوه بتلك الصفات . وفى الحديث الصحيح : « إن الله تعالى يقول لآخر أهل الجنة دخولا : أتعرف الزمان الذى كنت فيه ؟ فيقول : نعم . فيقول : تَمنَّ . فيتمنى على ربه »[1] .

وقال تعالى : ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة : ٨٩] فالمعرفة : تشبه الذكر للشىء . وهو حضور ما كان غائبًا عن الذكر ؛ ولهذا كان ضد المعرفة : الإنكار . وضد العلم : الجهل ، قال تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل : ٨٣] ويقال : عرف الحق فأقر به . وعرفه فأنكره .

الثالث : من الفرق : أن « المعرفة » تفيد تمييز المعروف عن غيره ، و « العلم » يفيد تمييز ما يوصف به عن غيره . وهذا الفرق غير الأول ، فإن ذاك يرجع إلى إدراك الذات وإدراك صفاتها . وهذا يرجع إلى تخليص الذات من غيرها ، وتخليص صفاتها من صفات غيرها .

الرابع : أنك إذا قلت : علمت زيداً ، لم يفد المخاطب شيئًا ؛ لأنه ينتظر بعد أن تخبره على أى حال علمته؟فإذا قلت: كريماً أو شجاعًا ، حصلت له الفائدة . وإذا قلت : عرفت زيداً ،استفاد المخاطب : أنك أثبته وميزته عن غيره . ولم يبق منتظراً لشىء آخر . وهذا الفرق فى التحقيق إيضاح للفرق الذى قبله .

---

(١) مسلم (١٨٦ / ٣٠٩) فى الإيمان ، باب : آخر أهل النار خروجًا ، والترمذى (٢٥٩٥) فى صفة جهنم ، باب: آخر أهل النار خروجًا .

الخامس : وهو فرق العسكرى فى فروقه ـ وفروق غيره : أن « المعرفة » علم بعين الشىء مفصلا عما سواه ، بخلاف « العلم » فإنه قد يتعلق بالشىء مجملاً . وهذا يشبه فرق صاحب المنازل ، فإنه قال : « المعرفة إحاطة بعين الشىء كما هو » وعلى هذا الحد : فلا يتصور أن يُعرف الله البتة . ويستحيل عليه هذا الباب بالكلية ، فإن الله ـ سبحانه ـ لا يحاط به علمًا ، ولا معرفة ولا رؤية . فهو أكبر من ذلك وأجل وأعظم ، قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [طه] بل حقيقة هذا الحد: انتفاء تعلق المعرفة بأكبر المخلوقات حتى بأظهرها ، وهو الشمس والقمر ، بل لا يصح أن يعرف أحد نفسه وذاته البتة .

والفرق بين « العلم » و « المعرفة » عند أهل هذا الشأن : أن « المعرفة » عندهم هى العلم الذى يقوم العالم بموجبه ومقتضاه ، فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده ، بل لا يصفون بالمعرفة إلا من كان عالمًا بالله ، وبالطريق الموصل إلى الله ، وبآفاتها وقواطعها (١) .

فصل
فى الفرق بين البدعة واتباع الهوى

إنه ـ سبحانه وتعالى ـ جمع بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض بالباطل (٢) ؛ لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به ، وهو الخوض ، أو يقع فى العمل بخلاف الحق والصواب ، وهو الاستمتاع بالخلاق ، فالأول : البدع ، والثانى : اتباع الهوى ، وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء ، وبهما كذبت الرسل وعُصى الربُّ ودُخلت النارُ ، وحَلت العقوبات ، فالأول من جهة الشبهات ، والثانى من جهة الشهوات ، ولهذا كان السلف يقولون : احذروا من الناس صنفين ؛ صاحب هوى فتنته هواه ، وصاحب دنيا أعجبته دنياه .

وكانوا يقولون : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ، ويعملون بخلافه ، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم .

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٣٣٥ ـ ٣٣٧) .

(٢) يقصد قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ [التوبة : ٦٩].

وفى صفة الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عن الدنيا : ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه . أتته البدع فنفاها ، والدنيا فأباها ، وهذه حال أئمة المتقين الذين وصفهم الله فى كتابه بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾ [السجدة]، فبالصبر تترك الشهوات ، وباليقين تدفع الشبهات، كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ آخر العصر ، وقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) ﴾ [ص] وفى بعض المراسيل : « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات » (١) .

فقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ ﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات وهو داء العصاة .

وقوله : ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ إشارة إلى الشبهات ، وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات ، وكثيراً ما يجتمعان ، فقلَّ من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر فى عمله (٢) .

فصل
فى الفرق بين العبد الرسول والملك الرسول

إن الله ـ سبحانه ـ خيَّره ﷺ بين أن يكون عبدًا رسولاً ، وبين أن يكون ملكًا رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً .

والفرق بينهما أن العبدَ الرسولَ لا يتصرَّف إلا بأمر سيده ومُرْسِله ، والملك الرسول له أن يُعطىَ مَن يشاء ، ويمنعُ من يشاء ، كما قال تعالى للملك الرسول سليمان : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) ﴾ [ص] أى : أعطِ مَن شئت ، وامنع من شئت ، لا نحاسبك ، وهذه المرتبة هى التى عرضت على نبينا ﷺ فرغب عنها إلى ما هو أعلى منها، وهى مرتبة العبودية المحضة التى تصرُّف صاحبها فيها مقصور على أمر السيد فى كل دقيق وجليل (٣) .

---

(١) تذكرة الموضوعات للفتنى ص ١٨٨ .
(٢) إعلام الموقعين (١ / ١٤٨) .
(٣) زاد المعاد (٥ / ٨٣ ، ٨٤) .

فصل
فى الفرق بين هبة المرأة ليلتها لضرتها ، وهبتها لزوجها

إن للمرأة أن تهب ليلتها لضرتها ، فلا يجوز له جعلها لغير الموهوبة ، وإن وهبتها للزوج، فله جعلها لمن شاء منهن ، والفرق بينهما أن الليلة حق للمرأة ، فإذا أسقطتها ، وجعلتها لضرتها ، تعينت لها ، وإذا جعلتها للزوج ،جعلها لمن شاء من نسائه (١) .

فصل
فى الفرق بين قول الزوج « اختارى »
وبين « أمرك بيدك »

فرق مالك بين « اختارى » وبين « أمرك بيدك » ، فجعل « أمــرك بيدك » تمليكا ، و« اختارى » تخييراً لا تمليكا .

قال أصحابه : وهو توكيل (٢) .

فى الفرق بين تعليق الطلاق وتعليق العتق

فإن قيل : فما الفرق بين تعليق الطلاق وتعليق العتق ؟ فإنه لو قال : إن ملكت فلانًا فهو حر ، صحَّ التعليق وعتق بالملك ؟ قيل : فى تعليق العتق قولان ، وهما روايتان عن أحمد كما عنه روايتان فى تعليق الطلاق ، والصحيح من مذهبه الذى عليه أكثر نصوصه وعليه أصحابه : صحة تعليق العتق دون الطلاق .

والفرق بينهما : أن العتق له قوة وسراية ولا يعتمد نفوذ الملك ، فإنه ينفذ فى ملك الغير، ويصح أن يكون الملك سبباً لزواله بالعتق عقلاً وشرعًا ، كما يزول ملكه بالعتق عن ذى رحمه المحرم بشرائه ، وكما لو اشترى عبداً ليعتقه فى كفارة أو نذر أو اشتراه بشرط العتق ، وكل هذا يشرع فيه جعل الملك سبباً للعتق ، فإنه قربة محبوبة لله تعالى ، فشرع الله ـ سبحانه ـ التوسل إليه بكل وسيلة مقضية إلى محبوبه ، وليس كذلك الطلاق فإنه بغيض إلى الله ، وهو أبغض الحلال إليه ، ولم يجعل ملك البضع بالنكاح سبباً لإزالته

---
(١) زاد المعاد (٥ / ١٥٢) .
(٢) زاد المعاد (٥ / ٢٨٨) .

البتة .

وفرق ثان : أن تعليق العتق بالملك من باب نذر القرب والطاعات والتبرر، كقوله : لئن أتانى الله من فضله لأتصدقن بكذا وكذا . فإذا وجد الشرط لزمه ما علقه به من الطاعة المقصودة ، فهذا لون وتعليق الطلاق على الملك لون آخر (١) .

فصل
فى الفرق بين الشجاعة والقوة

وكثير من الناس تشتبه عليه الشجاعة بالقوة ، وهما متغايران ، فإن الشجاعة هى ثبات القلب عند النوازل وإن كان ضعيف البطش (٢) .

فصل
فى الفرق بين القاضى والمفتى

القاضى والمفتى مشتركان فى أن كلا منهما يجب عليه إظهار حكم الشرع فى الواقعة ، ويتميز الحاكم بالإلزام به وإمضائه ، فشروط الحاكم ترجع إلى شروط الشاهد والمفتى والوالى، فهو مخبر عن حكم الشارع بعلمه مقبول بعدالته منفذ بقدرته(٣) .

فصل
فى الفرق بين العائن والحاسد

العائن والحاسد يشتركان فى شىء ويفترقان فى شىء .

فيشتركان فى أن كل واحد منهما تتكيف نفسه وتتوجه نحو من يريد أذاه ، فالعائن تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته ، والحاسد يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضًا .

ويفترقان فى أن العائن قد يصيب من لا يحسده من جماد أو حيوان أو زرع أو مال ،

---

(١) زاد المعاد (٥ / ٢١٧ ، ٢١٨) .

(٢) الفروسية (٣٢) .

(٣) بدائع الفوائد (٤ / ٢٢) .

وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه وربما أصابت عينه نفسه ؛ فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق مع تكيف نفسه بتلك الكيفية تؤثر فى المعين (١) .

فصل
فى الفرق بين الجنب والحائض

الحائض إذا انقطع دمها فهى كالجنب فيما يجب عليها ويحرم ، فيصح صومها وغسلها وتجب عليها الصلاة ، ولها أن تتوضأ وتجلس فى المسجد ، ويجوز طلاقها على أحد القولين إلا فى مسألة واحدة فإنها تخالف الجنب فيها وهى : جواز وطئها ؛ فإنه يتوقف على الاغتسال .

والفرق بينها وبين الجنب فى ذلك أن حدث الحيض أوجب تحريم الوطء وحدثه لا يزول إلا بالغسل ، بخلاف حدث الجنابة فإنه لا يوجب تحريم الوطء ، ولا يمكن ذلك فيه ألبتة . واستثنى بعض الفقهاء مسألة أخرى وهى نقض الشعر للغسل ، فإنه يجب على الحائض فى أحد القولين دون الجنب ، ولا حاجة إلى هذا الاستثناء ، فتأمله (٢) .

فصل
فى الفرق بين قتل تارك الصلاة وبين قتل الزانى والمحارب

الفرق بين قتل هذا (٣) حداً ، وقتل الزانى والمحارب : أن قتل تارك الصلاة ، إنما هو على إصراره على الترك فى المستقبل ، وعلى الترك فى الماضى ، بخلاف المقتول فى الحد ، فإن سبب قتله الجناية المتقدمة على الحد ؛ لأنه لم يبق له سبيل إلى تداركها ، وهذا له سبيل الاستدراك بفعلها بعد خروج وقتها عند الأئمة الأربعة وغيرهم ، ومن يقول من أصحاب أحمد : لا سبيل له إلا الاستدراك ـ كما هو قول طائفة من السلف ـ يقول : القتل هاهنا على ترك ، فيزول الترك بالفعل : فأما الزنا والمحاربة ، فالقتل فيهما على فعل، والفعل الذى مضى لا يزول بالترك (٤) .

---

(١) بدائع الفوائد (٢ / ٢٣١) .

(٢) بدائع الفوائد (٣ / ٢٥٧) .

(٣) أى تارك الصلاة .

(٤) كتاب الصلاة (٢٠) .

فصل
فى الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة

الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد فى نفسه وحاله مع غيره ، فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعى ما لا يحسن إن كان خلقًا له وملكة سمى صبراً ، وإن كان بتكلف وتمرن وتجرع لمرارته سمى تصبراً ، كما يدل عليه هذا البناء لغة ، فإنه موضوع للتكلف : كالتحلم والتشجع والتكرم والتحمل ونحوها .

وإذا تكلفه العبد واستدعاه صار سجية له ، كما فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : «ومن يتصبر يُصبره الله » (١) ، وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف له سجية، كذلك سائر الأخلاق .

وهى مسألة اختلف فيها الناس ، هل يمكن اكتساب واحد منها أم التخلق لا يصير خلقاً أبداً ؟ كما قال الشاعر :

يـراد مــن القـلب نسيانكـم ... وتأبى الطباع عـلى الـنـاقل

وقال آخر :

يــا أيهــا المتحلى غير شيمته ... إن التخلق يأتى دونـه الخـلق

فقبح التطبع شيمة المطبوع

قالوا : وقد فرغ الله ـ سبحانه ـ من الخفق والخلق والرزق والأجل .

وقالت طائفة أخرى : بل يمكن اكتساب الخلق كما يكتسب العقل والحلم والجود والسخاء والشجاعة والوجود شاهد بذلك .

وقالوا : والمزاولات تعطى الملكات ، ومعنى هذا : أن من زاول شيئاً واعتاده وتمرن عليه صار ملكة له وسجية وطبيعة . قالوا : والعوائد تنقل الطبائع ، فلا يزال العبد يتكلف التصبر حتى يصير الصبر له سجية ، كما أنه لا يزال يتكلف الحلم والوقار والسكينة والثبات حتى تصير له أخلاقاً بمنزلة الطبائع .

---

(١) البخارى (١٤٦٩) فى الزكاة ، باب : الاستعفاف عن المسألة ، ومسلم (١٠٥٣ / ١٢٤) فى الزكاة ، باب : فضل التعفف والصبر .

قالوا : وقد جعل الله ـ سبحانه ـ فى الإنسان قوة القبول والتعلم فنقل الطبائع عن مقتضياتها غير مستحيل ، غير أن هذا الانتقال قد يكون ضعيفاً فيعود العبد إلى طبعه بأدنى باعث ، وقد يكون قويًا ولكن لم ينقل الطبع ، فقد يعود إلى طبعه إذا قوى الباعث واشتد، وقد يستحكم الانتقال بحيث يستحدث صاحبه طبعاً ثانياً ، فهذا لا يكاد يعود إلى طبعه الذى انتقل عنه .

وأما الاصطبار : فهو أبلغ من التصبر ، فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب ، فالتصبر مبدأ الاصطبار ،كما أن التكسب مقدمة الاكتساب ، فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطباراً .

وأما المصابرة : فهى مقاومة الخصم فى ميدان الصبر ، فإنها مفاعلة تستدعى وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة ، قال الله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٢٠٠)﴾ [آل عمران] ، فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر فى نفسه ، والمصابرة وهى حاله فى الصبر مع خصمه ، والمرابطة وهى الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة ، فقد يصبر العبد ولا يصابر وقد يصابر ولا يرابط ، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى ، فأخبر ـ سبحانه ـ أن ملاك ذلك كله التقوى ، وأن الفلاح موقوف عليها فقال : ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٢٠٠)﴾ [آل عمران] ، فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذى يخاف هجوم العدو منه فى الظاهر ، فهى لزوم ثغر القلب ، لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته (١).

فصل
فى الفرق بين الأُمَّة والإمام

الفرق بين الأمة والإمام من وجهين :

أحدهما : أن « الإمام » كل ما يؤتم به ، سواء كان بقصده وشعوره أو لا ، ومنه سمى الطريق إماماً ، كقوله تعالى : ﴿ **وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ** (٧٨) **فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ** (٧٩)﴾ [الحجر] أى بطريق واضح لا يخفى على السالك ، ولا يسمى الطريق أمة.

(١) عدة الصابرين (٣٦ ، ٣٧) .

الثانى:أن « الأمة » فيه زيادة معنى وهو الذى جمع صفات الكمال من العلم والعمل ، بحيث بقى فيها فردًا وحده ، فهو الجامع لخصال تفرقت فى غيره ، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها فى غيره . ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها ، وكذلك ضم أوله ، فإن الضمة من الواو ومخرجها ينضم عند النطق بها ، وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة ، ومنه الحديث : « إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده » (١) فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة ، ومنه سميت الأمة التى هى آحاد الأمم ؛ لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو فى عصر واحد (٢) .

فصل
فى الفرق بين التفكر والتذكر

قال الحسن : ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت ، فإذا لها أسماع وأبصار .

فاعلم أن التفكر طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل منها ، هذا حقيقته ، فإنه لو لم يكن ثم مراد يكون مورداً للفكر استحال الفكر ؛ لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال ، وتلك المواد هى الأمور الحاصلة ، ولو كان المطلوب بها حاصلاً عنده لم يتفكر فيه .

فإذا عرف هذا فالمتفكر ينتقل من المقدمات والمبادئ التى عنده إلى المطلوب الذى يريده، فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغى إيثاره وما ينبغى اجتنابه ، فالتذكر هو مقصود التفكر وثمرته ، فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج ما لم يكن حاصلاً عنده ، فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره ، وبتذكره على تفكره ما دام عاقلاً ؛ لأن العلم والإرادة لا يقفان على حد بل هو دائماً سائر بين العلم والإرادة ، وإذا عرفت معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عمى القلب ، ويتذكر بها من غفلته ، فإن المضاد للعلم إما عمى القلب وزواله بالتبصر وإما غفلته وزواله بالتذكر (٣) .

---

(١) أحمد ١ / ١٨٩ ، ١٩٠ ، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٦٤٨) : « إسناده صحيح » .

(٢) مفتاح دار السعادة (١ / ١٧٤) .

(٣) مفتاح دار السعادة (١ / ٢١٣) .

فصل

فى الفرق بين فعله سبحانه وبين فعل عباده الذى هو مفعوله

فرق بين فعله ـ سبحانه ـ الذى هو فعله وبين فعل عباده الذى هو مفعوله ، فمحبته تعالى وكراهته للأول توجب وقوعه وامتناعه ، وأما محبته وكراهته للثانى فلا توجب وقوعه ولا امتناعه ، فإنه يحب الطاعة والإيمان من عباده كلهم ، وإن لم تكن محبته موجبة لطاعتهم وإيمانهم جميعًا ، إذ لم يحب فعله الذى هو إعانتهم وتوفيقهم وخلق ذلك لهم ، ولو أحب ذلك لاستلزم طاعتهم وإيمانهم ، ويبغض معاصيهم وكفرهم وفسوقهم ، ولم تكن هذه الكراهة والبغض مانعة من وقوع ذلك منهم ، إذ لم يكره ـ سبحانه ـ خذلانهم وإضلالهم لما له فى ذلك من الغايات المحبوبة التى فواتها يستلزم فوات ما هو أحب إليه من إيمانهم وطاعتهم .

فالرب تعالى يحب من عباده الطاعة والإيمان ، ويحب مع ذلك من تضرعهم وتذللهم وتوبتهم واستغفارهم ومن توبته ومغفرته وعفوه وصفحه وتجاوزه ما هو ملزوم لمعاصيهم وذنوبهم ، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع ، وإذا عقل هذا فى حق المذنبين فيعقل مثله فى حق الكفار وإن خلقهم ، وإضلالهم لازم لأمور محبوبة للرب تعالى لم تكن تحصل إلا بوجود لازمها ، إذ وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع ، فكانت تلك الأمور المحبوبة والغايات المحمودة متوقفة على خلقهم وإضلالهم توقف الملزوم على لازمه .

ونكتة المسألة : الفرق بين ما هو فعل له تستلزم محبته وقوعه منه ، وبين ما هو مفعول له لا تستلزم محبته له وقوعه من عبده ، وإذا عرف هذا فالظلم والكفر والفسوق والعصيان وأنواع الشرور واقعة فى مفعولاته المنفصلة التى لا يتصف بها دون أفعاله القائمة به ، ومن انكشف له لهذا المقام فهم معنى قوله ﷺ : « والشر ليس إليك »(١) . فهذا الفرق العظيم يزيل أكثر الشبه التى حارت لها عقول كثير من الناس فى هذا الباب ، وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

فما فى مخلوقاته ومفعولاته تعالى من الظلم والشر فهو بالنسبة إلى فاعله المكلف الذى قام به الفعل ، كما أنه بالنسبة إليه يكون زنا وسرقة وعدواناً وأكلاً وشرباً ونكاحاً ، فهو

---

(١) مسلم (٧٧١ / ٢٠١) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ، والنسائى (٨٩٧) فى الافتتاح ، باب : الذكر والدعاء بين التكبير والقراءة .

الزانى السارق الآكل الناكح والله خالق كل فاعل وفعله ، وليست نسبة هذه الأفعال إلى خالقها كنسبتها إلى فاعلها الذى قامت به ، كما أن نسبة صفات المخلوقين إليه كطوله وقصره وحسنه وقبحه وشكله ولونه ليست كنسبتها إلى خالقها فيه . فتأمل هذا الموضع ، وأعط الفرق حقه وفرق بين النسبتين ، فكما أن صفات المخلوق ليست صفات لله بوجه وإن كان هو خالقها ، فكذلك أفعاله ليست أفعالاً لله تعالى ولا إليه وإن كان هو خالقها(١).

فصل
فى الفرق بين الفسق والمعصية

الفسق أخص بارتكاب النهى ، ولهذا يطلق عليه كثيرًا ، كقوله تعالى ﴿ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، والمعصية أخص بمخالفة الأمر .

ويطلق كل منها على صاحبه ، كقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف : ٥٠] ، فسمى مخالفته للأمر فسقا ، وقال : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ [طه : ١٢١] ، فسمى ارتكابه للنهى معصية .

فهذا عند الإفراد ، فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر ، والآخر لمخالفة النهى (٢) .

فصل
فى الفرق بين الجد والعزم

الفرق بين الجد والعزم : أن « العزم » صدق الإرادة واستجماعها ، « والجد » صدق العمل وبذل الجهد فيه (٣) .

فصل
فى الفرق بين الحزن والهم

الفرق بينهما : أن المكروه الذى يرد على القلب ، إن كان لما يستقبل : أورثه الهم ، وإن كان لما مضى : أورثه الحزن . وكلاهما مضعف للقلب عن السير ، مُفَتِّرٌ للعزم (٤) .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢ / ١١١)

(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٦٢) .

(٣) مدارج السالكين (١ / ٤٧٠) .

(٤) مدارج السالكين (١ / ٥٠٦) .

فصل
فى الفرق بين الكفر الأكبر والأصغر

الكفر نوعان: كفر أكبر ، وكفر أصغر. فالكفر الأكبر : هو الموجب للخلود فى النار . والأصغر : موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود (١) .

فصل
فى الفرق بين مفسدة العشق ومفسدة الفاحشة

لا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم (٢) ومفسدة الفاحشة ؛ فإن تلك ذنب كبير لفاعله حكم أمثاله ، ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك ،وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول : لأن أُبْتَلَى بالفاحشة مع تلك الصورة أحبُّ إلىَّ من أن أبتلى فيها بعشق يتعبد لها قلبى ويشغله عن الله (٣) .

فصل
فى الفرق بين الشح والبخل

الفرق بين الشح والبخل : أن الشح : هو شدة الحرص على الشيء ، والإحفاء فى طلبه ، والاستقصاء فى تحصيله ، وجشع النفس عليه . والبخل : منع إنفاقه بعد حصوله، وحبه وإمساكه ، فهو شحيح قبل حصوله بخيل بعد حصوله فالبخل ثمرة الشح ، والشح يدعو إلى البخل ، والشح كامن فى النفس ، فمن بخل فقد أطاع شحه ، ومن لم يبخل فقد عصى شحه ووُقِى شره ، وذلك هو المفلح : ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر : ٩ ، التغابن : ١٦] (٤) .

فصل
فى الفرق بين الإيثار والأثرة

الفرق بين الإيثار والأثرة : أن الإيثار تخصيص الغير بما تريده لنفسك ، والأثرة

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٣٥) .
(٢) أى العشق .
(٣) الداء والدواء (٣٥٥) .
(٤) الوابل الصيب (٦٤) .

اختصاصك به على الغير ، وفى الحديث : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا (١) (٢) .

فصل
فى الفرق بين التوقى والحذر

التوقى والحذر متقاربان ، إلا أن « التوقى » فعل الجوارح و « الحذر » فعل القلب . فقد يتوقى العبد الشىء لا على وجه الحذر والخوف ولكن لأمور أخرى : من إظهار نزاهة وعزة وتصوف . أو اعتراض آخر ،كتوقى الذين لا يؤمنون بمعاد ولا جنة ولا نار ما يتوقونه من الفواحش والدناءة تصوناً عنها ورغبة بنفوسهم عن مواقعتها وطلبًا للمحمدة ونحو ذلك(٣) .

فصل
فى الفرق بين الرغبة والرجاء

الفرق بين الرغبة والرجاء : أن الرجاء طمع والرغبة طلب ، فهى ثمرة الرجاء فإنه إذا رجا الشىء طلبه،والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف، فمن رجا شيئا طلبه ورغب فيه ، ومن خاف شيئاً هرب منه (٤) .

فصل
فى الفرق بين الواثق بالله والمغرور به

الفرق بينهما : أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به ووثق بالله فى طلوع ثمرته وتنميتها وتزكيتها ، كغارس الشجرة وباذر الأرض ، والمغتر العاجز : قد فرط فيما أمر به ، وزعم أنه واثق بالله ، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود (٥).

---

(١) البخارى (٧١٩٩) فى الأحكام ، باب : كيف يبايع الإمام الناس ، ومسلم (١٧٠٩ / ٤١) فى الإمارة ، باب : وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية وتحريمها فى معصية .

(٢) طريق الهجرتين (٢٩٨) .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٢٣) .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٥٥) .

(٥) مدارج السالكين (٢ / ١٢٤) .

فصل
فى الفرق بين الحمد والشكر

تكلم الناس فى الفرق بين « الحمد » و « الشكر » أيهما أعلى وأفضل ؟ وفى الحديث « الحمد رأس الشكر ، فمن لم يحمد الله لم يشكره » (١) .

والفرق بينهما : أن « الشكر » أعم من جهة أنواعه وأسبابه وأخص من جهة متعلقاته، و« الحمد » أعم من جهة المتعلقات وأخص من جهة الأسباب .

ومعنى هذا : أن الشكر يكون بالقلب خضوعاً واستكانة ، وباللسان ثناء واعترافاً ، وبالجوارح طاعة وانقياداً ، ومتعلقه : النعم ، دون الأوصاف الذاتية ، فلا يقال : شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه وهو المحمود عليها ، كما هو محمود على إحسانه وعدله . والشكر يكون على الإحسان والنعم .

فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس ، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس ، فإن الشكر يقع بالجوارح ، والحمد يقع بالقلب واللسان (٢) .

فصل
فى الفرق بين ولاية النعت وولاية العين والذات

الفرق بين ولاية « النعت » وولاية « العين والذات » : أن النعت صفة ومن شاهد الصفة ، فلابد أن يشاهد متعلقاتها ، فإن النظر فى متعلقاتها يكسبه التعظيم للمتصف بها، فإن من شاهد العلم القديم الأزلى متعلقاً بسائر المعلومات التى لا تتناهى - من واجب وممكن ومستحيل - ومن شاهد الإرادة الموجبة لسائر الإرادات على تنوعها - من الأفعال والأعيان والحركات والأوصاف التى لا تتناهى - وشاهد القدرة التى هى كذلك وشاهد صفة الكلام الذى لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر وأشجار العالم كلها أقلام يكتب بها كلام الرب جل جلاله لفنيت البحار ونفدت الأقلام ، وكلام الله عز وجل لا ينفد ولا يفنى - فمن شاهد الصفات كذلك وجال قلبه فى عظمتها فهو مشغول بالصفات ، ومتفرق قلبه فى

---

(١) البيهقى فى شعب الإيمان (٤٣٣٥) ، ومصنف عبد الرزاق (١٩٥٧٤) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٤٦) .

متعلقاتها وتنوعها فى أنفسها . بخلاف من قصر نظره على نفس الذات وشاهد قدمها وبقاءها ، واستغرق قلبه فى عظمة تلك الذات بقطع النظر عن صفاتها ، فهو مشاهد للعين والأول مشاهد للصفات ، فالأول فى فرق وهذا فى جمع . فمن استغرق قلبه فى هذا المشهد استحق اسم « المشاهد » ، ووصف « المشاهدة » عند القوم إذا غاب عن إدراك رسمه وكل ما فيه من علم أو عمل أو حال (١) .

فصل
فى الفرق بين علم اليقين وعين اليقين

الفرق بين علم اليقين وعين اليقين كالفرق بين الخبر الصادق والعيان ، وحق اليقين فوق هذا .

وقد مثلت المراتب الثلاثة بمن أخبرك : أن عنده عسلا وأنت لا تشك فى صدقه ، ثم أراك إياه ، فازددت يقيناً ، ثم ذقت منه . فالأول : علم اليقين . والثانى : عين اليقين . والثالث : حق اليقين .

فعلمنا الآن بالجنة والنار : علم يقين . فإذا أزلفت الجنة فى الموقف للمتقين ، وشاهدها الخلائق ، وبرزت الجحيم للغاوين ، وعاينها الخلائق ، فذلك : عين اليقين . فإذا أدخل أهل الجنة وأهل النار النار ، فذلك حينئذ حق اليقين (٢) .

فصل
فى الفرق بين الشوق والمحبة

الفرق بينهما فرق ما بين الشىء وأثره ، فإن الحامل على الشوق هو المحبة ؛ ولهذا يقال : لمحبتى له اشتقت إليه ، وأحببته فاشتقت إلى لقائه . ولا يقال : لشوقى إليه أحببته ، ولا اشتقت إلى لقائه فأحببته ، فالمحبة بذر فى القلب ، والشوق بعض ثمرات ذلك البذر . وكذلك من ثمراتها حمد المحبوب ، والرضا عنه ، وشكره ، وخوفه ، ورجاؤه ، والتنعم بذكره ، والسكون إليه ، والأنس به ، والوحشة بغيره ، وكل هذه من أحكام المحبة وثمراتها ، وهو حياتها . فمنزلة الشوق من المحبة منزلة الهرب من البغضاء

(١) مدارج السالكين (٣ / ٢٣٢ ، ٢٣٣) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٠٣) .

والكراهة ، فإن القلب إذا أبغض الشيء وكرهه جد فى الهرب منه ، وإذا أحبه جد فى الهرب إليه وطلبه ، فهو حركة القلب فى الظفر بمحبوبه ؛ ولشدة ارتباط الشوق بالمحبة يقع كل واحد منهما موقع صاحبه ، ويفهم منه ويعبر به عنه (١) .

فصل
فى الفرق بين العز والذل

العز ضد الذل ، والذل أصله الضعف والعجز ، فالعز يقتضى كمال القدرة ؛ ولهذا يوصف به المؤمن ولا يكون ذمًا ، بخلاف الكبر. قال رجل للحسن البصرى : إنك متكبر . فقال : لست بمتكبر ، ولكنى عزيز . وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] وقال ابن مسعود : مازلنا أعزة منذ أسلم عمر . وقال النبى ﷺ : « اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين : عمر بن الخطاب ، أو أبى جهل بن هشام » (٢) وفى بعض الآثار : إن الناس يطلبون العزة فى أبواب الملوك ، ولا يجدونها إلا فى طاعة الله عز وجل . وفى الحديث : « اللهمَّ أَعِزنا بِطاعَتِك ، ولا تُذِلَّنا بِمَعْصِيَتِك » (٣) . وقال بعضهم: من أراد عزًا بلا سلطان، وكثرة بلا عشيرة ، وغنى بلا مال ، فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة .

فالعزة من جنس القدرة والقوة ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : «المؤمنُ القوىّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كلّ خير » (٤). فالقدرة إن لم يكن معها حكمة بل كان القادر يفعل ما يريده بلا نظر فى العاقبة ، ولا حكمة محمودة يطلبها بإرادته ويقصدها بفعله ، كان فعلها فسادا ، كصاحب شهوات الغىّ والظلم ، الذى يفعل بقوته ما يريده من شهوات الغى فى بطنه وفرجه ومن ظلم الناس ، فإن هذا وإن كان له بقوة وعزة لكن لما لم يقترن بها حكمة كان ذلك معونة على شره وفساده (٥) .

---

(١) طريق الهجرتين (٣٢٨) .

(٢) الترمذى (٣٦٨١) فى المناقب ، باب : فى مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقال : « حسن صحيح غريب » .

(٣) لم نقف عليه ، وفى الجواب الكافى لابن القيم أنه من دعاء بعض السلف .

(٤) مسلم (٢٦٦٤ / ٣٤) فى القدر ، باب : فى الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله ، وابن ماجه (٧٩) فى المقدمة ، باب : فى القدر .

(٥) طريق الهجرتين (١٠٩) .

فصل
في الفرق بين الشوق والاشتياق

قال أبو عبد الرحمن السلمى : سمعت النصراباذى يقول : للخلق كلهم مقام الشوق، وليس لهم مقام الاشتياق . ومن دخل فى حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار .وهذا يدل على أن الاشتياق عنده غير الشوق ، ولا ريب أن الاشتياق مصدر اشتاق يشتاق اشتياقا ، كما أن التشوق مصدر تشوق تشوقا ، والشوق فى الأصل اسم مصدر شاقه يشوقه شوقا مثل شاقه شوقا إذا دعاه إلى الاشتياق ، فالاشتياق مطاوع شاقه يقال : يشاقنى فاشتقت إليه . ثم صار الشوق اسم مصدر الاشتياق وغلب عليه حتى لا يفهم عند الإطلاق إلا الاشتياق القائم بالمشوق ، والمشوق هو الصب المشتاق ، والشائق هو الذى قام به وادعى الشوق .

فهاهنا ألفاظ الشوق والاشتياق والتشوق والشائق والمشوق والشيق. فهذه ستة ألفاظ : أحدها : الشوق ، وهو فى الأصل مصدر الفعل المتعدى شاقه يشوقه ، ثم صار اسم مصدر الاشتياق . اللفظ الثانى : الاشتياق ، وهو مصدر اشتاق اشتياقا ، والفرق بينه وبين الشوق هو الفرق بين المصدر واسم المصدر . اللفظ الثالث : التشوق ، وهو مصدر تشوق إذا اشتاق مرة بعد مرة كما يقال : تجرع وتعلم وتفهم : وهذا البناء مشعر بالتكلف وتناول الشىء على مهلة . اللفظ الرابع : الشائق ، وهو الداعى للمشوق إلى الاشتياق . اللفظ الخامس : المشوق ، وهو المشتاق الذى قد حصل له الشوق ، اللفظ السادس : الشيق ، وهو فيعل بمنزلة هين ولين ، وهو المشتاق .

فهذه فروق ما بين هذه الألفاظ ، وأما كون الاشتياق أبلغ من الشوق فهذا قد يقال فيه: إنه الأصل وهو أكثر حروفا من الشوق ، وهو يدل على المصدر والفاعل . وأما الشوق ففرع عليه لأنه اسم مصدر وأقل حروفا ، وهو إنما يدل على المصدر المجرد فهذه ثلاثة فروق منها ، والله أعلم [١] .

فصل
فيما تفترق فيه المرأة عن الرجل

إن مصلحة العبادات البدنية ، ومصلحة العقوبات الرجالُ والنساء مشتركون فيها ،

(١) طريق الهجرتين (٣٣٤) .

وحاجة أحد الصنفين إليها كحاجة الصنف الآخر ، فلا يليق التفريق بينهما ، نعم فرقت بينهما فى أَلْيَق المواضع بالتفريق ، وهو الجمعة والجماعة ، فخص وجوبهما بالرجال دون النساء ؛ لأنهن لسْن من أهل البروز ومخالطة الرجال .

وكذلك فرقت بينهما فى عبادة الجهاد التى ليس الإناث من أهلها ، وسوت بينهما فى وجوب الحج لاحتياج النوعين إلى مصلحته ، وفى وجوب الزكاة والصيام والطهارة .

وأما الشهادة ، فإنما جعلت المرأة فيها على النصف من الرجل لحكمة أشار إليها العزيز الحكيم فى كتابه ، وهى أن المرأة ضعيفة العقل ، قليلة الضبط لما تحفظه ، وقد فضل الله الرجال على النساء فى العقول والفهم والحفظ والتمييز ، فلا تقوم المرأة فى ذلك مقام الرجل ،وفى منع قبول شهادتها بالكلية إضاعة لكثير من الحقوق ، وتعطيل لها ، فكان من أحسن الأمور وألصقها بالعقول أن ضُمَّ إليها فى قبول الشهادة نظيرها لتذكرها إذا نسيت ، فتقوم شهادة المرأتين مقام شهادة الرجل ، ويقع من العلم أو الظن الغالب بشهادتهما ما يقع بشهادة الرجل الواحد .

وأما الدية ، فلما كانت المرأة أنقص من الرجل ،والرجل أنفع منها ، ويسد ما لا تسده المرأة من المناصب الدينية والولايات ، وحفظ الثغور والجهاد ، وعمارة الأرض، وعمل الصنائع التى لا تتم مصالح العالم إلا بها ، والذب عن الدنيا والدين ، لم تكن قيمتهما مع ذلك متساوية وهى الدية ؛ فإن دية الحر جارية مجرى قيمة العبد وغيره من الأموال ، فاقتضت حكمة الشارع أن جعل قيمتها على النصف من قيمته لتفاوت ما بينهما .

فإن قيل : لكنكم نقضتم هذا ، فجعلتم ديتهما سواء فيما دون الثلث .

قيل : لا ريب أن السنة وردت بذلك كما رواه النسائى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « عَقْل المرأة مثل عَقْل الرجل ، حتى يبلغ الثلث من ديتها » (١) .

وقال سعيد بن المسيب : إن ذلك السنة ، وإن خالف فيه أبو حنيفة والشافعى والليث والثورى وجماعة ، وقالوا : هى النصف فى القليل والكثير ، ولكن السنة أولى .

والفرق فيما دون الثلث ، وما زاد عليه أن ما دونه قليل ، فجبرت مصيبة المرأة فيه بمساواتها للرجل ، ولهذا استوى الجنين الذكر والأنثى فى الدية لقلة ديته ، وهى الغُرَّة فنزل ما دون الثلث منزلة الجنين .

---

(١) النسائى (٤٨٠٥) فى القسامة ، باب : عقل المرأة ، وذكره الحافظ ابن حجر فى التلخيص الحبير (١٩٠٩) ، وضعفه الألبانى فى ضعيف النسائى وفى إرواء الغليل (٢٢٥٤) .

وأما الميراث ، فحكمة التفضيل فيه ظاهرة ، فإن الذكر أحوج إلى المال من الأنثى ؛ لأن الرجال قوَّامون على النساء ، والـذكرُ أنفع للميت فى حـياته من الأنثى ، وقد أشار ـ سبحانه وتعالى ـ إلى ذلك بقوله بعد أن فرض الفرائض،وفاوت بين مقاديرها : ﴿ **آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا** ﴾ [النساء : ١١] ، وإذا كان الذكر أنفعَ من الأنثى وأحوج ، كان أحقَّ بالتفضيل .

فإن قيل : فهذا ينتقض بولد الأم .

قيل : بل طرد هذه التسوية بين ولد الأم ذكرهم وأنثاهم ، فإنهم إنما يرثون بالرحم المجرد ، فالقرابة التى يرثون بها قرابة أنثى فقط ، وهم فيها سواء ، فلا معنى لتفضيل ذكرهم على أنثاهم ، بخلاف قرابة الأب .

وأما العقيقة فأمر التفضيل فيها تابع لشرف الذكر ، وما ميزه الله به على الأنثى .

ولما كانت النعمة به على الوالد أتم ، والسرور والفرحة به أكمل ، وكان الشكران عليه أكثر ، فإنه كلما كثرت النعمة كان شكرها أكثر ، والله أعلم (١) .

فصل
فى الفرق بين الطمأنينة والسكينة

قال صاحب المنازل : « الطمأنينة : سكون يُقَوِّيه أمنٌ صحيح ، شبيه بالعيان . وبينها وبين السكينة فرقان :

أحدهما : أن « السكينة » صولة تورث خمود الهيبة أحيانا ، و« الطمأنينة » سكون أمن فى استراحة أنس .

والثانى : أن « السكينة » تكون نعتًا ، وتكون حينًا بعد حين ، و« الطمأنينة » لا تفارق صاحبها » .

« الطمأنينة » موجب السكينة ، وأثر من آثارها ، وكأنها نهاية السكينة .

فقوله : « سكون يقويه أمن » : أى سكون القلب مع قوة الأمن الصحيح الذى لا يكون أمن غرور . فإن القلب قد يسكن إلى أمن الغرور . ولكن لا يطمئن به لمفارقة ذلك السكون له . و « الطمأنينة » لا تفارقه ، فإنها مأخوذة من الإقامة . يقال : اطمأن بالمكان

(١) إعلام الموقعين (٢ / ١٤٥ ـ ١٤٧) .

والمنزل : إذا أقام به .

وسبب صحة هذا الأمن المقوى للسكون : شبهه بالعيان ، بحيث لا يبقى معه شىء من مجوزات الظنون والأوهام ، بل كأن صاحبه يعاين ما يطمئن به ، فيأمن به اضطراب قلبه وقلقه وارتيابه .

وأما الفرقان اللـــذان ذكرهما بينها وبـين السكـينة ، فحـاصل الفــرق الأول : أن « السكينة» تصول على الهيبة الحاصلة فى القلب فتخمدها فى بعض الأحيان ، فيسكن القلب من انزعاج الهيبة بعض السكون . وذلك فى بعض الأوقات .

فليس حكمًا دائما مستمراً ، وهذا يكون لأهل « الطمأنينة » دائما ، ويصحبه الأمن والراحة بوجود الأنس . فإن الاستراحة فى « السكينة » قد تكون من الخوف والهيبة فقط، والاستراحة فى منزل « الطمأنينة » تكون مع زيادة أنس ، وذلك فوق مجرد الأمن ، وقدر زائد عليه .

وحاصل الفرق الثانى : أن « الطمأنينة » مَلكة ، ومقام لا يُفارَق ، و « السكينة » تنقسم إلى سكينة هى مقام ونعت لا يزول ، وإلى سكينة تكون وقتًا دون وقت . هذا حاصل كلامه .

والذى يظهر لى فى الفرق بينهما أمران ، سوى ما ذكر :

أحدهما : أن ظفره وفوزه بمطلوبه الذى حصَّل له السكينة بمنزلة من واجهه عدو يريد هلاكه ، فهرب منه عدوه ، فسكن روعه . والطمأنينة بمنزلة حصن رآه مفتوحًا فدخله ، وأمن فيه ، وتقوى بصاحبه وعدته . فللقلب ثلاثة أحوال :

أحدها : الخوف والاضطراب والقلق من الوارد الذى يزعجه ويقلقه .

الثانى : زوال ذلك الوارد الذى يزعجه ويقلقه عنه وعدمه .

الثالث : ظفره وفوزه بمطلوبه الذى كان ذلك الوارد حائلا بينه وبينه .

وكل منهما يستلزم الآخر ويقارنه ، فالطمأنينة تستلزم السكينة ولا تفارقها ، وكذلك بالعكس ، لكن استلزام الطمأنينة للسكينة أقوى من استلزام السكينة للطمأنينة .

الثانى : أن « الطمأنينة » أعم ، فإنها تكون فى العلم والخبر به ، واليقين والظفر بالمعلوم ؛ ولهذا اطمأنت القلوب بالقرآن لما حصل لها الإيمان به ، ومعرفته والهداية به فى ظُلَم الآراء والمذاهب ، واكتفت به منها ، وحكَّمته عليها وعَزَلَتها ، وجعلت له الولاية

بأسرها كما جعلها الله . فيه خاصمت ، وإليه حاكمت ، وبه صالت ، وبه دفعت الشبه ، وأما « السكينة » فإنها ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه ، وسكونه (١) .

فصل
فى الفرق بين وتر الليل ووتر النهار

قد صحت السنة بالفَرق بين الوترين من وجوه كثيرة :

أحدها : الجمع بين الجهر والسر فى وتر النهار دون وتر الليل .

الثانى : وجوب الجماعة أو مشروعيتها فيه دون وتر الليل .

الثالث : أنه ﷺ فَعَلَ وتر الليل على الراحلة دون وتر النهار .

الرابع : أنه قال فى وتر الليل : إنه ركعة واحدة ، دون وتر النهار .

الخامس : أنه أوتر بتسع وسبع وخمس موصولة دون وتر النهار .

السادس : أنه نهى عن تشبيه وتر الليل بوتر النهار .

السابع : أن وتر الليل اسم للركعة وحدها ، ووتر النهار اسم لمجموع صلاة المغرب كما فى صحيح مسلم من حديث ابن عمر وابن عباس : أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «الوتر ركعة من آخر الليل » (٢) .

الثامن : أن وتر النهار فرض ، ووتر الليل ليس بفرض باتفاق الناس .

التاسع : أن وتر النهار يُقْضى بالاتفاق ، وأما وتر الليل فلم يَقمْ على قضائه دليل ، فإن المقصود منه قد فات فهو كتحية المسجد ورفع اليدين فى محل الرفع والقنوت إذا فات ، وقد توقف الإمام أحمد فى قضاء الوتر ، وقال شيخنا : لا يقضى قال : وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه كان إذا منَعه من قيام الليل نوم أو وجع صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة ، ولم يذكر الوتر » (٣) .

العاشر : أن المقصود من وتر الليل جعل ما تقدمه من الأشفاع كلها وتراً ، وليس

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٥١٤ ، ٥١٥) .

(٢) مسلم (٧٥٢ / ١٥٣) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : صلاة الليل مثنى مثنى ، والوتر ركعة من آخر الليل .

(٣) مسلم (٧٤٦ / ١٤٠) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : جامع صلاة الليل ، ومن نام عنه أو مرض .

المقصود منه إيتار الشفع الذى يليه خاصة ، وكان الأقْيَسُ ما جاءت به السنة أن يكون ركعة مفردة توتر جميع ما قبلها ، وبالله التوفيق (١) .

فصل
فى الفرق بين المُعَرّض والمحتال

المعرّض إنما يقصد باللفظ ما جُعل اللفظ دالا عليه ومثبتًا له فى الجملة ، فهو لم يخرج بتعريضه عن حدود الكلام ، فإن الكلام فيه الحقيقة والمجاز ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمفرد والمشترك ، والمتباين والمترادف ، وتختلف دلالته تارة ، بحسب اللفظ المفرد ، وتارة بحسب التأليف ، فأين هذا من الحيل التى يقصد بالعقد فيها ما لم يشرَع العقدُ له أصلا ، ولا هو مقتضاه ، ولا موجبه شرعا ولا حقيقةً ؟ !

وفرق ثان : وهو أن المعرّض لو صرّح بقصده لم يكن باطلا ولا محرّمًا ، بخلاف المحتال ، فإنه لو صرَّح بما قصدَه بإظهار صورة العقد ، كان محرّما باطلا ، فإن المرابى بالحيلة لو قال : بعتك مائةً حالّةً بمائة وعشرين إلى سنة ، كان حرامًا باطلاً ، وذلك عينُ مقصوده ، ومقصود الآخر .

وكذلك المقرِضُ لو قال : أقرضتك ألفاً على أن تعيُدها إلىَّ ومعها زيادة كذا وكذا ، كان حراماً باطلا ، وذلك نفسُ مقصوده .

وكذلك المحلّلُ لو قال : تزوجتها على أن أحلِّها للطلّق ثلاثًا .

والمعرّض لو صرح بمقصوده لم يكن حراماً ، فأين أحدُهما من الآخر ؟

وفرقٌ ثالث : وهو أن المعرّض قصدَ بالقول ما يحتمله اللفظ ، أو يقتضيه . والمحتال قصدَ بالعقد ما لا يحتمله ، ولا جُعل مقتضياً له ، لا شرعاً ولا عرفاً ولا حقيقةً .

وفرقٌ رابع : وهو أن المعرّض مقصدهُ صحيح ، ووسيلته جائزة ، فلا حَجْر عليه فى مقصوده ، ولا فى وسيلته إلى مقصوده ، بخلاف المحتال ، فإن قصده أمرٌ محرم ، ووسيلته باطلة .

وفرقٌ خامس : وهو أن التعريضَ المباح ليس من مخادعة الله سبحانه فى شىء ، وإنما غايته أنه مخادعة لمخلوقٍ أباح الشارع مخادعته لظلمه ، جزاء له على ذلك ، ولا يلزم من

(١) إعلام الموقعين (٢ / ٤٠٠ ، ٤٠١) .

جواز مخادعة الظالم جواز مخادعة المحِقّ ، فما كان من التعريض مخالفاً لظاهر اللفظ فى نفسه كان قبيحاً إلا عند الحاجة ، وما لم يكن كذلك كان جائزاً إلا عند تضمن مفسدةٍ ، والذى يدخلُ فى الحيل المذمومة إنما هو الأول ، فالمعرض قاصدٌ لدفع الشر ، والمحتّالُ بالباطل قاصد لدفع الحق (١) .

فصل

فى الفرق بين محمد وأحمد

الفرق بين « محمد » و « أحمد » من وجهين :

أحدهما : أن « محمداً » هو المحمود حمداً بعد حمد ، فهو دال على كثرة حمد الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة مُوجبات الحمد فيه و« أحمد » أفعل تفضيل من الحمد يدلُّ على أن الحمد الذى يستحقَّه أفضلُ مما يستحقه غيره ، فمحمد زيادة حمد فى الكمية ، و«أحمد » زيادة فى الكيفية ، فيحمد أكثر حمد وأفضل حمدٍ حَمِدَه البشر .

الوجه الثانى : أن « محمداً » هو المحمود حمداً متكرراً . و « أحمد » هو الذى حمدُه لربه أفضل من حمد الحامدين غيره ، فدلَّ أحد الاسمين وهو « محمد » على كونه محموداً، ودلَّ الاسم الثانى وهو « أحمد » على كونه أحمد الحامدين لربه (٢) .

فصل

فى الفرق بين الأقوال والأفعال فى الإكراه

الفرق بين الأقوال والأفعال فى الإكراه : أن الأفعال إذا وقعت لم ترتفع مفسدتها ، بل مفسدتها معها ، بخلاف الأقوال فإنها يمكن إلغاؤها (٣) .

فصل

فى الفرق بين الرضا والتوكل

الرضا بالتدبير ثمرة التوكل وموجبه لا أنه نفس التوكل فى المقدور ، يكشفه أمران :

(١) إغاثة اللهفان (٢ / ١٠٥ ، ١٠٦) .

(٢) جلاء الأفهام (١٤٧) .

(٣) زاد المعاد (٥ / ٢٠٥) .

التوكل قبل وقوعه ، والرضا به بعد وقوعه . ومن هنا قال بعضهم : حقيقة التوكل الرضا؛ لأنه لما كان ثمرته وموجبه استدل به عليه استدلالا بالأثر على المؤثر وبالمعلول على العلة ؛ ولهذا قال فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى وغيرهما عن النبى ﷺ أنه قال فى دعائه : « اللهم إنى أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ، أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خير لى . اللهم وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك الحق فى الغضب والرضا ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت » (١) الحديث ، فقال : « وأسألك الرضا بعد القضاء » وأما التوكل فإنما يكون قبله(٢) .

فصل
فى الفرق بين الاسم والكنية واللقب

هذه الثلاثة وإن اشتركت فى تعريف المدعو بها ، فإنها تفترق فى أمر آخر ، وهو أن الاسم إما أن يفهِم مدحاً أو ذما ، أو لا يفهِم واحداً منهما .

فإن أفهم ذلك فهو اللقب ، وغالب استعماله فى الذَّمّ ،ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ** ﴾ [الحجرات : ١١] ، ولا خلاف فى تحريم تلقيب الإنسان بما يكرهه ،سواء كان فيه أو لم يكن،وأما إذا عرف بذلك، واشتهر به :كالأعمش،والأشتر،والأصم، والأعرج،فقد اطَّرد استعماله على ألسنة أهل العلم قديماً وحديثاً،وسَهَّل فيه الإمام أحمد .

قال أبو داود فى مسائله : سمعت أحمد بن حنبل سئل عن الرجل يكون له اللقب ، لا يعرف إلا به ولا يكرهه ؟ قال : أليس يقال :سليمان الأعمش ، وحميد الطويل ؟ كأنه لايرى به بأساً .

قال أبو داود : سألت أحمد عنه مرة أخرى ، فرخَّص فيه ، قلت كان أحمد يكره أن يقول : الأعمش .قال الفضيل : يزعمون كأن يقول : سليمان .

وأما ألا يفهِم مدحاً ولا ذَمّا ،فإن صُدِّر بأب وأم فهو الكنية ، كأبى فلان وأم فلان، وإن لم يُصَدَّر بذلك ، فهو الاسم (٣) .

---

(١) النسائى (١٣٠٥) فى السهو ، باب : الدعاء بعد الذكر ، وأحمد ٤ / ٢٦٤ .
(٢) طريق الهجرتين (٣٤٠) .
(٣) تحفة المودود (١٥٧) .

فصل
فى الفرق بين المداراة والمداهنة

المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم ، والفرق بينهما : أن المدارى يتطلف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه . فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق .

ولقد ضرب لذلك مثل مطابق وهو حال رجل به قرحة قد آلمته ، فجاءه الطبيب المداوى الرفيق فتعرف حالها ، ثم أخذ فى تليينها حتى إذا نضجت أخذ فى طبخها برفق وسهولة ، حتى أخرج ما فيها ، ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فساده ويقطع مادته ، ثم تابع عليها بالمراهم التى تنبت اللحم ، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها ، ثم يشد عليها الرباط ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت . والمداهن قال لصاحبها : لا بأس عليك منها وهذه لا شىء فاسترها عن العيون بخرقه ثم آله عنها ، فلا تزال مدتها تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها (١) .

فصل
فى الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق

الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق : أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء ، فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء وشهود نعم الله وجناياته هو ، فيخشع القلب لا محالة ، فيتبعه خشوع الجوارح . وأما خشوع النفاق فيبدو على الجوارح تصنعاً وتكلفاً والقلب غير خاشع .

وكان بعض الصحابة يقول : أعوذ بالله من خشوع النفاق ، قيل له : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن يرى الجسد خاشعاً والقلب غير خاشع .

فالخاشع لله عبد قد خمدت نيران شهوته ، وسكن دخانها عن صدره ، فانجلى الصدر وأشرق فيه نور العظمة ، فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذى خشى به ، وخمدت الجوارح ، وتوقر القلب واطمأن إلى الله وذكره بالسكينة التى نزلت عليه من ربه ، فصار

---

(١) الروح (٣٤٥ ، ٣٤٦) .

مخبتاً له . والمخبت : المطمئن ؛ فإن الخبت من الأرض ما اطمأن فاستنقع فيه الماء ، فكذلك القلب المخبت قد خشع واطمأن كالبقعة المطمئنة من الأرض التى يجرى إليها الماء فيستقر فيها ، علامته أن يسجد بين يدى ربه إجلالا له وذلا وانكساراً بين يديه سجدة لا يرفع رأسه عنها حتى يلقاه . وأما القلب المتكبر فإنه قد اهتز بتكبره عربًا ، فهو كبقعة رابية من الأرض لا يستقر عليه الماء فهذا خشوع الإيمان .

وأما التماوت وخشوع النفاق فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعاً ومراءاة ، ونفسه فى الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات ، فهو يتخشع فى الظاهر ، وحية الوادى وأسد الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة

فصل
فى الفرق بين شرف النفس والتيه

أما شرف النفس فهو صيانتها عن الدنايا والرذائل والمطامع التى تقطع أعناق الرجال ، فيربأ بنفسه عن أن يلقبها فى ذلك . بخلاف التيه ، فإنه خلق متولد بين أمرين : إعجابه بنفسه وإرادته بغيره ، فيتولد من بين هذين التيه ، والأول يتولد بين خلقين كريمين : إعزاز النفس وإكرامها وتعظيم مالكها وسيدها أن يكون عبده دنيًا وضيعاً خسيساً ، فيتولد من بين هذين الخلقين شرف النفس وصيانتها . وأصل هذا كله استعداد النفس وتهيؤها ، وإمداد وليها ومولاها لها ، فإذا فقد الاستعداد والإمداد فقد الخير كله .

فصل
فى الفرق بين الحمية والجفاء

فالحمية فطام النفس عن رضاع اللوم من ثدى هو مصب الخبائث والرذائل والدنايا ، ولو غزر لبنه وتهالك الناس عليه ، فإن لهم فطاماً تنقطع معه الأكباد حسرات فلا بد من الفطام، فإن شئت عجل وأنت محمود مشكور ، وإن شئت أخر وأنت غير مأجور . بخلاف الجفاء فإنه غلظة فى النفس وقساوة فى القلب وكثافة فى الطبع يتولد عنها خلق يسمى الجفاء .

فصل
فى الفرق بين التواضع والمهانة

والفرق بين التواضع والمهانة : أن التواضع يتولد من بين العلم بالله ـ سبحانه ـ ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله ، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عمله وآفاتها ، من بين ذلك كله خلق هو التواضع ، وهو إنكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة بعباده ، فلا يرى له على أحد فضلاً ، ولا يرى له عند أحد حقاً ، بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله ، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه .

وأما المهانة: فهى الدناءة والخسه وبذل النفس ، وابتذالها فى نيل حظوظها وشهواتها ، كتواضع السفل فى نيل شهواتهم ، وتواضع المفعول به للفاعل ، وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه . فهذا كله ضعة لا تواضع ، والله ـ سبحانه ـ يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة ، وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « وأوحى إلىّ : تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد » (١) .

والتواضع المحمود على نوعين :

النوع الأول : تواضع العبد عند أمر الله امتثالاً ، وعند نهيه اجتناباً . فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ فى أمره فيبْدو منها نوع إباء وشراد هرباً من العبودية ، وتثبت عند نهيه طلباً للظفر بما منع منه ، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية .

والنوع الثانى : تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه ، فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفرده بذلك وغضبه الشديد على من نازعه ذلك فتواضعت إليه نفسه ، وانكسر لعظمة الله قلبه،واطمأن لهيبته ، وأخبت لسلطانه ، فهذا غاية التواضع وهو يستلزم الأول من غير عكس ، والمتواضع حقيقة من رزق الأمرين ، والله المستعان .

فصل
فى الفرق بين القوة فى أمر الله والعلو فى الأرض

القوة فى أمر الله هى من تعظيمه وتعظيم أوامره وحقوقه حتى يقيمها لله ، والعلو فى

---

(١) مسلم (٢٨٦٥/ ٦٤) فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار .

الأرض هو من تعظيم نفسه وطلب تفردها بالرياسةونفاذ الكلمة،سواء عز أمر الله أو هان ، بل إذا عارضه أمر الله وحقوقه ومرضاته فى طلب علوه لم يلتفت إلى ذلك ، وأهدره وأماته فى تحصيل علوه .

فصل
فى الفرق بين الحمية لله والحمية للنفس

وكذلك الحمية لله والحمية للنفس ، فالأولى يثيرها تعظيم الأمر والآمر . والثانية يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها ، فالحمية لله أن يحمى قلبه له من تعظيم حقوقه ، وهى حال عبد قد أشرق على قلبه نور سلطان الله فامتلأ قلبه بذلك النور ، فإذا غضب فإنما يغضب من أجل نور ذلك السلطان الذى ألقى على قلبه وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا غضب احمرت وجنتاه وبدا بين عينيه عرق بدره الغضب ، ولم يقم لغضبه شىء حتى ينتقم لله .

وروى زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن موسى بن عمر : أنه صلى الله عليه وآله وسلم إذا غضب اشتعلت قلنسوته ناراً . وهذا بخلاف الحمية للنفس ، فإنها حرارة تهيج من نفسه لفوات حظها أو طلبه ، فإن الفتنة فى النفس ، والفتنة هى الحريق والنفس متلظية بنار الشهوة والغضب ، فإنما هما حرارتان تظهران على الأركان ؛ حرارة من قبل النفس المطمئنة أثارها تعظيم حق الله ، وحرارة من قبل النفس الأمارة أثارها استشعار فوت الحظ .

فصل
فى الفرق بين الجود والسرف

والفرق بين الجواد والمسرف : أن الجواد حكيم يضع العطاء مواضعه ، والمسرف مبذر، وقد يصادف عطاؤه موضعه وكثيراً لا يصادفه . وإيضاح ذلك : أن الله ـ سبحانه ـ بحكمته جعل فى الماء حقوقاً وهى نوعان : حقوق موظفة ، وحقوق ثانية .

فالحقوق الموظفة : كالزكاة والنفقات الواجبة على من تلزمه نفقته .

والثانية : كحق الضيف ، ومكافأة المهدى ، وما وقى به عرضه ونحو ذلك . فالجواد يتوخى بماله أداء هذه الحقوق على وجه الكمال ، طيبة بذلك نفسه ، راضية مؤملة للخلف

فى الدنيا والثواب فى العقبى ، فهو يخرج ذلك بسماحة قلب ، وسخاوة نفس ، وانشراح صدر . بخلاف المبذر ، فإنه يبسط يده فى ماله بحكم هواه وشهوته جزافاً لا على تقدير ، ولا مراعاة مصلحة ، وإن اتفقت له .

فالأول : بمنزلة من بذر حبة فى الأرض تنبت وتوخى ببذره مواضع المغل والإنبات ، فهذا لا يعد مبذراً ولا سفيهاً .

والثانى : بمنزلة من بذر حبة فى سباخ وغراز من الأرض وإن اتفق بذره فى محل النبات بذر بذراً متراكماً بعضه على بعض ، فذلك المكان البذر فيه ضائع معطل ، وهذا المكان بذراً متراكماً بعضه على بعض ، فلذلك يحتاج أن يقلع بعض زرعه ليصلح الباقى ، ولئلا تضعف الأرض عن تربيته . والله ـ سبحانه ـ هو الجواد على الإطلاق ، بل كل موجود فى العالم العلوى والسفلى بالنسبة إلى جوده أقل من قطرة فى بحار الدنيا وهى من جوده ، ومع هذا فإنما ينزل بقدر ما يشاء ، وجوده لا يناقض حكمته ، ويضع عطاءه مواضعه وإن خفى على أكثر الناس أن تلك مواضعه ، فالله يعلم حيث يضع فضله ، وأى المحال أولى به .

فصل

فى الفرق بين المهابة والكبر

والفرق بين المهابة والكبر : أن المهابة أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلاله ، فإذا امتلأ القلب بذلك حل فيه النور ، ونزلت عليه السكينة ، وألبس رداء الهيبة ، فاكتسى وجهه الحلاوة والمهابة ، فأخذ بمجامع القلوب محبة ومهابة، فحنت إليه الأفئدة ، وقرت به العيون ، وأنست به القلوب . فكلامه نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور، وعمله نور ، وإن سكت علاه الوقار ، وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع .

وأما الكبر : فأثر من آثار العجب والبغى من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم ، ترحلت منه العبودية ، ونزل عليه المقت ، فنظره إلى الناس شزر ، ومشيه بينهم تبختر ، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار ولا الإنصاف ،ذاهب بنفسه تيهاً ، لا يبدأ من لقيه بالسلام ، وإن رد عليه رأى أنه قد بالغ فى الإنعام عليه ، لا ينطلق لهم وجهه ، ولا يسعهم خلقه ، ولا يرى لأحد عليه حقاً ، ويرى حقوقه على الناس ، ولا يرى فضلهم عليه ويرى فضله عليهم ، لا يزداد من الله إلا بعداً ، ومن الناس إلا صغاراً أو بغضاً .

فصل
فى الفرق بين الصيانة والتكبر

والفرق بين الصيانة والتكبر : أن الصائن لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوباً جديداً نقى البياض ذا ثمن ، فهو يدخل به على الملوك فمن دونهم ، فهو يصونه عن الوسخ والغبار والطبوع وأنواع الآثار إبقاء على بياضه ونقائه ، فتراه صاحب تعزز وهروب من المواضع التى يخشى منها عليه التلوث ، فلا يسمح بأثر ولا طبع ولا لوث يعلو ثوبه ، وإن أصابه شيء من ذلك على غرة بادر إلى قلعه وإزالته ومحو أثره .

وهكذا الصائن لقلبه ودينه ، تراه يجتنب طبوع الذنوب وآثارها ، فإن لها فى القلب طبوعاً وآثاراً أعظم من الطبوع الفاحشة فى الثوب النقى البياض ، ولكن على العيون غشاوة أن تدرك تلك الطبوع ، فتراه يهرب من مظان التلوث ويحترس من الخلق ويتباعد من تخالطهم ، مخافة أن يحصل لقلبه ما يحصل للثوب الذى يخالط الدباغين والذباحين والطباخين ونحوهم .

بخلاف صاحب العلو ، فإنه وإن شابه هذا فى تحرزه وتجنبه ، فهو يقصد أن يعلو رقابهم ، ويجعلهم تحت قدمه ، فهذا لون وذاك لون .

فصل
فى الفرق بين الشجاعة والجرأة

والفرق بين الشجاعة والجـرأة : أن الشجاعة من القلب ، وهى ثباته واستقراره عند المخاوف ، وهـو خلق يتولد من الصبر وحـسن الظن ، فإنه متى ظن الظفر وساعده الصبر ثبت ، كما أن الجبن يتولد من سوء الظن وعدم الصبر ، فلا يظن الظفر ولا يساعده الصبر. وأصل الجبن من سوء الظن ووسوسة النفس بالسوء ، وهـو ينشأ من الرئة ، فإذا ساء الظن ووسوسة النفس بالسوء انتفخت الرئة ، فزاحمت القلب فى مكانه ، وضيقت عليه حتى أزعجته عن مستقره ، فأصابه الزلازل والاضطراب لإزعاج الرئة له وتضييقها عليه؛ ولهذا جاء فى حديث عمرو بن العاص الذى رواه أحمد وغيره عن النبى صلى الله

عليه وآله وسلم : « شر ما فى المرء جبن خالع وشح هالع » (١) . فسمى الجبن خالعاً لأنه يخلع القلب عن مكانه ؛ لانتفاخ السحر وهو الرئة ، كما قال أبو جهل لعتبة بن ربيعة يوم بدر : انتفخ سحرك . فإذا قلب عن مكانه ضاع تدبير العقل فظهر الفساد على الجوارح ، فوضعت الأمور على غير مواضعها ، فالشجاعة حرارة القلب وغضبه وقيامه وانتصابه وثباته ، فإذا رأته الأعضاء كذلك أعانته ، فإنها خدم له وجنود ، كما أنه إذا ولى ولت سائر جنوده.

وأما الجرأة فهى إقدام سببه قلة المبالاة وعدم النظر فى العاقبة ، بل تقدم النفس فى غير موضع الإقدام يعرضه عن ملاحظة العارض ، فإما عليها وإما لها .

فصل
فى الفرق بين الحزم والجبن

وأما الفرق بين الحزم والجبن : فالحازم هو الذى قد جمع عليه همه وإراداته عقله ، ووزن الأمور بعضها ببعض فأعد لكل منها قرنه ، ولفظه الحزم تدل على القوة والإجماع . ومنه حزمة الحطب ، فحازم الرأى هو الذى اجتمعت له شؤون رأيه ، وعرف منها خير الخيرين وشر الشرين ، فأحجم فى موضع الإحجام رأياً وعقلاً لا جبناً ولا ضعفاً :

العاجز الرأى مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فصل
فى الفرق بين الاقتصاد والشح

وأما الفرق بين الاقتصاد والشح : أن الاقتصاد خلق محمود يتولد من خلقين : عدل وحكمة ، فبالعدل فى المنع والبذل وبالحكمة يضع كل واحد منهما موضعه الذى يليق به ، فيتولد من بينهما الاقتصاد وهو وسط بين طرفين مذمومين ، كما قال تعالى : ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ [الإسراء: ٢٩] ، وقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا** (٦٧)﴾ [الفرقان] ، وقال تعالى : ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا** ﴾ [الأعراف : ٣١].

---

(١) أبو داود (٢٥١١) فى الجهاد ، باب : فى الجراءة والجبن ، وأحمد ٣٠٢/٢ ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٧٩٩٧): « إسناده صحيح » .

وأما الشح : فهو خلق ذميم يتولد من سوء الظن وضعف النفس ، ويمده وعد الشيطان حتى يصير هلعاً . والهلع شدة الحرص على الشيء والشره به ، فيتولد عنه المنع لبذله والجزع لفقده ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) ﴾ [المعارج] .

فصل
فى الفرق بين الاحتراز وسوء الظن

والفرق بين الاحتراز وسوء الظن : أن المحترز بمنزلة رجل قد خرج بماله ومركوبه مسافراً ، فهو يحترز بجهده من كل قاطع للطريق وكل مكان يتوقع منه الشر ، وكذلك يكون مع التأهب والاستعداد وأخذ الأسباب التى بها ينجو من المكروه ، فالمحترز كالمتسلح المتدرع الذى قد تأهب للقاء عدوه ، وأعد له عدته ، فهمه فى تهيئة أسباب النجاة ومحاربة عدوه قد أشغلته عن سوء الظن به ، وكلما ساء به الظن أخذ فى أنواع العدة والتأهب .

وأما سوء الظن ، فهو امتلاء قلبه بالظنون السيئة بالناس حتى يطفح على لسانه وجوارحه ، فهم معه أبداً فى الهمز واللمز والطعن والعيب والبغض ، يبغضهم ويبغضونه، ويلعنهم ويلعنونه ، ويحذرهم ويحذرون منه ، فالأول يخالطهم ويحترز منهم ، والثانى يتجنبهم ويلحقه أذاهم ، الأول داخل فيهم بالنصيحة والإحسان مع الاحتراز ، والثانى خارج منهم مع الغش والدغل والبغض .

فصل
فى الفرق بين الفراسة والظن

والفرق بين الفراسة والظن : أن الظن يخطئ ويصيب ، وهو يكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته ؛ ولهذا أمر تعالى باجتناب كثير منه ، وأخبر أن بعضه إثم .

وأما الفراسة ، فأثنى على أهلها ومدحهم فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) ﴾ [الحجر] . قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أى للمتفرسين ، وقال تعالى : ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة : ٢٧٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد : ٣٠]. فالفراسة الصادقة

لقلب قد تطهر وتصفى وتنزه من الأدناس وقرب من الله ، فهو ينظر بنور الله الذى جعله فى قلبه . وفى الترمذى وغيره من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » (١) .

وهذه الفراسة نشأت له من قربه من الله ، فإن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه ، وكان يلقيه من مشكاة قريبة من الله بحسب قربه منه ، وأضاء له النور بقدر قربه ، فرأى فى ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب ، كما ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال: « ما تقرب إلىَّ عبدى بمثل ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ،فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ،وبى يمشى » (٢) .

فأخبر ـ سبحانه ـ أن تقرب عبده منه يفيده محبته له، فإذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله،فسمع به ، وأبصر به ، وبطش به ، فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق على ما هى عليه ، فلا تكاد تخطئ له فراسة ، فإن العبد إذا أبصر بالله أبصر الأمر على ما هو عليه ، فإذا سمع بالله سمعه على ما هو عليه ، وليس هذا من علم الغيب بل علام الغيوب قذف الحق فى قلب قريب مستبشر بنوره ، غير مشغول بنقوش الأباطيل والخيالات والوساوس التى تمنعه من حصول صور الحقائق فيه،وإذا غلب على القلب النور فاض على الأركان وبادر من القلب إلى العين فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرى أصحابه فى الصلاة وهم خلفه كما يراهم وهم أمامه ، ورأى بيت المقدس عيانًا وهو بمكة ، ورأى قصور الشام ، وأبواب صنعاء ، ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق ، ورأى أمراءه بمؤتة وقد أصيبوا وهو بالمدينة ، ورأى النجاشى بالحبشة لما مات وهو بالمدينة فخرج إلى المصلى فصلى عليه .

ورأى عمر سارية بنهاوند من أرض فارس هو وعساكر المسلمين وهم يقاتلون عدوهم، فناداه : يا سارية الجبل . ودخل عليه نفر من مذحج فيهم الأشتر النخعى ، فصعد فيه البصر وصوبه وقال : أيهم هذا ؟ قال : مالك بن الحارث ، فقال : ما له قاتله الله ، إنى

(١) الترمذى (٣١٢٧) فى تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الحجر ، وضعفه الألبانى ، انظر : السلسلة الضعيفة (١٨٢١) .

(٢) البخارى (٦٥٠٢) فى الرقاق ، باب : التواضع .

لأرى للمسلمين منه يوماً عصيباً .

ودخل عمرو بن عبيد على الحسن فقال هذا سيد الفتيان إن لم يحدث . وقيل : إن الشافعى ومحمد بن الحسن جلسا فى المسجد الحرام فدخل رجل فقال محمد : أتفرس أنه نجار ، فقال الشافعى : أتفرس أنه حداد ، فسألاه فقال : كنت حداداً وأنا اليوم أنجر . ودخل أبو الحسن البوشنجى والحسن الحداد على أبى القاسم المناوى يعودانه ، فاشتريا فى طريقهما بنصف درهم تفاحاً نسيئة ، فلما دخلا عليه قال : ما هذه الظلمة فخرجا وقالا : ما علمنا ، لعل هذا من قبل ثمن التفاح ، فأعطيا الثمن ثم عادا إليه ووقع بصره عليهما فقال : يمكن الإنسان أن يخرج من الظلمة بهذه السرعة ؟ أخبرانى عن شأنكما ، فأخبراه بالقصة فقال : نعم ، كان كل واحد منكما يعتمد على صاحبه فى إعطاء الثمن والرجل مستح منكما فى التقاضى .

وكان بين أبى زكريا النخشبى وبين امرأة سبب قبل توبته ، فكان يوماً واقفاً على رأس أبى عثمان الحيرى فتفكر فى شأنها ، فرفع أبو عثمان إليه رأسه وقال : ألا تستحى ؟ وكان شاه الكرمانى جيد الفراسة لا تخطئ فراسته ، وكان يقول : من غض بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره باتباع السنة ، وتعود أكل الحلال لم تخطئ فراسته .

وكان شاب يصحب الجنيد يتكلم على الخواطر ، فذكر للجنيد ، فقال : إيش هذا الذى ذكر لى عنك ؟ فقال له : أعتقد شيئاً ، فقال له الجنيد: اعتقدت ، فقال الشاب : اعتقدت كذا وكذا ، فقال الجنيد : لا ، فقال : فاعتقد ثانياً ، قال : اعتقدت ، فقال الشاب : اعتقدت كذا وكذا ، فقال الجنيد : لا ، قال : فاعتقد ثالثاً ، قال : اعتقدت ، قال الشاب : هو كذا وكذا ، قال : لا ، فقال الشاب : هذا عجب وأنت صدوق وأنا أعرف قلبى ، فقال الجنيد : صدقت فى الأولى والثانية والثالثة ، لكن أردت أن أمتحنك هل يتغير قلبك ؟

وقال أبو سعيد الخراز : دخلت المسجد الحرام ، فدخل فقير عليه خرقتان يسأل شيئاً ، فقلت فى نفسى : مثل هذا كَلٌّ على الناس ، فنظر إلىَّ وقال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة : ٢٣٥] قال : فاستغفرت فى سرى ، فنادانى وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [الشورى : ٢٥] .

وقال إبراهيم الخواص : كنت فى الجامع ، فأقبل شاب طيب الرائحة ، حسن الوجه، حسن الحرمة ، فقلت لأصحابنا : يقع لى أنه يهودى ! فكلهم كره ذلك ، فخرجت وخرج الشاب ، ثم رجع إليهم فقال : إيش قال الشيخ فىَّ ؟ فاحتشموه ، فألح عليهم فقالوا :

قال : إنك يهودى ، فجاء فأكب على يدى فأسلم ، فقلت : ما السبب ؟ فقال : نجد فى كتابنا أن الصديق لا تخطئ فراسته ، فقلت : أمتحن المسلمين ، فتأملتهم ، فقلت: إن كان فيهم صديق ففى هذه الطائفة فلبست عليكم ، فلما اطلع هذا الشيخ علىَّ وتفرسنى علمت أنه صديق .

وهذا عثمان بن عفان دخل عليه رجل من الصحابة ، وقد رأى امرأة فى الطريق فتأمل محاسنها ، فقال له عثمان : يدخل أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه ، فقلت : أَوَحْىٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال : لا ، ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة.

فهذا شأن الفراسة ، وهى نور يقذفه الله فى القلب ، فيخطر له الشىء فيكون كما خطر له ، وينفذ إلى العين فترى ما لا يراه غيرها .

فصل
فى الفرق بين النصيحة والغيبة

والفرق بين النصيحة والغيبة :أن النصيحة يكون القصد فيها تحذير المسلم من مبتدع أو فتان أو غاش أو مفسد ، فتذكر ما فيه إذا استشارك فى صحبته ومعاملته والتعلق به كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة بنت قيس وقد استشارته فى نكاح معاوية وأبى جهم فقال : « أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه » (١) ، وقال عن بعض أصحابه لمن سافر معه : إذا هبطت عن بلاد قومه فاحذره .

فإذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين فهى قربة إلى الله من جملة الحسنات ، وإذا وقعت على وجه ذم أخيك وتمزيق عرضه والتفكه بلحمه والغض منه ؛ لتضع منزلته من قلوب الناس فهى الداء العضال ، ونار الحسنات التى تأكلها كما تأكل النار الحطب .

---

(١) مسلم (١٤٨٠ / ٣٦) فى الطلاق ، باب : المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها ، أبو داود (٢٢٨٤) فى الطلاق ، باب : فى نفقة المبتوتة ، والنسائى (٣٢٤٤) فى النكاح ، باب : خطبة الرجل إذا ترك الخاطب أو أذن له .

فصل

فى الفرق بين الهدية والرشوة

والفرق بين الهدية والرشوة وإن اشتبها فى الصورة : القصد ، فإن الراشى قصده بالرشوة التوصل إلى إبطال حق أو تحقيق باطل ، فهذا الراشى الملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإن رشا لدفع الظلم عن نفسه اختص المرتشى وحده باللعنة .

وأما المهدى ، فقصده استجلاب المودة والمعرفة والإحسان ، فإن قصد المكافأة فهو معاوض ، وإن قصد الربح فهو مستكثر .

فصل

فى الفرق بين الصبر والقسوة

والفرق بين الصبر والقسوة : أن الصبر خلق كسبى يتخلق به العبد ، وهو حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكى ، فيحبس النفس عن التسخط ، واللسان عن الشكوى ، والجوارح عما لا ينبغى فعله ، وهو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية .

وأما القسوة ، فيبس فى القلب يمنعه من الانفعال ، وغلظة تمنعه من التأثر بالنوازل ، فلا يتأثر لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله .

وتحقيق هذا أن القلوب ثلاثة :

قلب قاس غليظ بمنزلة اليد اليابسة ؛ وقلب مائع رقيق جداً .

فالأول لا ينفعل بمنزله الحجر ، والثانى بمنزلة الماء وكلاهما ناقص .

وأصح القلوب : القلب الرقيق الصافى الصلب ، فهو يرى الحق من الباطل بصفائه ويقبله ويؤثره برقته ويحفظه ، ويحارب عدوه بصلابته . وفى الأثر : القلوب آنية الله فى أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها . وهذا القلب الزجاجى ، فإن الزجاجة جمعت الأوصاف الثلاثة، وأبغض القلوب إلى الله القلب القاسى ، قال تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [الزمر : ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ﴾ [البقرة : ٧٤] ، وقال تعالى: ﴿ **لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي**

﴿ قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج :٥٣] فذكر القلبين المنحرفين عن الاعتدال ، هذا بمرضه، وهذا بقسوته ، وجعل إلقاء الشيطان عتمة لأصحاب هذين القلبين ورحمة لأصحاب الثالث، وهو القلب الصافى الذى ميز بين إلقاء الشيطان وإلقاء الملك بصفائه ، وقبل الحق بإخباته ورقته،وحارب النفوس المبطلة بصلابته وقوته ،فقال تعالى عقيب ذلك : ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) ﴾ [الحج] .

فصل

فى الفرق بين العفو والذل

والفرق بين العفو والذل : أن العفو إسقاط حقك جوداً وكرماً وإحساناً مع قدرتك على الانتقام فتؤثر الترك رغبة فى الإحسان ومكارم الأخلاق ، بخلاف الذل فإن صاحبه يترك الانتقام عجزاً وخوفاً ومهانة نفس ، فهذا مذموم غير محمود ، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالا منه ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) ﴾ [الشورى] .

فمدحهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك ، حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليه ندبهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح فقال : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾ [الشورى]. فذكر المقامات الثلاثة : العدل وأباحه ، والفضل وندب إليه ، والظلم وحرمه .

فإن قيل : فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متنافيان ؟

قيل : لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام وإنما مدحهم على الانتصار وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم ، فلما قدروا ندبهم إلى العفو . قال بعض السلف فى هذه الآية: كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا ، فمدحهم على عفو بعد قدرة ، لا على عفو ذل وعجز ومهانة ، وهذا هو الكمال الذى مدح ـ سبحانه ـ به نفسه فى قوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء :١٤٩] (١) ، ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

وفى أثر معروف : حملة العرش أربعة ؛اثنان يقولان : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك ، واثنان يقولان : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، لك

---

(١) فى المطبوعة « وكان الله عفواً قديرا » .

الحمد على عفوك بعد قدرتك . ولهذا قال المسيح ـ صلوات الله وسلامه عليه : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة] ، أى : إن غفرت لهم غفرت عن عزة وهى كمال القدرة ، وحكمة وهى كمال العلم ، فغفرت بعد أن علمت ما عملوا وأحاطت بهم قدرتك ، إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام وجهله بحقيقة ما صدر من المسىء ، والعفو عن المخلوق ظاهره ضيم وذل وباطنه عز ومهانة ، وانتقام ظاهره عز وباطنه ذل ، فما زاد الله بعفو إلا عزاً ، ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل ، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو ؛ ولهذا ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه قط ، وتأمل قوله سبحانه : ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى] كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم ، لا أن غيرهم هو الذى ينصرهم .

ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالباً بل لا بد من المجاوزة ، شرع فيه ـ سبحانه ـ المماثلة والمساواة ، وحرم الزيادة ، وندب إلى العفو .

والمقصود : أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة ، والذل من أخلاق الأمارة . ونكتة المسألة : أن الانتقام شىء والانتصار شىء ، فالانتصار : أن ينتصر لحق الله ومن أجله ، ولا يقوى على ذلك إلا من تخلص من ذل حظه ورق هواها ، فإنه حينئذ ينال حظًا من العز الذى قسم الله للمؤمنين ، فإذا بغى عليه انتصر من الباغى من أجل عز الله الذى أعزه به، غيرة على ذلك العز أن يستضام ويقهر ، وحمية للعبد المنسوب إلى العزيز الحميد أن يستذل، فهو يقول للباغى عليه : أنا مملوك من لا يذل مملوكه ولا يحب أن يذله أحد ، وإذا كانت نفسه الأمارة قائمة على أصولها لم تحب بعد طلبه إلا الانتقام والانتصار لحظها وظفرها بالباغى ، تشفياً فيه وإذلالاً له .

وأما النفس التى خرجت من ذل حظها ورق هواها إلى عز توحيدها وإنابتها إلى ربها ، فإذا نالها البغى قامت بالانتصار حمية ونصرة للعز الذى أعزها الله به ونالته منه ، وهو فى الحقيقة حمية لربها ومولاها .

وقد ضرب لذلك مثلا بعبدين من عبيد الغلة جرائين،ضرب أحدهما صاحبه،فعفا المضروب عن الضارب نصحاً منه لسيده وشفقة على الضارب أن يعاقبه السيد ، فلم يجشم سيده خلعه على عقوبته وإفساده بالضرب ، فشكر العافى على عفوه ووقع منه بموقع . وعبد آخر قد أقامه بين يديه وجمله وألبسه ثيابا يقف بها بين يديه ، فعمد بعض سواس الدواب وأضرابهم ولطخ تلك الثياب بالعذرة أو مزقها ، فلو عفا عمن فعل به ذلك لم يوافق عفوه رأى سيده ولا محبته ،وكان الانتصار أحب إليه وأوفق ،كأنه يقول: إنما فعل

بك هذا جرأة عليَّ واستخفافاً بسلطاني ، فإذا مكنه من عقوبته فأذله وقهره ولم يبق إلا أن يبطش به ، فذل وانكسر قلبه ، فإن سيده يحب منه ألا يعاقبه لحظة ، وأن يأخذ منه حق السيد فيكون انتصاره حينئذ لمحض حق سيده لا لنفسه.

كما روى عن على رضي الله عنه : أنه مر برجل فاستغاث به وقال : هذا منعنى حقى ولم يعطنى إياه ، فقال : أعطه حقه ، فلما جاوزهما لج الظالم ولطم صاحب الحق فاستغاث بعلى ، فرجع وقال : أتلك الغوث ، فقال له : استقد منه ، فقال : قد عفوت يا أمير المؤمنين ، فضربه على تسع درر وقال : قد عفا عنك من لطمته . وهذا حق السلطان ، فعاقبه على لما اجترأ على سلطان الله ولم يدعه .

ويشبه هذا قصة الرجل الذى جاء إلى أبى بكر رضي الله عنه فقال : احملنى ، فوالله لأنا أفرس منك ومن ابنك ، وعنده المغيرة بن شعبة ، فحسر عن ذراعه وصك بها أنف الرجل فسال الدم ، فجاء قومه إلى أبى بكر رضي الله عنه فقالوا :أقدنا من المغيرة ، فقال : أنا أقيدكم من وزعة الله ؟ لا أقيدكم منه . فرأى أبوبكر أن ذلك انتصاراً من المغيرة وحمية لله ، وللعز الذى أعز به خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليتمكن بذلك العز من حسن خلافته وإقامة دينه ، فترك قوده لاجترائه على عز الله وسلطانه الذى أعز به رسوله ودينه وخليفته ، فهذا لون ، والضرب حمية للنفس الأمارة لون .

فصل
فى الفرق بين سلامة القلب والبله والغفل

والفرق بين سلامة القلب والبله والغفل : أن سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته ، فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته به ، وهذا بخلاف البله والغفلة فإنها جهل وقلة معرفة. وهذا لا يحمد ، إذ هو نقص وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه ، والكمال أن يكون القلب عارفاً بتفاصيل الشر سليماً من إرادته . قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : لست بِخِبٍّ ولا يخدعنى الخب . وكان عمر أعقل من أن يخدع ، وأروع من أن يخدع ، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء] ، فهذا هو السليم من الآفات التى تعترى القلوب المريضة من مرض الشبهة التى توجب اتباع الظن ، ومرض الشهوة التى توجب اتباع ما تهوى الأنفس ، فالقلب السليم الذى سلم من هذا وهذا .

فصل
فى الفرق بين الثقة والغرة

والفرق بين الثقة والغرة : أن الثقة سكون يستند إلى أدلة وأمارات يسكن القلب إليها، فكلما قويت تلك الأمارات قويت واستحكمت ولا سيما على كثرة التجارب وصدق الفراسة. واللفظة كأنها ـ والله أعلم ـ من الوثاق وهو الرباط ، فالقلب قد ارتبط بمن وثق به توكلاً عليه وحسن ظن به،فصار فى وثاق محبته ومعاملته والاستناد إليه والاعتماد عليه، فهو فى وثاقه بقلبه وروحه وبدنه ، فإذا سار القلب إلى الله وانقطع إليه تقيد بحبه وصار فى وثاق العبودية ، فلم يبق له مفزع فى النوائب ولا ملجأ غيره ، ويصير عدته وشدته وذخيرته فى نوائبه ، وملجأه فى نوازله ، ومستعانه فى حوائجه وضروراته .

وأما الغرة ، فهى حال المغتر الذى غرته نفسه وشيطانه وهواه ، وأمله الخائب الكاذب بربه ، حتى أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى . والغرور ثقتك بمن لا يوثق به ، وسكونك إلى من لا يسكن إليه ، ورجاؤك النفع من المحل الذى لا يأتى بخير ، كحال المغتر بالسراب ، قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (٣٩) ﴾ [النور] وقال تعالى فى وصف المغترين : ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً** (١٠٣) **الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** (١٠٤) ﴾ [الكهف] ، وهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتت حقائق الأمور علموا أنهم لم يكونوا على شىء : ﴿ **وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾ [الزمر :٤٧] . وفى أثر معروف : إذا رأيت الله ـ سبحانه ـ يزيدك من نعمه وأنت مقيم على معصيته فاحذره ، فإنما هو استدراج يستدرجك به ، وشاهد هذا فى القرآن فى قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** (٤٤) ﴾ [الأنعام] وهذا من أعظم الغرة أن تراه يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على ما يكره ، فالشيطان موكل بالغرور وطبع النفس الأمارة الاغترار فإذا اجتمع الرأى والبغى والرأى المحاج ، والشيطان الغرور والنفس المغترة ،لم يقع هناك خلاف . فالشياطين غروا المغترين بالله وأطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه فى عفوه وتجاوزه ، وحدثوهم بالتوبة ؛ لتسكن قلوبهم ، ثم دافعوهم بالتسويف حتى هجم الأجل،فأخذوا على أسوء أحوالهم،وقال تعالى: ﴿ **وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم**

بِاللَّهِ الْغَرُورُ ⑭ ﴾ [الحديد] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ⑤ ﴾ [فاطر] .

وأعظم الناس غرورا بربه من إذا مسه الله برحمة منه وفضل قال: هذا لى أى أنا أهله، وجدير به ومستحق له ،ثم قال : وما أظن الساعة قائمة . فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله، ثم زاد فى غروره فقال : ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى : يعنى الجنة والكرامة .فهكذا تكون الغرة بالله ، فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه ، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه فلا يزال كذلك حتى يتردى فى آبار الهلاك .

فصل
فى الفرق بين الرجاء والتمنى

الفرق بين الرجاء والتمنى : أن الرجاء يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة فى الإتيان بأسباب الظفر والفوز .

والتمنى : حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢١٨] فطوى ـ سبحانه ـ بساط الرجاء إلا عن هؤلاء . وقال المغترون : إن الذين ضيعوا أوامره وارتكبوا نواهيه واتبعوا ما أسخطه وتجنبوا ما يرضيه أولئك يرجون رحمته ، وليس هذا ببدع من غرور النفس والشيطان لهم ، فالرجاء لعبد قد امتلأ قلبه من الإيمان بالله واليوم الآخر فمثل بين عينيه ما وعده الله تعالى من كرامته وجنته ، فامتد القلب مائلاً إلى ذلك شوقاً إليه ، وحرصاً عليه فهو شبيه بالماد عنقه إلى مطلوب قد صار نصب عينيه .

وعلامة الرجاء الصحيح : أن الراجي يخاف فوت الجنة وذهاب حظه منها ، بترك ما يخاف أن يحول بينه وبين دخولها ، فمثله مثل رجل خطب امرأة كريمة فى منصب وشرف إلى أهلها ، فلما آن وقت العقد واجتماع الأشراف والأكابر ، وإتيان الرجل إلى الحضور ، أعلم عشية ذلك اليوم ليتأهب للحضور ، فتراه المرأة وأكابر الناس فأخذ فى التأهب والتزين والتجمل فأخذ من فضول شعره ، وتنظف وتطيب ، ولبس أجمل ثيابه ، وأتى إلى تلك الدار متقياً فى طريقه كل وسخ ودنس وأثر يصيبه أشد تقوى حتى الغبار والدخان ، وما هو دون ذلك ، فلما وصل إلى الباب رحب به ربها ومكن له فى صدر الدار على الفراش والوسائد ،، ورمقته العيون وقصد بالكرامة من كل ناحية ، فلو أنه ذهب بعد أخذ هذه الزينة فجلس فى المزابل ، وتمرغ عليها وتمعك بها ، وتلطخ فى بدنه وثيابه بما عليها من

عذرة وقذر ، ودخل ذلك فى شعره وبشره وثيابه فجاء على تلك الحال إلى تلك الدار ، وقصد دخولها للوعد الذى سبق له ، فقام إليه البواب بالضرب والطرد والصياح عليه ، والإبعاد له من بابها ، وطريقها فرجع متحيراً خاسئاً ، فالأول حال الراجى ، وهذا حال المتمنى .

وإن شئت مثلت حال الرجلين بملك هو من أغير الناس وأعظمهم أمانة وأحسنهم معاملة ، لا يضيع لديه حق أحد وهو يعامل الناس من وراء ستر لا يراه أحد ، وبضائعه وأمواله وتجاراته وعبيده وإماؤه ، ظاهر بارز فى داره للمعاملين ، فدخل عليه رجلان فكان أحدهما يعامله بالصدق والأمانة والنصيحة ، لم يجرب عليه غشاً ولا خيانة ولا مكراً ، فباعه بضائعه كلها واعتمد مع مماليكه وجواريه ، ما يجب أن يعتمد معهم ، فكان إذا دخل إليه ببضاعة تخير له أحسن البضائع وأحبها إليه ، وإن صنعها بيده بذل جهده فى تحسينها وتنميتها ،وجعل ما خفى منها أحسن مما ظهر ويستلم المؤنة ممن أمره أن يستلمها منه ، وامتثل ما أمره به السفير وبينه فى مقدار ما يعمله؛ صفته وهيئته وشكله ورقته وسائر شؤونه .

وكان الآخر إذا دخل دخل بأخس بضاعة يجدها لم يخلصها من الغش ، ولا نصح فيها ولا اعتمد فى أمرها ما قاله المترجم عن الملك والسفير بينه وبين الصناع والتجار ، بل كان يعملها على ما يهواه هو ومع ذلك فكان يخون الملك فى داره ، إذ هو غائب عن عينه، فلا يلوح له طمع إلا خانه ، ولا حرمة للملك إلا مد بصره إليها ، وحرص على إفسادها ، ولا شيئاً يسخط الملك إلا ارتكبه إذا قدر عليه ، فمضيا على ذلك مدة .

ثم قيل : إن الملك يبرز اليوم لمعامليه حتى يحاسبهم ويعطيهم حقوقهم ، فوقف الرجلان بين يديه فعامل كل واحد منهما بما يستحقه .

فتأمل هذين المثلين ، فإن الواقع مطابق لهما ، فالراجى على الحقيقة لما صارت الجنة نصب عينه ورجاؤه وأمله امتد إليها قلبه وسعى لها سعيها ، فإن الرجاء هو امتداد القلب وميله وحقق رجاءه كمال التأهب وخوف الفوت والأخذ بالحذر .

وأصله من التنحى ورجا البئر : ناحيته ، وأرجاء السماء : نواحيها ،وامتداد القلب إلى المحبوب منقطعا عما يقطعه عنه ، هو تنح عن النفس الأمارة وأسبابها وما تدعو إليه ، وهذا الامتداد والميل والخوف من شأن النفس المطمئنة ، فإن القلب إذا انفتحت بصيرته فرأى الآخرة ، وما أعد الله فيها لأهل طاعته ، وأهل معصيته خاف وخف مرتحلا إلى الله والدار الآخرة ؛ وكان قبل ذلك مطمئناً إلى النفس ، والنفس إلى الشهوات والدنيا ، فلما انكشف عنه غطاء النفس خف وارتحل عن جوارها ، طالباً جوار العزيز الرحيم فى جنات النعيم ، ومن هاهنا صار كل خائف راجياً ، وكل راج خائفا ، فأطلق اسم أحدهما على

الآخر ، فإن الراجى قلبه قريب الصفة من قلب الخائف . هذا الراجى قد نحى قلبه عن مجاورة النفس والشيطان مرتحلا إلى الله ، قد رفع له من الجنة علم فشمر إليه وله مادأ إليه قلبه كله ، وهذا الخائف فار من جوارهما ملتجئ إلى الله من حبسه فى سجنهما فى الدنيا فيحبس معهما بعد الموت ويوم القيامة ، فإن المرء مع قرينه فى الدنيا والآخرة ، فلما سمع الوعيد ارتحل من مجاورة جار السوء فى الدارين ، فأعطى اسم الخائف . ولما سمع الوعد امتد واستطار شوقاً إليه وفرحا بالظفر به ، فأعطى اسم الراجى، وحالاه متلازمان لا ينفك عنهما، فكل راج خائف من فوات ما يرجوه، كما أن كل خائف راج أمنه مما يخاف ، فلذلك تداول الاسمان عليه ، قال تعالى : ﴿ **مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا** ﴿١٣﴾ ﴾ [نوح] .

قالوا فى تفسيرها : لا تخافون لله عظمة . وقد تقدم أن الله ـ سبحانه ـ طوى الرجاء إلا عن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا ، وقد فسر النبى صلى الله عليه وآله وسلم الإيمان بأنه ذو شعب وأعمال ظاهرة وباطنة ، وفسر الهجرة بأنها هجرة ما نهى الله عنه ، والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله فقال : « المهاجر من هجر ما نهى عنه، والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله » .

والمقصود : أن الله ـ سبحانه ـ جعل أهل الرجاء من آمن وهاجر وجاهد وأخرج من سواهم من هذه الأمم .

وأما الأمانى : فإنها رؤوس أموال المفاليس ، أخرجوها فى قالب الرجاء ، وتلك أمانيهم ، وهى تصدر من قلب تزاحمت عليه وساوس النفس ، فأظلم من دخانها ، فهو يستعمل قلبه فى شهواتها ، وكلما فعل ذلك منته حسن العاقبة والنجاة ، وأحالته على العفو والمغفرة والفضل ، وأن الكريم لا يستوفى حقه ولا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة، ويسمى ذلك رجاء ، وإنما هو وسواس وأمانى باطلة ، تقذف بها النفس إلى القلب الجاهل فيستريح إليها ، قال تعالى : ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا** ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النساء] .

فإذا ترك العبد ولاية الحق ونصرته ترك الله ولايته ونصرته ، ولم يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا ، وإذا ترك ولايته ونصرته تولته نفسه والشيطان فصارا وليين له ، ووكل إلى نفسه فصار انتصاره لها بدلا من نصرة الله ورسوله ، فاستبدل بولاية الله ولاية نفسه وشيطانه ، وبنصرته نصرة نفسه وهواه ، فلم يدع للرجاء موضعا . فإذا قالت لك

النفس : أنا فى مقام الرجاء . فطالبها بالبرهان ، وقل : هذه أمنية فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، فالكيس يعمل أعمال البر على الطبع والرجاء ، والأحمق العاجز يعطل أعمال البر ويتكل على الأمانى التى يسميها رجاء . والله الموفق .

فصل
فى الفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها

والفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها : أن المتحدث بالنعمة مخبر عن صفات وليها ومحض جوده وإحسانه فهو مثن عليه بإظهارها والتحدث بها، شاكر له ناشر لجميع ما أولاه مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء ، وبعث النفس على الطلب منه دون غيره، وعلى محبته ورجائه فيكون راغبا إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها .

وأما الفخر بالنعم ، فهو أن يستطيل بها على الناس ويريهم أنه أعز منهم وأكبر ، فيركب أعناقهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة .

قال النعمان بن بشير : إن للشيطان مصالى وفخوخا ، وإن مصاليه وفخوخه البطش بنعم الله ، والكبر على عباد الله ، والفخر بعطية الله ، والهون فى غير ذات الله .

فصل
فى الفرق بين فرح القلب وفرح النفس

والفرق بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر ، فإن الفرح بالله ومعرفته ومحبته وكلامه من القلب ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد : ٣٦] .

فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحى فأولياء الله وأتباع رسوله أحق بالفرح به ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) ﴾ [التوبة] .

وقال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾[يونس].

قال أبو سعيد الخدرى : فضل الله : القرآن ، ورحمته : أن جعلكم من أهله .

وقال هلال بن يساف : فضل الله ورحمته : الإسلام الذى هداكم إليه ، والقرآن الذى علمكم ، هو خير من الذهب والفضة الذى تجمعون .

وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين :فضل الله : الإسلام ، ورحمته : القرآن ، فهذا فرح القلب وهو الإيمان ويثاب عليه العبد ، فإن فرحه به يدل على رضاه به، بل هو فوق الرضاء ، فالفرح بذلك على قدر محبته . فإن الفرح إنما يكون بالظفر بالمحبوب . وعلى قدر محبته يفرح بحصوله له . فالفرح بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه أفضل ما يعطياه بل هو أجل عطاياه . والفرح فى الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبته فى الدنيا . فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها فهذا شأن فرح القلب .

وله فرح آخر وهو فرحه بما منَّ الله به عليه من معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه به ، وكلما تمكن فى ذلك قوى فرحه وابتهاجه ، وله فرحة أخرى عظيمة الوقع عجيبة الشأن ، وهى الفرحة التى تحصل له بالتوبة ، فإن لها فرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المعصية إليها البتة ، فلو علم العاصى أن لذة التوبة وفرحتها تزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافا مضاعفة ، لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية ، وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالى بتوبة عبده أشد فرح يقدر ، ولقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثلا ليس فى أنواع الفرح فى الدنيا أعظم منه ، وهو فرح رجل قد خرج براحلته التى عليها طعامه وشرابه فى سفر ففقدها فى أرض دوية مهلكة ، فاجتهد فى طلبها فلم يجدها ، فيئس منها فجلس ينتظر الموت حتى إذا طلع البدر رأى فى ضوئه راحلته ، وقد تعلق زمامها بشجرة ، فقال من شدة فرحه : « اللهم أنت عبدى وأنا ربك »(١) . أخطأ من شدة الفرح ، فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته .

فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة ، ولكن هاهنا أمر يجب التنبيه عليه ، وهو أنه لا يصل إلى ذلك إلا بعد ترحات ومضض ومحن ، لا تثبت لها الجبال ، فإن صبر لها ظفر بلذة الفرح ، وإن ضعف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشىء وآخر أمره فوات ما آثره من فرحة المعصية ولذتها ، فيفوته الأمران ويحصل على ضد اللذة من الألم المركب من وجود المؤذى وفوت المحبوب ، فالحكم لله العلى الكبير .

---

(١) مسلم (٢٧٤٧ / ٧) فى التوبة ، باب : فى الحض على التوبة والفرح بها .

فصل
فى الفرق بين رقة القلب والجزع

والفرق بين رقة القلب والجزع : أن الجزع ضعف فى النفس وخوف فى القلب ، يمده شدة الطمع والحرص ، ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر ، وإلا فمتى علم أن المقدر كائن ولابد ، كان الجزع عناء محضا ، ومصيبة ثانية ، قال تعالى : **﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم ﴾** [الحديد ، ٢٣]، فمتى آمن العبد بالقدر وعلم أن المصيبة مقدرة فى الحاضر والغائب ، لم يجزع ولم يفرح ، ولا ينافى هذا رقة القلب ، فإنها ناشئة من صفة الرحمة التى هى كمال الله ـ سبحانه ـ إنما يرحم من عباده الرحماء ، وقد كان رسول الله ﷺ أرق الناس قلبا وأبعدهم من الجزع .

فرقة القلب رأفة ورحمة ، وجزعه مرض وضعف ، فالجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الأمارة فأخذ بأنفاسه ، وضيق عليه مسالك الآخرة ، وصار فى سجن الهوى والنفس وهو سجن ضيق الأرجاء مظلم المسالك ، فانحصار القلب وضيقه يجزع من أدنى ما يصيبه ولا يحتمله ، فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد ، وامتلأ من محبة الله وإجلاله رق ، وصارت فيه الرأفة والرحمة ، فتراه رحيما رقيق القلب بكل ذى قربى ومسلم ، يرحم النملة فى جحرها والطير فى وكره ، فضلا عن بنى جنسه ، فهذا أقرب القلوب من الله . قال أنس : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرحم الناس بالعيال » .

والله ـ سبحانه ـ إذا أراد أن يرحم عبداً أسكن فى قلبه الرأفة والرحمة ، وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرأفة ، وأبدله بهما الغلظة والقسوة . وفى الحديث الثابت : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى » (١) ، وفيه : « من لا يرحم لا يرحم » (٢) . وفيه : « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » (٣)، وفيه « أهل الجنة ثلاثة : ذو

---

(١) أبو داود (٤٩٤٢) فى الأدب ، باب : فى الرحمة ، والترمذى (١٩٢٣) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى رحمة المسلمين ، وقال : « حسن » ، وأحمد ٢ / ٤٤٢ .

(٢) البخارى (٥٩٩٧) فى الأدب ، باب : رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ، ومسلم (٢٣١٨ / ٦٥) فى الفضائل ، باب : رحمته ﷺ بالصبيان والعيال وتواضعه ، وفضل ذلك .

(٣) أبو داود (٤٩٤١) فى الأدب ، باب : فى الرحمة ، والترمذى (١٩٢٤) فى البر والصلة ، باب : فى رحمة المسلمين ، وقال : « حسن صحيح » .

سلطان مقسط متصدق ، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذى قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال » (١).

والصديق رضي الله عنه إنما فضل الأمة بما كان فى قلبه من الرحمة العامة زيادة على الصديقية؛ ولهذا أظهر أثرها فى جميع مقاماته حتى فى الأسارى يوم بدر ، واستقر الأمر على ما أشار به وضرب له صلى الله عليه وآله وسلم مثلا بعيسى وإبراهيم . والرب ـ سبحانه وتعالى ـ هو الرؤوف الرحيم ، وأقرب الخلق إليه أعظمهم رأفة ورحمة ،كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته : وهذا باب لا يلجه إلا الأفراد فى العالم .

فصل
فى الفرق بين الموجدة والحقد

والفرق بين الموجدة والحقد : أن الوجد الإحساس بالمؤلم ، والعلم به وتحرك النفس فى رفعه فهو كمال .

وأما الحقد ، فهو إضمار الشر وتوقعه كل وقت ، فمن وجدت عليه فلا يزايل القلب أثره ، وفرق آخر وهو أن الموجدة لما ينالك منه ، والحقد لما يناله منك ، فالموجدة وجود ما نالك من أذاه ، والحقد توقع وجود ما يناله من المقابلة ،فالموجدة سريعة الزوال والحقد بطىء الزوال ، والحقد يجىء مع ضيق القلب ، واستيلاء ظلمة النفس ودخانها عليه بخلاف الموجدة فإنها تكون مع قوته وصلابته وقوة نوره وإحساسه .

فصل
فى الفرق بين المنافسة والحسد

والفرق بين المنافسة والحسد : أن المنافسة المبادرة إلى الكمال الذى تشاهد من غيرك ، فتنافسه فيه . حتى تلحقه أو تجاوزه ، فهى من شرف النفس وعلو الهمة ، وكبر القدر ، قال تعالى : ﴿ **وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** (٢٧) ﴾ [المطففين] .

وأصلها من الشىء النفيس الذى تتعلق به النفوس طلبا ورغبة ، فينافس فيه كل من

---

(١) مسلم (٢٨٦٥ / ٦٣) فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار .

النفسين الأخرى ، وربما فرحت إذا شاركتها فيه ، كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتنافسون فى الخير ، ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه ، بل يحض بعضهم بعضا عليه مع تنافسهم فيه ، وهى نوع من المسابقة ، وقد قال تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة : ١٤٨] ، وقال تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ﴾ [الحديد : ٢١] .

وكان عمر بن الخطاب يسابق أبا بكر رضي الله عنهما فلم يظفر بسبقه أبدا ، فلما علم أنه قد استولى على الإمامة . قال : والله لا أسابقك إلى شىء أبدا ، وقال : والله ما سابقته إلى خير إلا وجدته قد سبقنى إليه .

والمتنافسان كعبدين بين يدى سيدهما يتباريان ويتنافسان فى مرضاته ويتسابقان إلى محابه ، فسيدهما يعجبه ذلك منهما ، ويحثهما عليه ، وكل منهما يحب الآخر ويحرضه على مرضاة سيده .

والحسد : خلق نفس ذميمة وضيعة ساقطة ، ليس فيها حرص على الخير ، فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها ، ويتمنى أن لو فاته كسبها حتى يساويها فى العدم ، كما قال تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء : ٨٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة :١٠٩] . فالحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو ، والمنافس مسابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه فهو ينافس غيره ، أن يعلو عليه ويحب لحاقه به ، أو مجاوزته له فى الفضل . والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه فى النقصان ، وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة ، فمن جعل نصب عينيه شخصا من أهل الفضل والسبق فنافسه انتفع به كثيراً ، فإنه يتشبه به ويطلب اللحاق به والتقدم عليه ، وهذا لا نذمه وقد يطلق اسم الحسد على المنافسة المحمودة،كما فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم: « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار ، ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق »[1] .

فهذا حسد منافسة وغبطة يدل على علو همة صاحبه وكبر نفسه وطلبها للتشبه بأهل الفضل .

(١) مسلم (٨١٥ / ٢٦٦) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه .

فصل
فى الفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة

والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله : هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعى فى حظها ، فإن الناصح لله المعظم له المحب له ، يجب أن يطاع ربه فلا يعصى ، وأن تكون كلمته هى العليا وأن يكون الدين كله لله ، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه ، فقد ناصح الله فى عبوديته وناصح خلقه فى الدعوة إلى الله ، فهو يحب الإمامة فى الدين ، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إماما يقتدى به المتقون ، كما اقتدى هو بالمتقين ، فإذا أحب هذا العبد الداعى إلى الله أن يكون فى أعينهم جليلا ، وفى قلوبهم مهيبًا ، وإليهم حبيباً ، وأن يكون فيهم مطاعا لكى يأتموا به ويقتفوا أثر الرسول على يده ، لم يضره ذلك ، بل يحمد عليه ، لأنه داع إلى الله ،يحب أن يطاع ويعبد ويوحد ، فهو يحب ما يكون عوناً على ذلك موصلا إليه ؛ ولهذا ذكر ـ سبحانه ـ عباده الذين اختصهم لنفسه ، وأثنى عليهم فى تنزيله ، وأحسن جزاءهم يوم لقائه فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم ، ثم قال :

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴾

[الفرقان] . فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له ـ سبحانه ـ وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين له على طاعته وعبوديته . فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة ، فإنما سألوه ما يعاونون به المتقين على مرضاته وطاعته ، وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة فى الدين التى أساسها الصبر واليقين ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾ [السجدة] . وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمن عليهم بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهراً وباطناً التى لا تتم الإمامة إلا بها .

وتأمل كيف نسبهم فى هذه الآيات إلى اسمه الرحمن جل جلاله ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته ، وتأمل كيف جعل جزاءهم فى هذه السورة الغرف وهى المنازل العالية فى الجنة ، لما كانت الإمامة فى الدين من الرتب العالية ، بل من أعلى مرتبة يعطاها العبد فى الدين ، كان جزاؤه عليها الغرفة العالية فى الجنة ، وهذا بخلاف طلب الرياسة ، فإن طلابها يسعون فى تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو فى الأرض ، وتعبد القلوب لهم وميلها إليهم ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم ، مع

كونهم عالين عليهم قاهرين لهم ، فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله من البغى والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة والحمية للنفس ، دون حق الله وتعظيم من حقره الله ، واحتقار من أكرمه الله ، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك ، ولا تنال إلا به وبأضعافه من المفاسد ، والرؤساء فى عمى عن هذا ، فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه ، ولاسيما إذا حشروا فى صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم، وتحقيراً وتصغيراً كما صغروا أمر الله وحقروا عباده .

فصل

فى الفرق بين الحب فى الله والحب مع الله

والفرق بين الحب فى الله والحب مع الله ـ وهذا من أهم الفروق ، وكل أحد محتاج بل مضطر إلى الفرق بين هذا وهذا ـ فالحب فى الله : هو من كمال الإيمان . والحب مع الله : هو عين الشرك .

والفرق بينهما أن المحب فى الحب تابع لمحبة الله ، فإذا تمكنت محبته من قلب العبد ، أوجبت تلك المحبة أن يحب ما يحبه الله ، فإذا أحب ما أحبه ربه ووليه ، كان ذلك الحب له ، وفيه كما يحب رسله وأنبياءه وملائكته وأولياءه ، لكونه تعالى يحبهم ويبغض من بغضهم ، لا لكونه تعالى يبغضهم . وعلامة هذا الحب والبغض فى الله أنه لا ينقلب بغضه لبغيض الله حباً لإحسانه إليه ، وخدمته له ، وقضاء حوائجه ، ولا ينقلب حبه لحبيب الله بغضاً إذا وصل إليه من جهته ما يكرهه ، ويؤلمه إما خطأ وإما عمداً ، مطيعًا لله فيه أو متأولا أو مجتهداً أو باغياً نازعاً بائناً .

والدين كله يدور على أربع قواعد : حب ، وبغض ، ويترتب عليهما فعل وترك ، فمن كان حبه وبغضه وفعله وتركه لله ، فقد استكمل الإيمان بحيث إذا أحب أحب لله ، وإذا أبغض أبغض لله ، وإذا فعل فعل لله ، وإذا ترك ترك لله ، وما نقص من إضافة هذه الأربعة نقص من إيمانه ودينه بحسبه ، وهذا بخلاف الحب مع الله فهو نوعان : نوع يقدح فى أصل التوحيد ، وهو شرك . ونوع يقدح فى كمال الإخلاص ومحبة الله ولا يخرج من الإسلام .

فالأول : كمحبة المشركين لأوثانهم وأندادهم ، قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ** ﴾ [البقرة : ١٦٥] ، وهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم

وأصنامهم وآلهتم مع الله ، كما يحبون الله . فهذه محبة تأله وموالاة يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء ، وهذه المحبة هى محض الشرك الذى لا يغفره الله ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد وشدة بغضها وبغض أهلها ، ومعاداتهم ومحاربتهم ، وبذلك أرسل الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه ، وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية ، وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم فيه ، وفى مرضاته ، فكل من عبد شيئاً من لدن عرشه إلى قرار أرضه ، فقد اتخذ من دون الله إلهاً ولياً وأشرك به كائنًا ذلك المعبود ما كان ، ولابد أن يتبرأ منه أحوج ما كان إليه .

والنوع الثانى : محبة ما زينه الله للنفوس من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، فيحبها محبة شهوة كمحبة الجائع للطعام ، والظمآن للماء . فهذه المحبة ثلاثة أنواع ، فإن أحبها لله توصلا بها إليه واستعانة على مرضاته وطاعته ، أثيب عليها ، وكانت من قسم الحب لله توصلا بها إليه ، ويلتذ بالتمتع بها ، وهذا حال أكمل الخلق الذى حبب إليه من الدنيا النساء والطيب . لموافقة طبعه وهواه وإرادته ، ولم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه ، بل نالها بحكم الميل الطبيعى كانت من قسم المباحات ولم يعاقب على ذلك ، ولكن ينقص من كمال محبته لله والمحبة فيه ، وإن كانت هى مقصوده ومراده وسعيه فى تحصيلها أو الظفر بها ، وقدمها على ما يحبه الله ويرضاه منه كان ظالما لنفسه متبعاً لهواء .

فالأولى . محبة السابقين ، والثانية : محبة المقتصدين ، والثالثة : محبة الظالمين . فتأمل هذا الموضع وما فيه من الجمع والفرق ، فإنه معترك النفس الأمارة والمطمئنة ، والمهدى من هداه الله .

فصل
فى الفرق بين التوكل والعجز

والفرق بين التوكل والعجز : أن التوكل عمل القلب وعبوديته اعتماداً على الله وثقة به والتجاء إليه ، وتفويضا إليه ، ورضا بما يقضيه له لعلمه بكفايته ـ سبحانه ـ وحسن اختياره لعبده ، إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده فى تحصيلها، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعظم المتوكلين ، وكان يلبس لأمته ودرعه، بل ظاهر يوم أحد بين درعين ، واختفى فى الغار ثلاثاً ، فكان متوكلا فى السبب لا على السبب .

وأما العجز ، فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما ، فإما أن يعطل السبب عجزاً منه ويزعم أن ذلك توكل ، ولعمر الله إنه لعجز وتفريط ، وإما أن يقوم بالسبب ناظرًا إليه معتمدًا عليه غافلاً عن المسبب معرضاً عنه ، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر ، ولم يعلق قلبه به تعلقاً تاماً ،بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب. فهذا توكله عجز وعجزه توكل ، وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطا .

فأحد الطرفين : عطل الأسباب محافظة على التوكل .

والثانى : عطل التوكل محافظة على السبب .

والوسط : علم أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب ، فتوكل على الله فى نفس السبب ، وأما من عطل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور مخدوع متمن ، كمن عطل النكاح والتسرى وتوكل فى حصول الولد وعطل الحرث والبذر وتوكل فى حصول الزرع ، وعطل الأكل والشرب وتوكل فى حصول الشبع والرى . فالتوكل نظير الرجاء ، والعجز نظير التمنى .

فحقيقة التوكل : أن يتخذ العبد ربه وكيلا له ، قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله ، العالم بكفايته ونهضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره ، والرب ـ سبحانه ـ قد أمر عبده بالاحتيال وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه ، فأمره أن يحرث ويبذر ويسعى ويطلب رزقه فى ضمان ذلك ، كما قدره ـ سبحانه ـ ودبره واقتضته حكمته وأمره ألا يعلق قلبه بغيره ، بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه ، وأخبره أنه ـ سبحانه ـ المليء بالوكالة الوفى بالكفالة ، فالعاجز من رمى هذا كله وراء ظهره ، وقعد كسلان طالبا للراحة ، مؤثراً للدعة يقول : الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله ، وسيأتينى ما قدر لى على ضعفى ، ولن أنال ما لم يقدر لى مع قوتى ، ولو أنى هربت من رزقى كما أهرب من الموت للحقنى . فيقال له : نعم ، هذا كله حق ، وقد علمت أن الرزق مقدر ، فما يدريك كيف قدر لك بسعيك أم بسعى غيرك ، وإذا كان بسعيك فبأى سبب ومن أى وجه . وإذا خفى عليك هذا كله ، فمن أين علمت أنه يقدر لك إتيانه عفوا بلا سعى ولا كد ؟ فكم من شيء سعيت فيه فقدر لغيرك ، وكم من شيء سعى فيه غيرك فقدر لك رزقا ، فإذا رأيت هذا عيانا فكيف علمت أن رزقك كله بسعى غيرك .

وأيضاً ، فهذا الذى أوردته عليك النفس يجب عليك طرده فى جميع الأسباب مع

مسبباتها ، حتى فى أسباب دخول الجنة والنجاة من النار ، فهل يعطلها اعتماداً على التوكل، أم يقوم بها مع التوكل ، بلى لن تخلو الأرض من متوكل صبر نفسه لله ، وملأ قلبه من الثقة به ورجاءه وحسن الظن به ، فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب، فسكن قلبه إلى الله واطمأن إليه ، ووثق به ، وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه ، فلم يعطل السبب ، وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه ، فكان توكله أوثق الأسباب عنده ، فكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه وتضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك ، أو من كماله ، فلم يتسع قلبه للأمرين ، فأعرض عن أحدهما إلى الآخر .

ولا ريب أن هذا أكمل حالا ممن امتلأ قلبه بالسبب ، واشتغل به عن ربه ، وأكمل منهما من جمع الأمرين ، وهى حال الرسل والصحابة ، فقد كان زكريا نجارًا ، وقد أمر الله نوحاً أن يصنع السفينة ، ولم يكن فى الصحابة من يعطل السبب اعتمادا على التوكل، بل كانوا أقوم الناس بالأمرين . ألا ترى أنهم بذلوا جهدهم فى محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم ، وقاموا فى ذلك بحقيقة التوكل ، وعمروا أموالهم وأصلحوها ، وأعدوا لأهليهم كفايتهم من القوت ، اقتداء بسيد المتوكلين ، صلوات الله وسلامه عليه وآله .

فصل
فى الفرق بين الاحتياط والوسوسة

والفرق بين الاحتياط والوسوسة :أن الاحتياط الاستقصاء والمبالغة فى اتباع السنة ، وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من غير غلو ومجاوزة ولا تقصير ولا تفريط . فهذا هو الاحتياط الذى يرضاه الله ورسوله .

وأما الوسوسة ، فهى ابتداع ما لم تأت به السنة ، ولم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا أحد من الصحابة ، زاعما أنه يصل بذلك إلى تحصيل المشروع وضبطه، كمن يحتاط بزعمه ويغسل أعضاءه فى الوضوء فوق الثلاثة ، فيسرف فى صب الماء فى وضوئه وغسله، ويصرح بالتلفظ بنية الصلاة مرارا أو مرة واحدة ؛ ويغسل ثيابه مما لا يتيقن نجاسته احتياطا،ويرغب عن الصلاة فى نعله احتياطاً إلى أضعاف أضعاف هذا . مما اتخذه الموسوسون دينا وزعموا أنه احتياط ؛ وقد كان الاحتياط باتباع هدى رسول الله عليه

وآله وسلم وما كان عليه أولى بهم ، فإنه الاحتياط الذى من خرج عنه فقد فارق الاحتياط؛ وعدل عن سواء الصراط ؛ والاحتياط كل الاحتياط الخروج عن خلاف السنة ؛ ولو خالفت أكثر أهل الأرض بل كلهم .

فصل
فى الفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان

والفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان من وجوه :

منها : أن ما كان لله موافقاً لمرضاته وما جاء به رسوله فهو من الملك ، وما كان لغيره غير موافق لمرضاته فهو من إلقاء الشيطان .

ومنها : أن ما أثمر إقبالا على الله وإنابة إليه وذكراً له وهمة صاعدة إليه فهو من إلقاء الملك ، وما أثمر ضد ذلك فهو من الشيطان .

ومنها : أن ما أورث أنسا ونورا فى القلب وانشراحاً فى الصدر فهو من الملك ، وما أورث ضد ذلك فهو من الشيطان .

ومنها : أن ما أورث سكينة وطمأنينة فهو من الملك ، وما أورث قلقاً أو انزعاجاً واضطرابا فهو من الشيطان .

فالإلهام الملكى يكثر فى القلوب الطاهرة النقية التى قد استنارت بنور الله ؛ فالملك بها اتصال ، وبينه وبينها مناسبة ؛ فإنه طيب طاهر لا يجاور إلا قلباً يناسبه ؛ فتكون لمة الملك بهذا القلب أكثر من لمة الشيطان ، وأما القلب المظلم الذى قد اسود بدخان الشهوات والشبهات ، فإلقاء الشيطان ولمته به أكثر من لمة الملك .

فصل
فى الفرق بين الاقتصاد والتقصير

والفرق بين الاقتصاد والتقصير: أن الاقتصاد هو التوسط بين طرفى الإفراط والتفريط، وله طرفان هما ضدان له: تقصير ومجاوزة ، فالمقتصد قد أخذ بالوسط، وعدل عن الطرفين، قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا** ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان] ،

وقال تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [الإسراء : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف : ٣١] .

والدين كله بين هذين الطرفين ،بل الإسلام قصد بين الملل ، والسنة قصد بين البدع ، ودين الله بين الغالى فيه والجافى عنه ، وكذلك الاجتهاد هو بذل الجهد وموافقة الأمر . والغلو مجاوزته وتعديه وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان،فإما إلى غلو ومجاوزة ، وإما تفريط وتقصير ، وهما آفتان لا يخلص منهما فى الاعتقاد والقصد والعمل إلا من مشى خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وترك أقوال الناس وآراءهم لما جاء به لا من ترك ما جاء به لأقوالهم وآرائهم ، وهذان المرضان الخطران قد استوليا على أكثر بنى آدم ، ولهذا حذر السلف منهما أشد التحذير ، وخوفوا من بُلى بأحدهما بالهلاك ، وقد يجتمعان فى الشخص الواحد،كما هو حال أكثر الخلق يكون مقصراً مفرطا فى بعض دينه، غاليا متجاوزاً فى بعضه ، والمهدى من هداه الله .

فصل
فى الفرق بين النصيحة والتأنيب

والفرق بين النصيحة والتأنيب : أن النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له وعليه ، فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة ، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه . والإحسان إلى خلقه . فيتلطف فى بذلها غاية التلطف ، ويحتمل أذى المنصوح ولائمته ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق والمريض المشبع مرضا. وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته ، ويتلطف فى وصول الدواء إليه بكل ممكن ، فهذا شأن الناصح .

وأما المؤنب ،فهو رجل قصده التعيير والإهانة وذم من أنبه وشتمه فى صورة النصح ، فهو يقول له : يا فاعل كذا وكذا ، يا مستحقا للذم والإهانة فى صورة ناصح مشفق ، وعلامة هذا : أنه لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو شر منه لم يعرض له،ولم يقل له شيئا،ويطلب له وجوه المعاذير. فإن غلب قال : وأنى ضمنت له العصمة ، والإنسان عرضة للخطأ ومحاسنه أكثر من مساوئه ، والله غفور رحيم ، ونحو ذلك .

فيا عجبا ، كيف كان هذا لمن يحبه دون من يبغضه ؛ وكيف كان حظ ذلك منك

التأنيب فى صورة النصح ، وحظ هذا منك رجاء العفو والمغفرة ، وطلب وجوه المعاذير .

ومن الفرق بين الناصح والمؤنب: أن الناصح لا يعاديك إذا لم تقبل نصيحته ، وقال : قد وقع أجرى على الله، قبلت أو لم تقبل ، ويدعو لك بظهر الغيب ، ولا يذكر عيوبك ، ولا يبينها فى الناس ، والمؤنب بضد ذلك .

فصل
فى الفرق بين المبادرة والعجلة

والفرق بين المبادرة والعجلة : أن المبادرة انتهاز الفرصة فى وقتها ولا يتركها ، حتى إذا فاتت طلبها فهو لا يطلب الأمور فى أدبارها ولا قبل وقتها ، بل إذا حضر وقتها بادر إليها ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته ، فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثمرة ، وقت كمال نضجها وإدراكها .

والعجلة : طلب أخذ الشىء قبل وقته ، فهو لشدة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها .

فالمبادرة : وسط بين خلقين مذمومين : أحدهما : التفريط والإضاعة ، والثانى : الاستعجال قبل الوقت ؛ ولهذا كانت العجلة من الشيطان ، فإنها خفة وطيش ، وحدة فى العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم وتوجب له وضع الأشياء فى غير مواضعها ، وتجلب عليه أنواعا من الشرور ، وتمنعه أنواعا من الخير ، وهى قرين الندامة ، فقل من استعجل إلا ندم ، كما أن الكسل قرين الفوت والإضاعة .

فصل
فى الفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى

والفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى ـ وإن اشتبهت صورتهما: أن الإخبار بالحال : يقصد المخبر به قصداً صحيحًا من علم سبب إدانته ، أو الاعتذار لأخيه من أمر طلبه منه ، أو يحذره من الوقوع فى مثل ما وقع فيه فيكون ناصحا بإخباره له أو حمله على الصبر بالتأسى به ، كما يذكر عن الأحنف أنه شكا إليه رجل شكوى ، فقال : يابن أخى ، لقد

ذهب ضوء عينى من كذا وكذا سنة ، فما أعلمت به أحداً .

ففى ضمن هذا الإخبار من حمل الشاكى على التأسى والصبر ما يثاب عليه المخبر وصورته صورة الشكوى ، ولكن القصد ميز بينهما . ولعل من هذا قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم - لما قالت عائشة : وارأساه ، فقال : « بل أنا وارأساه » (١) أى الوجع القوى بى أنا دونك ، فتأسى بى فلا تشتكى . ويلوح لى فيه معنى آخر ، وهو أنها كانت حبيبة رسول الله ﷺ ، بل كانت أحب النساء إليه على الإطلاق ، فلما شكت إليه رأسها أخبرها أن بمحبها من الألم مثل الذى بها ، وهذا غاية الموافقة من المحب ومحبوبه ، يتألم بتألمه ، ويسر بسروره ، حتى إذا آلمه عضو من أعضائه آلم المحب ذلك العضو بعينه ، وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة .

فالمعنى الأول : يفهم أنك لا تشتكى واصبرى ، فبى من الوجع مثل ما بك ، فتأسى بى فى الصبر وعدم الشكوى .

والمعنى الثانى : يفهم إعلامها بصدق محبته لها : أى انظرى قوة محبتى لك كيف واسيتك فى ألمك ووجع رأسك ، فلم تكونى متوجعة وأنا سليم من الوجع ، يؤلمنى ما يؤلمك ، كما يسرنى ما يسرك .

كما قيل :

وإن أولى البرايا أن تواسيه عند السرور الذى واساك فى الحزن

وأما الشكوى، فالإخبار العارى عن القصد الصحيح، بل يكون مصدره السخط وشكاية المبتلى إلى غيره ، فإن شكا إليه - سبحانه وتعالى - لم يكن ذلك شكوى ، بل استعطاف وتملق واسترحام له، كقول أيوب: ﴿ رَبِّ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) ﴾ [الأنبياء]، وقول يعقوب: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٦]، وقول موسى: « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بك » (٢)، وقول سيد ولد آدم : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى ،

(١) أحمد (٦ / ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨) ، وأبو يعلى (٤٩٦٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٩ / ٣٥ ، ٣٦) : « رجال أحمد ثقات ، وفى إسناد أبى يعلى عوبد بن أبى عمران وثقه ابن حبان ، وضعفه الجمهور ، وقال بعضهم : متروك » .

(٢) الطبرانى فى الأوسط (٣٣٩٤) ، والصغير (٣٣٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ١٨٦) : « فيه من لم أعرفهم » .

وهوانى على الناس ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أو إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، غير أن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل على غضبك ، أو ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » (١) .

فالشكوى إلى الله ـ سبحانه ـ لا تنافى الصبر بوجه ، فإن الله تعالى قال عن أيوب : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) ﴾ [ص]، مع إخباره عنه بالشكوى إليه فى قوله : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ ، وأخبر عن نبيه يعقوب أنه وعد من نفسه بالصبر الجميل ، والنبى إذا قال وفى ، مع قوله : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ولم يجعل ذلك نقصًا لصبره ، ولا يلتفت إلى غير هذا من ترهات القوم .

كما قال بعضهم : لما قال : مسنى الضر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ . ولم يقل : صبورًا حيث قال : مسنى الضر .

وقال بعضهم : لم يقل : ارحمنى ، وإنما قال : أنت أرحم الراحمين ، فلم يزد على الإخبار بحاله ، ووصف ربه .

وقال : بعضهم : إنما شكا مس الضر ، حين ضعف لسانه عن الذكر ، فشكا مس ضر ضعف الذكر لا ضر المرض والألم .

وقال بعضهم : استخرج منه هذا القول ليكون قدوة للضعفاء من هذه الأمة ، وكأن هذا القائل رأى أن الشكوى إلى الله تنافى الصبر ، وغلط أقبح الغلط ، فالمنافى للصبر شكواه لا الشكوى إليه ، فالله يبتلى عبده ليسمع تضرعه ودعاءه والشكوى إليه ، ولا يحب التجلد عليه وأحب ما إليه انكسار قلب عبده بين يديه ، وتذلله له وإظهار ضعفه وفاقته وعجزه ، وقلة صبره ، فاحذر كل الحذر من إظهار التجلد عليه ، وعليك بالتضرع والتمسكن وإبداء العجز ، والفاقة والذل والضعف ، فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم (٢) .

---

(١) ابن هشام فى السيرة النبوية (٢ / ٦٨) ، فى سعى الرسول إلى الطائف وموقف ثقيف منه .
(٢) الروح (٣٤٧ ـ ٣٨٤) .

فصل
فى الفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين

الفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين : أن توحيد الرسل : إثبات صفات الكمال لله على وجه التفصيل وعبادته وحده لا شريك له فلا يجعل له ندًا فى قصد ولا حب ولا خوف ولا رجاء ، ولا لفظ ولا حلف ، ولا نذر ، بل يرفع العبد الأنداد له من قلبه وقصده ولسانه وعبادته ، كما أنها معدومة فى نفس الأمر لا وجود لها البتة ، فلا يجعل لها وجودًا فى قلبه ولا لسانه .

وأما توحيد المعطلين ، فنفى حقائق أسمائه وصفاته وتعطيلها ، ومن أمكنه منهم تعطيلها من لسانه عطلها،فلا يذكرها ولا يذكر آية تتضمنها ، ولا حديثًا يصرح بشىء منها ، ومن لم يمكنه تعطيل ذكرها سطا عليها بالتحريف ونفى حقيقتها،وجعلها اسمًا لا معنى له ، أو معناه من جنس الألغاز والأحاجى . على أن من طرد تعطيله منهم علم أنه يلزمه فيما حرف إليه النص من المعنى ، نظير ما فر منه سواء ، فإن لزم تمثيل أو تشبيه أو حدوث فى الحقيقة لزم فى المعنى الذى حمل عليه النص وإن لا يلزم فى هذا فهو أولى ألا يلزم فى الحقيقة ، فلما علم هذا لم يمكنه إلا تعطيل الجميع ، فهذا طرد لأصل التعطيل والمفرق أقرب منه ، ولكنه مناقض يتحكم بالباطل حيث أثبت لله بعض ما أثبته لنفسه ، ونفى عنه البعض الآخر .واللازم الباطل فيهما واحد ، واللازم الحق لا يفرق بينهما . والمقصود أنهم سموا هذا التعطيل توحيدًا،وإنما هو إلحاد فى أسماء الرب تعالى وصفاته وتعطيل لحقائقها .

فصل
فى الفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة

والفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة : أن الرسل نزهوه ـ سبحانه ـ عن النقائص والعيوب التى نزه نفسه عنها ، وهى المنافية لكماله وكمال ربوبيته وعظمته ، كالسنة والنوم والغفلة والموت واللغوب والظلم ، وإرادته والتسمى به والشريك والصاحبة والظهير والولد والشفيع بدون إذنه وأن يترك عباده سدى هملا ، وأن يكون خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا لا لثواب ولا عقاب ، ولا أمر ولا نهى ، وأن يسوى بين أوليائه وأعدائه ،

وبين الأبرار والفجار وبين الكفار والمؤمنين ، وأن يكون فى ملكه ما لا يشاء ، وأن يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه ، أو يكون لغيره معه من الأمر شىء ، أو يعرض له غفلة أو سهو أو نسيان . وأن يخلف وعده أو تبدل كلماته أو يضاف إليه الشر اسما أو وصفا أو فعلا ، بل أسماؤه كلها حسنى ،وصفاته كلها كمال ، وأفعاله كلها خير وحكمة ومصلحة . فهذا تنزيه الرسل لربهم .

وأما المعطلون ، فنزهوه عما وصف به نفسه من الكمال ، فنزهوه عن أن يتكلم أو يكلم أحدًا ونزهوه عن استوائه على عرشه ، وأن ترفع إليه الأيدى ، وأن يصعد إليه الكلم الطيب ، وأن ينزل من عنده شىء أو تعرج إليه الملائكة والروح ، وأن يكون فوق عباده ، وفوق جميع مخلوقاته عاليًا عليها،ونزهوه أن يقبض السموات بيده والأرض باليد الأخرى، وأن يمسك السموات على إصبع ، والأرض على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع ، ونزهوه أن يكون له وجه ، وأن يراه المؤمنون بأبصارهم فى الجنة ، وأن يكلمهم ويسلم عليهم ويتجلى لهم ضاحكا ،وأن ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا ، فيقول : من يستغفرنى فأغفر له ، ومن يسألنى فأعطيه ، فلا نزول عندهم ولا قول ، ونزهوه أن يفعل شيئا لشىء ، بل أفعاله لا لحكمة ولا لغرض مقصود ، ونزهوه أن يكون تام المشيئة نافذ الإرادة ،بل يشاء الشىء ويشاء عباده خلافه ، فيكون ما شاء العبد دون ما شاء الرب ، ولا يشاء الشىء فيكون ما لا يشاء ، ويشاء ما لا يكون . وسموا هذا عدلا كما سموا ذلك التنزيه توحيدًا ، ونزهوه عن أن يُحِب أو يُحَب ، ونزهوه عن الرأفة والرحمة والغضب والرضا ، ونزهه آخرون عن السمع والبصر وآخرون عن العلم . ونزهه آخرون عن الوجود ، فقالوا : الذى فر إليه هؤلاء المنزهون من التشبيه والتمثيل ، يلزمنا فى الوجود فيجب علينا أن ننزهه عنه ، فهذا تنزيه الملحدين والأول تنزيه المرسلين.

فصل
فى الفرق بين حقائق الأسماء والصفات وبين التشبيه والتمثيل

والفرق بين إثبات حقائق الأسماء والصفات وبين التشبيه والتمثيل ، ما قاله الإمام أحمد ، ومن وافقه من أئمة الهدى : أن التشبيه والتمثيل : أن تقول : يد كيدى ، أو سمع كسمعى ، أو بصر كبصرى ، ونحو ذلك .

وأما إذا قلت : سمع وبصر ويد ووجه واستواء لا يماثل شيئًا من صفات المخلوقين ، بل بين الصفة والصفة من الفرق كما بين الموصوف والموصوف فأى تمثيل هاهنا ، وأى تشبيه لولا تلبيس الملحدين ، فمدار الحق الذى اتفقت عليه الرسل على أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تشبيه ولا تمثيل إثبات الصفات ونفى مشابهة المخلوقات ، فمن شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد حقائق ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، ومن أثبت له حقائق الأسماء والصفات ، ونفى عنه مشابهة المخلوقات ، فقد هدى إلى صراط مستقيم .

فصل
فى الفرق بين تجريد التوحيد وبين هضم أرباب المراتب

والفرق بين تجريد التوحيد ، وبين هضم أرباب المراتب : أن تجريد التوحيد : ألا يعطى المخلوق شيئًا من حق الخالق وخصائصه ، فلا يعبد ولا يصلى له ولا يسجد ولا يحلف باسمه ولا ينذر له ولا يتوكل عليه ولا يؤله ولا يقسم به على الله ، ولا يعبد ليقرب إلى الله زلفى ، ولا يساوى برب العالمين فى قول القائل : ما شاء الله وشئت ، وهذا منك ومن الله ، وأنا بالله وبك ، وأنا متوكل على الله وعليك ، والله لى فى السماء وأنت فى الأرض ، وهذا من صدقاتك وصدقات الله ، وأنا تائب إلى الله وإليك ، وأنا فى حسب الله وحسبك ، فيسجد للمخلوق كما يسجد المشركون لشيوخهم ، يحلق رأسه له ويحلف باسمه وينذر له ، ويسجد لقبره بعد موته ، ويستغيث به فى حوائجه ومهماته ، ويرضيه بسخط الله ، ولا يسخطه فى رضا الله ، ويتقرب إليه أعم مما يتقرب إلى الله ، ويحبه ويخافه ويرجوه أكثر مما يحب الله ويخافه ويرجوه أو يساويه ، فإذا هضم المخلوق خصائص الربوبية وأنزله منزلة العبد المحض الذى لا يملك لنفسه فضلا عن غيره ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورا، لم يكن هذا تنقصا له ولا حطا من مرتبته، ولو رغم المشركون.

وقد صح عن سيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » (١) ، وقال : « أيها

---

(١) البخارى (٣٤٤٥) فى الأنبياء ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ... ﴾ ، والدارمى (٢ / ٣٢٠) فى الرقائق ، باب : فى قول النبى ﷺ : « لا تطرونى » ، وأحمد (١ / ٢٣ ، ٤٧ ، ٥٥) .

الناس ، ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى » (١) ، وقال : « لا تتخذوا قبرى عيدا » (٢) ، وقال : « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد » (٣) ، وقال : « لا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد » (٤) ، وقال له رجل : ما شاء الله وشئت ، فقال : « أجعلتنى لله ندًا ؟ » (٥) ، وقال له رجل قد أذنب : اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال : « عرف الحق لأهله » (٦)، وقد قال الله له : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] ، وقال : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] ، وقال : ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [يونس : ٤٩] ، وقال : ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) ﴾ [الجن] ، أى لن أجد من دونه من ألتجئ إليه وأعتمد عليه .

وقال لابنته فاطمة وعمه العباس وعمته صفية : « لا أملك لكم من الله شيئًا » (٧) ، وفى لفظ فى الصحيح : « لا أغنى عنكم من الله شيئا » (٨) . فعظم ذلك على المشركين بشيوخهم وآلهتهم وأبوا ذلك كله ، ادعوا لشيوخهم ومعبوديهم خلاف هذا كله ، وزعموا أن من سلبهم ذلك فقد هضمهم مراتبهم وتنقصهم ، وقد هضموا جانب الإلهية غاية الهضم وتنقصوه ، فلهم نصيب وافر من قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾ [الزمر] .

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٣ / ١٢٨ (٢٨٨٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٤) : « إسناده حسن » ، كلاهما بلفظ « لا ترفعونى فوق حقى . . . » .

(٢) أحمد (٢ / ٣٦٧) ، وأبو يعلى (٤٦٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ٦) : « فيه حفص بن إبراهيم الجعفرى ، ذكره ابن أبى حاتم ولم يذكر فيه جرحا وبقية رجاله ثقات » ، ورواه أبو داود عن أبى هريرة (٢٠٤٢) فى النكاح ، باب : زيارة القبور .

(٣) أحمد (٢ / ٢٤٦) ، وأبو يعلى (٨٤١) ، وقال الهيثمى فى المجمع ٤ / ٥ : « فيه إسحاق بن أبى إسرائيل وفيه كلام لوقفه وبقية رجاله ثقات » .

(٤) الدارمى (٢ / ٢٩٥) فى الرقائق ، باب : فى تغيير الأسماء ، والحاكم فى المستدرك (٣ / ٤٦٢ ، ٤٦٣) ، وقال : « خالفه حماد بن سلمة عن عبد الملك بن عمير » وسكت عنه الذهبى .

(٥) أحمد (١ / ٢١٤) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٨٣٩) : « إسناده صحيح » .

(٦) أحمد (١ / ٤٣٥) ، والطبرانى فى الكبير ١ / ٢٨٦ (٨٣٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٢٠٢) : « فيه محمد بن مصعب وثقه أحمد وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٧) مسلم (٢٠٤ / ٣٤٨) فى الإيمان ، باب : فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، وأحمد ٢ / ٣٣٣ ، ٣٩٩ .

(٨) البخارى (٣٧٥٣) فى الوصايا ، باب : هل يدخل النساء والولد فى الأقارب ؟ ومسلم (٢٠٦ / ٣٥١) فى الإيمان ، باب : فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ .

فصل
فى الفرق بين تجريد متابعة المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم وإهدار أقوال العلماء وإلغائها

والفرق بين تجريد متابعة المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم ، وإهدار أقوال العلماء وإلغائها : أن تجريد المتابعة ألا تقدم على ما جاء به قول أحد ، ولا رأيه كائنا من كان ، بل تنظر فى صحة الحديث أولا ، فإذا صح لك نظرت فى معناه ثانيًا ، فإذا تبين لك لم تعدل عنه ، ولو خالفك من بين المشرق والمغرب . ومعاذ الله أن تتفق الأمة على مخالفة ما جاء به نبيها ، بل لابد أن يكون فى الأمة من قال به ، ولو لم تعلمه فلا تجعل جهلك بالقائل به حجة على الله ورسوله ،بل اذهب إلى النص ولا تضعف . واعلم أنه قد قال به قائل قطعًا ، ولكن لم يصل إليك هذا ، مع حفظ مراتب العلماء وموالاتهم واعتقاد حرمتهم وأمانتهم واجتهادهم،فى حفظ الدين وضبطه . فهم دائرون بين الأجر والأجرين والمغفرة ، ولكن لا يوجب هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد منهم عليها لشبهة أنه أعلم بها منك .

فإن كان كذلك فمن ذهب إلى النص أعلم به منك فهلا وافقته إن كنت صادقاً ، فمن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها بها ، وخالف منها ما خالف النص لم يهدر أقوالهم ، ولم يهضم جانبهم بل اقتدى بهم ، فإنهم كلهم أمروا بذلك فمتبعهم حقًا من امتثل ما أوصوا به لا من خالفهم فخلافهم فى القول الذى جاء النص بخلافه ، أسهل من مخالفتهم فى القاعدة الكلية ، التى أمروا أو دعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم .

ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم فى كل ما قال ، وبين الاستعانة بفهمه والاستضاءة بنور علمه ، فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه ولا طلب لدليله من الكتاب والسنة ، بل يجعل ذلك كالحبل الذى يلقيه فى عنقه يقلده به . ولذلك سمى تقليداً بخلاف من استعان بفهمه واستضاء بنور علمه فى الوصول إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلى الدليل الأول ، فإذا وصل إليه استغنى بدلالته عن الاستدلال بغيره ، فمن استدل بالنجم على القبلة فإنه إذا شاهدها لم يبق لاستدلاله بالنجم معنى .

قال الشافعى : أجمع الناس على أن ما استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد .

فصل
فى الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : أن أولياء الرحمن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وهم المذكورون فى أول سورة البقرة إلى قوله : ﴿ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾ [البقرة] وفى وسطها فى قوله : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ [البقرة] ، وفى أول الأنفال إلى قوله : ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾ [الأنفال] ، وفى أول سورة المؤمنين إلى قوله : ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾ [المؤمنون] وفى آخر سورة الفرقان . وفى قوله : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ إلى آخر الآية [الأحزاب : ٣٥] ، وفى قوله : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) ﴾[يونس]، وفى قوله : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) ﴾ [النور] ،وفى قوله : ﴿ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) ﴾ إلى قوله : ﴿ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥) ﴾ [المعارج] ،وفى قوله: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ ﴾ إلى آخر الآية [التوبة : ١١٢] .

فأولياء الرحمن هم المخلصون لربهم المحكمون لرسوله فى الحرم والحل، الذين يخالفون غيره لسنته ، ولا يخالفون سنته لغيرها ، فلا يبتدعون ولا يدعون إلى بدعة ، ولا يتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه ، ولا يتخذون دينهم لهوًا ولعبًا ولا يستحبون سماع الشيطان على سماع القرآن ، ولا يؤثرون صحبة الأفتان على مرضاة الرحمن ، ولا المعازف والمثانى ، على السبع المثانى .

برئنا إلى الله من معشر ... بهم مرض مورد للضنا
وكم قلت :يا قوم أنتم على ... شفا جرف من سماع الغنا
فلما استهانوا بتنبيهنا ... تركنا غويا وما قد جنا
وهل يستجيب لداعى الهدى ... غوىّ أصار الغنا ديدنا
فعشنا على ملة المصطفى ... وماتوا على تاننا تنتنا

ولا يشتبه أولياء الرحمن بأولياء الشيطان إلا على فاقد البصيرة والإيمان ، وأنى يكون

المعرضون عن كتابه وهدى رسوله وسنته المخالفون له إلى غيره أولياءه ، وقد ضربوا لمخالفته جأشا ، وعدلوا عن هدى نبيه وطريقته: ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) ﴾ [الأنفال] .

فأولياء الرحمن : المتلبسون بما يحب وليهم الداعون إليه المحاربون لمن خرج عنه .

وأولياء الشيطان : المتلبسون بما يحبه وليهم قولا وعملا ، يدعون إليه ويحاربون من نهاهم عنه ، فإذا رأيت الرجل يحب السماع الشيطانى ومؤذن الشيطان وإخوان الشياطين ، ويدعو إلى ما يحبه الشيطان من الشرك والبدع والفجور ، علمت أنه من أوليائه ، فإن اشتبه عليك فاكشفه فى ثلاثة مواطن فى صلاته ، ومحبته للسنة وأهلها ونفرته عنهم ودعوته إلى الله ورسله وتجريد التوحيد والمتابعة وتحكيم السنة ، فزنه بذلك لا تزنه بحال ، ولا كشف ولا خارق ، ولو مشى على الماء وطار فى الهواء .

فصل
فى الفرق بين الحال الإيمانى والحال الشيطانى

وبهذا يعلم الفرق بين الحال الإيمانى والحال الشيطانى: فإن الحال الإيمانى : ثمرة المتابعة للرسول والإخلاص فى العمل وتجريد التوحيد،ونتيجته منفعة المسلمين فى دينهم ودنياهم . وهو إنما يصح بالاستقامة على السنة والوقوف مع الأمر والنهى .

والحال الشيطانى: نسبته إما شرك أو فجور،وهو ينشأ من قرب الشياطين والاتصال بهم ومشابهتهم،وهذا الحال يكون لعباد الأصنام والصلبان والنيران والشيطان،فإن صاحبه لما عبد الشيطان خلع عليه حالا يصطاد به ضعفاء العقول والإيمان،ولا إله إلا الله،وكم هلك بهؤلاء من الخلق: ﴿ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، فكل حال خرج صاحبه عن حكم الكتاب ، وما جاء به الرسول شيطانى كائنا ما كان ، وقد سمعت بأحوال السحرة وعباد النار وعباد الصليب، وكثير مما ينتسب إلى الإسلام ظاهراً وهو برىء منه فى الباطن،له نصيب من هذا الحال بحسب موالاته للشيطان ومعاداته للرحمن .

وقد يكون الرجل صادقا ولكن يكون ملبوسا عليه بجهله ، فيكون حاله شيطانيا مع زهد وعبادة وإخلاص ، ولكن لبس عليه الأمر لقلة علمه بأمور الشياطين والملائكة ، وجهله بحقائق الإيمان ، وقد حكى هؤلاء وهؤلاء من ليس منهم بل هو متشبه صاحب مخاييل ومخاريق ، ووقع الناس فى البلاء بسبب عدم التمييز ين هؤلاء وهؤلاء ، فحسبوا

كل سوداء تمرة ، وكل بيضاء شحمة ، والفرقان أعز ما فى هذا العالم ، وهو نور يقذفه الله فى القلب ،ويفرق به بين الحق والباطل،ويزن به حقائق الأمور خيرها وشرها وصالحها وفاسدها،فمن عدم الفرقان وقع ولابد فى إشراك الشيطان ،فالله المستعان وعليه التكلان .

فصل
فى الفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع والحكم المؤول الذى غايته أن يكون جائز الاتباع

والفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع والحكم المؤول الذى غايته أن يكون جائز الاتباع: أن الحكم المنزل هو الذى أنزله الله على رسوله وحكم به بين عباده وهو حكمه الذى لا حكم له سواه .

وأما الحكم المؤول ، فهو أقوال المجتهدين المختلفة ، التى لا يجب اتباعها ولا يكفر ولا يفسق من خالفها ، فإن أصحابها لم يقولوا :هذا حكم الله ورسوله ، بل قالوا : اجتهدنا برأينا،فمن شاء قبله ومن شاء لم يقبله، ولم يلزموا به الأمة ،بل قال أبو حنيفة : هذا رأيى فمن جاءنا بخير منه قبلناه .

ولو كان هو عين حكم الله لما ساغ لأبى يوسف ومحمد وغيرهما مخالفته فيه ، كذلك مالك استشاره الرشيد أن يحمل الناس على ما فى الموطأ ، فمنعه من ذلك . وقال : قد تفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى البلاد ، وصار عند كل قوم علم غير ما عند الآخرين .

وهذا الشافعى ينهى أصحابه عن تقليده ويوصيهم بترك قوله إذا جاء الحديث بخلافه . وهذا الإمام أحمد ينكر على من كتب فتاواه ودونها ، ويقول : لا تقلدنى ولا تقلد فلانا ولا فلانا ، وخذ من حيث أخذوا ، ولو علموا ﷺ أن أقوالهم يجب اتباعها لحرموا على أصحابهم مخالفتهم،ولما ساغ لأصحابهم أن يفتوا بخلافهم فى شىء ،ولما كان أحدهم يقول ثم يفتى بخلافه فيروى عنه فى المسألة القولان والثلاثة وأكثر من ذلك،فالرأى والاجتهاد أحسن أحواله أن يسوغ اتباعه والحكم المنزل لا يحل لمسلم أن يخالفه ولا يخرج عنه .

وأما الحكم المبدل : وهو الحكم بغير ما أنزل الله ، فلا يحل تنفيذه ولا العمل به ، ولا يسوغ اتباعه ، وصاحبه بين الكفر والفسوق والظلم (١) .

---
(١) الروح (٣٨٦ ـ ٣٩٤) .

فصل
فى الفرق بين مسميات النفس
(المطمئنة ـ اللوامة ـ الأمارة بالسوء)

قد وقع فى كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاثة أنفس، نفس مطمئنة، ونفس لوامة ، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه ومنهم من تغلب عليه الأخرى ، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ** (٢٧) ﴾ [الفجر] وبقوله تعالى: ﴿ **لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** (١) **وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** (٢) ﴾ [القيامة]، وبقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾ [يوسف : ٥٣]

والتحقيق أنها نفس واحدة ولكن لها صفات، فتسمى باعتبار كل صفة باسم، فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته، وللإنابة إليه والتوكل عليه، والرضا به والسكون إليه .

فإن سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطيع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه، فيستغنى بمحبته عن حب ما سواه ، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه، فالطمأنينة إلى الله ـ سبحانه ـ حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه، وترد قلبه الشارد إليه حتى كأنه جالس بين يديه؛ يسمع به ويبصر به ويتحرك به ويبطش به، فتسرى تلك الطمأنينة فى نفسه وقلبه ومفاصله، وقواه الظاهرة والباطنة تجذب روحه إلى الله ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره وهو كلامه الذى أنزله على رسوله، كما قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** (٢٨) ﴾ [الرعد] .

فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتى بشىء سوى الله تعالى وذكره البتة، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه وبه غرور، والثقة به عجز . قضى الله ـ سبحانه وتعالى ـ قضاء لا مرد له أن من اطمأن إلى شىء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائنًا من كان، بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله سلبه وزايله، وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه أغراضاً لسهام البلاء ليعلم عباده وأولياءه أن المتعلق بغيره مقطوع، والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع .

وحقيقة الطمأنينة التى تصير بها النفس مطمئنة: أن تطمئن فى باب معرفة أسمائه

وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذى أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان، وانشراح الصدر له ؛ وفرح القلب به. فإنه معرف من معرفات الرب ـ سبحانه ـ إلى عبده على لسان رسوله، فلا يزال القلب فى أعظم القلق والاضطراب فى هذا الباب حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه، وتكلمه بالوحى بشاشة قلبه، فينزل عليه نزل الماء الزلال على القلب الملتهب بالعطش، فيطمئن إليه، ويسكن إليه، ويفرح به، ويلين له قلبه ومفاصله حتى كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس فى الظهيرة لعينه، فلو خالفه فى ذلك من بين شرق الأرض وغربها لم يلتفت إلى خلافهم.

وقال : إذا استوحش من الغربة قد كان الصديق الأكبر مطمئنا بالإيمان وحده وجميع أهل الأرض يخالفه وما نقص ذلك من طمأنينته شيئا . فهذا أول درجات الطمأنينة ، ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه .

وهذا أمر لا نهاية له، فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التى قام عليه بناؤه، ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة، حتى كأنه يشاهد ذلك كله عيانًا ، وهذا حقيقة اليقين الذى وصف به ـ سبحانه وتعالى ـ أهل الإيمان حيث قال: ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [البقرة] ، فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتى يطمئن القلب إلى ما أخبر الله ـ سبحانه ـ به عنها طمأنينته إلى الأمور التى لا يشك فيها ولا يرتاب.

فهذا هو المؤمن حقًا باليوم الآخر، كما فى حديث حارثة: أصبحت مؤمنًا حقًا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » قال: عزفت نفسى عن الدنيا وأهلها، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزًا ، وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وأهل النار يعذبون فيها . فقال : « عبد نور الله قلبه » (١) .

والطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان: طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها . وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجبه من آثار العبودية، مثاله: الطمأنينة إلى القدر وإثباته، والإيمان به يقتضى الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التى لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له على دفعها، فيسلم لها ويرضى بها ولا يسخط ولا يشكو ولا يضطرب إيمانه، فلا ييأس على ما فاته، ولا يفرح بما أتاه ؛ لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق، كما قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٣ / ٢٦٦ (٣٣٦٧) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٦٢) : « فيه ابن لهيعة ، وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه » .

إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد]، وقال تعالى : **﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾** [التغابن : ١١] ، قال غير واحد من السلف : هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها فى العلم ، وهى قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها ، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها كالسمع والبصر والعلم والرضا والغضب والمحبة ، فهذه طمأنينة الإيمان .

وأما طمأنينة الإحسان ، فهى الطمأنينة إلى أمره امتثالا وإخلاصًا ونصحًا ، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليدًا ، فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره، بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس التى لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها ، فهذا كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « صريح الإيمان » (١) ، وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها ، ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة فى الظفر بالتوبة . وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين وباشر قلبه آثارهما ،فللتوبة طمأنينة تقابل ما فى المعصية من الانزعاج والقلق، ولو فتش العاصى عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب ، وإنما يوارى عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة،فإن لكل شهوة سكرًا يزيد على سكر الخمر ، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب .

ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمر، وكذلك يظهر من قلق الغفلة والإعراض إلى سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره،وتعلق الروح بحبه ومعرفته ، فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبدًا ، ولو أنصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك فى غاية الانزعاج والقلق والاضطراب ، ولكن يواريها السكر ، فإذا كشف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه .

وها هنا سر لطيف يجب التنبيه عليه،والتنبه له،والتوفيق له بيد من أزمة التوفيق بيده، وهو أن الله ـ سبحانه ـ جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالا إن لم يحصل له فهو فى قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذى جعل له مثاله : كمال العين بالإبصار وكمال الأذن بالسمع ، وكمال اللسان بالنطق ، فإذا عدمت هذه الأعضاء القوى التى بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك ، وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته

---

(١) مسلم (٢٣٢ / ٢٠٩) فى الإيمان ، باب : بيان الوسوسة فى الإيمان وما يقوله من وجدها ، وأبو داود (٥١١١) فى الأدب ، باب : فى رد الوسوسة ، وأحمد (٢ / ٤٤١) .

وابتهاجه فى معرفته سبحانه وإرادته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والشوق إليه والأنس به ، فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذابًا واضطرابًا من العين التى فقدت النور الباصر ومن اللسان الذى فقد قوة الكلام والذوق ، ولا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال ، إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه ، وأن يكون هو وحده مستعانه على تحصيل ذلك ، فحقيقة الأمر أنه لا طمأنينة له بدون التحقق بإياك نعبد وإياك نستعين ، وأقوال المفسرين فى الطمأنينة ترجع إلى ذلك .

قال ابن عباس ﷺ المطمئنة : المصدقة ، وقال قتادة : هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله ، وقال الحسن : المصدقة بما قال الله تعالى . وقال مجاهد : هى النفس التى أيقنت بأن الله ربها ، المسلمة لأمره فيما هو فاعل بها . وروى منصور عنه ، قال : النفس التى أيقنت أن الله ربها وضربت جأشًا [1] لأمره وطاعته . وقال ابن أبى نجيح عنه : النفس المطمئنة المخبتة [2] إلى الله ، وقال أيضًا : هى التى أيقنت بلقاء الله ، فكلام السلف فى المطمئنة يدور على هذين الأصلين : طمأنينة العلم والإيمان ، وطمأنينة الإرادة والعمل .

فإذا اطمأنت من الشك إلى اليقين ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الغفلة إلى الذكر ، ومن الخيانة إلى التوبة،ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الكذب إلى الصدق ، ومن العجز إلى الكيس ، ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات ، ومن التيه إلى التواضع ، ومن الفتور إلى العمل ـ فقد باشرت روح الطمأنينة . وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة ، فهى أول مفاتيح الخير ، فإن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاد بمنزلة النائم بل أسوأ حالا منه ؛ فإن العاقل يعلم وعد الله ووعيده وما تتقاضاه أوامر الرب تعالى ونواهيه وأحكامه من الحقوق ، لكن يحجبه عن حقيقة الإدراك ويقعده عن الاستدراك سنة القلب وهى غفلته التى رقد فيها فطال رقوده ،وركد وأخلد إلى نوازع الشهوات فاشتد إخلاده وركوده ، وانغمس فى غمار الشهوات واستولت عليه العادات ومخالطة أهل البطالات،ورضى بالتشبه بأهل إضاعة الأوقات ، فهو فى رقاده مع النائمين ، وفى سكرته مع المخمورين ، فمتى انكشف عن قلبه سنة هذه الغفلة بزجرة من زواجر الحق فى قلبه استجاب فيها لواعظ الله فى قلب عبده المؤمن ، أو همة عليه آثارها معول الفكرة فى المحل القابل ، فضرب بمعول

---

(١) ضربت جأشًا : أى تثبت عند الشدائد ، ومعنى هذا أى أقبلت على طاعة الله سبحانه وتعالى وامتثلت أمره طاعة وحبًا لا قهرًا وكرهًا .

(٢) المخبتة : من الإخبات : الخشوع والاستكانة

فكره وكبر تكبيرة أضاءت له منها قصور الجنة ، فقال :

ألا يـا نفس ويحـك ساعدينى   بسعى منـك فى ظلـم الليالـى

لعلك فـى القيامـة أن تفـوزى   بطيب العيش فى تلك العلالى

فأثارت تلك الفكرة نوراً رأى فى ضوئه ما خلق له ، وما سيلقاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار ،ورأى سرعة انقضاء الدنيا وعدم وفائها لبنيها،وقتلها لعشاقها ، وفعلها بهم أنواع المثلات ، فنهض فى ذلك الضوء على ساق عزه قائلا : ﴿ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٦] ، فاستقبل بقية عمره التى لا قيمة لها مستدركا بها ما فات ، محييًا بها ما أمات ، مستقيلا بها ما تقدم له من العثرات ، منتهزا فرصة الإمكان التى إن فاتت فاته جميع الخيرات .

ثم يلحظ فى نور تلك اليقظة وفود نعمة ربه عليه من حين استقر فى الرحم إلى وقته، وهو يتقلب فيها ظاهراً وباطنًا ، ليلا ونهاراً ، ويقظة ومناما ، سراً وعلانية ، فلو اجتهد فى إحصاء أنواعها لما قدر ، ويكفى أن أدناها نعمة النفس ، ولله عليه في كل يوم أربعة وعشرون ألف نعمة فما ظنك بغيرها .

ثم يرى فى ضوء ذلك النور أنه آيس من حصرها وإحصائها ، عاجز عن أداء حقها ، وإن المنعم بها إن طالبه بحقوقها استوعب جميع أعماله حق نعمة منها ، فيتيقن حينئذ أنه لا مطمع له فى النجاة إلا بعفو الله ورحمته وفضله .

ثم يرى فى ضوء تلك اليقظة أنه لو عمل أعمال الثقلين من البر لاحتقرها بالنسبة إلى جنب عظمة الرب تعالى ، وما يستحقه بجلال وجهه وعظم سلطانه ، هذا لو كانت أعماله منه ، فكيف وهى مجرد فضل الله ومنته وإحسانه حيث يسرها له وأعانه عليها ، وهيأه لها وشاءها منه وكونها،ولو لم يفعل ذلك لم يكن له سبيل إليها ، فحينئذ لا يرى أعماله منه ، وأن الله ـ سبحانه ـ لن يقبل عملا يراه صاحبه من نفسه حتى يرى عين توفيق الله له وفضله عليه ومنته ، وأنه من الله لا من نفسه ، وأنه ليس له من نفسه إلا الشر وأسبابه ، وما به من نعمة فمن الله وحده ، صدقة تصدق بها عليه ، وفضلا منه ساقه إليه، من غير أن يستحقه بسبب ويستأهله بوسيلة ، فيرى ربه ووليه ومعبوده أهلا لكل خير ، ويرى نفسه أهلا لكل شر ، وهذا أساس جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة ، وهو الذى يرفعها ويجعلها فى ديوان أصحاب اليمين .

ثم تبرق له فى نور تلك اليقظة بارقة أخرى ، يرى فى ضوئها عيوب نفسه وآفات عمله

وما تقدم له من الجنايات والإساءات وهتك الحرمات ، والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات ، فإذا انضم ذلك إلى شهود نعم الله عليه وأياديه لديه ، رأى أن حق المنعم عليه فى نعمه وأوامره لم يبق له حسنة واحدة يرفع بها رأسه ، فيطمئن قلبه ، وانكسرت نفسه،وخشعت جوارحه ، وسار إلى الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه ومطالعة جناياته ، وعيوب نفسه وآفات عمله ، قائلا : « أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء لك بذنبى ، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » ، فلا يرى لنفسه حسنة ولا يراها أهلا لخير فيوجب له أمرين عظيمين .

أحدهما : استكثار ما من الله عليه .

والثانى : استقلال ما منَّه من الطاعة كائنة ما كانت .

ثم تبرق له بارقة أخرى يرى فى ضوئها عزة وقته وخطره وشرفه،وأنه رأس مال سعادته فيبخل به أن يضيعه فيما يقربه إلى ربه ، فإن فى إضاعته الخسران والحسرة ،والندامة ، وفى حفظه وعمارته الربح والسعادة ، فيشح بأنفاسه أن يضيعها فيما لا ينفعه يوم معاده .

ثم يلحظ فى ضوء تلك البارقة ما تقتضيه يقظته من سنة غفلته من التوبة ، والمحاسبة والمراقبة والغيرة لربه ، أن يؤثر عليه غيره ، وعلى حظه من رضاه وقربه وكرامته ببيعه بثمن بخس،فى دار سريعة الزوال . وعلى نفسه أن يملك رقها لمعشوق لو فكر فى منتهى حسنه ، ورأى آخره بعين بصيرة لأنف لها من محبته . فهذا كله من آثار اليقظة وموجباتها ، وهى أول منازل النفس المطمئنة التى نشأ منها سفرها إلى الله والدار الآخرة .

وأما النفس اللوامة: وهى التى أقسم بها سبحانه فى قوله: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢)﴾ [القيامة] فاختلف فيها ، فقالت طائفة : هى التى لا تثبت على حال واحدة ،أخذوا اللفظة من التلوم وهو التردد ، فهى كثيرة التقلب والتلون وهى من أعظم آيات الله ، فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون فى الساعة الواحدة فضلا عن اليوم والشهر والعام والعمر ألوانا متلونة ،فتذكر وتغفل ، وتقبل وتعرض ، وتلطف وتكثف ، وتنيب وتجفو ، وتحب وتبغض ، وتفرح وتحزن ، وترضى وتغضب ، وتطيع وتعصى ،وتتقى وتفجر ، إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها ، فهى تتلون كل وقت ألوانا كثيرة ، فهذا قول .

وقالت طائفة :اللفظة مأخوذة من اللوم،ثم اختلفوا فقالت فرقة : هى نفس المؤمن ، وهذا من صفاتها المجردة ، قال الحسن البصرى : إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائما يقول : ما أردت بهذا ؟ لم فعلت هذا ؟ كان غير هذا أولى ، ونحو هذا من الكلام .

وقال غيره : هى نفس المؤمن توقعه فى الذنب ثم تلومه عليه ، فهذا اللوم من الإيمان بخلاف الشقى ، فإنه لا يلوم نفسه على ذنب ، بل يلومها وتلومه على فواته .

وقالت طائفة : بل هذا اللوم للنوعين ، فإن كل أحد يلوم نفسه برًا كان أو فاجرًا ، فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته ، والشقى لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها .

وقالت فرقة أخرى : هذا اللوم يوم القيامة ، فإن كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئًا على إساءته ، وإن كان محسنًا على تقصيره .

وهذه الأقوال كلها حق ، ولا تنافى بينها ، فإن النفس موصوفة بهذا كله وباعتباره سميت لوامة ، لكن اللوامة نوعان :

لوامة ملومة : وهى النفس الجاهلة الظالمة التى يلومها الله وملائكته .

ولوامة غير ملومة : وهى التى لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره طاعة الله مع بذله جهده فهذه غير ملومة .

وأشرف النفوس من لامت نفسها فى طاعة الله،واحتملت ملام اللائمين فى مرضاته ، فلا تأخذها فيه لومة لائم . فهذه قد تخلصت من لوم الله ، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل فى الله ملام اللوام ،فهى التى يلومها الله عز وجل .

وأما النفس الأمارة : فهى المذمومة ، فإنها التى تأمر بكل سوء ، وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها . فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له ، كما قال ـ تعالى ـ حاكيًا عن امرأة العزيز : ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف] ،وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا** ﴾ [النور : ٢١] ، وقال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه : ﴿ **وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا** ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء] . وكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يعلمهم خطبة الحاجة : « الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له » (١) . فالشر كامن فى النفس وهو يوجب سيئات الأعمال ، فإن خلى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال ، وإن وفقه الله وأعانه نجاه من ذلك كله ،

---

(١) أبو داود (٢١١٨) فى النكاح ، باب : فى خطبة النكاح ، والترمذى (١١٠٥) فى النكاح ، باب : ما جاء فى خطبة النكاح ، والنسائى (١٤٠٤) فى الجمعة ، باب : كيف الخطبة ، وأحمد (١ / ٣٩٣) .

فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

وقد امتحن الله ـ سبحانه ـ الإنسان بهاتين النفسين : الأمارة واللوامة ، كما أكرمه بالمطمئنة،فهى نفس واحدة تكون أمارة ثم لوامة ثم مطمئنة ، وهى غاية كمالها وصلاحها ، وأيد المطمئنة بجنود عديدة ، فجعل الملك قرينها وصاحبها الذى يليها ويسددها ، ويقذف فيها الحق ويرغبها فيه ويريها حسن صورته ، ويزجرها عن الباطل ويزهدها فيه ويريها قبح صورته ، وأمدها بما علمها من القرآن والأذكار وأعمال البر ، وجعل وفود الخيرات ومداد التوفيق تنتابها ويصل إليها من كل ناحية ، وكلما تلقتها بالقبول والشكر والحمد له ورؤية أوليته فى ذلك كله ازداد مددها ، فتقوى على محاربة الأمارة . فمن جندها وهو سلطان عساكرها وملكها الإيمان واليقين ، فالجيوش الإسلامية كلها تحت لوائه ناظرة إليه ، إن ثبت ثبتت وإن انهزم ولت على أدبارها . ثم أمراء هذا الجيش ومقدمو عساكره شعب الإيمان المتعلقة بالجوارح على اختلاف أنواعها ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونصيحة الخلق والإحسان إليهم بأنواع الإحسان ، وشعبه الباطنية المتعلقة بالقلب ؛ كالإخلاص والتوكل والإنابة والتوبة والمراقبة والصبر والحلم والتواضع والمسكنة وامتلاء القلب من محبة الله ورسوله وتعظيم أوامر الله وحقوقه والغيرة لله وفى الله والشجاعة والعفة والصدق والشفقة والرحمة ، وملاك ذلك كله الإخلاص والصدق فلا يتعب الصادق المخلص ، فقد أقيم على الصراط المستقيم فيسار به وهو راقد ، ولا يتعب من حرم الصدق والإخلاص فقد قطعت عليه الطريق واستهوته الشياطين فى الأرض حيران، فإن شاء فليعمل وإن شاء فليترك ، فلا يزيده عمله من الله إلا بعداً ، وبالجملة ، فما كان لله وبالله فهو من جند النفس المطمئنة .

وأما النفس الأمارة فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذى يليها ، فهو يعدها ويمنيها ، ويقذف فيها الباطل ، ويأمرها بالسوء ويزينه لها ، ويطيل فى الأمل ويريها الباطل فى صورة تقبلها وتستحسنها ، ويمدها بأنواع الإمداد الباطل من الأمانى الكاذبة والشهوات المهلكة، ويستعين عليها بهواها وإرادتها ، فمنه يدخل عليها ويدخل عليها كل مكروه ، فما استعان على النفوس بشىء هو أبلغ من هواها وإرادتها إليه .

وقد علم ذلك إخوانه من شياطين الإنس ، فلا يستعينون على الصور الممنوعة منهم بشىء أبلغ من هواهم وإراداتهم فإذا أعيتهم صورة طلبوا بجهدهم ما تحبه وتهواه ، ثم طلبوا بجهدهم تحصيله فاصطادوا به تلك الصورة ، فإذا فتحت لهم النفس باب الهوى دخلوا منه فجاسوا خلال الديار ، فعاثوا وأفسدوا وفتكوا وسبوا ، وفعلوا ما يفعله العدو

ببلاد عدوه إذا تحكم فيها ، فهدموا معالم الإيمان والقرآن والذكر والصلاة ، وخربوا المساجد ، وعمروا البيع والكنائس والحانات والمواخير ، وقصدوا إلى الملك فأسروه وسلبوه ملكه ونقلوه من عبادة الرحمن إلى عبادة البغايا والأوثان،ومن عز الطاعة إلى ذل المعصية ، ومن السماع الرحمانى إلى السماع الشيطانى ، ومن الاستعداد للقاء رب العالمين إلى الاستعـداد للقاء إخـوان الشياطين ، فبينا هو يراعى حقوق الله وما أمر به ، إذ صار يرعى الخنازير ، وبينما هو منتصب لخدمة العزيز الرحيم ، إذ صار منتصبا لخدمة كل شيطان رجيم .

والمقصود : أن الملك قرين النفس المطمئنة ، والشيطان قرين الأمارة ، وقد روى أبو الأحوص عن عطاء بن السائب ، عن مرة ، عن عبد الله قـال : قـال رسول الله ﷺ : « إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق،فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم » (١)، ثم قرأ: ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء** ﴾ [البقرة : ٢٦٨] وقد رواه عمر عن عطاء بن السائب وزاد فيه عمر وقال : سمعنا فى هذا الحديث أنه كان يقال :إذا أحس أحدكم من لمة الملك شيئًا فليحمد الله وليسأله من فضله،وإذا أحس من لمة الشيطان شيئًا فليستغفر الله وليتعوذ من الشيطان (٢) .

---

(١) الترمذى (٢٩٨٨) فى التفسير ، باب : ومن سورة البقرة ، وقال : « حسن غريب ... » ، والنسائى فى الكبرى (١١٠٥١) فى التفسير ، باب : قوله تعالى : ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ** ﴾ .

(٢) الروح (٣٣٠ ـ ٣٤١) .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

كتاب الأدب

كتاب الفروق والمفارقات

رقم الإيداع : ١٣٣٨٤/ ٢٠٠٢م

I.S.B.N:977-15-0375-8